النبراس

في تفسير القرآن الكريم

لفضيلة الإمام العلامة
نور الدين علي جمعة مفتي الديار المصرية

قدم له وخرج أحاديثه
أسامة السيد محمود الأزهري

الوابل الصيب
الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر

النبراس

في

تفسير القرآن الكريم

النبراس في تفسير القرآن الكريم

المقدمة
سورة الفاتحة
الربع الأول من سورة البقرة

لفضيلة الإمام العلامة
نور الدين علي جمعة
مفتي الديار المصرية

قدم له وخرج أحاديثه
أسامة السيد محمود الأزهري

الكتاب: النبراس في تفسير القرآن الكريم.
المؤلف: د/ علي جمعة محمد
الطبعة: الأولى.
سنة الطبع: ٢٠٠٩م.
الناشر: الوابل الصَّيِّب للإنتاج والتوزيع والنشر.
٧٠٤٧ شارع ١٧ - المقطم - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٩٨٥٠٨٩١ (٢٠٢+) - ٢٩٨٥٠٨٢٤ (٢٠٢+)
٢٥٠٥٧٨٣٠ (٢٠٢+) - محمول ٠١٨١٧٥٥٥٦٦ (٢٠٢+)
E-Mail: Info@Alwabell.com
www.alwabell.com
www.alimamalallama.com
رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٩٤٧٠
الترقيم الدولي: ٩٧٧-٦٢١٤-١٧-٧

جميع حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة
لشركة الوابل الصَّيِّب
للإنتاج والتوزيع والنشر

الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر
تراثنا ...... امانة في أعناقنا

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، سيد الأولين والآخرين، وخاتم النبيين والمرسلين، ورحمة الله تعالى للعالمين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد..

فإنَّ القرآنَ الكريم كتابٌ معجزٌ، ومن عجائب وجوه إعجازه: أنَّ وجوه إعجازه لا تتناهى، وقد عكف العلماءُ والعباقرةُ عبرَ تاريخِ هذه الأمةِ على التفكُّرِ في كُنْهِ الإعجاز ووجوهه، فما زالت نواحي الإعجاز تتكاثر، حتى جمع الحافظ السيوطيُّ -رحمه الله- كتابًا مطوّلًا، عنوانه: «معترك الأقران، في إعجاز القرآن»، أنهى فيه وجوه الإعجاز إلى نحوٍ من خمسةٍ وثلاثين وجهًا، ثم نصَّ على أنَّ وجوه الإعجاز من وراء ذلك لا نهاية لها، فقال: (والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه)[1]، وقال في «الإتقان»: (قال ابن سراقة: اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن، فذكروا في ذلك وجوهًا كثيرة، كلها حكمة وصواب، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءًا واحدًا من عشر معشاره)[2]

قلت: فمن مظاهر الإعجاز ووجوهه، أن طوائف العلماء على اختلاف فهومهم ومشاربهم، وعلومهم وتوجهاتهم واهتماماتهم، ومع اختلاف أعصارهم ومعطيات أزمانهم، ومع شدة التباين بين الأسقف المعرفيَّة التي عاشت فيها طبقاتهم- فإنهم لا تزال تتسع لهم مجالات الفهم والاستنباط في القرآن.

---

(١) «معترك الأقران»: (١/ ٥).

(٢) «الإتقان»: (٢/ ٣٢١).

حتى لقد كثرت التصانيف حول القرآن الكريم كثرة عجيبة، لا يُعرف لها مثيل حول أي كتاب في تاريخ البشر، فقد ألَّفوا في تفسيره، وفي أحكامه، وفي غريبه، وفي وجوهه ونظائره، وفي لطائفه، وفي متشابهه، وفي قراءاته، وفي رسمه، وفي مبهماته، وفي إعجازه، وفي قصصه وأخباره، وفي جدله ومحاوراته، وفي إعرابه، وفي أحكام تلاوته، وفي علومه، وفي مناهج فهمه، وفي كتابته وتدوينه، وفي أعيان قُرَّائه، وفي طبقات مفسريه، وفي مناهجهم، وفي تحزيبه وتربيعه، وفي أقسامه التي أقسم بها، وفي أسرار فواتح سوره، وفي إشاراته، وفي تناسب آياته وسوره، وفي مواضع نزوله، وفي فضائله وفضائل أهله، وفي آداب حملته، وفي نَظْمِه، وفي أمثاله، وفي مقاصده، وفي المصاحف وتاريخها، وفي عد آياته، وفي أسباب نزوله، وفي ناسخه ومنسوخه، وفي وقفه وابتدائه، وفي معرَّبه، وفي مفرداته، وفي خواصه، وما من فن من الفنون المذكورة، إلا وقد أُلِّف فيه ما لا ينحصر من الكتب والمؤلفات، إلى غير ذلك من وجوه التصانيف، وأنواع التآليف.

وكان قد خطر لي منذ زمنٍ، أن أقترح على العلماء المعنيين بهذه المعاني أن يعملوا على إنشاء مشروع علمي ضخم؛ لرصد أسماء المؤلفات والأعمال العلمية، التي أُلِّفت حول القرآن الكريم، عبر تاريخ الأمة، وطبقات علمائها؛ حتى يكون هذا العمل مرصدًا شاملًا لأسماء التآليف التي وجدت حول القرآن، على اختلاف أبوابها ومناحيها، على النحو الذي أشرتُ إليه قبل أسطر.

ويمكن أن يُسَمَّى هذا العمل العلمي: «معجم ما أُلِّف حول القرآن الكريم»، تُذْكر فيه أسماء الكتب، ومؤلفيها، وبيانات طبعها، أو أماكن وجود المخطوط، أو ذكر الموضع الذي ورد فيه اسم الكتاب، من مراجع التواريخ والتراجم، إن لم يوجد الكتاب مخطوطًا أو مطبوعًا.

وسيخرج هذا العمل حينئذ على غرار كتابٍ مهم جدًّا، ألَّفه الدكتور صلاح

الدين المنجد، قام فيه بعملٍ إحصائي (بيبلوجرافي)، يرصد من خلاله المؤلفات التي أخرجتها الأمة حول سيدنا رسول الله ﷺ، واسم كتابه هذا: «معجم ما أُلِّف عن سيدنا رسول الله ﷺ» وقد طبع عدة مرات.

وأُقَدِّر أن هذا العمل الذي أقترحه عملٌ شديدُ الضخامة، بل كأنه محاولةٌ لحصر نجوم السماء، أو إحصاء الرمال، فلربما استغرق عدة أجيال من الباحثين المنتشرين في المكتبات، وفي خزائن المخطوطات العالمية، والمنكبِّين على كتب التراجم والطبقات، لكنه رغم ذلك مشروع مهم جدًّا، من حيث هو عمل شامل تقوم به أمة القرآن؛ ليكون دليلًا وتسجيلًا للأفكار الإبداعية التي خُدم بها القرآن الكريم، وليكون شاهدًا على مقدار ما توفر لهذا الكتاب الكريم من عوامل الحفظ، ووجوه الخدمة المتكاثرة، وليرى فيه العالِمون وجوهًا عجيبة من توثيق هذا الكتاب الكريم وضبطه، وليكون توثيقًا لأبواب التأليف المتنوعة والمتعددة التي حُفظ من خلالها القرآن الكريم، وخُدِم بوجوه من الخدمة، لم يوجد لها نظير حول أي كتاب آخر سواه.

قال العلَّامة الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي -رحمه الله تعالى- في كتاب «إعجاز القرآن»: (فإنه لا يُعرَفُ في تاريخ العالم كله، مِن لدن أرَّخ الناس، كتابٌ بلغت عليه الشروح، والتفاسير، والأقوال، والمصنفات المختلفة، ما بلغ من ذلك على القرآن الكريم، ولا شبيهًا به، ولا قريبًا منه)[1].

قلت: بل إن المؤلفات في تفسيره فقط لا حصر لها، حتى لقد اشتهر عن الإمام جار الله أبي القاسم الزمخشري -رحمه الله تعالى- صاحب تفسير «الكشاف» بيتان بديعان، يُعرِبُ بهما عن موضع تفسيره -في تقديره- بين كتبِ التفسيرِ، فقال فيما نَقَل عنه ياقوت الحموي في «معجم الأدباء»:

(١) «إعجاز القرآن»: (ص١٢٤).

(إنَّ التفاسيرَ في الدنيا بلا عدد * وليس فيها لعمري مثل كشَّافِ
إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته * فالجهل كالداء والكشَّاف كالشافي)[1]

وقد صدق؛ فإنَّ تفاسيرَ القرآن الكريم بلا عدد، ولا تدخل تحت حصر، فاعجب لهذا الكتاب الكريم، الذي وردت عليه مئات الألوف من العقول، عبر عصور متطاولة، وأزمان متباعدة، وثقافات مختلفة، ثم هو لا يزال قائمًا بالإمداد، ولا تزال بحور معانيه تتدفق، ولا تزال كنوز المعاني التي أودعها الله تعالى فيه لا تنفد.

ورغم كلِّ ذلك، فإنَّ مجال الفهم والاستنباط من القرآن ما زال مفتوحًا، ولا يزال كذلك إلى يوم القيامة؛ لما أودع الله تعالى هذا الكتاب المعظم من عجائب المعاني الهادية إلى صراطه المستقيم.

وقد شاع عند أرباب هذا الفن تصنيف كتب التفسير باعتبار ما غلب على كل واحد منها من الفنون العلمية، التي اعتنى بها المفسر، فظهرت في بحوثه التفسيرية ظهورًا غالبًا، واجتهد في الإعراب والإبانة عن الموارد القرآنية التي انشعب منها ذلك الفن، وتحدَّر منها ذلك العلم، حتى صار لكل تفسير منها سمتٌ يُعرف به، وعلم من العلوم يغلب عليه، فمنهم من عُني بالفقه كالقرطبي، ومنهم من عني بالنحو كأبي حيان، ومنهم من عني بالحديث والأثر كابن جرير وابن كثير والسيوطي في «الدر المنثور»، ومنهم من عني بالقصص والتواريخ كالثعلبي، ومنهم من عني ببحوث البلاغة والبيان كالزمخشري، ومنهم من عني ببحوث الحكمة ومسائل المعقول والاعتقاد كالفخر الرازي، ومنهم من عني ببحوث الإعجاز العلمي كالشيخ طنطاوي جوهري، ولكن لم يسبق أن اعتنى أحد ببحوث علم أصول الفقه، بحيث يُعْرَف تفسيره بعلم الأصول، كما عُرِف تفسيرُ القرطبي بالفقه، ولعل الله تعالى ادَّخر هذا لسماحة شيخنا العلامة: الإمام الشيخ علي جمعة، حيث ترى في تفسيره هذا

(١) «معجم الأدباء»: (٥/ ٤٩١).

استدعاءً واستحضارًا وتفعيلًا لبحوث الأصول، بحيث يتم من خلالها تحليل النص القرآني، على نحو يستخرج دلالاته ومراميه، وذلك أنَّ علم أصول الفقه من حيث كونه المنهج العلمي الدقيق المنضبط، القائم على آليات الفهم، ومناهج التحليل، فإنه يمثل اليوم أهمية كبرى، في ظل شيوع المناهج الحداثية، التي تتبنى البنيوية والتفكيكية، والداعية إلى تطبيق الهيرمينوطيقا على القرآن الكريم، فكأنَّ هذا موجبٌ لالتفات العلماء إلى إحياء بحوث علم الأصول وتفعيلها، ثم إن هذا أيضًا من قبيل القيام بواجب الوقت، والنظر فيما يحتاجه أهل كل زمان من العلوم والمعارف.

ومن هذا المدخل تعلم أنهم رحمهم الله معذورون في كثرة الاستطراد في تلك العلوم أثناء التفسير، خلافًا للحافظ السيوطي -رحمه الله- حيث كان ينتقد ذلك، فقد قال في «الإتقان»: (ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في علوم، فكان كل منهم يقتصر في تفسيره على الفن الذي يغلب عليه، فالنحوي تراه ليس له هَمٌّ إلا الإعراب، وتكثير الأوجه المحتملة فيه، ونقل قواعد النحو، ومسائله وفروعه وخلافياته، كالزجاج، والواحدي في «البسيط»، وأبي حيان في «البحر» و«النهر».

والأخباري ليس له شغل إلا القصص واستيفاءها، والإخبار عمن سلف، سواء كانت صحيحة أو باطلة، كالثعلبي.

والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية، التي لا تعلق لها بالآية، والجواب عن أدلة المخالفين، كالقرطبي.

وصاحب العلوم العقلية -خصوصًا الإمام فخر الدين- قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها، وخرج من شيء إلى شيء، حتى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية)[1].

---

(١) «الإتقان»: (٢/ ٥٠١).

قلت: ولربما ساق الحافظ السيوطي كلامه مساقًا يلمح فيه إلى شائبة الانتقاد، والذي أراه أن استقرار العلوم، واتساع دوائرها البحثية، وتراكماتها العلمية عبر الأزمان، واحتشاد الفهوم والاحتمالات على ما هو معتاد في مسيرة أيِّ علمٍ- مما تتسع به دائرة العذر لأولئك الأئمة، رضي الله عنهم أجمعين.

فكأن هذه الاهتمامات، التي غلبت على كل واحد منهم، كانت مراعاة بواجب الوقت، وإحياء للفنون العلمية، التي يُقدِّر المفسر أن أهل زمانه أحوج إليها.

والحاصل: أنها مذاقاتٌ ومشارب، يتسع لها كتاب الله تعالى، ويُمِدُّ كل وارد بما يلائم طبعه، ويلبي حاجته، وقد قال الله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۝﴾[1].

وأقول: ولا يزال كتاب الله تعالى من وراء كل تلك المشارب هو مورد الهداية الأعظم، الذي تفيض منه موارد الهداية في كل عصر، فلم يزل العلماء في كل زمان ينهضون لخدمة كتاب الله، بحسب ما استجد في زمانهم من الحوادث والنوازل، وبحسب ما تجدد في عصرهم من العلوم والمعارف. ا.هـ

وكلما ورد العلماء على كتاب الله تعالى، مع تمكنٍ وغوصٍ وإحاطةٍ بمعارف زمانهم وواقعه، وما طرأ فيه من المناهج، والأفكار، والفلسفات، والنُظُم، والقِيَم، والأعراف والعوائد، وأنماط المعيشة- اتسعت لهم في المقابل مجالات الفهم في كتاب الله، واقتدروا على أن يستخرجوا من كتاب الله تعالى عطاءً يَسَعُ كل ذلك ويحتويه، ويُعِيد بنائه، ويُوَجِّه مساره، ويبين له المزالق المُعْتَرِضَة، والمخاطر المُحْدِقَة، ثم يبين مسالك الرَشَد، وطرائق الهدى، كل ذلك مع الربانيّة والبصيرة والنور والعناية، على النهج المعهود من القرآن الكريم عند من تدبر.

(١) سورة الإسراء، الآيتان [٢٠، ٢١].

وهنا في تاريخنا الحديث، قام بهذا الدور أعلام كُثْر، من المشارقة والمغاربة، يمكن أن يكون على رأسهم -في تقديري- شيخ الإسلام والإمام الجليل: الشيخ حسن العطار، والذي كان نقطة فارقة في تاريخنا الحديث، من حيث تضلعه من العلوم الشرعية، مع نظر مطول في علم الأصول، وفي علوم المعقول، مع نظره في الهندسة والفلك والطب والتشريح، حتى ألَّف في كل ذلك، مع سياحته في أقطارٍ متعددة، مما أتاح له الاطلاع على ثقافات الأمم المختلفة، والإلمام بأحوال زمانه.

ثم هو بعد رحلاته الواسعة، ومخالطته لثقافات الأمم والشعوب، وإتقانه لعدد من اللغات، رجع إلى الأزهر الشريف، وجلس لمجلس التفسير، فشرع يقرئ تفسير القاضي البيضاوي، حتى قال العلامة أحمد بك الحسيني في مقدمة شرحه على كتاب «الأم» للإمام الشافعي: (ثم ارتحل في تلك المدة إلى الشام، وأقام بدمشق زمنًا، ثم ارتحل إلى بلاد الروم، فأقام هناك مدة طويلة، وسكن بلد (إشكودره) من بلاد الأرنؤد، وتأهل بها وأعقب، لكن لم يبق عقبه ثمة، ولم يزل مشتغلًا بالإفادة والاستفادة، حتى عاد إلى مصر بعلوم كثيرة، وأقر له علماء عصره بالانفراد، وعقد مجلسًا لقراءة تفسير البيضاوي، وقد مضت مدة على هذا التفسير، لا يقرأه أحد، فحضر أكابر المشايخ، فكانوا إذا جلس للدرس تركوا حلقهم، وقاموا إلى درسه) انتهى كلام الحسيني.

وكان من بعده الأستاذ الإمام محمد عبده، والشيخ عبد الحميد بن باديس، والعلامة الشيخ عبد الحميد الفراهي، والعلامة الطاهر بن عاشور، ومولانا الإمام الشيخ محمد متولي الشعراوي، وغيرهم كثير من أعيان المفسرين، الذين خدموا كتاب الله تعالى تأليفًا وتدريسًا، فضلًا عن المئات بل الألوف من المعاصرين، الذين اشتغلوا بخدمة كتاب الله تعالى وتفسيره.

ثم يأتي من بعدهم سماحة شيخنا ومولانا العلَّامة الإمام الشيخ علي جمعة،

مفتي الديار المصرية، بهذا التفسير الجليل، المسمى: «**النبراس، في تفسير القرآن الكريم**»، ليضيف إلى سلسلة الهداية حلقة، وليقبس من أنوار القرآن قبسًا يمشي به في الناس، وليفتح بابًا جديدًا من الفهم في كتاب الله تعالى، مع ما وهبه الله تعالى وأفاء به عليه من العلوم والمعارف؛ إذ عند فضيلته من التضلع من العلوم الشرعية، ومن الاطلاعِ الواسع، والمعرفةِ التامةِ، والمكتبة الواسعةِ العامرة بغرائبِ المصنفات، وعجائب المؤلفات، والتي تقدر بأربعين ألف عنوان، وقد اطلع الشيخُ عليها اطلاعًا تامًّا، مع ما تهيأ له من مصادر المعرفة، والثقافة المتشعبة، والإلمام بالاقتصاد، والفكر المعاصر، والفلسفة، والمناهج الفكرية المختلفة، على نحو قلَّ أن يتهيأ أو يجتمع لأحد، مع تصديه للشأن العام، وتجرده للحق، وشدة إخلاصه لهذا الدين.

ولقد شرَّفني الله تعالى بخدمة هذا التفسير الجليل، والذي هو خلاصة دروس شيخنا ومجالسه، التي كان يعقدها لتفسير القرآن الكريم، في الأزهر الشريف، وفي مسجد السلطان حسن، وغيرهما من المساجد، فاجتهدت في جمع كلامه، وتدوينه، وضبط نصوصه، وعرَّفت ببعض الأعلام الذين ورد ذكرهم فيه، وعزوتُ أحاديثه عزوًا مقتضبًا مجملًا، يكاد يكفي في التعريف بموضع الحديث، دون نظر في سبر الطرق ونقد الرجال والأسانيد؛ ونثرت بعض الفوائد والتعليقات هنا وهناك، مع إعادة النظر في كل ذلك مرات ومرات، والله يعلم مقدار ما بذلت فيه من الجهد، وأسأله سبحانه أن يجعله نورًا يسعى بين أيدينا يوم القيامة، وأن ينفع المسلمين بما اشتمل عليه من العلوم والفوائد، ومناهج الفهم الرصينة المستقيمة.

ثم بدا لي أن أورد في صدر هذا التفسير كتابًا لطيف الحجم، أسميته: «**المدخل إلى أصول التفسير**»، وقد كان من شأنه وأمره أنَّ شيخنا الإمام، صاحب هذا التفسير، دعاني مرةً وقال لي: أريدك أن تنكبَّ على الكتب التي أُلِّفَت في أصول التفسير، من مثل كتاب «أصول التفسير» لابن تيمية، ومقدمة القاسمي في تفسيره

«محاسن التأويل» والتي أسماها: «تمهيد خطير، في أصول التفسير»، ومقدمة الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير»، ومقدمة رشيد رضا في «تفسير المنار»، وكتاب «الفوز الكبير، في أصول التفسير» للشاه ولي الله الدهلوي- فتنظر فيها مليًّا، وتلخص منها جميعًا كتابًا وسطًا في أصول التفسير، على أن تراعي فيه منهجنا في الفهم، فتلقيت إشارة شيخنا الإمام، وأمعنت النظر في الكتب المذكورة، حتى تحرر عندي منها ما تحرر، ثم شرعت في الكتابة والتدوين، وأضفت إلى كل ذلك ما فتح الله تعالى به، وكله في الحقيقة من إشارات شيخنا وإضاءاته، ثم دبجت ذلك كله وحبكته في هذا الجزء الذي سميته: «**المدخل إلى أصول التفسير**»، ثم حملته إلى شيخنا الإمام، فاهتمَّ به، وأخذه مني، ثم لقيته بعدها بيومٍ في الجامع الأزهر الشريف الأَنْوَر، فسألته عن رأيه فيما كتبتُ، فقال لي: (مباركٌ، لقد أوتيت رزقًا حسنًا) فالحمد لله على ذلك.

فإليك هذا التفسير المبارك المُنَوَّر، الحافل بالفوائد والنفائس، المشتمل على علوم جمة، وإفادات مهمة، والله تعالى أعلى وأعلم، وأجلُّ وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أسامة السيد محمود الأزهري

Albadr571@hotmail.com

المدخل
إلى
أصول التفسير

تأليف

أسامة السيد محمود الأزهري

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مدخل وتوطئة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله خير خلق الله أجمعين، وعلى آله وصحبه ومَن والاه واتَّبع هداه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد..

فإن القرآن الكريم كتاب إلهيٌّ، ونص ربانيٌّ مقدس، جعله الله تعالى مشتملًا على العقائد، والأحكام، والآداب، والنظم، والقصص، وصاغه سبحانه على نحو معجزٍ فوق طوق البشر، وحفظه بحفظه دون سائر الكتب الإلهية الأخرى، لِحِكَمٍ تتعلق بالقرآن، من حيث إنه خطاب إلهيٌّ شامل خاتم، موجه إلى البشر أجمعين، مشتمل على أصول الهداية الربانية، وخلاصة المخاطبات الإلهية لجنس البشر، ثم هو نَسَقٌ مفتوحٌ مجرد، يخاطب بني آدم، مهما اختلفت أزمانهم وأمكنتهم، دون الكتب السابقة؛ فإنها نَسَقٌ مُغلقٌ، جاء لفترةٍ زمنية معينة، بحيث تمهد وتفضي بالناس وبالخليقة إلى الهداية العظمى التي جاء بها القرآن.

والمحاور الكبرى التي تدور عليها المقاصد الكلية والجزئية للقرآن الكريم أربعة: التعريف، والهداية، والإعجاز، والتشريع.

أما التعريف فهو عَرْضُ القرآن لقضية الألوهية، والتدليل على أحقيتها، والتعريف بأوصاف الإله الحق سبحانه، وبكمالاته، وبيان مراده من خلق هذا الكون، وبيان علاقته بالخلق، وأنها الخلق والأمر، ومن الأمر الوحي الشريف، وأنه سبحانه أوجد الإنسان لمقاصدَ كريمةٍ، ثم بيان عاقبة هذا الإنسان، وبيان وظيفته في هذه الحياة، وبيان المعطيات والآليات التي أوجدها الحق سبحانه له من أجل تحقيق هذه المقاصد الشريفة، إلى غير ذلك من القضايا الكبرى، التي هي الإطار الأكبر

للنموذج المعرفي الإسلامي، وعلى ضوئه تتحدد منظومة القيم والآداب، وتتولد العلوم والمعارف التي تنبع من تلك المنطلقات، وتحقق تلك المقاصد.

أما الهداية فإنها منهج القرآن في مخاطبة الخلق، وكيفية عرضه لتلك القضايا، وتلطفه في تنويع المسالك التي تقرب تلك الحقائق من عقولهم، والأساليب والوسائل التي ينتهجها في التدليل والمناقشة والرد والإلزام، وتلوين الخطاب بما يتلائم مع الطبيعة النفسية للمخاطب، من الترغيب، والترهيب، والتشويق، والتذكير بالأصول العامة التي يُقِرُّها البشر أجمعون، وكيف أنها تفضي إلى إقرار تلك الحقائق وتثبيتها، ثم إثارة الفكر، وفتح مجال النظر والتأمل وما أشبه.

وأما الإعجاز فهو معنًى لا يُدْرِكُ كُنْهه، يشيع في ثناياه اتساقًا وانسجامًا، وعظمةً، وفخامةً، وصياغةً عجيبةً محيرةً، مع تجردٍ عن المشخصات، وتعالٍ عن الزمان والمكان، وتجددٍ يستوعب به كل مستحدث، إضافةً إلى التحدي الصريح المفحم، الذي يدل على ثبوت تلك الحقائق.

وأما التشريع فإنه توصيفٌ دقيقٌ لأحوال المكلَّفين وأعمالهم، مع آثارٍ دنيويةٍ وأُخرويةٍ تترتب على ذلك، وتناولٌ لأحوال الفرد بالبناء، والتوجيه، والتكليف، والإلزام، والمحاسبة، وبيانٌ لما ينشأ من تعامل الفرد مع غيره من أحكام واعتبارات، تغطي كافة أوجه النشاط البشري.

ولا شك في أنَّ كلَّ واحد من هذه المحاور الأربعة يقتضي: عرْضًا وتدليلاً، ومناقشةً وتفصيلاً، بحيث تنشعب من كل محورٍ محاورُ جزئيةٌ خادمةٌ، تقرر ذلك الأصل وتفصله، وتشرح أبعاده، بحيث تمتزج كلها وتتداخل في النَّظْم القرآني، على نحو دقيقٍ مركز، ثم إن كلَّ واحدٍ من هذه المقاصد، تتفرع منه وتنشعب عنه محاور فرعية، ومقاصد تابعة، بحيث إن العلوم الشرعية بأكملها قامت أصلًا من أجل خدمة النص القرآني؛ بل إن منظومة العلوم التي عرفتها الأمة بأكملها لَتُجَنَّدُ وتوظف في خدمته.

أصل من أصول التفسير في: «علاقة القرآن الكريم بالعلوم المختلفة» وأثر ذلك في تحديد آلات المفسر وأدواته

نزل القرآنُ الكريمُ على أمةٍ بضاعتها اللغة، حيث بلغت شأوًا بعيدًا من الإجادة والإتقان لفنون القول والأداء، وامتلاك ناصية البيان، مع نباهة العقل، وصفاء الذهن، مما مكنهم من معرفة مخارج الكلام ومداخله، وتمييز جيده من رديئه، مما يتوقف على تذوق واستبطان لطرائق التركيب العالي للكلام[1]، فلما أن نزل عليهم القرآن حصلت لهم فائدتان:

الأولى: إدراكهم لعظمة هذا النمط من الكلام، وجلالته وإعجازه، وربانيته، وأنه فوق طوق البشر، وأنه من عند الله، وأنه حق، وما اشتمل عليه من مبادئ وأحكامٍ، ووحيٍ، وحجة.

الثانية: إدراكهم لمعانيه ومقاصده، وفهمهم لأساليبه وتراكيبه، فنشطت أمة العرب من ثم في تحليل نسق بنائه، وطرائق نظمه، وأساليب معماره، حتى شرعت الأمة في توليد منظومات كاملة من العلوم المتعلقة بهذا الكتاب، والخادمة له، على ضوء أساليبه، ومسالكه، وطرائقه؛ فكان القرآن هو الملهم الأول، والمحرك الأسبق لتلك الحركة العلمية الخادمة له ولعلومه.

قال الحافظ السيوطي -رحمه الله تعالى- في «الإتقان»: (وقال ابن أبي الفضل المرسي في «تفسيره»: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط بها علمًا -حقيقة- إلا المتكلم بها، ثم رسول الله ﷺ خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى.

(١) وانظر بحثًا مهمًا في أن: (لغة العرب دليل النضج العقلي) للأستاذ: عبد المتعال الجبري في كتابه: «العقلية والثقافة العربية في الجاهلية»، ص(٢٠٦).

ثم ورث ذلك عنه معظم سادات الصحابة وأعلامهم، مثل: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، حتى قال: (لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى).

ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم، وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه، وسائر فنونه، فنوَّعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه:

فاعتنى قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه، وعددها، وعدد كلماته، وآياته، وسوره، وأحزابه، وأنصافه، وأرباعه، وعدد سجداته، والتعليم عند كل عشر آيات، إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة، والآيات المتماثلة، من غير تعرض لمعانيه، ولا تدبر لما أودع فيه، فسموا: (القُرَّاء).

واعتنى (النُّحاة) بالمعرب منه والمبني، من: الأسماء، والأفعال، والحروف العاملة، وغيرها، وأوسعوا الكلام في الأسماء، وتوابعها، وضروب الأفعال، واللازم، والمتعدي، ورسوم خط الكلمات، وجميع ما يتعلق به، حتى إن بعضهم أعرب مشكله، وبعضهم أعربه كلمةً كلمة.

واعتنى (المفسرون) بألفاظه، فوجدوا منه لفظًا يدل على معنىً واحد، ولفظًا يدل على معنيين، ولفظًا يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه، وأوضحوا معنى الخفي منه، وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين والمعاني، وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتنى (الأصوليون) بما فيه من الأدلة العقلية، والشواهد الأصلية، والنظرية، مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]، إلى غير ذلك من الآيات

---

(١) سورة الأنبياء، آية [٢٢].

الكثيرة، فاستنبطوا منه أدلة على: وحدانية الله ووجوده، وبقائه وقدمه، وقدرته وعلمه، وتنزيهه عما لا يليق به، وسموا هذا العلم بـ: (أصول الدين).

وتأمَّلَت طائفة منهم معاني خطابه، فرأت منها ما يقتضي العموم، ومنها ما يقتضي الخصوص، إلى غير ذلك؛ فاستنبطوا منه أحكام اللغة من: الحقيقة، والمجاز، وتكلموا في: التخصيص والإخبار والنص، والظاهر والمجمل، والمحكم والمتشابه، والأمر والنهي، والنسخ... إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة، واستصحاب الحال، والاستقراء، وسموا هذا الفن: (أصول الفقه).

وأحكمت طائفةٌ صحيح النظر، وصادق الفكر، فيما فيه من الحلال والحرام، وسائر الأحكام؛ فأسسوا أصوله، وفرعوا فروعه، وبسطوا القول في ذلك بسطًا حسنًا، وسموه بـ(علم الفروع) وبـ(الفقه) أيضًا.

وتلمحت طائفةٌ ما فيه من قصص القرون السالفة، والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودونوا آثارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا، وأول الأشياء، وسموا ذلك بـ(التاريخ)، و(القصص).

وتنبَّه آخرون لما فيه من: الحكم، والأمثال، والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال، وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد، والتحذير والتبشير، وذكر الموت والمعاد، والنشر والحشر، والحساب والعقاب، والجنة والنار- فصولًا من المواعظ، وأصولًا من الزواجر؛ فسموا بذلك: (الخطباء، والوعاظ).

وأخذ قومٌ مما في آية المواريث، من ذِكْر السهام وأربابها، وغير ذلك: (علم الفرائض)، واستنبطوا منها من ذكر النصف، والثلث، والربع، والسدس، والثمن، حساب الفرائض، ومسائل العول، واستخرجوا منه أحكام الوصايا.

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة، في الليل والنهار،

والشمس، والقمر ومنازله، والنجوم والبروج، وغير ذلك؛ فاستخرجوا منه: (علم المواقيت).

ونظر (الكُتَّاب والشعراء) إلى ما فيه من جزالة اللفظ، وبديع النظم، وحسن السياق، والمبادئ، والمقاطع، والمخالص، والتلوين في الخطاب، والإطناب، والإيجاز، وغير ذلك؛ فاستنبطوا منه: (المعاني، والبيان، والبديع).

ونظر فيه (أرباب الإشارات، وأصحاب الحقيقة) فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق، جعلوا لها أعلامًا اصطلحوا عليها، مثل: الفناء والبقاء، والحضور، والخوف والهيبة، والأنس والوحشة، والقبض والبسط، وما أشبه ذلك.
هذه الفنون التي أخذتها الملة الإسلامية منه)[1].

قلت: وهذه عبارةٌ جيدةٌ في تصوير لمحات من النشاط العلمي الفائق، الذي قامت به الأمة في خدمة النص القرآني الممجد، وكيف أنها استخرجت منه علومًا ومعارف بلغت الغاية في الكثرة والتنوع.

ولذا فقد تغلغل القرآن الكريم في علوم الأمة، ومناهجها، ومصادر معرفتها، وهويتها، وسلوكها، وتاريخها، وأورث المسلمين مناهج علمية محررة، بنيت على أصلين راسخين هما: الوحي، الذي هو القرآن وما نشأ على ضفافه من علوم، والواقع وما التحق به من التجربة والاستقراء والتأمل، فأبرزت الأمة علومها المبنية على مصادرها ومناهجها ونظرتها للكون والحياة، وما استتبعه ذلك من تاريخ وتجربة بشرية راقية.

وقد كانت علوم الأقدمين من الصحابة والتابعين ملكات كامنة في نفوسهم، راسخة فيها؛ لتمكن السليقة العربية منهم، والتي كانت تغنيهم في فهم القرآن عن تحصيل آلة علمية يحللون بها النص، فقرأوا القرآن فاستخرجوا منه العلوم الكثيرة

---

(١) «الإتقان»: (٢/ ٣٣٢).

المذكورة، ثم تناقصت الملكات بعد ذلك، فشرعت الأمة في حركة علمية تدريجية ترصد كل مقدار ينقص من الملكات لتصوغ بإزائه ما يلفت إليه أو ينبه عليه من الأصول والضوابط، فقاموا بتفكيك تلك الملكات، ونقلها من كونها معانيَ ذهنية صرفة قائمة بالنفس إلى كونها أصولًا منصوصة، وقواعد مدونة، بحيث وجب على من بعدهم أن يحصل تلك الأصول، وأن يستوعب تلك القواعد حتى يستطيع أن يوازيهم في المستوى الأولي المجرد، الذي كانوا ينطلقون منه للنظر في النص القرآني، وقد فعلوا ذلك في اللغة والبلاغة والأصول وغيرها، وقد كَتَبْتُ في هذا المعنى مؤلفًا مستقلًا، أسميته: «التأصيل لمنهج السلف في الفهم»، فانظر تفصيل ذلك فيه.

ومن بعد القرن الرابع الهجري توقفت الأمة عن توليد العلوم إلا قليلًا، وأمضت أشواطًا في خدمة العلوم التي استخرجتها، وتحريرها، وتقريبها، وتلخيصها إلى آخر صور النشاط العلمي المعروف.

وقد نشطت في ذلك أمم أخرى، فأسست علومًا ومعارف على منهج مختلف، ومصادر قاصرة، وفلسفة أخرى، ورؤية مغايرة للكون والحياة، ثم وفدت علينا تلك العلوم والمناهج في وقت لم تكن الأمة فيه في عافيتها وتمام قدرتها على الاستيعاب والانتقاء؛ فأحدثت ارتباكًا ما زلنا نعيش آثاره إلى يومنا هذا.

وتلك العلوم الوافدة، للقرآن فيها منهج ومسلك، وفلسفة ورؤية؛ مما يوجب إعادة بناء تلك العلوم بطريقة تناسب خصوصيتنا، ومصادرنا، ورؤيتنا، ومما يلفت النظر إلى وجوب عودة المسلمين إلى توليد العلوم، ولسماحة شيخنا العلامة الجليل، الإمام الشيخ علي جمعة -مفتي الديار المصرية- كلام في غاية الأهمية في قضية توليد العلوم عندنا، عنوانه: «توليد العلوم فرض على المسلمين» وكلام فضيلته في كتابه: «سمات العصر، رؤية مهتم»[1] فإذا ما أراد أحد أن يوجد علاقة بين تلك

(١) «سمات العصر»: (٤٧-٥٩).

العلوم على حالها وبين القرآن زاد الأمور ارتباكًا.

فالقرآن الكريم قد جاء ببعض العلوم صراحةً، وببعضها ضمنًا، وببعضها تلميحًا أو إشارةً، وكف عن البعض الآخر، أو نهى عنه لمنافاته لمقاصده، فكان لا بد من تفصيل دقيق في صور ارتباط العلوم بالقرآن؛ لأن نسبة العلوم إلى القرآن متفاوتة، فبعضها مرتبط بالقرآن ارتباطًا صريحًا، وبعضها مرتبطٌ به ارتباطًا غير أصليٍّ ولا مباشر.

ولا أجود ولا أتقن عندي من تعبير العلامة الطاهر بن عاشور عن صور تلك العلاقة حيث قال في «التحرير والتنوير»: (وأنا أقول: إن علاقة العلوم بالقرآن على أربع مراتب:

الأولى: علوم تضمنها القرآن، كأخبار الأنبياء والأمم، وتهذيب الأخلاق، والفقه، والتشريع، والاعتقاد، والأصول، والعربية، والبلاغة.

الثانية: علوم تزيد المفسر علمًا، كالحكمة، والهيئة، وخواص المخلوقات.

الثالثة: علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له، كعلم طبقات الأرض، والطب، والمنطق.

الرابعة: علوم لا علاقة لها به؛ إما لبطلانها كالزجر، والعيافة، والميثولوجيا، وإما لأنها لا تعين على خدمته كعلم العروض والقوافي)[1].

وأرى أن نتبنى هذا التقسيم في تحديدنا لأنواع العلوم التي يجب على المفسر أن ينظر فيها، ويطالعها ليتأهل للخوض في تفسير كلام الله تعالى.

---

(١) «التحرير والتنوير»: (١/ ٤٥).

أصل من أصول التفسير في: مستويات الهداية القرآنية وأثرها في فهم المفسر لكيفية مخاطبة القرآن للخلق أجمعين

تمثل قضية الهداية محورًا من المحاور العظمى التي تعرض لها القرآن الكريم، وعرضها بصور شتى، وضرب من أجلها الأمثال، وساق من أجلها القصص، وأمر من أجلها بالسير في الأرض، وترديد النظر في السماوات والأرض، وصنوف الخلق، والعوالم العلوية والسفلية، ودعا إليها تصريحًا وتلميحًا، بحيث غدت من أبرز القضايا القرآنية على الإطلاق.

ونظرية الهداية في القرآن الكريم تقوم على هيكل عام تندرج تحته محاور، تشتمل على فروع، تنشعب إلى أوامر ونواه، وحكم وأمثال، وقصص ومواعظ، ونُظُم وقيم، إلى غير ذلك من المعاني، التي هي مكونات نظرية الهداية في القرآن الكريم.

والهداية في القرآن الكريم لها مستويان:

الأول: هدايةٌ هي خلقٌ وإيجادٌ للبواعث التي تميل بالإنسان إلى الإيمان بالله وطاعته، وهي أيضًا توفيقٌ وإعانة على اعتناق شرعه، واتباع رسله، وهذا المستوى تصرفٌ إلهيٌّ محضٌ، لا يملكه أحد من الخلق، وهذا المعنى سماه الله تعالى هداية، ونسبه سبحانه إلى نفسه، وأبى أن يبيحه لأحد من خلقه، حتى أحبهم إليه، وأرضاهم عنده، فنفاه عن سيدنا محمد ﷺ فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[١].

الثاني: هدايةٌ هي عرضٌ وبيانٌ، ودعوةٌ ودلالةٌ، ومناقشةٌ وتدليلٌ، وإقامةُ

(١) سورة القصص، آية [٥٦].

براهين، وإيرادُ حجج، ودحضُ شبه، دون أن يملك من يقوم بذلك كله تأثيرًا في القلوب، يحملها به حملًا على التصديق بذلك أو القناعة به، وهذا المعنى هو الذي أمر الله تعالى أنبياءه ورسله أن يقوموا به، وسماه هداية، ونسبه إليهم، فقال في حق المصطفى ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١)، ونسبه إلى أتباع الأنبياء فقال: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾(٢).

ثم إن المستوى الثاني من الهداية، والذي هو هداية الدلالة، انقسم أيضًا إلى قسمين:

القسم الأول: هدايةٌ عامةٌ: خاطب الله تعالى فيها الخلق أجمعين، وبسط لهم وجوه الحق، وشرح لهم مداخله، ورفع لهم معالمه، حتى تنجلي قضية الإيمان تمامًا، وهو في كل ذلك لا يفرق بين مؤمن وكافر، أو مقبل أو مدبر، أو مقر أو معاند، وهذه الهداية مجموعة من المبادئ والنظم التي خاطب الله تعالى بها الخلق أجمعين، وجعلها حظًّا من هدي القرآن لعموم البشر، دون فرق بين من آمن ومن لم يؤمن، مما يمكن أن تستخرج منه مواثيق إنسانية، وقوانين عامة، تحكم الاجتماع البشري بكل فئاته وأطيافه وتوجهاته، وهذا النوع هو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾(٣)، فجعل القرآن هنا هدىً للناس، دون تخصيص لذلك الهدى بفئة أو بتوجه، بل هو هداية لكل الناس.

القسم الثاني: هداية خاصة: وهي مجموعة الشرائع، والأحكام، والتوجيهات الربانية التي خاطب الله بها من آمن به، وصدق رسوله، واتبع كتابه، وأقر لله بالحاكمية، وأقر لشرعه بالحجية، فاحتكم إليه، وفي هذا النوع من الهداية يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٤)، فخصص هنا الهداية بالمتقين

(١) سورة الشورى، آية [٥٢].
(٢) سورة الأعراف، آية [١٥٩].
(٣) سورة البقرة، آية [١٨٥].
(٤) سورة البقرة، آية [٢].

دون غيرهم، ويقول تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1].

وقد انتبه الناس إلى أن الهداية منها مستوًى يستقل الحق سبحانه به، وليس لأحد من الخلق نصيب منه؛ لأنه خلق وإيجاد، وكلاهما من الشؤون الإلهية المحضة، ومنها مستوًى يقوم به الخلق، وهو الإرشاد والدلالة والبيان، لكن قلَّ من انتبه منهم إلى انقسام هداية البيان والإرشاد إلى عامة وخاصة، مع أن القرآن كالصريح في التنبيه إلى ذلك، ولا أقصد هنا تعميم وصف الهداية في موضع وتخصيصها بالمتقين في موضع، بل أقصد ما هو أصرح، حيث إن الحق سبحانه وصف القرآن في آية واحدة بالهدايتين العامة والخاصَّة، فقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2]، فانتبه إلى التقسيم العجيب، حيث إنه تبيان لكل شيء أولًا، وأنه هدًى ورحمة وبشرى للمسلمين ثانيًا، فكأن التبيان الشامل المتضمن للكشف والإبانة عن كل شيء، كأنه أمر عام، لا ينتفع به المؤمنون دون من سواهم من أمم الأرض.

وهذه اللمحة الدقيقة قد اقتنصها وانتبه إليها الإمام ابن جُزَيٍّ في «التسهيل لعلوم التنزيل» حيث قال: (﴿هُدًى﴾ هنا بمعنى: الإرشاد؛ لتخصيصه بالمتقين، ولو كان بمعنى البيان لعمَّ، كقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾)[3] فكأن من الهداية قسمًا هو بيان عام خوطب فيه الناس أجمعون.

قلت: ويمكن التمثيل للهداية الخاصة بكل آية بدأت بقوله جل شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وعددها بضع وثمانون آية؛ حيث يتوجه فيها النداء للمؤمنين، فمضمونها خاص بهم، فهذه هداية خاصة، ويمكن التمثيل للهداية العامة بكل آية

(١) سورة الإسراء، آية [٨٢]. (٢) سورة النحل، آية [٨٩].
(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل»: (١/ ٣٥).

بدأت بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، أو بقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾، أو بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وعددها بضع وعشرون آية؛ حيث إن النّداء فيها موجه إلى جنس البشر.

ولذا فإنَّ كلَّ آية استهلّها الحق بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تأمر بالأحكام الشرعية، بينما تنحو الآيات التي بدأت بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، أو ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ منحى التذكير بالأصول العامة التي يشترك فيها البشر بأكملهم، من نحو التذكير بقضية الخلق، ولفت النظر إلى النعم والآيات الربانية، أو الاحتراس من الشيطان وكيده أن يصدهم عن سبيل الله، أو دعوتهم إلى الإقبال على ما جاءت به الرسل، أو تعظيم معالم الدين جملة، أو التعارف بين الأمم، وما أشبه من القضايا المشتركة بين كل بني آدم.

مما يؤكد لنا أنَّ قضية الهداية العامة بأكملها خادمة لقضية الهداية الخاصة، ممهدة لها، وكأنها جاءت لدعوة الناس أجمعين إلى منظومة من القيم، والسنن الإلهية، وأصول الاجتماع البشري، تلفت نظر الخلق إلى أصالة تلك المبادئ ونبلها، وسمو مقاصدها، وتخطيها لحواجز الزمان والمكان، مما يلفت النظر إلى ربانية مصدرها، فتكون سائقًا وباعثًا على الدخول في دين الله تعالى، والاندراج في الهداية الخاصة، فكأن الهداية العامة تهيئ الناس للهداية الخاصة.

وأضرب لك مثالاً على أثر ذلك في فهم النص القرآني، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

فقد عني المفسرون في كلامهم عليها بقضية الأنساب والتفاخر بها، وأصول انتساب العرب، والكفاءة بين الناس باعتبار تفاوت الأنساب، وكرامة التقوى، ونحو

(١) سورة الحجرات، آية [١٣].

ذلك، وقد طالعت في تفسير الآية جملة صالحة من التفاسير منها: «الكشاف»، و«التسهيل»، و«مفاتيح الغيب»، و«المحرر الوجيز»، و«القرطبي»، و«روح المعاني»... وغيرها، وكلامهم جميعًا يدور في فلك المعاني المذكور.

لكن حضور قضية الهداية العامة على النحو الذي شرحناه -مع ملاحظة أن الخطاب للناس جميعًا- يدفعنا إلى الفهم الآتي:

الآية الكريمة خطاب للناس جميعًا، أخبرتهم باتحاد أصلهم؛ توطئة لغرض عظيم، ومقصد شريف سيأتي بعد قليل، وأخبرتهم أنهم انقسموا إلى شعوب وقبائل تفرقت في الأرض، فاستقلت كل أمة بتجربة بشرية عريقة، وتاريخ طويل مشحون بالخبرات، والعلوم والمعارف، والآداب والفنون، وموروث حضاري تكوَّنَ عند كل أمة على مدى قرون طويلة، والأمم في ذلك متفاوتة، وطبيعة تلك العلوم عند الأمم مختلفة، بحسب ما اهتدت إليه كل أمة من تحديد مصادر معرفتها، وتصفية تلك المصادر، وربطها بالله تعالى أو عدم ربطها به، وصار لكل أمة طبيعة وخصوصية، فتراث الهنود يختلف في طبيعته ومصادره عن تراث اليونان، وهما معًا يختلفان عن تراث الفرس، والكل يختلف مع التراث العربي الإسلامي؛ إذ لكل أمة طبيعة، وهوية، ومصادر.

ولا شك في أن كل أمة عندها تراث نافع للبشر أجمعين، وخبرات طويلة ينتفع بها الخلق كلهم، وعندها أيضًا حظ من تراثها الخاص بها من فكر منحرف، أو عقائد وثنيّة، أو أهداف قوميّة خاصة بها، أملت عليها توجُّهًا معيّنًا، انطبعت به علومها وفنونها.

فجاء القرآن الكريم في الآية الكريمة وأشار إلى ذلك، ثم وجه إلى التعارف، ورتب ذلك التعارف على انقسام البشر إلى شعوب وقبائل، بل جعله هو الغرض من انقسامهم، فليس المقصود إذًا بالتعارف ما يقع بين الأفراد، بل المقصود حركة تعارف

أممية، يحدث فيها بين أمم البشر سريان للعلوم والمعارف، وتتبادل فيه الأمم الفنون والآداب، بحيث تطلع الأمم على موروث جديد لم تتوجه هي إليه، ثم يجري بعد ذلك ترشيح وانتقاء من كل أمة للعلوم والمعارف الواردة عليها، فتقبل وترد، وتضيف وتكمل، وقد حدث ذلك في تاريخنا حيث جاء التتار إلى ديارنا في هجوم بربري همجي أحدث عندنا مأساة من أكبر مآسي تاريخنا، ثم انجلت الكربة، وحصل التعارف، فاكتشفت كل أمة ما عند الأمة الأخرى، ودخل المغول في الإسلام، وأعجب المسلمون بالنسق المغولي في العمارة والبناء فنقلوه، وظل معروفًا في الفنون الإسلامية إلى يومنا هذا بالفن المغولي، وهكذا.

إذًا، كأنَّ الشرعَ الشريفَ جاء بدعوة عالمية إلى تعارف الأمم، وخاطب بها الناس أجمعين، وكان في إمكان المسلمين أن يقتنصوا تلك الدعوة، وأن يؤسسوا بها فكرة عالمية نسميها مثلًا: (تعارف الحضارات) بدلًا من فكرة: (صدام الحضارات) التي بنيت على هوية وفكر لا يؤمن بالله ولا برسوله، فنظرته إلى الكون والحياة نظرة الصدام، وكان بوسعنا أن ندعو منذ قرون إلى عولمة قائمة على أصولنا وقيمنا وهويتنا، نحن نصنعها، أو نشارك فيها مشاركة مؤثرة، توصل هداية القرآن ومبادئه إلى الناس أجمعين.

إضافة إلى أن القرآن أعلى من قيمة التقوى، وجعلها معيار التفاضل بين البشر، مما يعزز من قدر القيم، والآداب، والأخلاق، فيوجه الخلق في الجملة إلى نمط راق من التعامل البشري، يقصد به المسلم المنزلة عند الله، ونيل رضاه، ويقصد به غير المسلم المثالية والرقي، ويكفي أن يرث ذلك من نبع القرآن.

أرأيت كيف أن تقسيم الهداية القرآنية إلى هداية عامة وهداية خاصة، وأن وضوح ذلك في ذهن المفسر شديد الأهمية، عظيم الأثر.

أصل آخر من أصول التفسير في:
أنَّ القـرآن يُبيِّـن بعضـه بعضًا

أول ما ينبغي على المفسر أن يعتني به هو أن يجمع المتشابهات، ويقرن بعضها ببعض، فرب معنًى أجمله القرآن في موضع وفصَّله في موضع آخر، أو أطلق في موضع وقيّد في موضع آخر وهكذا.

ثم إن القرآن ربما تعرض للمعنى الواحد في غير موضع؛ لحكم عالية اقتضت تخصيص كل موضع بالقدر الذي أُورد فيه، فإذا ما جمع المفسر كل مواضع وروده تجلى له الهيكل العام الذي أراده القرآن في تلك القضية.

وقد علَّم المصطفى ﷺ الصحابة ذلك المنهج في فهم القرآن في عدة مواقف، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لَـمَّا نَزَلَتِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[1] شَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ!! وأَيُّنَا لَـمْ يَظْلِم نَفْسَهُ؟! فقَالَ: «**إنه ليس الذي تعنون، أَلَـمْ تَسْمَعُوا قول العبد الصالح**: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2] **إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ**»، فقد أطلق لفظ الظلم في موضع فشاع في المعاني المعهودة من الظلم في عرف الخطاب، بينما هو مفسر في موضع آخر بالشرك، والذي يجعل الموضع الآخر متعينًا للبيان هو الفهم العالي لقواعد الشريعة وكلياتها، ومنهجها في تحديد أسباب النجاة وأسباب الهلاك، مما يعين على إلحاق الآيات بعضها ببعض.

وما زال هذا المعنى بهم، حتى صرحوا بأن القرآن كله كالسورة الواحدة، يُحمل بعضه على بعض، قال الإمام الفخر الرازي في «مفاتيح الغيب»: (لأن القرآن كله كالسورة الواحدة، وكالآية الواحدة، يصدق بعضها بعضًا، ويبين بعضها معنى

---

(١) سورة الأنعام، آية [٨٢].
(٢) سورة لقمان، آية [٣١].

بعض، ألا ترى أن الآيات الدالة على الوعيد مطلقة، ثم إنها متعلقة بآيات التوبة وبآيات العفو)[1].

وللعلامة الطاهر بن عاشور تحرير جيد على هذا المعنى، يمثل ضابطًا مُهمًّا يجب تأمله، في قضية حمل بعض القرآن على بعض، قال في «التحرير والتنوير»: (وهذا كلام لا يحسن إطلاقه؛ لأن القرآن قد يحمل بعض آياته على بعض، وقد يستقل بعضها عن بعض؛ إذ ليس يتعين أن يكون المعنى المقصود في بعض الآيات مقصودًا في جميع نظائرها، بله ما يقارب غرضها)[2].

وقد أَلَّف ابن الجوزي كتابًا فيما أُجمل في القرآن في موضع وفُسِّر في موضع آخر منه، ونَبَّه ابن تيمية إلى هذا المعنى في «أصول التفسير»، وكذا ابن كثير في أوائل «تفسيره»، وكلامه مأخوذ من كلام ابن تيمية كما هو معلوم، ثم السيوطي في «الإتقان»، وغيرهم كثير.

وهو قريب مما عُرف عند المتأخرين بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وقد كتب فيه كثيرون، من أجودهم فضيلة الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله تعالى- في كتابه القيم: «نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم».

(١) «مفاتيح الغيب»: (٣٢/ ٩٨).

(٢) «التحرير والتنوير»: (١/ ٢٧).

أصل آخر من أصول التفسير وهو: أنَّ السُّنّة النّبويّة ثاني الوحيين، وأنّها نابعة من القرآن وموضحة لمعانيه

السنة النبوية أول بيان للقرآن الكريم، وهو بيان يمتاز بالعصمة، فهو أول كاشف دقيق منضبط ومحفوظ يكشف عن معاني القرآن، ولأنه معصومٌ وحجةٌ؛ فإنه مكمل للهدي القرآني، بحيث يتكون منهما معًا توجه الشرع الشريف في كل مسألة أو قضية؛ بل قال الإمام السيوطي -رحمه الله- في «الإتقان»: (وقال الإمام الشافعي ﵁: جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن.

وقال أيضًا: جميع ما حكم به النبي ﷺ فهو مما فهمه من القرآن.

قلت: ويؤيد هذا قوله ﷺ: «**إِنِّي لاَ أُحِلُّ إِلَّا مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَلاَ أُحَرِّمُ إِلَّا مَا حَرَّمَ اللهُ فِي كِتَابِهِ**» أخرجه بهذا اللفظ الشافعي في «الأم»)[(١)].

قال العلامة الشيخ طاهر الجزائري -رحمه الله تعالى- في «توجيه النظر»: (قال بعض علماء الأصول: ما قال النبي ﷺ من شيء فهو في القرآن، أو فيه أصله، قرب أو بعد، فهمه من فهمه، وعمه عنه من عمه، وكذا كل ما حكم به، أو قضى به، وإنما يدرك الطالب من ذلك بقدر اجتهاده، وبذل وسعه، ومقدار فهمه، وقال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله)[(٢)].

قلت: وهذا الذي قاله سعيد بن جبير هو منتهى المعرفة والإحاطة المستطاعة بمعاني القرآن الكريم وبمعاني الأحاديث النبوية، بحيث إنه كلما نظر ارتقى حتى

(١) «الإتقان»: (٣/ ٣٣٠).

(٢) «توجيه النظر»: (٢/ ٨٩٣).

يرى من أي عين من عيون القرآن وينابيعه انبثق ما بين يديه من الأحاديث.

ونعم، إنما يدرك الطالب من ذلك بقدر اجتهاده، وبذل وسعه، وقد اشتغل بهذا المعنى من المتأخرين البلاغي الكبير، جرجاني زمانه، العلَّامة إبراهيم محمد عبد الله الخولي، وأكبَّ خمسًا وثلاثين سنةً وهو يتأمل الأحاديث النبوية وكيف تنبع من القرآن، حتى سمعته مرارًا يقول:

(ما من حديث إلا وأنا أعلم من أي آية من كتاب الله خرج)، وألَّف في ذلك كتابًا ماتعًا سماه: «السنة بيانًا للقرآن» قرأت عليه خاتمته، وأجازنا فيه، وهو مطبوع.

قال الحافظ السيوطي في «الإتقان»: (وقال ابن أبي الفضل المرسي في «تفسيره»: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط بها علمًا حقيقة إلا المتكلم بها، ثم رسول الله ﷺ خلا ما استأثر به -سبحانه وتعالى-، ثم ورث ذلك عنه معظم سادات الصحابة وأعلامهم، مثل: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، حتى قال: «لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى».

ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم، وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه، وسائر فنونه، فنوعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه)[1].

قلت: وقد أدى ذلك كما هو معلوم إلى أن أنشأ المسلمون منظومات كاملة من العلوم الخادمة للبيان النبوي؛ فنشأت علوم الحديث، وعلوم الجرح والتعديل، وأثمرت ذلك النتاج العلمي الفائق الذي لم تعرف أمة من الأمم له مثيلًا، وقد نشط الحفاظ لإفراد المؤلفات لما يتعلق بالبيان النبوي للقرآن؛ فنشأ ما يعرف بالتفسير بالمأثور، وجمع فيه الحافظ السيوطي جمهرته الضخمة: «الدر المنثور، في التفسير

(١) «الإتقان»: (٢/ ٣٣٠).

بالمأثور» فاستوعب فيها من مصادر واسعة جدًّا كل حديث أو أثر له وجه تعلق بآية من كتاب الله.

ومن المتأخرين العلامة المحدث السيد عبد الله الصديق الغُماري، جمع كتابًا في التفسير بالأحاديث المرفوعة وصل فيه إلى سورة هود.

فلا بد للمفسر من الاطلاع على ما ورد في كل آية من الأحاديث والآثار، فما كان منها مرفوعًا إلى النبي ﷺ حقيقة أو حكمًا فقد وجب الوقوف عنده واعتباره، وما سوى ذلك فليتأمل، فإن كل واحد من المفسرين كان يحمل معنى الآية على جملة المعارف والعلوم التي انتهى إليها عصره، وأحاط بها زمانه، ثم القرآن أكبر من ذلك، وهو مجرد عن الزمان والمكان، لا يتقيد بهما ولا بأحوالهما، وقد بسطتُ ذلك المعنى في الأصل الآتي بعد هذا الأصل، فانظره هناك.

ثم إن هناك فائدة أخرى من الاطلاع على النقول الواردة في كل مسألة عمومًا، وهي عدم الاتكال على المدارك الذهنية للمتكلم أو المفسر منفردة، وعدم الاعتماد عليها وحدها، فلربما اطلع على ثمرات عقول السابقين، وتصفح أفكارهم وأنظارهم فتقع له احتمالات، وتلوح له معان، لم تكن لتخطر له لو اعتمد على نظره المجرد.

وقد أشار إلى هذا المعنى العلّامة أبو بكر الرازي الحنفي المعروف بالجصاص -رحمه الله- في كتاب «أحكام القرآن» له، قال: (وما أدري ما الذي ألجأه إلى ذلك؟؟ وأكثر ظني فيه أنه إنما أتى به من قلة علمه بنقل الناقلين لذلك، واستعمال رأيه فيه، من غير معرفة منه بما قد قال السلف فيه، ونقلته الأمة)[1].

قال عبد القادر بن بدران في «المدخل»: (لكنها دونت لفائدة أخرى، وهي التنبيه على مدارك الأحكام، واختلاف القرائح والآراء، وأن تلك الأقوال قد أدى

---

(١) «أحكام القرآن»: (١/ ٧٢).

إليها اجتهاد المجتهدين في وقت من الأوقات، وذلك مؤثر في تقريب الترقي إلى رتبة الاجتهاد المطلق أو المقيد؛ فإن المتأخر إذا نظر إلى مآخذ المتقدمين، نظر فيها، وقابل بينها، فاستخرج منها فوائد، وربما ظهر له من مجموعها ترجيح بعضها، وذلك من المطالب المهمة، فهذه فائدة تدوين الأقوال القديمة عن الأئمة)[1].

---

(١) «المدخل»: (ص٣٨٠).

أصل آخر من أصول التفسير وهو:
أنَّ علم أصول الفقه اشتمل على ضوابط فهم النص وتحليله، فوجبت عناية المفسر به

من أعظم مقاصد المفسر أن يلم بالأدوات والآليات، التي يتمكَّن بها من تحليل التركيب، وتفكيك النص وفهمه.

وخدمة النص تحليلًا، وتفكيكًا، وإحاطة بأجزائه وكلياته، وسبرًا لدلالة ألفاظه وتراكيبه، وتوصُّلًا إلى أغراضه ومقاصده، وتقنينًا لأساليب ومسالك الاستنباط منه- هدف يسعى إليه المفسر، ويسعى إليه الأصولي على حد سواء.

وقد عني الأصوليون بهذه القضايا، وحرَّروها ودقَّقوا فيها تدقيقًا زائدًا، ولخصوا كل المقدمات التي يتوقف عليها تحقيق أغراضهم تلك من العلوم الأخرى، مع استقراءٍ زائدٍ يليق بمقصودهم، حتى استوى علم الأصول، ونضجت فيه تلك البحوث، وبلغت حدًّا متقدمًا جدًّا من التحرير والانضباط، حتى إنهم لخصوا بحوثًا من علوم اللغة، ومن علم النحو، ومن علوم البلاغة، وغيرها، وجعلوها أبوابًا في علم الأصول.

خذ مثالًا على ذلك باب معاني الحروف، وهو من أعظم أدوات المفسر، حتى جعله السيوطي في «الإتقان» نوعًا من علوم القرآن، فإنك لا تجد أدق ولا أعمق من بحوث الأصوليين فيه، قال الإمام السبكي في «الإبهاج»: (فإن الأصوليين دقَّقوا في فهم أشياء من كلام العرب لم يصل إليها النُّحاة ولا اللغويون؛ فإن كلام العرب متسع جدًّا، والنظر فيه متشعب.

فكتب اللغة تضبط الألفاظ، ومعانيها الظاهرة، دون المعاني الدقيقة التي تحتاج

إلى نظر الأصولي، واستقراء زائد على استقراء اللغوي، مثاله: دلالة صيغة «افعل» على الوجوب، و«لا تفعل» على التحريم، وكون «كل» وإخوتها للعموم، وما أشبه ذلك مما ذكر السائل أنه من اللغة، لو فتشت كتب اللغة لم تجد فيها شفاء في ذلك، ولا تعرضًا لما ذكره الأصوليون.

وكذلك كتب النحو، لو طلبت معنى الاستثناء، وأن الإخراج: هل هو قبل الحكم أو بعد الحكم؟؟ ونحو ذلك من الدقائق، التي تعرض لها الأصوليون، وأخذوها باستقراء خاص من كلام العرب، وأدلة خاصة، لا تقتضيها صناعة النحو، فهذا ونحوه مما تكفل به أصول الفقه)[1].

قلت: ومدار عمل المفسر تحليل ألفاظ النص، وإدارك مدلولاتها، والإحاطة بمواقع الكلام، ومعرفة طرائق تحليله واستخراج مضامينه، فرجع الأمر إلى باب دلالة الألفاظ على المعاني، والذي هو أعمق وأدق أبواب علم الأصول، حتى قال الإمام الحبر حجة الإسلام الغزالي في «المستصفى»: (هو عمدة علم الأصول؛ لأن ميدان سعي المجتهدين في اقتباس الأحكام من أصولها، واجتنائها من أغصانها؛ إذ نفس الأحكام ليست ترتبط باختيار المجتهدين، ورفعها، ووضعها، والأصول الأربعة من الكتاب والسنة والإجماع والعقل لا مدخل لاختيار العباد في تأسيسها وتأصيلها، وإنما مجال اضطراب المجتهد واكتسابه: استعمال الفكر في استنباط الأحكام، واقتباسها من مداركها، والمدارك هي الأدلة السمعية)[2].

فلا أدري بعد ذلك، كيف يمكن لأحد أن يقدم على تفسير كتاب الله تعالى من دون نظر سابق، ولا تمرس فائق، بعلم الأصول؟!

قال العلّامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»: (وأما أصول الفقه

(١) «الإبهاج، في شرح المنهاج»: (١/ ٨).
(٢) «المستصفى»: (ص١٨٠).

فلم يكونوا يعدونه من مادة التفسير، ولكنهم يذكرون أحكام الأوامر، والنواهي، والعموم، وهي من أصول الفقه؛ فتحصل أن بعضه يكون مادة للتفسير، وذلك من جهتين:

إحداهما: أن علم الأصول قد أودعت فيه مسائل كثيرة هي من طرق استعمال كلام العرب، وفهم موارد اللغة، أهمل التنبيه عليها علماء العربية، مثل مسائل الفحوى، ومفهوم المخالفة، وقد عدَّ الغزالي علم الأصول من جملة العلوم التي تتعلق بالقرآن وبأحكامه، فلا جرم أن يكون مادة للتفسير.

الجهة الثانية: أن علم الأصول يضبط قواعد الاستنباط، ويفصح عنها، فهو آلة للمفسر في استنباط المعاني الشرعية من آياتها)[1].

قلت: بل الأمر فيه أكبر من ذلك، حيث يستفيد الناظر في فن الأصول نسقًا كليًّا للتفكير، يرث من خلاله أصولًا كبرى للنظر، ويلتفت ذهنه إلى قضية القطعية والظنية وأثرها في الفهم، وإلى أبواب التعارض والترجيح وكيف يسلك فيها، وإلى الاستدلال وكيفية استخراج جهة الدلالة من النصوص إلى غير ذلك من أساليب الفهم، ولا تخفى أهمية ذلك لمن يتصدى للإبانة عن معاني كلام الحق جل شأنه.

---

(١) «التحرير والتنوير»: (١/ ٢٦).

أصل عظيم من أصول التفسير في:
اتساع مدلولات التراكيب بحسب اتساع الأسقف المعرفية، والتراكمات الحضارية، وحاجة المفسر إلى متابعة ذلك واستيعابه

قال علماء الأصول: (الاستعمال من صفة المتكلم، والحمل من صفة المخاطب، والوضع قبلهما)[1]، والمقصود أن حمل الكلام على معانيه، وتنزيله على أوضاعه اللغوية، من صفات المتلقي أو المستمع، والمقصود أيضًا أن المستمع هو الذي يتلقى الكلام فيقوم بمهمة تحليله واستخراج مضامينه، والتغلغل فيه للوصول إلى المقاصد التي حملها المتكلم عليه، وكل ذلك محكوم بالوضع اللغوي الضابط لعملية استعمال الكلام، والذي يُؤَمِّنُ إيجاد مشترك بين المتكلم والسامع، يتم من خلاله تبادل المعاني، ذلك التبادل الذي على أساسه نهض المجتمع البشري، وتراكمت المعارف، وسرت بين البشر، فنمت الحضارة.

وهذه العملية التي يحكمها الوضع متوقفة عند تنزيل كل لفظ على معناه أو معانيه التي رُكِّب بإزائها، منذ أن تم الوضع اللغوي الأول واستقر، بحيث لم يعد من الممكن التلاعب بتلك الدلالة أو تغييرها، إلا بمقدارٍ مأمونٍ ومنضبطٍ من تحريك دلالة اللفظ، بحيث ينتقل الذهن من المعنى الأصلي الذي وضع له اللفظ إلى لازم له، أو جزء من مدلوله أو ما أشبه.

ولا بد في كل ذلك، من علاقة بين المعاني التي أطلق اللفظ بإزائها، بحيث يسهل انتقال الذهن من المعنى الأصلي إلى ذلك المعنى الجديد، ولا بد من شيوعٍ واشتهارٍ لتلك التحورات الدلالية، بحيث يتواطؤ البشر على فهم المعاني المقصودة، حتى تبقى

(١) «تقريب الوصول»، لابن جزي: (ص٥٥).

عملية الفهم والإفهام سارية، وإلا بدأ يقع بين البشر تَخَالُفٌ في مدلولات الألفاظ، يؤدي إلى اضطرابٍ في سريان المعاني، يؤذن باختلافٍ شديدٍ في إيصال مقاصد الناس بعضهم إلى بعض، ويمكن أن يؤدي ذلك إلى انهيار الاجتماع البشري بأكمله.

والمقصود أن الاحتكام إلى الوضع اللغوي في الفهم أمر خاص بالمفردات. أما الجمل فإنه يضاف فيها إلى دلالة الألفاظ المفردة تلك النسب التركيبية التي يتوقف فهمها على أمور أخرى زائدة على الوضع اللغوي، منها قوة تصور المستمع واستحضاره للاحتمالات المتعددة التي يفيدها التركيب، ومنها معرفةٌ سابقةٌ من المستمع بأطراف من المعاني المقصودة التي أرادها المتكلم، فيدرك عند سماع التركيب أن دلالته تتسع لتتناول تلك المعاني، بحيث إن من غابت عنه تلك المعرفة، وقف عند المعاني الأولية المتبادرة من التركيب، وعند مراعاة مدلولات الألفاظ، دون أن يسبح ذهنه إلى احتمال امتداد الكلام إلى تلك المعاني، حتى إذا ما طرقت سمعه تلك المعاني المقصودة استنار التركيب في ذهنه، ولاحت له تلك الروابط التي تربط بين التركيب وبين تلك المعاني.

وهذا متفرع عن تصورٍ سابقٍ من المتكلم لتلك المعاني، بحيث يُضَمِّن التركيب ما يشير إليها، ويترك الأمر في لمحها والانتباه إليها إلى يقظة المستمع، وحضور تلك المقاصد في ذهنه.

ومعنى هذا، أن لكل مستمعٍ حظًّا من فهم التركيب، بحيث كلما اتسعت معرفته، وازدادت خلفياته، وامتد تصوره إلى معان أوسع، رأى أن التركيب يحتملها ويومئ إليها.

ولا يكاد أن يقع هذا في كلام البشر إلا نادرًا؛ لاستواء البشر في المعارف أو تقاربهم فيها، وهم في ذلك محكومون بمعطيات زمانهم، بحيث لا يخطر لأحدهم ما سوف يكشفه الزمن من الأمور بعد زمنه؛ ليُضَمِّن كلامه إشارة إليه، فإن وُجِدَ

بشريٌّ نابهٌ، أو عبقريٌّ فذٌّ، وعرف بطريقٍ ما شيئًا من الأمور المستقبلة، وأشار في كلامه إليه، ثم جاءت الأحداث موافقة له، اعتبر الناس هذا ظاهرة خارقة، تستحق الدراسة، كما وقع مثلًا حول: (تنبؤات نوستراداموس) وشأنها معروف.

فكيف بالعلم الإلهي الشامل المحيط، الذي لا تخفى عليه خافية، وهو سبحانه الذي قدر لكل زمن ما يقع فيه من أحداث، ويستجد فيه من علوم ومعارف، فإنه سبحانه ضمَّن كلامه إشارة إلى ذلك كله، بحيث كلما استجد شيء لاحت دلالة النص إليه، فالقرآن الكريم نصٌّ جاءت ألفاظه وتراكيبه من عند الله تعالى، بحيث لا تتناقض مدلولاته مع أي سقف معرفي يأتي به زمن، وليس ذلك في طوق بشر؛ بل كلما تدخلت الأهواء البشرية في الكتب السماوية، فإنها بتصوراتها القاصرة، التي لا تحيط بمستجدات الأمور في الأزمان المقبلة، تقيد طلاقة النص وإطلاقه، وتجعل أحداث الأزمان تناقضه وتصطدم به؛ ولذا صان الله القرآن وحفظه، ولذا اصطدمت نصوص الكتب السماوية المحرفة بالواقع، حتى أحدثت مشكلة العلم والدين في أوربا، وقد تناول هذا المعنى موريس بوكاي في كتابه: «القرآن والتوراة والإنجيل في ضوء العلم الحديث»، وهو مطبوع ومعروف.

والمقصود أن البشر كلما ارتقت معارفهم، واستحدثت عندهم علوم ومعطيات، وجدوا أن النص القرآني متسق مع تلك المعطيات، بينما يسقط كلام أي بشري عن مواكبة الزمن؛ لقصور تصور قائله، وعدم إحاطته عند صياغة كلامه بما سوف يقع في الأزمان المستقبلة، وكلما كان قارئ القرآن أوسع إحاطة بالعلوم والأفكار والمناهج المختلفة، اتسعت دلالة القرآن في نظره على نحو معجز، قال الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في «تاريخ آداب العرب»: (القرآن وجود لغوي، ركب ما فيه على أن يبقى خالدًا مع الإنسانية)[1].

---

(١) «تاريخ آداب العرب»: (١/ ١٤).

قلت: ولذا يظل القرآن متجددًا عبر العصور، لا تنتهي عجائبه، ولا ينضب معينه، بل يزداد ثراء كلما ارتقى البشر في سلم الحضارة والمعرفة، قال العلامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»: (وأما النوع الثاني من إعجازه العلمي، فهو ينقسم إلى قسمين: قسم يكفي لإدراكه فهمه وسمعه، **وقسم يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم، فينبلج للناس شيئًا فشيئًا انبلاج أضواء الفجر، على حسب مبالغ الفهوم، وتطورات العلوم**)[1].

قلت: ولو أن أحدًا من البشر قد صاغ أيَّ كلامٍ في أيِّ مقصدٍ، من جد أو هزل، ثم استطاع أن يجعله على الوصف الذي ذكرناه، من عدم التناقض مع أيِّ سقفٍ معرفيٍّ يأتي به الزمنُ لكان كلامه معجزًا، فكيف بكتابٍ حقق ذلك، ثم زاد بأن جعل لتلك التراكيب من وراء ذلك مقاصدَ عاليةً، من التشريع المعجز، والمبادئ الكبرى، والمقاصد التشريعية الراقية، مع الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة، وتلخيص أصول العقائد، وتحرير أمهات الأخلاق، والرد على الفرق الضالة، والتيارات الفكرية المنحرفة عبر التاريخ البشري الطويل، وبناء النفس البشرية بكل ما يعتمل فيها من مشاعر وانفعالات، والتنبيه على أصول الاجتماع البشري، وما يسبب له الفساد والانحراف، وما يكسبه الهداية والعفاف، والتنبيه على أحوال الدار الآخرة، وما يقع فيها من أحداث كبرى، وما يؤول إليه حال البشر يومئذ من حساب أو عقاب، وجنة أو نار؛ فهذا إعجاز فوق إعجاز فوق إعجاز.

ولا بد للمفسر من أن يستوعب تلك المعارف، ويطالع العلوم المختلفة، ويلم بأصولها؛ حتى تتسع آفاق القرآن في نظره، ويرى كيف تتحقق قضية أن القرآن هداية للعالمين.

---

(١) «التحرير والتنوير»: (١/ ١٢٧).

أصل عظيم من أصول التفسير في: مسالك القرآن في التأثير على النفس، وأثر ذلك في فهم النص القرآني وتحليله، ووجوب تحصيل آليات ذلك

وهو أصلٌ إن غاب عن الناس كلهم، فينبغي أن لا يغيب عن المفسر، وهو الذي يُنَقِّبُ عن مقاصد القرآن ومراميه، ومدلولات الإيحاءات والمؤثرات التي يستجلبها القرآن، ويوظفها في إثارة النفوس وتحريكها، وحملها على النهوض والنشاط والمسارعة إلى ما يريد، أو الحساسية والتوجس والفَرَقِ مما لا يريد، وكيف أن المفسر يترجم تلك الإيحاءات، ويتحسسها، ويقف عندها، ويقتنصها، ويدرك عمقها، وكيفية تسللها إلى المدارك النفسية العميقة الغائبة في اللاوعي، حتى يلقي التعبير القرآني عندها -من خلال كلماته وتراكيبه وأدواته- بتلك اللمحة التي يريد، من التشويق أو الترهيب، أو الحث أو التنفير، أو التحقير أو التعظيم، أو غير ذلك، فينبغي أن يدرك المفسر تلك الإشارات، ويفقه مقاصدها، ثم يسلط الضوء عليها، ويضخمها حتى تبرز إلى دائرة الشعور، فإذا بالقارئ قد وعى عن القرآن ذلك، وإذا هو يهتز طربًا للتشويق، ويفزع ويتزلزل كيانه للترهيب، مما ينبني عليه تحول كامل في مسار حياة القارئ المستبصر، وحتى يفقه الناس -مثلًا- عن القرآن ذلك المغزى العميق، والسر الدقيق، الكامن وراء اختلاف المقصد من تنكير لفظة الحياة في قوله سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾[1]، وتنكيرها في قوله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2] وأشباه ذلك في كتاب الله وما أكثره.

---

(١) سورة البقرة، آية [٦٩].

(٢) سورة البقرة، آية [١٧٩].

وليعلم أن هذا الأصل متوقف على محورين:

الأول: علوم البلاغة، وهي المعنية بأسرار التركيب اللغوي، والمعاني الكامنة وراء كل تحوير وتغيير في التراكيب، وما يترتب على كل احتمال منها من المعاني المستفادة.

والثاني: هو علم النفس؛ لأنه هو المعني بالبحث في طبيعة النفس البشرية، وكيفية صدور الأفعال منها، وكيفية استجابتها للمؤثرات المختلفة.

وقد تطور علمُ النفس، وقطع أشواطًا بعيدة في التنقيب عن أسرار النفس البشرية، وظهرت فيه مدارس ومناهج متعددة، وانشعب إلى تخصصات مختلفة معقدة، وهو في كل ذلك يدرس ويبحث وفق منهج مادي تجريبي، يحاول الوصول إلى أسرار النفس من خلال التجربة وحدها، حتى تأسس العلم واستقر في غيبة من مناهجنا البحثية، المبنية على معرفة النفس، وأطوارها، وطبيعتها، وفق المصدرين المعرفيين الراسخين اللذين هما: الوحي، والوجود.

والقرآن الكريم جاء بتصور كامل للنفس البشرية، وطبيعتها، وأطوارها، وقد سار في تطبيقاته العملية، وفي سرده لمقاصده، وفي نسجه لكلماته وآياته وفق منهج ربانيٍّ راقٍ في التعامل مع النفس والتأثير فيها، بحيث إنَّ المفسر إن ألَـمَّ بأطراف من ذلك، واتسعت معرفته بهذه المعاني، صار يرى وراء كلِّ كلمةٍ، وكلِّ تعبيرٍ، وكلِّ تركيبٍ قرآنيٍّ تأثيرًا نفسيًّا مقصودًا.

قال الإمام الخطابي -رحمه الله تعالى- في «بيان إعجاز القرآن»: (في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن، منظومًا ولا منثورًا، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له

الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، عادت مرتاعة، قد عراها الوجيب والقلق، وتغشَّاها الخوف والفَرَق، تقشعر منه الجلود، وتفزع له القلوب، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة)[1].

وقال الباقلاني في «إعجاز القرآن»: (وإذا تأملت على ما هديناك إليه ووقفناك عليه فانظر، هل تجد وقْع هذا النور في قلبك، واشتماله على لُبِّك، وسريانه في حِسِّك، ونفوذه في عروقك، وامتلاءك به إيقانًا وإحاطة، واهتداءك به إيمانًا وبصيرة؟ أم هل تجد الرعب يأخذ منك مأخذه من وجه، والهزة تعمل في جوانبك من لون، والأريحية تستولي عليك من باب؟ وهل تجد الطرب يستفزك للَطِيف ما فطنت له، والسرور يحركك من عجيب ما وقفت عليه، وتجد في نفسك من المعرفة التي حدثت لك عزة، وفي أعطافك ارتياحًا وهزة؟ وترى لك في الفضل تقدمًا وتبريزًا، وفي اليقين سبقًا وتحقيقًا، وترى مطارح الجهال تحت أقدام الغفلة، ومهاويهم في ظلال القلة والذلة، وأقدارهم بالعين التي يجب أن تلحظ بها، ومراتبهم بحيث يجب أن ترتبها؟ وهذا كله في تأمل الكلام ونظامه وعجيب معانيه وأحكامه.

فإن جئت إلى ما انبسط في العالم من بركته وأنواره، وتمكن في الآفاق من يمنه وأضوائه، وثبت في القلوب من إكباره وإعظامه، وتقرر في النفوس من حتم أمره ونهيه، ومضى في الدماء من مفروض حكمه، وإلى أنه جُعل عماد الصلاة التي هي تلو الإيمان في التأكيد، وثانية التوحيد في الوجوب، وفُرض حفظه ووُكل الصغار والكبار بتلاوته، وأُمر عند افتتاحه بما أمر به -لتعظيمه- من قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[2] لم يؤمر بالتعوذ لافتتاح أمر كما أمر به لافتتاحه؛ فهل يدلك هذا على عظيم شأنه، وراجح ميزانه، وعالي مكانه؟)[3].

---

(١) «بيان إعجاز القرآن»: (ص٧٠).
(٢) سورة النحل، آية [٩٨].
(٣) «إعجاز القرآن»: (ص٢٠٢).

قلت: وقد وُجِدَت عندنا محاولات جادة لاستكشاف أسرار القرآن ومسالكه في التعامل مع النفس البشرية، منها كتاب «القرآن وعلم النفس» للدكتور محمد عثمان نجاتي، ومنها كتاب «التعبير القرآني والدلالة النفسية» للدكتور عبد الله محمد الجيوسي، وكلاهما مطبوع، وغيرهما كثير.

ولعل البعض من أهل علوم القرآن أن يقف هنا وقفة مستنكر، وهو يعجب من هذا الذي يريد إقحام علم النفس في العلوم القرآنية العتيقة، وأقول: لقد قامت أمة الإسلام عبر التاريخ بالاستخراج والاستنباط لمنظومات متكاملة، ودوائر متداخلة من العلوم الخادمة للقرآن الكريم، حتى برزت عندهم علوم اللغة والبلاغة والأصول وغيرها، ولا بد من استمرار هذه الحركة العلمية الخادمة للقرآن عبر العصور، بحيث كلما جَدَّ جديد من العلوم أو المناهج البحثية نرى له أثرًا أو ظلالًا في القرآن الكريم، فقد وجب على الأمة أن تدرسه، وتستوعبه، وتلخصه، وتصفيه، ثم تجعله بابًا من أبواب علوم القرآن، وإلا انقطع المسلمون عن عطاء القرآن الكريم، وحُجبوا عنه.

أصل من أصول التفسير في أن:
قصص الأنبياء مناقشة لأصول المناهج الفكرية،
التي يدور حولها الفكر الإنساني عبر الزمان

جاءت قصص الأنبياء لمقاصد ربانية متعددة، منها: تثبيت فؤاد النبي ﷺ ومن ثم تثبيت أفئدة ورثته، وحملة مواريث النبوة وأنوار الهداية من بعده إلى الخلق، من العلماء الهداة، والدعاة إلى الله على بصيرة، بحق قوله سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[(١)].

ومنها: أنها موضع نظر وتأمل لأصحاب الفكر، وأهل العقول المستنيرة، بحق قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[(٢)] فقوله سبحانه: ﴿عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ معناه أن قصص الأنبياء محل نظر واسع؛ بحيث تستخرج منها فوائد كبرى، وقد توسع العلّامة الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالى- في المقدمة السابعة من مقدمات «التحرير والتنوير»[(٣)] في ذكر فوائد قصص الأنبياء، فذكر عشر فوائد مع إفادات جزلة حول قصص الأنبياء وكيفية توظيف القرآن لها.

وقد تأملتُ قصص الأنبياء في القرآن، فلاح لي فيها معنىً كليٌّ جليل، يجعل فائدتها أوسع وأكبر من أن تكون سردًا لأحداثٍ من تاريخ الأنبياء الكرام، رغم ما في ذلك من الأهمية والجلالة.

وبيان ذلك: أن كلَّ واحدةٍ من قصص الأنبياء تناقش منهجًا من مناهج الانحراف، وتتعرض بالتحليل والرد والتقويم لفلسفة من الفلسفات، وتبحث قضية

---

(١) سورة هود، آية [١٢٠].
(٢) سورة يوسف، آية [١١١].
(٣) «التحرير والتنوير»: (١/ ٦٤).

كبرى من قضايا الفكر الإنساني، بحيث تشتمل قصص الأنبياء على مناقشة لأصول المناهج الفكرية المنحرفة والمتكررة عبر التاريخ الإنساني بأكمله، حيث إن البشرية في تاريخها الطويل عرفت فكرة مشابهة لفكرة العلمانية مثلًا، ففكرة العلمانية وفصل الدين عن مجالات الحياة ليست حديثة، أو وليدة عصور النهضة الأوربية، بل هي منهج فكري بشري قديم، برز عند قوم شعيب عليه السلام، فقد حكى القرآن عنهم أنهم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[1]، فهم يتعجبون من وجود علاقة بين الصلاة وبين إدارة الأموال، وأوجه التعامل معها، فقد جاء قوم شعيب فوق الكفر ببلية أخرى، وهي أنهم لا يرون رابطًا بين التقوى والصلاة والصلاح وبين الشؤون المالية، وكأنهم يقولون: لا علاقة بين الدين وبين الاقتصاد.

وعليه؛ فإن قصة شعيب أرقى منهج نبوي قرآني ناقش قضية العلمانية، وأبرز المحاور المهمة التي تفكك تلك الفكرة، وتبين فسادها وضررها، وتأتي بالبديل الرباني، والتوجيه الإلهي في هذا الصدد، وبهذا يتسع لنا مجال آخر في فهم أسباب اختيار الحق سبحانه لقصص معينة من قصص الأنبياء، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَۗ﴾[2]، وكأن تلك القصص المنتقاة، التي أوردها القرآن، تناقش رؤوس القضايا الإنسانية، وأصول النظريات الفلسفية، فيمكن الاكتفاء بها.

ويترتب على هذا أن يُقْبِلَ المفسر على قصة شعيب عليه السلام، وأن يجمع كل مواضع ورودها في القرآن، ثم يتأمل المعالجة الإلهية لقضية العلمانية، وكيف علَّم الله تعالى شعيبًا عليه السلام المداخل الدقيقة لمناقشة تلك القضية، وما هي المرتكزات التي رشحها القرآن وأبرزها في مناقشة تلك القضية، بعد أن يقرأ العلمانية، وتطوراتها، ودرجاتها،

---

(١) سورة هود، آية [٨٧].
(٢) سورة غافر، آية [٧٨].

قراءة دقيقة على غرار ما كتبه الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه: «العلمانية الجزئية، والعلمانية الشاملة» بحيث يعرف ما ينبغي أن يبحث له عن رد وجواب في القرآن الكريم.

وبهذا تضيف قصص الأنبياء فوائد زائدة على العظة والعبرة، والتثبيت والتأسي، ويتسع مجال النظر فيها، وتنفتح لنا دراسات قرآنية جديدة في بحث أساليب القرآن في مناقشة التيارات والمناهج والفلسفات الحديثة، ويتبين أن كل قصة من قصص الأنبياء تمثل مناقشة لفلسفة أو منهج فكري مما يتكرر عبر التاريخ.

وقُلْ مثل ذلك في قصة موسى عليه السلام، حينما طلب منه قومه أن يروا الله جهرة، وكيف أنها مناقشة قرآنية مهمة، للمناهج التجريبية التي تقصر مصادر المعرفة على المنهج الحسي وحده، وقصة لوط عليه السلام مع قضايا الشذوذ والانحراف الجنسي، وقصة هود عليه السلام مع الطغيان العسكري، وأحلام السيطرة، وأوهام الإمبراطورية الزائفة، التي تحرك عددًا من الدول والقوى عبر التاريخ... وهكذا.

أصل من أصول التفسير في:
(محاور سور القرآن) وأثرها في فهم النصوص القرآنية

لكل سورة من سور القرآن الكريم محورٌ محددٌ، تنبني السورة عليه، وتدور حوله، وتؤكده بصور ونماذج تفصيلية متعددة، وتجند لأجل خدمته وإبرازه أمثالًا، وقصصًا، ومقاطع قرآنية، مطولة أحيانًا، ومقتضبة حازمة خاطفة في أحيان أخرى، بحيث تشتمل تلك المقاطع على أوامر تشريعية، ونظم أخلاقية، ومناقشة لمناهج فكرية مختلفة وما أشبه، مما يشكل مقاصد جزئية، تتعاضد وتأتلف، وتشتبك وتتداخل، من أجل ترسيخ وتوكيد معنى ذلك المحور الرئيسي الذي تدور السورة حوله.

فكأن السورة القرآنية تتكون من مقاصد متعددة، تصب كلها في معين ذلك المحور، بحيث ينهض بناء السورة على تناول تلك المقاصد مقصدًا مقصدًا، بالإبانة والإيضاح، ثم تنتقل السورة إلى مقصد آخر فتقرره، حتى تأتي على كل المقاصد المنتقاة المنتخبة، التي تم اختيارها وجلبها من أجل بناء معالم ذلك المحور، مما يرسخ شيئًا فشيئًا ملامح القضية الكلية التي هي محور السورة.

ولا بد من وجود تناسق وانسجام وروابط دقيقة بين كل مقصد وآخر، بحيث يمضي النظم القرآني في تقرير مقصد معين، حتى إذا ما شارف على استيفائه جعل يوجه الأنظار إلى تباشير المقصد التالي، وربما انتقل القرآن فجأة إلى مقصد آخر، من حيث إنه من مقتضيات الفكرة الرئيسية للسورة.

فسورة الفاتحة مثلًا مستهل القرآن الكريم، وأول ما يقع في أذن المكلف أو المخاطب من كلام الحق جل شأنه، فمحور السورة قوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1]، حيث تدور السورة حول معنى العلاقة بين المخلوق والخالق،

(١) سورة الفاتحة، آية [٥].

وأنها عبادة من المخلوق، وإعانة من الخالق، ثم إن القرآن كله تفصيل لأوجه تلك العلاقة وصورها.

ومحور سورة البقرة قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(1)]، إذ تدور سورة البقرة حول قضية الإسلام لله، وكيف أنها المدخل الأعظم لتحقيق قضية العبودية والإعانة التي جاءت بها سورة الفاتحة، وأن الأمر فيها ينهض على أساس راسخ من التسليم المطلق لله بالعظمة والربوبية، واستحقاق العبادة، وأنه وحده الحاكم، وأن التشريع والأمر والنهي له وحده، حتى إذا ما ثبتت قضية التسليم واستقرت في العقل، وانعقد عليها الجنان، أمكن نقل هذا المكلف إلى قضية الاصطفاء، وهي محور سورة آل عمران؛ إذ تدور السورة كلها حول آية محورية واحدة وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[(2)]، حتى إذا ما ثبتت قضية الاصطفاء، وسلمت لله رب العالمين، نقلنا إلى نوع خاص من الاصطفاء، وهو تباين طبائع الخلق، وأن لكل جنس خصائص معينة، تنبني عليها حقوق معينة، فتأتي سورة النساء لتعالج قضية حفظ خصائص الخلق، وما يترتب على تلك الخصائص من تكاليف متعددة، وحقوق متباينة، ملائمة للخصائص المذكورة، فلكل مخلوق ولكل فئة خصائص معينة، يجب أن تحفظ وتستقر، وعمارة الدنيا واستقرار المجتمعات متوقفان على مراعاة تلك الخصائص؛ ولذا فإن محور سورة النساء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[(3)].

فكأن كل سورة من سور القرآن تعالج قضية كبرى، ابتداء بقضية العبودية

(1) سورة البقرة، آية [131].
(2) سورة آل عمران، آية [33، 34].
(3) سورة النساء، آية [32].

في سورة الفاتحة، وقضية الإسلام لله في سورة البقرة، وقضية الاصطفاء في سورة آل عمران، وقضية حفظ الخصائص والحقوق في سورة النساء، وقضية التواصل في سورة المائدة، وهكذا إلى تمام نحو مائة قضية تمثل أصول الأديان السماوية، وتمثل أهم الأفكار والقضايا التي جاء من أجلها الدين عمومًا، في تصوير وتكييف صور علاقة الخلق بالحق.

فإذا ما أدرك المفسر محور كل سورة عرف كيف يوظف آياتها ومقاطعها في ذلك الإطار، ولاحت له أسرار جديدة في نسج كل سورة وكيفية بنائها، ولمعت له بوارق من مناسبة الآيات والمقاطع التي تتكون منها السورة، ولربما تفاوتت أنظار العلماء في الآية التي تعتبر محورًا لكل سورة، ولربما جرى نقاش مطول في تحرير الفارق بين المحور والمقصد، ولربما اختلفت أنظار العلماء في تحديد محور كل سورة، فيحدث ثراء في البحوث القرآنية تنجلي به أبعاد من أسرار القرآن لم تظهر من قبل؛ فإن هذا الباب مستحدث، لم أر أحدًا نبه إليه، وما رأيت لأحد كتابة في هذا الباب من أبواب علوم القرآن، وقد أفردت مؤلفًا أسميته: «الإمعان، في محاور سور القرآن» أسأل الله أن يتمه لي بخير.

ثم إني اطلعت هنا مؤخرًا على كتاب اسمه: «نظرة العجلان، في أغراض القرآن» تأليف الأستاذ محمد بن كمال أحمد الخطيب، طبع قديمًا في المطبعة العصرية بدمشق الشام، وقدَّم له العلامة الشيخ مصطفى الزرقا، يتكلم فيه على وحدة موضوع كل سورة، وتناسب أغراضها، وتسلسلها، وقد صرَّح الشيخ مصطفى الزرقا بأن هذا موضوع بكر، لم يطرق من قبل بهذه الصورة.

وأقول: إن الكتاب جيد، وهو قريب مما أتكلم عنه، رغم أنه لم يمس المعنى الذي أريد لفت النظر إليه، وهو خطوة على الطريق الذي نتحدث هنا عنه.

أصل آخر من أصول التفسير في:
(المبادئ القرآنية)، أو: (الدلالة المستقلة) وأنها مسلك عملي انتهجته الأمة في الانتفاع بآيات القرآن عبر الزمان

ما زال العلماء يدققون في أساليب فهم التراكيب القرآنية، وتحرير المناهج والأدوات التي يمكن من خلالها الانتفاع بكل لفظة، أو تركيب من القرآن الكريم، بوجوه متعددة؛ ولذا فقد أقاموا لفهم العبارة أو الجملة القرآنية مسالك منضبطة، ومراحل متعاقبة من النظر، تبدأ بتحديد معاني المفردات، ثم مراعاة المعاني المحتملة من النسب التركيبية، ثم يتحدد واحد من تلك المعاني أو أكثر من خلال: السياق، والسباق، واللحاق، ومن ثم فقد شكلت قضية السياق ضابطًا مهمًّا من ضوابط فهم النصوص والجمل القرآنية.

قال العلامة الشاه ولي الله الدهلوي -رحمه الله- في «الفوز الكبير»: (ينبغي للمفسر العادل أن ينظر إلى شرح الغريب نظرتين، ويزنه وزنًا علميًّا مرتين، مرة في استعمالات العرب؛ حتى يعرف أي وجه من وجوهها أقوى وأرجح، ومرة ثانية في مناسبة السابق واللاحق، بعد إحكام مقدمات هذا العلم، وتتبع موارد الاستعمال، والفحص عن الآثار؛ حتى يعلم أي صورة من صورها أولى وأنسب)[1].

لكن عند النظر في مسالك الأقدمين من سلف هذه الأمة وطبقات علمائها عبر الزمان، نجد أن لهم منهاجًا عَمليًّا، فريدًا وعجيبًا، انتهجوه في الانتفاع بالجمل القرآنية، على نحو يجعل لها في سياقها معنًى يتسق معه، ويجعل لها -بعيدًا عن السياق- معنًى آخر مستقلًّا ومجردًا، له وصف القداسة والربانية والحجية، مع شيء

(١) «الفوز الكبير»: (ص١٨١).

من التجريد، يجعل العبارة القرآنية مبدأً في حد ذاته، بل إن هذا النسق من النظر في الجمل القرآنية سابق لهؤلاء جميعًا؛ إذ أثر عن المصطفى ﷺ ذلك كما سيأتي.

قال الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»: (ويدل لتأصيلنا هذا، ما وقع إلينا من تفسيرات مروية عن النبي ﷺ لآيات، فنرى منها ما نوقن بأنه ليس هو المعنى الأسبق من التركيب، ولكننا بالتأمل، نعلم أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- ما أراد بتفسيره إلا إيقاظ الأذهان إلى أخذ أقصى المعاني من ألفاظ القرآن، مثال ذلك: ما رواه أبو سَعِيد بن الْمُعَلَّى قال: دعاني رسول الله وأنا في الصلاة، فلم أجبه، فلما فرغت أقبلت إليه فقال: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تُجِيبَنِي؟**» فقلت: يا رسول الله كُنْتُ أُصَلِّي، فقال: «**أَلَمْ يَقُلِ الله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾[1]، فلا شك أن المعنى المسوقة فيه الآية هو الاستجابة بمعنى الامتثال كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾[2]، وأن المراد من الدعوة الهداية، كقوله: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾[3]، وقد تعلق فعل ﴿دَعَاكُمْ﴾ بقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[4]، أي: لما فيه صلاحكم، غير أن لفظ الاستجابة لما كان صالحًا للحمل على المعنى الحقيقي أيضًا، وهو إجابة النداء، حمل النبي ﷺ الآية على ذلك، في المقام الصالح له، بقطع النظر عن المتعلق، وهو قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

وكذلك قوله ﷺ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً** ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾»[5]، إنما هو تشبيه الخلق الثاني بالخلق الأول؛ لدفع استبعاد البعث، كقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[6]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[7]، فذلك مورد التشبيه، غير أن التشبيه لما كان صالحًا

(١) سورة الأنفال، آية [٢٤].

(٢) سورة آل عمران، آية [١٧٢].

(٣) سورة آل عمران، آية [١٠٤].

(٤) سورة الأنفال، آية [٢٤].

(٥) سورة الأنبياء، آية [١٠٤].

(٦) سورة ق، آية [١٥].

(٧) سورة الروم، آية [٢٧].

للحمل على تمام المشابهة، أعلمنا النبي ﷺ أن ذلك مراد منه، بأن يكون التشبيه بالخلق الأول شاملًا للتجرد من الثياب والنعال.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾(١) فقد قال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ لما قال له: لا تصل على عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول فإنه منافق، وقد نهاك الله عن أن تستغفر للمنافقين، فقال النبي ﷺ: «**خَيَّرَنِي ربي وسأزيد على السبعين**» فحمل قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾(٢) على التخيير، مع أن ظاهره أنه مستعمل في التسوية، وحَمَل اسم العدد على دلالته الصريحة، دون كونه كناية عن الكثرة كما هو قرينة السياق؛ لما كان الأمر واسم العدد صالحين لما حملهما عليه، فكان الحمل تأويلًا ناشئًا عن الاحتياط.

ومن هذا قول النبي ﷺ لأم كلثوم بنت عقبة بن معيط، حين جاءت مُسْلِمة، مهاجرة إلى المدينة، وأبت أن ترجع إلى المشركين، فقرأ النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾(٣)، فاستعمله في معنًى مجازي هو غير المعنى الحقيقي الذي سيق إليه.

وما أرى سجود النبي ﷺ في مواضع سجود التلاوة من القرآن، إلا راجعًا إلى هذا الأصل، فإن كان فهمًا منه رجع إلى ما شرحنا تأصيله، وإن كان وحيًا كان أقوى حجة في إرادة الله من ألفاظ كتابه، ما تحتمله ألفاظه مما لا ينافي أغراضه.

وكذلك لما ورد عن أصحاب النبي ﷺ ومن بعدهم من الأئمة، مثل ما روي أن عمرو بن العاص أصبح جنبًا في غزوة في يوم بارد، فتيمم وقال: الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾(٤)، مع أن مورد الآية أصله في النهي عن أن يقتل الناس بعضهم بعضًا.

---

(١) سورة التوبة، آية [٨٠].
(٢) سورة التوبة، آية [٨٠].
(٣) سورة الأنعام، آية [٩٥].
(٤) سورة النساء، آية [٢٩].

ومن ذلك أن عمر لما فُتحت العراق، وسأله جيش الفتح قسمة أرض السواد بينهم قال: (إن قسمتها بينكم لم يجد المسلمون الذين يأتون بعدكم من البلاد المفتوحة مثل ما وجدتم!! فأرى أن أجعلها خراجًا على أهل الأرض، يقسم على المسلمين كل موسم، فإن الله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾)(١)، وهذه الآية نزلت في فَيْء قريظة والنضير، والمراد بالذين جاءوا من بعد المذكورين هم المسلمون الذين أسلموا بعد الفتح المذكور.

وكذلك استنباط عمر ابتداء التاريخ بيوم الهجرة من قوله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾(٢)؛ فإن المعنى الأصلي: أنه أسس من أول أيام تأسيسه، واللفظ صالح لأن يحمل على أنه أسس من أول يوم من الأيام، أي أحق الأيام أن يكون أول أيام الإسلام فتكون الأولية نسبية.

وقد استدل فقهاؤنا على مشروعية الجعالة، ومشروعية الكفالة في الإسلام بقوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾(٣) كما تقدم في المقدمة الثالثة، مع أنه حكاية قصة مضت، في أمة خلت، ليست في سياق تقرير ولا إنكار، ولا هي من شريعة سماوية، إلا أن القرآن ذكرها ولم يعقبها بإنكار.

ومن هذا القبيل: استدلال الشافعي على حجية الإجماع وتحريم خرقه بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾(٤) مع أن سياق الآية في أحوال المشركين، فالمراد من الآية مشاقة خاصة، واتباع غير سبيل خاص، ولكن الشافعي جعل حجية الإجماع من كمال الآية) انتهى كلام ابن عاشور -رحمه الله.

وأقول: بل قال شيخنا العلَّامة الشيخ عبد الغفور محمود مصطفى جعفر

---

(١)) سورة الحشر، آية [١٠].
(٢) سورة التوبة، آية [١٠٨].
(٣) سورة يوسف، آية [٧٢].
(٤) سورة النساء، آية [١١٥].

-رحمه الله- في كتابه: «بحوث في علوم القرآن الكريم»: (إن القضية -قضية الأخذ بالمعاني المختلفة والقول بأنها مرادة- قضية مقبولة عقلاً، ولغة، وبلاغة، وشرعًا، على اختلاف المذاهب، وعلى ذلك جرى عمل المفسرين، فلا أحصي ما جمعته لنفسي من شواهد تشهد لهذه القضية، يميزها بسهولة من يريد، شواهد من التفسير المرفوع، وشواهد من تفسيرات الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، وشواهد من تفسيرات التابعين أيضًا، ولا أحصي صنيع الفقهاء على اختلاف مذاهبهم؛ فبهذا كله ثبتت القضية، وتقررت أيما تقرر، وعرفنا أن القول بالمعاني المتعددة سواء كانت في درجة أو كان بعضها أرجح قول مأخوذ به)[1].

قلت: ومن هنا برزت قضية عرفت بقضية: (الدلالة المستقلة في القرآن الكريم)، وهي رغم كونها مستعملة عملًا وتطبيقًا عند العلماء جيلًا من وراء جيل، وطبقة من وراء طبقة، حتى أثمرت عند الأمة -كما تبين- محاور علمية في الفنون المختلفة نابعة من معين القرآن، إلا أنه لم يقع النظر في هذه الظاهرة القرآنية على وجه التقعيد لها، والتقنين لمسالكها، والتدقيق في كيفية الاستفادة منها على نحو منظم مقصود.

وقد كان أول من درس ظاهرة المبادئ القرآنية فيما أفادنا سماحة شيخنا، العلامة الجليل، الإمام الشيخ علي جمعة -مفتي الديار المصرية- هو الأستاذ الدكتور محمد السيد بدر -رحمه الله تعالى- أستاذ ورئيس قسم فلسفة القانون وتاريخه، بكلية الحقوق، جامعة عين شمس، في كتاب له أسماه: «المبادئ العامة في القرآن الكريم» طبع بالقاهرة سنة ١٩٩٦م، في ثلاثمائة وثلاث وخمسين صفحة، دون دار نشر، وتكلم عن المبادئ القرآنية من الصفحة: (٢٩٢) إلى الصفحة رقم: (٣٥٣).

ثم كتب فيها سماحة شيخنا الإمام علي جمعة مقالًا مهمًّا جدًّا، نُشر في الموسوعة القرآنية المتخصصة، الصادرة عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية[2]، أصَّل فيه

---

(١) «بحوث في علوم القرآن الكريم»: (ص٢١٨، ص٢٢٧).

(٢) «الموسوعة القرآنية المتخصصة»: (ص٨٢-٩٤).

لمعنى المبدأ القرآني، واستخرج له تعريفًا، وبين خصائصه، وفرق بينه وبين الحقائق الإيمانية أو الكونية، وبينه وبين الحكم الشرعي، والقاعدة الفقهية، والقاعدة الأصولية، ثم أورد بعض المبادئ القرآنية وشرحها، ثم قال: (المبادئ القرآنية التي نوردها إنما هي على سبيل المثال، تنبيهًا لهذا الجانب العظيم من القرآن الكريم، وهي تحتاج إلى تتبع واستقصاء مستقل، وبحث خاص، يقوم بعد استقرائها بإيراد كلام أهل التفسير عنها، ثم يبين عناصر كل مبدأ وما يلزمه من مقدمات، وما يترتب عليه من نتائج، ثم يقوم ببيان العلاقات البينية بين كل هذه المبادئ؛ لبناء النموذج المعرفي، ثم بيان كيفية تشغيلها في المجالات المختلفة: السياسة، والقانون، والاجتماع البشري، والتربية، والفكر، والعبادة، والعقيدة، والدعوة... إلخ).

ثم إن سماحته أشار على صديقنا فضيلة الشيخ: مصطفى عبد الكريم كاسب أن يدرس تلك القضية، فكتب فيها رسالته التي نال بها درجة التخصص (الماجستير) من قسم التفسير وعلومه بكلية أصول الدين بالقاهرة.

قال فضيلة الشيخ مصطفى عبد الكريم كاسب في كتابه «المبادئ العامة في القرآن الكريم»: (وذلك لأن فكرة المبادئ القرآنية تقوم على استخراج نصوص وجمل من الآيات، لها معان مفهومة، بدون النظر إلى سياق الآيات، من حيث إن لهذه النصوص والجمل معاني واضحة ومفهومة، تفهم دون النظر إلى السياق، ولا تناقضه أو تخالفه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(١)، وقوله أيضًا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢)، وقوله تعالى أيضًا: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾(٣) إلى غير ذلك من المبادئ القرآنية.

---

(١) سورة الأنعام، آية [١٦٤].
(٢) سورة الزمر، آية [٩].
(٣) سورة المائدة، آية [٩٥].

وذلك أن القرآن الكريم كتاب هداية، أنزله الله تعالى لأجل الاسترشاد والاهتداء به، ولا يكون ذلك إلا بكثرة المعاني التي تحتملها ألفاظه، فالجملة القرآنية قد تحتمل معاني كثيرة وتكون كلها مرادة، من هنا فإنني أرى أن لفهم الجملة القرآنية مستويات:

فالمستوى الأول، هو: فهم الجملة القرآنية بمعناها التي وردت له في سياقها، وهذا ما عليه معظم القرآن الكريم.

والمستوى الثاني، هو: فهم الجملة القرآنية بمعناها التي وردت له بدون اعتبار سياقها ما لم يخالف هذا الفهم السياق أو يناقضه أو يضاده، وهذا الأمر وارد في بعض غير قليل من آيات القرآن الكريم، ومنه المبادئ القرآنية.

أما المستوى الثالث، فهو: فهم الجملة القرآنية بغير معناها التي وردت له وبدون اعتبار سياقها، وهذا الأمر غير وارد أصلًا، وغير جائز قطعًا، وهو ما عليه تفاسير الباطنية وغيرها من التفاسير المنحرفة.

والكلام ليس عن المستويين الأول والثالث فهما واضحان ولا يحتاجان إلى شرح وبيان، كما أنهما ليسا من محل بحثي هذا.

أما المستوى الثاني فهو الذي أريد أن أوضحه وأبيّنه، وأذكر له بعض الأدلة والأمثلة التي تؤكده، مع تعضيد ذلك بنقول العلماء؛ وذلك لأن المستوى الثاني وهو (فهم الجملة القرآنية بمعناها التي وردت له بدون اعتبار سياقها) هو عينه المبادئ القرآنية.

فالمبادئ القرآنية إنما هي استعمال للجملة القرآنية بمعناها الذي وردت له، بدون اعتبار سياقها، فمثلًا قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾[1] هذه الجملة استعمالها في العفو عما سلف ووقع قبل العلم بالتحريم، وفي سياقها تكون في حكم قتل

(١) سورة المائدة، آية [٩٥].

الصيد للمحرم، وحكم من فعل ذلك وبيان كفارته، وأن الله تعالى قد عفا عما سلف ووقع قبل العلم بتحريم ذلك فحسب. أما بدون اعتبار سياقها فهي مبدأ عام من مبادئ القرآن الكريم، يقول بعدم رجعية التشريع إلى الماضي، فيجب عدم تطبيق القانون بأثر رجعي، ولهذا المبدأ تطبيقات في مجالات مختلفة.

فالجملة القرآنية هنا تحتمل معنيين: أحدهما في سياق الآية، والثاني عام بدون اعتبار هذا السياق، وكلاهما صحيح ومراد، ومثل ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[1]، وغير ذلك من المبادئ القرآنية)[2].

قلت: فلا بد للمفسر من النظر الدقيق في هذا النسق من البحوث القرآنية التي يتمكن مع تقليب وجوه النظر في العبارة القرآنية، بحيث يستمد منه خيوطًا تنتهي إلى السياسة، والاجتماع، والعقيدة، والفكر، والدعوة وغير ذلك، مما ينزل معه القرآن منزلته، ويصير موجهًا للمجتمع الإنساني في أوجه نشاطه المختلفة.

(١) سورة الرحمن، آية [٦٠].

(٢) «المبادئ العامة في القرآن الكريم»: (ص١٠) بتصرف.

أصل آخر من أصول التفسير:
(السنن الإلهية) وأنها القوانين الإلهية الحاكمة للاجتماع البشري، والسارية في الكتاب الإلهي، وأنها علم أصيل من علوم القرآن

للبشرية تجربة طويلة مع الهداية، من خلال مواكب الرسل الكرام، وسلاسل الرسالات السماوية، والمواقف الفاصلة التي خاضها الأنبياء وحملة الدعوة مع أقوامهم، والعوائد التي أجراها الحق سبحانه بانتظام على البشر في أثناء ذلك، والتي شكلت أصولًا ضابطة لتقلبات الاجتماع البشري عبر الزمن، يمكن من خلال رصدها وتتبعها، واستقصائها وتحليلها، وتوظيفها، فَهْمُ أسبابِ نهوض الحضارات، وطبيعة المؤثرات التي تغير توجه الاجتماع البشري، ويمكن أن نحيط علمًا بآفاق من العلوم والمعارف لا تخطر على بال.

وما زال القرآن الكريم يحيل إلى تلك العوائد الإلهية في التعليل للأحداث الكبرى، التي نصر الله فيها أقوامًا دون أقوام، أو أمضى حدثًا، أو أنفذ مرادًا، أو أهلك أمة، أو غير ذلك، مع اتصاف تلك العوائد بالثبات، والاطراد، والعموم، مما يشكل ظاهرة قرآنية تعد عند التأمل من أصول الهداية القرآنية.

والعوائد الإلهية المذكورة كثيرة، سارية في ثنايا القرآن الكريم، منها سُنّة التكامل، ومنها سنة التدافع، ومنها سنة التوازن، ومنها سنة التعارف، ومنها سُنّة الله في الأسباب والمسببات، وفي الابتلاء والفتنة، وفي الجزاء وأنه من جنس العمل، وفي النصر والتمكين، وفي هلاك الأمم، إلى غير ذلك مما يبلغ نحوًا من خمسين سنة من السنن الإلهية، التي يمكن تصنيفها إجمالًا في: (سنن كونية، وسنن نفسية، وسنن اجتماعية، وسنن تاريخية) تشكل الأصول الإسلامية لمنظومة كاملة من العلوم

الاجتماعية والإنسانية التي يمكن أن تنشأ معتمدة على مصادرنا، ومناهجنا، وطرائقنا وأساليبنا في البحث والتنظير والاستنباط، حتى إن سماحة شيخنا الجليل، العلَّامة الإمام الشيخ علي جمعة -مفتي الديار المصرية- أشار في كتاب «سمات العصر» إلى: (أن هذا العلم قد يصل بنا إلى بناء علم أصول فقه الحضارة بعد أن وضع الإمام الشافعي علم أصول فقه النص الشريف)[1].

ورغم أن القرآن سمى تلك العوائد بسنة الله، وأحال إليها، وعلل بها، ونبه إليها؛ إلا أنه لم يحدث عند المسلمين التفات إليها على نحو من التأصيل والجمع والدراسة والتوظيف إلا مؤخرًا جدًّا على يد الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله.

قال رحمه الله تعالى: (إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننًا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علمًا من العلوم المدونة؛ لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون، التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وبينها العلماء بالتفصيل، عملًا بإرشاده، كالتوحيد، والأصول، والفقه)[2].

وأقول: لقد خبت هذه الجذوة بعده، ولم ينهض أحد لالتقاط تلك الإشارة والعكوف على توسيعها وتعميقها، إلى أن أفرد لها العلامة الشيخ محمد الصادق عرجون مؤلفًا مستقلًّا، اسمه: «سنن الله في المجتمع من خلال القرآن»، ثم تداول العلماء هذا العلم من بعد، فكتب فيه السيد محمد باقر الصدر كتابًا، اسمه: «السنن التاريخية في القرآن الكريم»، ثم الدكتور عبد الكريم زيدان في كتابه: «السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية»، والدكتور مصطفى الشكعة في كتابه: «السنن الإلهية في رحاب القرآن الكريم»، ثم الأستاذ محمد هيشور في كتابه:

(١) «سمات العصر، رؤية مهتم»: (ص٣٦).

(٢) «الأعمال الكاملة للشيخ الإمام محمد عبده»: (٥/ ٩٥).

«سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها»، والدكتور مجدي محمد محمد عاشور في كتابه: «السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم، أصول وضوابط»، والدكتور سيف عبد الفتاح في كتابه الماتع: «مدخل القيم».

ولا شك في أن الاطلاع على هذا العلم، ومتابعة أبحاثه وتشعباتها التي تتسلل إلى علم النفس، وعلم الاجتماع، وفلسفة التاريخ وغيرها- من أوجب الواجبات على المفسر؛ لما أنها تفتح له آفاق فهم وإدراك لمقاصد القرآن الكريم، وقد عد الأستاذ الإمام محمد عبده هذا العلم من الأمور التي لا تتم المراتب العليا للتفسير إلا بها، قال -رحمه الله تعالى- في مقدمة «تفسير المنار»: (ثالثها: علم أحوال البشر، فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب، وبين فيه ما لم يبينه في غيره، بين فيه كثيرًا من أحوال الخلق، وطبائعهم، والسنن الإلهية في البشر، قص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها.

فلا بد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم، ومناشئ اختلاف أحوالهم، من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل، وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه، ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة، من أهمها التاريخ بأنواعه.

وقال: أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[1] وهو لا يعرف أحوال البشر؟ وكيف اتحدوا؟ وكيف تفرقوا؟ وما معنى تلك الوحدة التي كانوا عليها؟ وهل كانت نافعة أو ضارة؟ وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم؟)[2].

(١) سورة البقرة، آية [٢١٣].
(٢) «تفسير المنار»: (١/ ٢٠).

أصل آخر عظيم من أصول التفسير:
علم (المقاصد القرآنية) وأنه من أعظم أدوات المفسر

القرآن الكريم كتاب إلهيٌّ جليل، أنزله الله تعالى مشتملًا على خلاصة هداياته لجنس البشر، وجعله متضمنًا للمقاصد الشريفة العظمى، والمطالب الجليلة العالية، كاشفًا للإنسان أبعاد القضايا الكبرى التي يرتبط بها، من مثل قضية: الألوهية، والوحي، والنبوة، والهداية، والإعجاز، والتشريع، والقيم، والنظم، والآداب، وأصول الاجتماع الإنساني، وبناء النفس البشرية وتزكيتها، وعمارة الأرض، وحقوق الأكوان، وعلاقات الأمم، إلى غير ذلك من المقاصد القرآنية الراقية.

وهناك فارق بين علم المقاصد القرآنية، وعلم مقاصد الشريعة، والعلاقة بينهما العموم والخصوص المطلق؛ حيث إن كل مقصد من مقاصد الشريعة هو أيضًا مقصد قرآني، وتبقى مقاصد أخرى للقرآن الكريم ليست من قبيل التشريع، بل من قبيل الآداب أو القيم أو العقائد وهكذا.

أما علم مقاصد الشريعة فقد نشط الأصوليون في دراسته، وكتب في ذلك الأقدمون لمحات شكلت جذور علم مقاصد الشريعة، على غرار جمل وقعت عند إمام الحرمين في «البرهان»، والإمام الغزالي في «شفاء الغليل»، حتى تكامل هذا العلم شيئًا فشيئًا على يد الإمام المجتهد العز بن عبد السلام في كتابه: «قواعد الأحكام، في مصالح الأنام»، ثم الإمام القرافي في كتاب: «الفروق»، ثم الإمام الشاطبي -وهو من مؤسسي هذا العلم- في كتاب: «الموافقات»، ثم من المتأخرين العلامة الطاهر بن عاشور في كتابه: «مقاصد الشريعة الإسلامية» وهو الذي جعله علمًا مستقلًّا منفصلًا عن علم الأصول، ثم الأستاذ الدكتور سيف عبد الفتاح

في كتابه: «مدخل القيم»، ثم عشرات من الباحثين، حتى بلغ علم (مقاصد الشريعة) مدًى بعيدًا من التحرير والنضج.

ولا شك في أن القرآن أوسع من الشريعة، بل ما هي إلا فرع من فروعه، وجدول منحدر من بحوره، ثم هو من وراء ذلك مشتمل على العقائد، والآداب، والنظم، وغيرها مما ذكرنا بعضه قبل قليل، وعليه فقد كان من أوجب الواجبات إنشاء علم يسمى: علم (المقاصد القرآنية) يبحث في مقاصد القرآن الكريم، ويجعلها مستويات بعضها فوق بعض، ويُقَعِّد لكل مستوى منها، ويصل تلك المستويات بمناحي الفكر والحياة، بحيث تنجلي المقاصد القرآنية الأصلي منها والفرعي، وتتضح مراميه التي يبني من خلالها قضية الهداية في النفوس، والقلوب، والعقول، والأمم، والشعوب.

وقد كان المألوف عند الأقدمين من المفسرين وغيرهم، التعبير عن تلك المقاصد إجمالًا، بأن الوحي الشريف -يريدون القرآن- اشتمل على ثلاثة أمور: التوحيد، والأحكام، والقصص. قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في «فتح الباري»: (وبيان كونها اشتملت على مقاصد القرآن أنها -يعني المقاصد- تنحصر في علوم التوحيد والأحكام والأخبار... إلخ)[1].

ولعل أول من اقتنص الفكرة وقعد لها هو الإمام الحجة أبو حامد الغزالي ت٥٠٥هـ -رحمه الله تعالى-، حيث جعل للقرآن ستة مقاصد: ثلاثة مهمة، وثلاثة متمة، وذلك في كتابه: «جواهر القرآن»، قال فيه: (الفصل الثاني: في حصر مقاصد القرآن ونفائسه، سر القرآن، ولبابه الأصفى، ومقصده الأقصى: دعوة العباد إلى الجبار الأعلى، رب الآخرة والأولى، خالق السماوات العلى، والأرضين السفلى، وما بينهما، وما تحت الثرى؛ فلذلك انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع: ثلاثة منها هي السوابق، والأصول المهمة، وثلاثة هي الروادف، والتوابع المغنية المتمة.

(١) «فتح الباري»: (٨/ ٧١٩).

أما الثلاثة المهمة فهي: تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه، وتعريف الحال عند الوصول إليه.

وأما الثلاثة المغنية المتمة، فأحدها: تعريف أحوال المجيبين للدعوة، ولطائف صنع الله فيهم، وسره ومقصوده: التشويق والترغيب، وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة، وكيفية قمع الله لهم، وتنكيله بهم، وسره ومقصوده: الاعتبار والترهيب.

وثانيها: حكاية أحوال الجاحدين، وكشف فضائحهم وجهلهم، بالمجادلة والمحاجة على الحق، وسره ومقصوده في جنب الباطل: الإفضاح والتنفير، وفي جنب الحق: الإيضاح والتثبيت والتقهير.

وثالثها: تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد، فهذه ستة أقسام)[1].

ثم مضى -رحمه الله- في شرح هذه الأصول على مدار الكتاب، حيث بنى الكتاب بأكمله على هذا المعنى.

ومن عجب أن الحافظ السيوطي -رحمه الله تعالى- قد نقل كلام الغزالي غير مرة في «الإتقان»[2]، ولم يستوقفه ذلك، ولا انتبه إلى جعله من علوم القرآن، مع ولعه بتنويع علوم القرآن وتكثيرها، كما يُعْلم من مطالعة مقدمات «الإتقان».

ثم رأيت في ترجمة الإمام المجد الفيروزآبادي ت ٨١٦ هـ صاحب: «القاموس المحيط» أن له كتابًا اسمه: «الدر النظيم، المرشد إلى مقاصد القرآن الكريم»[3] ولم أره، ولم أدر مقصده ولا منحاه، لكن أظنه مفيدًا جدًّا، يتوجب البحث عنه، فقد

(١) «جواهر القرآن»: (ص٢٣).
(٢) «الإتقان، في علوم القرآن»: (٢/ ٤١٩، ٤٢١).
(٣) انظر: «الضوء اللامع، في أعيان القرن التاسع» للسخاوي: (١٠/ ٨١).

ترجم المؤرخ الشيخ: عبد الوهاب بن عبد الرحمن البريهي السكسكي ت٩٠٤هـ في تأريخه -وهو مطبوع- للمجد الفيروزآبادي، فنقل في آخر ترجمته أبياتًا من تأليفه كأنها تلخيص لكتابه المذكور، قال البريهي: (ومن شعره في ذكر ما في القرآن العظيم:

ألا إنَّما القُرآن تسعة أحرف * أتيت بها في بيت شعر بلا خللْ
حلالٌ، حرامٌ، محكمٌ، متشابهٌ * بشيرٌ، نذيرٌ، قصةٌ، عظةٌ، مَثَلْ)[1]

ثم رأيت الشوكاني -رحمه الله- يقول في كتاب «إرشاد الثقات»: (وأما مقاصد القرآن الكريم التي يكررها، ويورد الأدلة الحسية والعقلية عليها، ويشير إليها في جميع سوره، وفي غالب قصصه وأمثاله، فهي ثلاثة مقاصد، يعرف ذلك من له كمال فهم، وحسن تدبر، وجودة تصور، وفضل تفكر، المقصد الأول: إثبات التوحيد، المقصد الثاني: إثبات المعاد، المقصد الثالث: إثبات النبوات)[2].

ثم إني لم أر لأحد كلامًا في هذا العلم الجليل من علوم القرآن بعد ذلك، ويمكن أن نقول: للقرآن العظيم مقاصد عظمى، منها:

قضايا الألوهية والمقصود بها مسائل التوحيد، وصفات الحق سبحانه وكمالاته، وما يجب وما يستحيل وما يجوز في حقه سبحانه.

ومنها: قضية مرادات الله تعالى من خلقه، ومنها: أنه يريد بنا اليسر، ويريد أن يخفف عنا، ويريد أن يبين لنا، وأنه يعدنا مغفرة منه وفضلًا، وهذه أمور مغايرة لشؤون التوحيد، ومغايرة لشؤون الأحكام وبحوث التشريع، مع تنصيص القرآن على أنها مما يريده الله تعالى بنا، فهذا مقصد قرآني عظيم يجب توسيعه.

ومنها: قضية الوحي، وأنها فيصل بين العالمين، آمنت به أمم، وكفرت به أمم،

---

(١) «تاريخ البريهي»: (ص٢٩٨).

(٢) «إرشاد الثقات، إلى اتفاق الشرائع على إثبات التوحيد والمعاد والنبوات»: (ص٣).

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۝ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[1] وإثبات قضية الوحي، وإقامة دلائلها وصحتها، مقصد قرآني عظيم، تترتب عليه مسائل كبرى، حيث أكد القرآن على أهمية القضية، ودافع عن كل أركانها، فدافع القرآن عن جبريل في سورة البقرة، ونعى على الأمم السابقة التلاعب بالوحي الشريف وتحريفه، وأخبر عن حفظ القرآن الكريم وصيانته، إلى آخر أركان هذا المقصد.

ويمكننا أن نقول مثل ذلك في القضايا الآتية: النبوة، والهداية، والإعجاز، والتشريع، والقيم، والنظم، والآداب، وأصول الاجتماع الإنساني، وبناء النفس البشرية وتزكيتها، وعمارة الأرض، وحقوق الأكوان، وعلاقات الأمم، وغير ذلك مما يجب أن يدرس في بحوث مستقلة، ولا بد للمفسر من الإحاطة بذلك، واستحضار هذه المقاصد؛ ليرى كيف أنه من أجلها ضربت أمثال، وأوردت قصص، وسيقت أخبار، ونزلت سور، فيحسن توظيفها في ما قصد بها.

(١) سورة البقرة، آية [٩٧-٩٩].

أصل آخر عظيم من أصول التفسير:
(الاشتقاق الأكبر) وأثره في فهم النَّص

الاشتقاق علم من أجلّ علوم اللغة على الإطلاق، وأشدها تأثيرًا في فهم دلالة التراكيب، وهو علم دال على ثراء العربية، وسعة بحور اللغة، والأصل فيه إدراك المعاني ثم ملاحظة سريان المعنى في كل الصور اللفظية المتناسلة الدالة عليه، والتي انتزع بعضها من بعض، أو عكس ذلك، بأن تجمع الألفاظ المتشابهة على نحو معين بغية الوصول إلى المعنى الذي تدور حوله، إضافة إلى أنه تستخرج به من اللفظ الواحد صور بالغة الكثرة، في تعبيرها عن الأحوال والهيئات والاحتمالات والفوارق الدقيقة، التي تطرأ على المعنى الواحد باعتبار تنوع المشخصات واختلاف الأحوال، بحيث يستخرج لكل حال صورة من صور اللفظ.

ثم هو علم واسع دقيق فيه مؤلفات كثيرة، وإنما أردت هنا نوعًا محددًا من أنواع الاشتقاق، وهو نوع تنوعت أسماؤه عند العلماء، فسماه الفخر الرازي في «مفاتيح الغيب»[1]: (الاشتقاق الأكبر)، وتبعه محمد راغب باشا في كتاب: «السفينة» له، وتبعهما صديق حسن خان في «العَلَم الخفاق، من علم الاشتقاق»[2].

وسماه ابن جني في «الخصائص»[3]: (الاشتقاق الصغير)، وتبعه الشوكاني في «نزهة الأحداق، في علم الاشتقاق»[4].

وسمَّاه العلَّامة عبد الله أمين في كتاب «الاشتقاق»[5]: (الاشتقاق الكبار، أو القلب اللغوي).

---

(١) «مفاتيح الغيب»: (١/ ٢٤).
(٢) «العلم الخفاق»: (ص١٤).
(٣) «الخصائص»: (٢/ ١٣٣).
(٤) «نزهة الأحداق»: (ص٤٣).
(٥) «الاشتقاق»: (ص٢).

وهؤلاء جميعًا يتكلمون على نوع واحد اختلفت أسماؤه، وقد أعلمتك بذلك لتعتني به، وتطالعه من كتبهم، مهما اختلف اسمه؛ لئلا يشتبه عليك، وإليك لمحة عنه.

قال الأستاذ عبد الله أمين في كتاب «الاشتقاق»: (الاشتقاق الكبار: وهو انتزاع كلمة من كلمة أخرى، بتغيير في ترتيب بعض أحرفهما، بتقديم بعضها على بعض، مع تشابه بينهما في المعنى، والاتفاق في الأحرف.

ويسمى هذا الاشتقاق: «قلبًا لغويًّا» تمييزًا له من القلب الصرفي الإعلالي، وهو: إبدال بعض أحرف العلة من بعض.

وقد أسميت هذا القلب اللغوي: «القلب الاشتقاقي»؛ لأنه من مباحث علم الاشتقاق، وأكثر ما يكون القلب الاشتقاقي في الكلمات الثلاثية، وبصيغتين في المادة الواحدة، مثل: «جذبه، وجبذه» إذا شده إليه، و«شج رأسه، وجشه» إذا كسره)[1].

قلت: ثم إليك لمحة عن طريقة إجرائه في الكلام، قال الإمام الفخر الرازي -رحمه الله- في «التفسير الكبير»:

(**المسألة الأولى**: اعلم أن أكمل الطرق في تعريف مدلولات الألفاظ هو طريقة الاشتقاق، ثم إن الاشتقاق على نوعين: الاشتقاق الأصغر، والاشتقاق الأكبر.

أما الاشتقاق الأصغر فمثل اشتقاق صيغة الماضي والمستقبل من المصدر، ومثل اشتقاق اسم الفاعل واسم المفعول وغيرهما منه.

وأما الاشتقاق الأكبر فهو: أن الكلمة إذا كانت مركبة من الحروف كانت قابلة للانقلابات لا محالة، فنقول: أول مراتب هذا التركيب أن تكون الكلمة مركبة من حرفين، ومثل هذه الكلمة لا تقبل إلا نوعين من التقليب، كقولنا: (من)، وقلبه: (نم).

وبعد هذه المرتبة أن تكون الكلمة مركبة من ثلاثة أحرف، كقولنا: (حمد)،

---

(١) «الاشتقاق»: (ص٢).

وهذه الكلمة تقبل ستة أنواع من التقليبات؛ وذلك لأنه يمكن جعل كل واحد من تلك الحروف الثلاثة ابتداء لتلك الكلمة، وعلى كل واحد من التقديرات الثلاث، فإنه يمكن وقوع الحرفين الباقيين على وجهين، لكن ضرب الثلاثة في اثنين بستة، فهذه التقليبات الواقعة في الكلمات الثلاثيات، يمكن وقوعها على ستة أوجه.

ثم بعد هذه المرتبة أن تكون الكلمة رباعية، كقولنا: (عقرب، وثعلب)، وهي تقبل أربعة وعشرين وجهًا من التقليبات؛ وذلك لأنه يمكن جعل كل واحد من تلك الحروف الأربعة ابتداء لتلك الكلمة، وعلى كل واحد من تلك التقديرات الأربعة، فإنه يمكن وقوع الحروف الثلاثة الباقية على ستة أنواع من التقليبات، وضرب أربعة في ستة يفيد أربعة وعشرين وجهًا.

ثم بعد هذه المرتبة أن تكون الكلمة خماسية، كقولنا: (سفرجل)، وهي تقبل مائة وعشرين نوعًا من التقليبات؛ وذلك لأنه يمكن جعل كل واحد من تلك الحروف الخمسة ابتداء لتلك الكلمة، وعلى كل واحد من هذه التقديرات، فإنه يمكن وقوع الحروف الأربعة الباقية على أربعة وعشرين وجهًا على ما سبق تقريره، وضرب خمسة في أربعة وعشرين بمائة وعشرين.

والضابط في الباب: أنك إذا عرفت التقاليب الممكنة في العدد الأقل، ثم أردت أن تعرف عدد التقاليب الممكنة في العدد الذي فوقه، فاضرب العدد الفوقاني في العدد الحاصل من التقاليب الممكنة في العدد الفوقاني، والله أعلم.

المسألة الثانية: اعلم أن اعتبار حال الاشتقاق الأصغر سهل معتاد مألوف. أما الاشتقاق الأكبر فرعايته صعبة، وكأنه لا يمكن رعايته إلا في الكلمات الثلاثية؛ لأن تقاليبها لا تزيد على الستة. أما الرباعيات والخماسيات فإنها كثيرة جدًّا، وأكثر تلك التركيبات تكون مهملة، فلا يمكن رعاية هذا النوع من الاشتقاق فيها إلا على سبيل الندرة، وأيضًا الكلمات الثلاثية قلما يوجد فيها ما يكون جميع تقاليبها الممكنة معتبرة،

بل يكون في الأكثر بعضها مستعملًا، وبعضها مهملًا، ومع ذلك فإن القدر الممكن منه هو الغاية القصوى في تحقيق الكلام في المباحث اللغوية)[1].

قلت: وقد نص الإمام الفخر، والعلامة عبد الله أمين فيما نقلت من كلاميهما على أن أكثر ما يستفاد من هذا الضرب من الاشتقاق في الألفاظ الثلاثية، ثم هو في الرباعية والخماسية عسر قليل الفائدة.

وقد عني العلامة اللغوي الضليع الأستاذ أحمد فارس الشدياق -رحمه الله- بجمع كل الألفاظ التي دخلها القلب والإبدال، مع الألفاظ المترادفات في فوائد أخرى حسنة، في كتاب جليل اسمه: «سر الليال، في القلب والإبدال».

وإليك أنموذجًا من التحليل الاشتقاقي لكلمة من القرآن الكريم، تطلعك على فائدة هذا العلم الشريف، وأثره في كمال الإحاطة بالمعاني القرآنية المرادة، والتي خفيت بعض جوانبها وراء اللفظ، الذي أومأ بصورته الاشتقاقية إلى المعنى؛ فاكتفى المتكلم سبحانه بذلك الإيماء عن التصريح:

مادة الكاف واللام والميم (ك ل م) ترد عليها بحسب ما سبق ستة من التراكيب: (ك ل م)، (ك م ل)، (ل ك م)، (ل م ك)، (م ك ل)، (م ل ك)، استعملت العرب منها خمسة وأهملت السادس الذي هو: (ل م ك).

قال في «العلم الخفاق»: (والمعنى الجامع لهذه التراكيب: القوة والشدة، فالكَلْم: الجرح لما فيه من الشدة، والكُلَام -بضم الكاف: ما غلظ من الأرض؛ وذلك لقوته وشدته، ورجل كَلِيم: أي مجروح وجريح، وكَمُلَ الشيء فهو كامل وكَمِيل إذا تم، وهو أقوى وأشد من الناقص، ولَكَمَ: إذا أوجع وضرب، وفيه شدة ظاهرة، ومَكُلَت البئر -بضم الكاف- فهو بئر مَكُول: إذا قل ماؤها، وهي إذا قل ماؤها مجفوة

(١) «التفسير الكبير»: (١/ ٢٤)، وانظر كتاب: «الاشتقاق» لعبد الله أمين: (ص٣٧٣-٣٨٨).

الجانب، وتلك شدة ظاهرة، ومَلَك العجين: إذا أنعم عجنه فاشتد وقوي، ومنه المُلْك؛ لما فيه من القوة لصاحبه والغلبة)[1].

قلت: فيمكن للمفسر لكتاب الله تعالى -توليدًا على ذلك- أن يتوسع في تحليل لفظ: (المَلَك)، والملائكة جنس شريف من الخلق معروف، أورد القرآن بعض أوصافهم وسكت عن بعض؛ اكتفاءً بدلالة الصورة الاشتقاقية للفظ الملك؛ إذ الأصل في اللفظ الدلالة على القوة والبأس، فكأن الأصل في الملك: القوة، تلك القوة التي تشيع وتسري في كل سماته وأوصافه، فهم لا يأكلون ولا يشربون، وهذه قوة، وهم لا ينامون، وهذه قوة، وهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وهذه قوة، ومنهم خزنة جهنم، وهم ملائكة غِلاظ شِداد، وهذه قوة، ثم هم مع بأسهم وسطوتهم وقوتهم يجمعون إلى ذلك غاية الخضوع للحق، فهم يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون، وهم مع حملهم للعرش يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون للذين آمنوا؛ مما يلفت نظر المفسر إلى توظيف قضية الملائكة في ترسيخ معنى عظمة الحق سبحانه، من حيث خضوع هذه الأكوان العظمى لجلاله، ويلفت نظر المفسر إلى جلال وعظمة القضية التي عرضها الحق سبحانه في قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ۝ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[2]، ويعين المفسر على التصور الكامل لعظمة الإمداد بثلاثة آلاف، ثم بخمسة آلاف من الملائكة، الذين اتضحت سماتهم في الأوصاف السابقة، وكيف أن هذا الإمداد حدث هائل عظيم، تهتز له القلوب وجلًا إن تصورت معنى الملك، ثم تعين المفسر على الكشف عن قيمة تلك البشارة، التي جاءت مخبرة بضمهم إلى صف المؤمنين، ويلوح بهذا سر

---

(١) «العلم الخفاق»: (ص٤٥).

(٢) سورة آل عمران، آية [١٢٤-١٢٦].

الحديث القرآني بعدها مباشرة عن طمأنينة القلب، وقطع طرف الكافرين، وكبتهم، وخيبتهم، وأن ذلك كله نتيجة طبيعية للإخبار بالإمداد بملك واحد، فكيف بالألوف المؤلفة منهم؟!.

ثم إن هذا المدخل يلفت النظر إلى تغيير الصورة الشائعة في التصور الغربي عن الملك، حيث يشيع في الأدبيات الغربية أنه كائن في غاية الوداعة والرقة؛ فإن التصوير القرآني لهم، بل مجرد الفهم العميق لمدلول الاسم، كفيل بتغيير ذلك التصور، بحيث يراعى عند ترجمة معاني القرآن مثلًا أن تشرح كلمة (الملك) شرحًا كاشفًا عن تلك السمات، التي أخبر بها القرآن عن أوصاف الملائكة.

وبهذا المدخل أيضًا تتضح خصوصية جبريل، حينما وصفه الحق سبحانه بقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾(١) وأن خصوصيته ليست هي القوة؛ إذ القوة وصف لأي ملك، من حيث إنه ملك، لا يتميز بها واحد منهم عن الآخر، بموجب دلالة الاسم كما ذكرنا، وإنما اختص جبريل بقدر زائد، ومن هنا جاءت عظمة التعبير في قوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ إذ الوصف الخاص به شدة القوة لا مطلق القوة.

ويتضح لك أيضًا سر قوله سبحانه عن جبريل أيضًا: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾(٢)، فهو هنا وصفه بمطلق القوة؛ لعدم ذكر لفظ الملك الذي يفيد معنى القوة، ولعدم ذكر ما يشعر به ويقوم مقامه، فلربما اشتبه على القارئ المراد بالرسول، أهو النبي ﷺ أو جبريل عليه السلام؟! فلما لم يذكر اللفظ بل عبر عنه بلفظ الرسول وصفه بالقوة؛ ليلتفت نظر العربي الفصيح، الذي وعى مدلول كلمة الملك، إلى أن المراد هنا جبريل وليس النبي ﷺ، فصارت كلمة (ذي قوة) في قوة قوله: (ملك)، وكأنه أيضًا لم يحتج في سورة التكوير إلى الوصف بشدة القوة؛ لما أن الوصف الذي قصد تكريم جبريل به هناك، هو المكانة عند ذي العرش سبحانه، فاكتفى أولًا بما

(١) سورة النجم، آية [٥، ٦].

(٢) سورة التكوير، آية [١٩، ٢٠].

يفهم منه القارئ أن الحديث عن جبريل، ثم خلص به إلى الوصف المقصود في ذلك الموضع، بخلاف سورة النجم؛ لأن الوصف المقصود فيها هو الإبانة عن خصوصية قوة جبريل، فلو أنه وصفه بالقوة مع وضوح كون الكلام عنه، لما زاد شيئًا على مدلول لفظ الملك، ولأن السياق في سورة النجم واضح في الحديث عن موحًى إليه، ووحي، وموحٍ؛ إذ قال هناك: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾[1]، فتكلم عن النبي ﷺ ثم بيَّن أن كلامه وحي، ثم انتقل إلى وصف من يأتيه بالوحي، فعلم أن الكلام الآن عن ملك، وبمجرد اسمه وصف بالقوة، فقال هنا: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، وسبحان مَنْ هذا كلامه.

وإذا أَلِفْنا النظر والتأمل في المفردات القرآنية بهذه الطريقة؛ انفتحت لنا آفاق رحبة في الوقوف على التصورات الكاملة، التي أراد القرآن لنا أن نعرفها ونحيط بها، قال العلامة الأستاذ عبد الله أمين: (وهذا الضرب من الاشتقاق إذا أحسن الانتفاع به أمد اللغة بثروة حسنة)[2].

قلت: لأن الألفاظ حينئذ سوف تنثر لنا مكنوناتها، ويبوح كل لفظ بما يحمله معناه من أبعاد، ولا يخفى أن هذا في غاية الأهمية في فهم القرآن العربي المبين.

وقد توسع في تطبيق قواعد الاشتقاق في تحليل التركيب القرآني الدكتور عودة الله منيع القيسي، في كتاب مهم جدًّا، اسمه: «سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن» وهو مطبوع.

وهذا آخر الكتاب المسمى بـ«المدخل إلى أصول التفسير»، والله أسأل أن يفتح لنا من أبواب الفهم في كتابه الكريم، وأن يرزقنا السداد والتوفيق والرشد، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

---

(١) سورة النجم، آية [٢-٦].

(٢) «الاشتقاق»: (ص٢).

الفهـرس

* مقـدمـة ٧
* المدخل إلـى أصول التفسير ١٧
* مدخل وتوطئة ١٩
* أصل مـن أصول التفسير في : «علاقـة القرآن الكـريم بالعلـوم المختلفـة» ، وأثر ذلك في تحديد آلات المفسر وأدواته ٢١
* أصل من أصـول التفسير في : مستويات الهداية القرآنية ، وأثرها في فهـم المفسر لكيفية مخاطبة القرآن للخلق أجمعين ٢٧
* أصل آخر من أصول التفسير في : أنَّ القرآن يُبيِّن بعضه بعضًا ٣٣
* أصل آخـر من أصول التفسير وهـو : أنَّ السُّنَّة النبويـة ثاني الـوحيين ، وأنها نـابعة من القرآن ومـوضحة لمعانيه ٣٥
* أصـل آخر من أصول التفسير وهـو : أنّ علم أصـول الفقه اشتـمل على ضـوابط فهم النص وتحليله ، فـوجبت عناية المفسر به ٣٩
* أصل عظيم من أصـول التفسير في : اتساع مدلـولات التراكيب بحسب اتساع الأسقف المعرفية ، والتراكمات الحضارية ، وحاجة المفسر إلى متابعة ذلك واستيعابه ٤٣
* أصل عظيم من أصول التفسير في : مسالك القرآن في التأثير على النفس ، وأثر ذلك في فهم النص القرآني وتحليله ، ووجوب تحصيل آليات ذلك ٤٧
* أصل من أصول التفسير في أن : قصـص الأنبياء مناقشة لأصـول المناهج الفكرية ، التي يـدور حولها الفكر الإنساني عبر الزمان ٥١
* أصل من أصـول التفسير في : (محاور سور القرآن) وأثـرها في فهم النصوص القرآنية . ٥٥
* أصل آخـر من أصول الـتفسير في : (المبادئ القـرآنيـة) ، أو : (الدلالـة المستقلـة) وأنها مسلك عملي انتهجته الأمة في الانتفاع بآيات القرآن عبر الزمان ٥٩
* أصل آخر من أصول التفسير : (السنن الإلهية) وأنها القوانين الإلهية الحاكمة للاجتماع البشري ، والسارية في الكتاب الإلهي ، وأنّها علم أصيل من علوم القرآن ٦٧
* أصل آخر عظيم من أصـول التفسير : علم (المقاصـد القرآنيـة) وأنه من أعظم أدوات المفـسر ٧١
* أصل آخر عظيم من أصول التفسير : (الاشتقاق الأكبر) وأثره في فهم النَّص ٧٧
* الفهرس ٨٥

النبراس في تفسير القرآن الكريم

المقدمة

سورة الفاتحة

الربع الأول من سورة البقرة

لفضيلة الإمام العلامة

نور الدين علي جمعة

مفتي الديار المصرية

قدم له وخرج أحاديثه

أسامة السيد محمود الأزهري

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة النبراس

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، ورحمة الله تعالى للعالمين، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد...

فهذه لمحة حول مبادئنا التي تبين كيف نتعاملُ مع الكتاب المكرَّم ومع السنة المشرَّفة، وكيف نتعامل مع التراث الإسلامي المتولد من هذين المصدرين الشريفين، ومع التراث الإنساني عامة، وكيف نَصُوغ مبادئ المنهجية الإسلامية التي أنتجت هذا التراث، وتبين كذلك مناهجنا في قضية إدراك الواقع.

وهذه المجموعة من المحاور والمسالك، هي التي تُحدد فكر الإنسان في عصرنا الحديث، وتجعله قادرًا على فهم هذا العصر، وعلى فهم هذا الدين، وعلى الوَصْل بينهما، وهو الأمر الذي نكرره كثيرًا عندما نتكلم عن صناعة الإفتاء مثلًا، ولا شك في أن هذا الأمر يحتاج إلى تفصيل في كل نقطةٍ من هذه النقاط.

ومبادؤنا التي نتكلم عنها، كُلُّها تصب في كيفية التعامل مع القرآن الكريم، فإننا نؤمن بأن هذا الكتابَ كلامُ رب العالمين، وكثيرٌ من البشر لا يعتقدون مثل ما نعتقد، لكننا آمنَّا وصدَّقنا، وقام البرهان القطعيُّ لدينا على ذلك؛ لأننا نعرف اللغة العربية، ولأننا حفظنا القرآن الكريم عن ظهر قلب، وتلوناه بالليل والنهار، وتدبرنا فيه تدبُّرًا واسعًا، وقرأنا ما حوله من علوم، وكلما فعلنا ذلك ازداد إعجابُنا به، وهذا الإعجاب

هو جزءٌ من الإيمان، فيزداد إيماننا به، وهذا الإيمان لم يقف عند حد الانبهار والدهشة، بل إننا طبقنا ما ورد فيه من حقائق، وما ورد فيه من سُنن إلهية، وما ورد فيه من مبادئ، وما ورد فيه من قيم تتصل بمنظومة أسماء الله الحسنى، وما ورد فيه من أحكام شرعية، وما ورد فيه من مقاصد عُلْيا وعظمى، اسْتُخْلِصَت بعقول أئمة الأئمة ونبغائها عبر التاريخ، فأنتج ذلك كله حفظَ النفس، وحفظَ العقل، وحفظ الدين، وحفظ العِرْض الذي هو كرامة الإنسان، وحفظ المِلْك الذي هو المال، وأنتج ذلك كله حضارة، وتجربة بشرية راقية، كل ذلك جعلنا ننبهر بهذا الكتاب.

ثم إن انبهارنا به أيضًا جاء من أدائه اللُّغوي، فقد قارنَّاه بالشعر فلم يكُ شعرًا، وقارناه بالنثر فلم يكُ نثرًا، وقارناه بالمحاولات التي حاولها بعضهم في تقليده من المحدثين ومن الأوائل، وكانت هذه المحاولات عبر التاريخ تؤكد وتؤيد إعجاز القرآن؛ إذ لم يحفظها أحد، ولا يستطيع أن يحفظها أحد، في حين أن القرآن يحفظه الصغير والكبير، والعربي والأعجمي، والمرأة والرجل، والجاهل والأُمِّيّ، والمتعلم والعالم، فهذه مسألة عجيبة غريبة.

وقد تُرْجِمَ القرآن إلى أكثر من مائةٍ وثلاثين لغةً، فلم نسمع على وجه الأرض أنَّ أحدًا ممن تَرْجَمه حَفِظ كلام ترجمته الذاتية هذه، التي ترجمها هو بنفسه، ولكنه يحفظ القرآن، ولا يحفظ المقابل لهذا، ولم يحفظه أحد، فما هذا؟ إنها كلمة الله التي تَصْرُخُ في العالمين.

المهم أننا نؤمن أولًا: بأن هذا الكتاب من عند الله تعالى، ونؤمن ثانيًا -وهذا مدخل لتفسيره: أن هذا الكتاب ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾[1] وأنه محفوظٌ بحفظ الله له، وأن الله -سبحانه وتعالى- تعهَّد بحفظه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[2]، فبموجب هذا نفهم النصوص القرآنية على مستوى

---

(١) سورة فصِّلت، آية [٤٢].
(٢) سورة الحجر، آية [٩].

الحرف؛ لأنه نص مصون، لا زيادة فيه ولا نقصان، فلكل حرف ولكل كلمة فيه موضع وحكمة.

ورغم أن هناك القراءات المتواترة المتَّفق عليها بَيْن المسلمين، وهي قائمةٌ لا إشكال فيها، فإن مصاحف الغرب كمصاحف الشرق، حتى إن معهدًا من المعاهد البحثية، قام قبل الحرب العالمية الثانية في برلين، وجمع أكثر من أربعين ألف نسخة من مخطوطات المصحف الشريف، وقدم تقريرًا محفوظًا في المكتبة الوطنية في برلين إلى الآن، يقول: إنه بعد المقارنات التامة بين كل هذه النسخ، فإنهم لم يجدوا أي أخطاء، أو أي نوع من أنواع تحريف الكتاب، وأن هذا كتابٌ محفوظ بكل معنى الكلمة، وقد اطَّلَع على هذا التقرير محمد حَمِيدُ الله، وكتب في مجلة «الأمة» مقالاً عن هذا التقرير، وأتت الحرب العالمية الثانية فذهب هذا المعهد في برلين، ذهب حتى بنُسخ القرآن، الأربعين ألف نسخة، التي جُمعت من كل العصور، ومن كل مكان، فلم يجدوا فيها اختلافًا.

نعم، هناك قراءات شاذة موجودة في الكتب، لكن هل يمتلك أحدُهُم مصحفًا مخالفًا للمصحف المعتمد بقراءاته العشرة؟ أبدًا، ولا وجود لهذا عبر التاريخ.

إذًا، القرآن محفوظ، وهذه حقيقةٌ ثانية، نتعامل مع القرآن بموجبها، ولذلك فإننا نهتم في التفسير بمستوى الحرف، من الفاء والواو، وسائر حروف المعاني، وكل شيء فيه نهتم به أساسًا.

ثالثًا: نحن عندما ندخل إلى القرآن نُفَسِّره بإطلاقيةٍ، وهذا جزءٌ من التفسير، والإطلاقية معناها أنه محرَّرٌ من الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، وهذا معناه أنه صفةٌ من صفات الله -سبحانه وتعالى-، فكأنه قد نَزَلَ الآن، إذًا فالدعوة إلى التاريخية أو التاريخانية مما يستعمل في الأدبيات الحديثة، هي دعوة شبيهةٌ ومقاربة في وجه من الوجوه لقضية خلق القرآن، التي ظهرت في عصر المأمون، وخلق القرآن

معناه أنه شيءٌ حَادِث لم يكن قبل ذلك، وما دام حادثًا فهو محصور في بيئته، وبذلك فإنه لا يتعدَّى الزمان ولا يتجاوز المكان، لا يقفز فوق الأشخاص والأحوال، وعلى ذلك فهو صالحٌ للعصر النبوي وشبيه العصر النبوي، ولأولئك الذين كانوا حول النبي ﷺ، وشبيه مَن كانوا حول النبي ﷺ، فإذا تغيَّرت العصور، وخرجت عما كانوا يسيرون فيه، فإنه لا يصلح لهذا.

هذه دعوة قد يؤيدها بعض مَن أسْمَوا أنفسهم بالمفكرين المُحْدَثِين، الذين أرادوا أن يتحرروا من إطلاقية القرآن، ومن أنه متجاوز للزمان والمكان والأشخاص والأحوال، ولكننا نؤمن بهذه الإطلاقية، ونؤمن أنه ليس منحصرًا في تاريخ معين، ولا في زمنٍ معين، ولا في أشخاصٍ معينين، وقد ظهرت طائفة قليلة تؤمن بالنبي ﷺ باعتباره نبيًّا للعرب فقط وليس للعالمين، ونحن نرفض هذا الاتجاه، ونرفض هذا الكلام، فإنه ﷺ قد أرسل ﴿ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[1]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2]، وأخبرنا ﷺ أنه «**كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً**»[3]، فكان ﷺ وإلى يوم الدين هو خاتم النبيين والمرسلين، وهو المصطفى المختار، وهو الْمَسِيَّا الذي تكلمت عنه الكتب السابقة، فهو ﷺ باقٍ فينا بقرآنه الذي أوحاه الله إليه، فنحن إذًا نفسر القرآن بإطلاقية.

رابعًا: نحن نفسر القرآن بلغة العرب، ولغةُ العرب لغةٌ عجيبة وثَرِيَّة، وسيأتي هنا في كتابنا هذا كلامٌ طويلٌ عن الفلسفة اللغوية، وهي بعض تلميحات ألقيناها في

(١) سورة سبأ، آية [٢٨]. (٢) سورة الأنبياء، آية [١٠٧].

(٣) رواه البخاري في «صحيحه»: (١/ ٤٣٧) فتح- كتاب: التيمم، ومسلم في «صحيحه»: (١/ ٣٧٠) كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، وابن حبان في «صحيحه»: (١٤/ ٣٠٨) باب: ذكر الخصال التي فضل بها ﷺ على غيره، والنسائي في «سننه»: (١/ ٢٠٩) كتاب: الغسل والتيمم، باب: التيمم بالصعيد، والدارمي في «سننه»: (١/ ٣٧٤) باب: الأرض كلها طهور، ما عدا المقبرة والحمام، وغيرهم كثير، كلهم من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

الطريق على أهمية اللغة العربية وعلى خصائصها، ونحن -بفضل الله- ندرك اللغة بخصائصها، وقواعدها، وقوانينها، وأساليبها، وهذه الأربعة التي هي: الخصائص، والقواعد، والقوانين، والأساليب، تساعدنا دائمًا في فَهْم كلام الله سبحانه وتعالى.

فنحن نتعامل على مستوى الحرف، فنقف عند كل حرف لنفهم دلالاته.

والحروف في لغة العرب منها حروفٌ للمباني، ومنها حروفٌ للمعاني. أما حروف المباني فهي التي تتكون منها الكلمة، وهي ثمانية وعشرون حرفًا، وهي: الألف والباء والتاء والثاء والجيم إلى آخر الحروف التي تنتهي بالياء، بهذا الترتيب الهجائي، وهو الذي كان أولًا ترتيبًا أبجديًا على ترتيب: (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ)، و(ثخذ ضظغ) هذه هي الحروف الستة المسماة بـ(الحروف الروادف)، أو (الحروف الملحقة)، والتي هي الزيادة على ما كان في العبرية، فقد كان في اللاتينية وفي العبرية اثنان وعشرون حرفًا، ولكِنّ العربية تزيد على ذلك بستة أحرف، لا تنطق بها العبرية، ولا تنطق بها اللاتينية، فجعلوها في الآخر في هذا الترتيب الأبجدي، فهناك ترتيب هجائي وهناك ترتيب أبجدي.

ولكن حروف المعاني منها ما كان على حرفٍ واحد مثل: الواو والفاء والباء والتاء، ومنها ما كان على حرفين مثل: عن ومن، ومنها ما كان على ثلاثة مثل: إلى وعلى، ومنها ما كان على أربعة مثل: لعلَّ، ومنها ما كان على خمسة مثل: لكنَّا، ولا تزيد حروف المعاني على ذلك، وكل حرف من حروف المعاني -التي وصلت إلى نحو تسعين حرفًا في لغة العرب- له معنًى أو أكثر، وقد عُدَّت هذه المعاني فكانت نحو ستة وخمسين معنًى، منها: الابتداء، والغاية، والانتهاء، والتبعيض، والظرفية، والاستعلام، والقسم، والتحضيض، والتمني، والتأكيد... وهكذا.

وهذه الحروف ليست كلها مذكورةً في القرآن الكريم، بل مذكورٌ منها في القرآن

نحو أربعة وثلاثين، وكل حرف قد يكون له معنًى، أو اثنان، أو ثلاثة، أو أربعة، إلى تسعة فأكثر، كما فَصَّل ذلك كله ابن هشام[1] في كتاب: «مُغني اللبيب، عن كتب الأعاريب»، وبعضها يكون حقيقة، وبعضها يكون مجازًا، ونحن نؤمن بأن الحقيقة والمجاز من أساليب العرب، ونؤمن بالإطلاق والتقييد، فكلما قَلَّت القيود زاد الموجود، نؤمن إذًا بأن هذا الكتاب إذا أردنا أن نفسره فلنفسره باللغة العربية.

فإذا كان هذا الكتاب من عند الله أولًا، وإذا كان هو المحفوظ في ذاته ثانيًا، وإذا كان لا بد من أن ندخل له من مدخل الإطلاقية ثالثًا، وإذا كان لا بد من أن نستعمل العربية بخصائصها، وقواعدها، وقوانينها، وأساليبها في التفسير رابعًا؛ فإننا سنجد أنفسنا نحتاجُ أيضًا إلى معرفة ما يُحيط بالنص حين نزوله، فإن هذا النص لا نستطيع أن نفسره بحيث نستنبط منه أحكامًا تخالف نصًّا شرعيًّا آخر، في الكتاب أو في السنة، ولا نستطيع أن نستنبط منه معنًى يَكِرُّ على مقاصد الشريعة بالبطلان، ولا نستطيع أن نستنبط منه معنًى يقدح في إجماع الأمة، ولا نستطيع أن نستنبط منه معنًى يُضَيِّع مصالح الناس، أو تكون له مآلات سيئة وليست خيِّرة؛ لأن هذا الكتاب قال لنا: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

فلا بد إذًا من مراعاة سقفٍ معرفيٍّ مكوَّنٍ من لغة العرب، ومن الإجماع، ومن المقاصد الشرعية، ومن المصالح المَرْعية، ومن المآلات المعتبرة، وهذا سقفٌ لا نستطيع أن نتعداه، وهو جزءٌ من المدخل لتفسير القرآن الكريم.

---

(١) هو الإمام النحوي الحجة أبو محمد جمال الدين عبد الله بن يوسف الأنصاري المعروف بابن هشام ت٧٦١هـ، ترجم له الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة»: (٢/ ٤١٥)، والسيوطي في «بغية الوعاة»: (٢/ ٦٨)، قال الحافظ ابن حجر: (وتصدر الشيخ جمال الدين لنفع الطالبين، وانفرد بالفوائد الغريبة، والمباحث الدقيقة، والاستدراكات العجيبة، والتحقيق البالغ، والاطلاع المفرط، والاقتدار على التصرف في الكلام، والمَلَكة التي يتمكن بها من التعبير عن مقصوده بما يريد مسهبًا وموجزًا، مع التواضع والبر والشفقة، ودماثة الخلق، ورقة القلب، قال لنا ابن خلدون: ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له: ابن هشام، أنحى من سيبويه).

(٢) سورة الحج، آية [٧٧].

والمداخل لتفسير القرآن الكريم في الحقيقة كثيرة، منها: أنه لا بد علينا من أن نبني على ما سَبَقَنا؛ ولذلك ينبغي علينا أن نقرأ ما كُتِبَ حول القرآن الكريم في التفاسير المختلفة، والأمر ليس قاصرًا على كتب التفسير، بل يساعد في ذلك كتب الحديث، ويساعد في ذلك -خاصةً في آيات الأحكام- كُتب الفقه، وكتب تفسير آيات الأحكام، ويساعد في ذلك أيضًا كتب الأدب وكتب اللغة، فإن حضارة المسلمين بكليتها قد خَدَمَت هذا المحور، الذي جعلته محورًا لحضارتها وهو الكتاب الكريم، وهذه العلوم كثيرة، حول ما وهبه الله للناس في تفسير كتاب الله، فلا بد من أن نَطَّلِع عليه ونحن نخوض لُـجَّة التفسير هذه.

ومن الأسس في مداخل التفسير: أننا نبحث فيه باعتباره كتاب هداية؛ إذ ليس هو بكتاب جغرافيا، ولا بكتابٍ في حقائق علمية تجريبية، لكنه رغم ذلك لا يخالف الجغرافيا ولا يخالف الحقائق العلمية، ولا تنتهي عجائبه.

فهذا سابعًا، ثم ثامنًا: أنه لا تنتهي عجائبه، فنحن ندخل فيه ونفسره بما يُقيم الاجتماع البشري، ويطوره، ويُمَكِّنُه، ويبني المؤمن، فإن «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**»[1]؛ ولذلك بحثنا ونحن نقوم بالتفسير عن السنن الإلهية بأقسامها المختلفة، وعن منظومة القيم والعلاقات البينية فيها، فتبين أن هذه المنظومة قائمة على أسماء الله الحسنى التي توجد في القرآن الكريم.

فالضابط التاسع في مدخل التفسير هو: التصور الخلَّاق، ثم هناك تَدَاعي الأفكار، وهناك الأسئلة الممتدة، وهي أحد ضوابطنا في التفسير، فعندما أنظر في آية من الآيات فإنني أسأل نفسي: كيف أطبقها؟ فتأتيني مشكلات، فأنظر في كيفية حل

(١) رواه مسلم في «صحيحه»: (٤/ ٢٠٣٦) كتاب القدر، باب فى الأَمْرِ بالقُوَّة وَتَرْكِ الْعَجْزِ وَالاِسْتِعانة بالله وَتَفْوِيض الْمَقَادِير للهِ، وابن حبان في «صحيحه»: (١٣/ ٢٩)، وابن ماجه في «سننه»: (٢/ ١٣٩٥)، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين.

هذه المشكلات، بحيث أتمكن من ذلك وأنا في ظلال القرآن وتحت سقف الشريعة، وبينما أنا أقوم بحل تلك المشكلات فإنه تطرأ أسئلة، وتبرز إجراءات، فأجيب عنها في صورةٍ متتالية ممتدة، فيها تداعٍ للأفكار، والغرض من كل ذلك هو خدمة النص بكيفية تطبيقه على الواقع.

ثم إننا نبحث عن السنن الإلهية، وعن المبادئ العامة، وعن القيم، وعن المقاصد الشرعية، وعن القواعد الفقهية، التي تمثل مدخلًا مهمًّا لفهم القرآن، ومعرفة نسقه في بناء الأحكام، كُلُّ هذا هو الذي طبقناه أثناء التفسير، ونحن نبحث فيه عن أصول المسائل، وعن عناصر صناعة الحضارة، وعن العلاقات بين الأمم، وعن العلاقة بين الرجل والمرأة، وعن العلاقة بين الإنسان والكون، وعن العلاقة بين المخلوق والخالق، وعن كيفية تكوين أصول العبادة، وكيفية تكوين أصول العمران والتمدن، وكيفية تكوين أصول التزكية، وكيفية استخراج القيم والمعاني الراقية، من مثل: أحكام الطفولة، ومعاني حفظ البيئة، ومعاني السعي في الأرض بالهدى، وتصحيح صورة الإسلام في العالمين، مما ينشئ العلاقة بين العبد وربه، وبين العبد والكون، وبين العبد ونفسه، كل ذلك له أصول وإجراءات، وهذه الأصول هي التي نحاول أن نستخرجها بالتفصيل من كتاب الهداية الذي هو ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، آية [٢].

المقدمة الأولى

مداخل مهمة
قبل الشروع في التفسير

المقدمة الأولى

القرآن الكريم هو محور حضارة المسلمين عبر التاريخ، تنبثق منه العلوم والمعارف والآداب والفنون، وتنشأ حوله دوائر العلوم الخادمة، التي تعين على فهمه وإدراك مقاصده، فما معنى كونه محورًا للحضارة؟! معنى ذلك أنه عليه الخدمة، ومنه الانطلاق، وإليه المرجع، وهو معيار التقويم، هذا معنى المحورية، ومعناها أيضًا أنه نص شريف، تلتف حوله الحضارة الإسلامية، فتنشأ الفنون بإبداعاتها، والآداب بإلهاماتها، والحياة بسياقها، في رعاية القرآن، ومن وإلى القرآن.

ويمكن أن نقول: إن القرآن فوق كونه محورًا للحضارة فإنه كتاب هداية، فما معنى كونه كتاب هداية؟ الذي ظهر لنا أن القرآن يمكن أن يفتح الله عليك فيه ما لم يفتح لآخرين، حتى نطلب جميعًا منه هدايته، فنطلب منه معرفة السنن الإلهية، ونطلب منه معرفة المبادئ العامة التي تكلم عنها القرآن، ومعرفة منظومة القيم التي ربطها الله تعالى -في ظني وتقديري- بأسمائه الحسنى، ونعرف كيفية استنباط المقاصد العامة لهذه الشريعة ومرادها منا، ونعرف كيفية استنباط القواعد الكلية التي يمكن بها أن نتحرك، وأن نفقه، وأن نحكم -كما أرادنا الله تعالى- بالعدل، وبالحق، وبالخير، وبغيرها من مكونات منظومة القيم.

وقد لاحظنا أن القرآن الكريم اقترن في شأن حفظه، وفي شأن فهمه، وفي شأن تقسيمه، وفي شأن الاستنباط منه، وفي شأن خدمته -بعلوم خادمة، وأن هذه العلوم كانت أقل عمقًا واستمرارًا وهي تخدم السُّنّة، أو وهي تخدم الفقه، أو وهي تخدم الأخلاق الإسلامية، عما كانت عليه في خدمتها للقرآن الكريم، رغم ما وصلت إليه من تفرُّد ودقة ومنهجية في كل تلك العلوم المذكورة، إلا أنها في شأن القرآن الكريم كانت أكثر تألقًا على نحو فائق وعجيب.

فمثلًا لاحظنا في قضية التوثيق أن التوثيق القرآني قد تمَّ على مستوى الأداء الصوتي، ولم تكن السنة هكذا، رغم أن مناهجها في غاية الرقي والدقة والعمق والرصانة، فالسنة نقلت نصوصها، ووثقت متونها بطريقتها، التي هي شديدة الدقة والمنهجية، ولكنها لا تساوي أبدًا طريقة توثيق القرآن الكريم، لأن القرآن تم توثيقه بطريقة الأداء الصوتي، حيث إنهم راعوا مخارج الحروف، وراعوا الوقوف، وراعوا النبر، ولم يكن الأمر كذلك في السنة مثلًا، فإذا نطق القارئ القرآن بطريقة مغايرة للهيئة المنقولة المتوارثة المسندة في نطقه، والتي تراعي الترقيق والتفخيم، ومخارج الحروف وصفاتها، فإنه يكون قد أخطأ، فأين موضع الخطأ؟! رغم أنه لم يخطئ في الحرف، ولم يخطئ في شكل الحرف، موضع الخطأ أنه أخطأ في مخرج الحرف أو صفته، أو مستوى أدائه الصوتي، وهذا يعني أن القرآن قد حفظ على مستوى اللفظ، فالجملة، فالآيات، فالسور، ثم في علومه ومناهج فهمه وخدمته، فحفظ بكله، وعلى أرقى مستوى.

ولم يأتنا أحد من الناس ليبين لنا كيف كان رسول الله ﷺ ينطق بالحديث على مستوى الأداء الصوتي؛ ولذلك يقع خلاف في فهم مدلول بعض الكلمات عندما تتجرد تلك الكلمات من أدائها الصوتي، فيمكن أن يكون ذلك استفهامًا، ويمكن أن يكون استنكارًا، ويمكن أن يكون تعجبًا، ويمكن أن يكون غير ذلك، ولكن القرآن الكريم نقل على مستوى الأداء الصوتي، فأصبح نصًا واضحًا جليًا، مما قلَّل الاختلاف فيه، وإن مكننا من أن تتنوع فهومنا فيه، لا أن نختلف عليه.

ثم إن هذا النقد والتوثيق، الذي يروي فيه التلميذ عن شيخه بهذا المستوى الدقيق، مع النقد الدقيق للرواة قد توقف في حالة السنة تمامًا، عند خواتيم القرن الخامس الهجري أو بعدها بقليل، حتى ذهب الحافظُ ابن الصَّلاح[1] وغيره

(١) الإمام الحافظ تقي الدين أبو عمرو عثمان بن صلاح الدين عبد الرحمن الشَّهْرزوري ت٦٤٣هـ، =

إلى أن الإمام البيهقي[1] وطبقته هم العلَامَة الفارقة بين تدوين الأسانيد وبين عدم تدوينها، وبه وبطبقته استقرت عصور الرواية الصالحة للنقد، وبه تم تدوين السنة كاملة، فكان الشيخ يروي للتلميذ، والتلميذ يتحمل عن الشيخ، وكان يمكن أن تكون هناك روايات شفوية خارج الكتب المدونة إلى منتصف القرن الخامس أو بعده بقليل.

وبعد وفاة البيهقي وطبقته لم يعد هناك أحد يقبل أنَّ عندك حديثًا لا يوجد في الكتب السابقة المدونة المسندة، وقد نص على هذا علماء الأصول كالفخر الرازي [2]، وأيَّده أهل الحديث كالحافظ ابن حجر[3]، فلا بد أن يكون الحديث مرويًّا مدونًا فيها، ومن هنا بدأت مرحلة أسانيد الدفاتر والأثبات، وهذه المرحلة لم يتم عليها توثيق، ولم يتم عليها تجريح وتعديل؛ فإن كل رجال الجرح والتعديل كانوا في رواية أهل المرحلة الأولى، ومن هنا نجد بين أيدينا ألف ألف سند تقريبًا، ونجد عشرين

= الفقيه المحدث الزاهد، ومن أشهر تصانيفه المقدمة المشهورة في علوم الحديث، والتي هي أصل طائفة عظيمة من التصانيف في علوم الحديث، وله تعليقات على «وسيط» الغزالي، وله «صيانة صحيح مسلم»، وغيرها من التصانيف المحررة النافعة، وانظر ترجمة حسنة له عند الإمام التاج السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»: (٨/ ٣٢٦).

(١) الإمام الحافظ الفقيه الأصولي الكبير أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت٤٥٨هـ، من تصانيفه «السنن الكبير»، الذي لم يصنف مثله في علم الحديث تهذيبًا وترتيبًا وجودة، وكتاب «معرفة السنن والآثار»، وكتاب «الأسماء والصفات»، وكتاب «الاعتقاد»، وكتاب «دلائل النبوة»، وكتاب «شعب الإيمان»، وغيرها كثير، وانظر ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى»: (٤/ ٨).

(٢) الإمام الحبر الحجة فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر الـرَّازي البَكْرِي، من ذرية أبي بكر الصديق ﷺ، المتكلم، الأصولي، المفسر، المتفنن، ت٦٠٦هـ، من مؤلفاته: تفسيره المشهور بـ«مفاتيح الغيب»، وكتاب «المحصول من علم الأصول»، وكتاب «المطالب العالية في علم الكلام»، وغيرها كثير، ومِن أفضل مَن تَرْجَمَ له الإمام المجتهد الأصولي تاج الدين السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»: (٨/ ٨١).

(٣) شيخ الإسلام وأمير المؤمنين في الحديث، الحافظ الجليل، والإمام الحجة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر الكناني العسقلاني الشافعي، ت٨٥٢هـ، صاحب التصانيف الحديثية الفائقة، وأشهر تصانيفه وأبقاها على وجه الزمان شرح صحيح البخاري المسمى: «فتح الباري»، وقد أفرد تلميذه الحافظ الشمس السخاوي كتابًا واسعًا حافلًا في ترجمته، اسمه: «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر»، وهو مطبوع في ثلاثة مجلدات.

ألف راويًا -تقريبًا- في هذه الفترة الزمنية، التي غطت خمسة قرون تقريبًا، في حين أن القرآن الكريم ليس كذلك، بل إن أسانيده موصولة على وجه التدقيق وتلقين الأداء وفنون التلاوة إلى يومنا هذا، حتى وصل إسناده وتواتره إلى يومنا هذا، وإلى الآن يذهب التلميذ إلى الأستاذ، ذلك الأستاذ الذي لا يستطيع أن يجيز غيره بالقراءة إلا إذا أخذ تلميذه السند، وقرأ عليه القرآن كاملًا، وأتقن هيئة الرواية، وطريقة النطق، أما الحديث فنحن نأخذه الآن سندًا إجماليًّا، فيما يسمى بالإجازة العامة، وقد قرأنا وأقرأنا «صحيح البخاري»، و«صحيح مسلم»، و«سنن أبي داود»، و«سنن الترمذي»، و«موطأ مالك»، و«سنن النسائي»، وبعد كلِّ كتاب كنا نعطي الإجازة لمن حضر تلك المجالس[1]، تبركًا لا توثيقًا، فهو سند يتبرك به حامله في صلته وسماعه لكلام رسول الله ﷺ، ولكن هذا ليس هو المنهج التوثيقي الدقيق.

المنهج إذًا يتم بطريقة علمية دقيقة فيها نقد، وفيها بيان للتجريح والتعديل، وفيها بيان لدرجة الراوي والمروي؛ ولذلك استمر، والاستمرار هو الخاصية الثانية من خصائص علوم القرآن، فكما أنه كان عميقًا في دراسته، شاملًا في دراسته، كان أيضًا مستمرًّا في دراسته.

ولاحظنا أيضًا حول الدراسات القرآنية أنَّ القرآنَ ليس كعلوم السنة التي

---

(١) نعم، كانت مجالسُ شيخنا الإمام صاحب هذا التفسير في إقراء كتب الحديث في الأزهر الشريف المعمور، بُعَيْدَ صلاة الفجر من كل يوم إلى قريب الظهر- مجالس حافلة، تم فيها قراءة الصحيحين على فضيلته، و«سنن أبي داود» كاملة، و«سنن الترمذي»، و«موطأ مالك»، مع ما لا أحصره الآن من كتب الأصول والفقه واللغة والمنطق وغيرها من العلوم، وقد استمر هذا المجلس العلمي المعمور نحوًا من خمس سنوات تقريبًا، كان يتحدر فيها على لسان شيخنا الإمام من التحقيقات العلمية، والتدقيقات النفيسة ما لا تحيط به عبارة، وكان كلما تم كتاب من الكتب المذكورة ازدحم الناس في مجلس الختم، ثم يجيز الشيخ الحاضرين بأسانيده العالية الموصولة، التي تفيد التبرك والإبقاء على سمت الأمة في الإقراء، وقد كتب سماحته مقالًا حول هذا المجلس العلمي الجليل المبارك، نشر في «جريدة الأهرام» بتاريخ: ١/ ١٠/ ٢٠٠٥م، ثم هو الآن في كتاب: «سمات العصر» (ص١٦٠) لمولانا الإمام، وهذه حلقة من التاريخ العلمي في عصرنا الحاضر تستحق التسجيل للتاريخ.

انتهت، ولخصها الحافظ ابن الصلاح من ناحية المصطلح في: «مقدمة ابن الصلاح»، أو أبدع الحافظ السخاوي[1] فجمع كل ما هنالك في: «فتح المغيث»، أو فعل مثله الحافظ السيوطي[2] في: «تدريب الرواي» وانتهى الأمر، ولا يأتي أحد بعد ذلك بجديد!! بل استمرت البحوث المتعلقة بعلوم القرآن إلى يومنا هذا، ولا يمكن حصرها وتقنينها، بل لا بد من بقاء طرائق توليد العلوم من القرآن ليبقى هاديًا لكل زمان ولكل مكان.

والمقصود أن البحوث القرآنية لا تنحصر، وأنها مستمرة، وأنها عميقة شاملة، وأنه لا بد من توليد العلوم من القرآن الكريم كلما اتسعت الأسقف المعرفية، مع اختلاف ثقافات الأمم، ومقتضيات العصور.

وهذا المعنى مناسب تمامًا لكون كتاب الله تعالى مجردًا، يتعالى عن الزمان والمكان، فيه حظ من الهداية لكل عصر، مما يوجب على المسلمين النهوض للقيام بهذا الوجه الجليل من وجوه خدمة القرآن.

ولذلك قال الإمام الزركشي[3] في كتاب: «المنثور في القواعد»: (كان بعض

---

(١) الإمام المحدث الحافظ شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي ت٩٠٢هـ، من تآليفه: «فتح المغيث، شرح ألفية الحديث»، و«الضوء اللامع، في أعيان القرن التاسع»، و«الإعلان بالتوبيخ، لمن ذم التاريخ»، وقد ترجم لنفسه ترجمة واسعة مفصلة في كتابه «الضوء اللامع»: (٨/ ٢).

(٢) الإمام الحافظ المفسر اللغوي الفقيه المتفنن المطلع جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي ت٩١١هـ، من أعيان الأمة المحمدية، في سعة اطلاعه، وجمعه للعلوم، وكثرة التآليف، مات عن أكثر من ألف مصنف، وقد أقيمت حوله ندوات وبحوث كثيرة، وترجم لنفسه ترجمة مفصلة في كتاب مستقل عنوانه: «التحدث بنعمة الله» وهو مطبوع.

(٣) الإمام العلامة المحدث الأصولي الفقيه المتفنن بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، تتلمذ على الجمال الإسنوي، والسراج البلقيني، والضياء ابن كثير، ومن تآليفه: «البرهان، في علوم القرآن»، و«النكت على مقدمة ابن الصلاح»، و«تشنيف المسامع، في شرح جمع الجوامع للسبكي»، وشرع في شرح على «صحيح البخاري»، توفي في ثالث رجب سنة ٧٩٤هـ، وقد ترجم له الحافظ ابن حجر ترجمة لطيفة في «الدرر الكامنة»: (٥/ ١٣٥).

المشايخ يقول: العلوم ثلاثة: علم نضج وما احترق، وهو علم الأصول والنحو، وعلم لا نضج ولا احترق، وهو علم البيان والتفسير، وعلم نضج واحترق، وهو علم الفقه والحديث).

وقد شاعت هذه العبارة في الكتب، واستطرفها أهل العلم، ورغم ما لنا من التحفظ على ما في هذه العبارة من مفهوم احتراق العلم، وتسمية استقرار الدوائر والمجالات البحثية فيه احتراقًا، فإنها تشير إلى بقاء التفسير، وما يدور في فلكه من علوم القرآن في دائرة التَّجدد، وقابلية الإفاضة، واستمرار التوليد والإيراد للعلوم والبحوث.

علوم القرآن نَسَقٌ مفتوح

لاحظنا إذًا في الدراسات القرآنية أنها نسق مفتوح؛ لأن كتاب الله تعالى وحي معصوم، وقد ادخرت فيه العلوم والمعارف، وقد أحكم الله تعالى آياته، وفصلها تفصيلًا، وأودعها من عجائب الحكم، حتى قال رسول الله ﷺ: «**لا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلا يَخْلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ**»[1] فوجدنا الإمام الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤هـ يؤلف كتاب: «البرهان، في علوم القرآن»، ولم يكن هناك علم قبل ذلك يسمى بـ(علوم القرآن)، بل كانت الفنون والبحوث القرآنية منثورة في الدوائر العلمية المتنوعة، والتخصصات المختلفة، بدون خيطٍ ناظم يربطها، ويسلكها في علم خاص قائم بنفسه، حتى ابتكره الزركشي ابتكارًا، وجعله علمًا بينيًّا، يأخذ من اللغة، ومن الأصول، ومن التاريخ، ومن الحديث، ومن التفسير ومن غيرها من العلوم، ويجمعها، إلى أن يلفت النظر إلى أن التجديد حتى في توليد العلوم ما زال مستمرًّا.

ولا تلقى دعوةُ الزركشي آذانًا صاغية، فيظل المسلمون نحو قرنين من الزمان، أو قرنًا كاملًا لا يلتفتون إلى علوم القرآن، التي سطرها أو لفت النظر إليها الزركشي، حتى يأتي الإمام السيوطي فيؤلف كتاب: «التحبير، في علوم التفسير» من غير علم ولا اطلاع على كتاب «البرهان»، ثم اطَّلَعَ بعد ذلك على كتاب «البرهان» فوجد أن ما كتبه كان موافقًا وشبيهًا بما كتب الزركشي، وأنه زاد عليه أشياء، وأن الزركشي زاد عليه أشياء، وتجمعت عنده إضافات فألَّف كتابًا جديدًا، سماه «الإتقان»، فلفت النظر مرة أخرى إلى علم يسمى بعلوم القرآن، إلا أن المسلمين غفلوا عن تلك العلوم

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه»: (٦/ ١٢٥)، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ٧٤١)، والبيهقي في «السنن الصغرى»: (ص٥٤١)، والدارمي في «سننه»: (٢/ ٥٢٣)، وسعيد بن منصور في «سننه»: (١/ ٤٣)، والخطيب في «الجامع»: (١/ ١٠٧).

وتركوها، حتى جاء شمس الدين محمد بن عقيلة المكي[1] فألف كتابًا، اسمه: «الزيادة والإحسان، في علوم القرآن»، إلى أن جئنا في العصر الحديث، فأحييت تلك العلوم مرة أخرى، وبدأ المؤلفون يؤلفون فيها من أيام الزرقاني[2] صاحب: «مناهل العرفان، في علوم القرآن»، ومحمد يوسف البنوري[3] صاحب كتاب: «يتيمة البيان، في شيء من علوم القرآن» وهو كتاب مهم، والكوثري[4] وله كتاب في علوم القرآن في مجلدين، والشيخ محمد محمد أبو شهبة[5] صاحب كتاب: «المدخل إلى علوم القرآن»، حتى صارت هناك مكتبات كبيرة في علوم القرآن، والمجالات البحثية المتولدة منه، والتي تمتد منها أسباب وثيقة إلى مجالات المعارف التجريبية والإنسانية والعقلية، وغيرها من أنواع العلوم.

والذي نريد الوصول إليه من كل ذلك هو أثر هذه العلوم والمعارف في اتساع الدلالة القرآنية، وكيف أنه لا بد للمفسر من أن يستصحب كل تلك العلوم عند نظره في آيات الكتاب الكريم.

---

(١) الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عقيلة المكي، محدث الحجاز ومسنده في زمانه، ت١١٥٠هـ، ترجم له الكتاني في «فهرس الفهارس»: (٢/ ٦٠٧).

(٢) العلامة الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، من كبار علماء الأزهر الشريف، كان يدرس القرآن وعلوم الحديث في كلية أصول الدين، وكان وكيلًا لجمعية الهداية الإسلامية، ومن أهم مؤلفاته كتاب: «مناهل العرفان، في علوم القرآن».

(٣) العلامة محمد يوسف البنوري ت١٣٩٧هـ، تلميذ العلامة محمد أنور شاه الكشميري، شيخ الحديث في ديوبند، وله في ترجمته كتاب: «نفحة العنبر، في ترجمة إمام العصر الشيخ أنور»، ومن أجل كتب البنوري شرح جليل على سنن الترمذي اسمه: «معارف السنن».

(٤) العلامة الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري ت١٣٧١هـ، صاحب المؤلفات والتحقيقات والتعليقات الكثيرة، ترجم له تلميذه الشيخ أحمد خيري في كتاب طبع مستقلًا، وطبع من قبل في مطلع كتاب: «مقالات الكوثري».

(٥) العلامة الشيخ أبو السادات محمد محمد أبو شهبة ت١٤٠٠هـ، من علماء الأزهر الشريف، من تأليفه: «الوسيط في علوم الحديث»، و«الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير»، و«توفيق الباري، في شرح صحيح البخاري».

ثم إن علوم القرآن يمكن أن تتسع لتشمل العلوم الإنسانية المختلفة، على غرار ما فعل الدكتور محمد عثمان نجاتي في كتاب: «القرآن وعلم النفس»، فإننا في حاجة إلى دراسات موسعة حول علوم الإدارة وعلوم الاجتماع وعلوم التاريخ، وكيفية إنشاء الجسور التي تنتفع بمنهج القرآن ومسلكه ومنهجيته وطريقة بنائه في تلك المجالات، وكيف استوعب العلماء كل تلك المعاني، بحسب ما يسمح به السقف المعرفي الذي كانوا يعيشون فيه، لا سيما مع كل ما في القرآن من أنساقٍ في بناء النفوس والمجتمعات.

فمصادر علوم القرآن إذًا متعددة، وتمتد لتتشابك مع دوائر علمية واسعة، وكل هذه خطوات لا بد منها في سبيل إعادة توليد العلوم من مشكاة القرآن، ووفق منهجه.

القرآن ومنهجيّة الفهم

ما هي المنهجية التي نحاول أن نفهم بها القرآن الكريم عندما نقرأه؟ الحقيقة أن هذا محور شديد الأهمية، لما له من ارتباط وثيق باستخراج المناهج القرآنية في الهداية والتوجيه، وبناء الأمم والشعوب، والإخبار عن مراد الله تعالى من كتابه، وقد وعت الأمة المحمدية قداسة هذه المهمة، وحساسيتها، فما زالت الأمة تحرص على حفظ المنهج النبوي في تفهيم القرآن، وكيفية الاستنباط منه، ثم مناهج الأئمة المهديين من علماء الصحابة والتابعين، الذين اشتهروا برسوخ القدم في المعارف القرآنية، ثم قامت الأمة بتجريد مناهج هؤلاء جميعًا في الفهم والاستنباط، مع ما استفاض عند هذه الأمة من منظومات العلوم الخادمة للنص، فتبلور عندنا بالتدريج علم عريق، في غاية الدقة والنضج والمعيارية، يعالج قضية الفهم وأدواته ومناهجه، ألا وهو علم أصول الفقه، هذا بالإضافة إلى التراكمات المعرفية المبثوثة عند علماء الأمة على اختلاف مشاربهم، وتنوع فهومهم، والخلاصة: أن أدوات فهم النص، ومنهجية الفهم، أمر ضارب بجذوره في علومنا وتراثنا، ولا نبالغ إن قلنا: إنه المحرك الأكبر للحركة العلمية في هذه الأمة، وقد انشغل العقل المسلم عند تعرضه لقضية الفهم بخطوات ومراحل، أولها: أن نفهم، ثانيها: أن نستنبط، ثالثها: أن نستهدي، رابعها: أن نستثير الفكر منه، خامسها: تحويل آياته وكلماته ومبادئه إلى برامج عمل، تنشأ على أساسها المؤسسات، وتنطلق منها عناصر صناعة الحضارة.

وهكذا تمضي بنا خطوات المنهجية في الانتفاع بالقرآن الكريم، وبمثل هذه المنهجية نستخرج كنوز القرآن، ونوصل هداية القرآن إلى الخلق، وكلمة (منهجية) معناها كون الشيء منهجًا، والمنهج هو عبارة عن مصادر البحث، وطرق البحث، وشروط الباحث..هذا هو المنهج.

فما هي المصادر التي لا بد أن تكون معي، حتى أستطيع أن أدخل وأشتغل بهذا الشكل؟ وإلى ماذا ألتفت؟ وبماذا أهتم؟ نحن عندنا الاهتمام على مستوى الحرف، فالقرآن الكريم استعمل عددًا من حروف المعاني، التي تقارب التسعين حرفًا، تكلم عنها ابن هشام في «مغني اللبيب، عن كتب الأعاريب»، وبين لنا أن كل حرف منها يستعمل لمعان متعددة، استعمل القرآن منها أربعة وثلاثين حرفًا، تدور على ستة وخمسين معنًى.

فتأمل كيف بدأ المسلمون منهجهم في فهم القرآن بتحليله على مستوى الحرف، وإدراكك للحرف، ومعناه في موضعه، يفتح لك آفاقًا كثيرة، ويجعلك تفهم النص بطريقة منفتحة.

ثم على مستوى الكلمة: من دلالات الألفاظ؛ لأن اللغة فيها ما يسمى بالمشترك، وفيها ما يسمى بالحقيقة والمجاز، وفيها ما يسمى بالترادف، وكل هذه الأشياء أيضًا سهلة المأخذ، وممكن أن تكون على سبيل الجملة التي هي خبرية أو إنشائية وهكذا.

ثم ونحن نقرأ، يكون من المنهجية أن القرآن كجملة واحدة، لا يضرب بعضه بعضًا، بل يفسر بعضه بعضًا، ويؤيد بعضه بعضًا، ويُحمل بعضه على بعض، ويرسم بعضه مع بعض تلك الرؤى الكلية، التي نريد أن نتكلم عنها.

ثم بعد ذلك قضية المضمونية، وأن الأهداف العليا للقرآن هي عبادة الله، وعمارة الأرض، وتزكية النفس، ومن خلال هذه الثلاثة ستفهم، وستنفتح لك أمور كثيرة جدًّا، كلها تفتح لك أثناء القراءة النسقية، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[2]،

---

(١) سورة الذاريات، آية [٥٦].

(٢) سورة هود، آية [٦١].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1] ثم بعد ذلك تنطلق بهذا إلى مفهوم العبادة، ومفهوم المعاملة، ومفهوم التزكية، وكيفية الترتيب بينها في نسق واحد، فهو كتاب واحد فيه مفاهيم مختلفة، ترسم رؤية واحدة، في موضوعات شتى، وكل موضوع له خصائصه وبدايته ونهايته ووسطه وهكذا، ثم قضية السباق، والسياق، واللحاق، وما الذي كان قبل هذه الآية؟ وما بعدها؟ وقضية الدلالة الاستقلالية التي تكلمنا وسنتكلم عنها بضوابطها، كل هذا يمثل منهجية القراءة.

وهناك مفاهيم تتولد عندما تقرأ القرآن بهذه الطريقة، فتجد أن الآية مثلًا رافعة دافعة مانعة، فيتكون هذا كجزء ثانوي في المنهج، وهو أنك في كل آية تبحث فيها عن الرفع، يعني كشف الحقائق، أو أنها تدفعك إلى فعل شيء فتكون دافعة، أو أنها تمنعك عن فعل شيء فتكون مانعة، وهنا تأتي قضية أن الأمر بالشيء نهي عن ضده، وهو مبحث أصولي دقيق، يعتني به الباحثون في علم أصول الفقه، ثم إن الفعل مثلًا ليس قاصرًا على جوارحك، لا! بل الفعل هنا قد يتعلق بالقلب، أو يتعلق بالعقل، أو يتعلق بالحياة ككل، وقد يتعلق بالتاريخ، حتى لا تكون قد سننت سنة سيئة فعليك وزرها ووزر من اتبعها، بل تكون قد سننت سنة حسنة فلك أجرها وأجر من اتبعها.

فهذه فكرة مهمة، وهي أنك في سياق التاريخ، مع فكرة أن الآية رافعة مانعة دافعة، وإذا أمعنت في هذا المنهج تتولد آلاف الخطوات المنهجية الجزئية، التي تفهم بها القضايا التفصيلية في القرآن، فالمنهجية موجودة، ومفصلة، وهي مفتوحة أيضًا، أي أنه يمكننا أن نزيد فيها، فمن الممكن أن نكتشف أدوات فيها تزيدها إتقانًا، وتزيدها انطلاقًا وهكذا.

(١) سورة الشمس، الآيتان [٩، ١٠].

فالمفاهيم أيضًا في القرآن الكريم لها طبيعة خاصة عبر الزمان والمكان، وهي قضايا مجردة، تحدد وفقها أهداف ومقاصد، وعلى التشريعات الزمانية والمكانية أن تتطور باستمرار لتحقيق هذه الأهداف.

المفاهيـم القرآنيـة

ومن المهم جدًّا رؤيتنا للنموذج المعرفي المنبثق من القرآن الكريم، ونقصد بالنموذج المعرفي: الرؤية الكلية للإنسان والكون والحياة وما قبل ذلك وما بعد ذلك، ونقصد بالنموذج المعرفي ما يسمى بالإنجليزية: (paradigm)، هذا الـ(paradigm) الذي -تحكَّم كما يقول توماس كون[1] في كتاب: «الثورات العلمية» في الطفرات المختلفة، التي نقلت البشر نُقلة نوعية في مسارها وتطورها.

ونستطيع أن نفهم النموذج المعرفي فَهْمًا جيدًا، عندما نقارن بين وجهة النظر الإسلامية وبين الوجهة التي بُنيت عليها الحضارة الغربية، والتي يَدَّعي الكثير من الفلاسفة مثل فوكوياما وغيره في «نهاية التاريخ» أنها قد انتصرت، وأنها قضت على الحضارات الأخرى، واستطاعت أن تنتشر في واقع الناس بملابسها، أو بطريقة أكلِها أو شربِها، أو تفكيرها، أو إدارتها، أو علومها الإنسانية والاجتماعية، إلى غير ذلك مما هو واقعٌ في جامعاتنا، وفي حياتنا اليومية.

وأن هذه الحضارة استطاعت أن تخترع للإنسان المواصلات، والاتصالات، والتقنيات الحديثة، بحيث إنها سيطرت على البرنامج اليومي للإنسان، وعلى ذلك فقد انتهينا من المقارنات، وانتهينا إلى أن هذه الحضارة قد ضربت جميع الحضارات جميعًا في مقتل، وأنها هي الباقية، وأن التاريخ قد انتهى بانتصار هذه الحضارة

---

(١) توماس صامويل كوهن، فيلسوف أمريكي معاصر، ولد سنة ١٩٢٢م، وتوفي سنة ١٩٩٦م، له بحوث كثيرة في فلسفة العلم، شهرته الأساسية جاءت من كتابه المهم «بنية الثورات العلمية» الصادر سنة ١٩٦٢م، فقد قدَّم في هذا الكتاب فكرته حول تطور العلم، وأنه ليس دائمًا متدرجًا أو تراكميًّا نحو الحقيقة، بل قد يمر بثورات بنيوية دورية يسميها كوهن «تحول الباراديم» أو «النموذج المعرفي»، وكان أثر هذه الفكرة كبيرًا في الحقيقة، وقد ترجم الدكتور شوقي جلال كتاب «بنية الثورات العلمية» إلى العربية، وصدرت هذه الترجمة في سلسلة «عالم المعرفة» الكويتية، برقم (١٦٨).

الوحيدة، التي أصبحت هي الحضارة الوحيدة في عالم اليوم، هكذا يرى هذا الفيلسوف أو المفكر في شأن العالم وما يحدث فيه.

فما النموذج المعرفي الذي بُنيت عليه تلك الحضارة، التي ادُّعي أنها نهاية التاريخ، وأنها هي الحضارة الوحيدة؟ هناك في الغرب نشأت فكرة الموسوعات في أواخر القرن الثامن عشر، وبعد سنة ١٧٦٠م ظهرت الموسوعة البريطانية التي تسمى (Britannica) في ثلاثة مجلدات كبيرة، واعتبروا أن هذا هو العلم، والعلم التجريبي الذي سمي بالإنجليزية (Science)، وأن ما سواه إنما يكون انطباعات أو رؤى أو أفكار، لا علاقة لها بالـ(Science) أو بالعلم التجريبي الحسي؛ ولذلك كل ما كان خارجًا عن هذا الكم من المعرفة فإنه لا يكون موثوقًا به، ويحتاج إلى تجريبٍ، فإن ثبت دخل وإلا فلا، وتطورت الـ(Science) حتى أصبحت مؤسسة كبيرة ضخمة، تُقاد من أميركا، ونشأت موسوعات عالمية أخرى كالموسوعة الإيطالية، والموسوعة الروسية، في مجلدات كبيرة تصل إلى ٦٠ مجلدًا وأكثر، ولكن ظلت الـ(Britannica) لها رونقها القديم، ومؤسسة (Britannica) أصدرت مجموعةً من الكتب أسمتها بالكتب العظيمة، التي كان لها أكبر الأثر في بناء الحضارة الغربية الحالية، وهذه المجموعة والتي تسمى في الإنجليزية بالـ(Great Books) منشورة في أكثر من ٥٥ مجلدًا، المجلد الأول والثاني من هذه المجلدات إنما يتكلم عن المفاهيم، ويعالج أكثر من ١٠٠ مفهوم، منها مفهوم الإنسان، ومفهوم الغيب، ومفهوم العلم، ومفهوم الثقافة، ومفهوم الحضارة والفكر إلى آخره، يعالجها في مجلدين كبيرين، حتى تتم قضية المفاهيم (Concepts)، ثم بقية الأجزاء تشتمل على النصوص الأصلية للمفكرين العظام الذين أثَّروا، ابتداءً من أرسطو طاليس هناك مع اليونان، وانتهاءً ببرتراند راسل، أو جان بول سارتر، ومرورًا بعصر التنوير، وقبله -قبل ذلك- في العصور الوسطى، ثم توما الأكويني أو توماس إكوينوس،

وكذلك جان جاك روسو، أو فولتير، إلى آخر ما هنالك من فلاسفة وأدباء وعلماء، أثَّروا تأثيرًا واضحًا في الحضارة، فمنهم أينشتاين، ومنهم داروين، ومنهم نيوتن، عبر التاريخ الطويل، أربعمائة وخمسون كتابًا هي خلاصة الفكر الأوروبي، لَخَّصُوها في مائة واثنين من المفاهيم، وقد نشروا كل هذا، وهو بين أيدي الناس، ويطورونه كل سنة بإضافة الجديد الذي يعتبر مؤثرًا في الحضارة الغربية.

فما النموذج المعرفي الإسلامي الذي نخاطبهم به؟ والذي ينهض في مقابل كل ذلك وينهض بإزاء هذا النموذج المركب المعقد، الذي جاء عبر التاريخ وتغير عندهم، كما يقول كوهن: إن النموذج المعرفي يتغير فيتغير معه حال العلم.

فعلم الميكانيكا عند نيوتن يختلف عن علم الرياضيات عند فيثاغورث، أو عند إقليدس، أو عند أرشميدس، ثم بعد ذلك ننتقل نُقلة نوعية أخرى عند أينشتاين وتلامذته وزملائه.

هذا النموذج المعرفي ماذا يرى في الإسلام؟ إننا نأخذ ما في العقيدة الإسلامية، المستنبطة من الكتاب والسنة، ونأخذُ من كلام علمائنا الأفاضل الذين سَهروا على الكتاب والسنة، يستنبطون منها المفاهيم والأحكام، حتى وضحوا لنا هذا في كتبهم في علم الكلام، أو علم العقيدة، أو علم التوحيد، بل وفي علم الفقه، وفي علم التصوف، وفي الأخلاق والقيم، وضحوا لنا في كل ذلك الإجابة على مجموعةٍ كبيرةٍ من الأسئلة، منها الأسئلة الكبرى الثلاثة، التي يسميها الغرب الأسئلة النهائية: من أين نحن؟ وماذا نفعل الآن؟ وما سيكون غدًا؟ فالسؤال عن الماضي والحاضر والمستقبل، والإجابة موجودة عندنا عن علم وأدلة وبراهين، أننا قد خُلِقنا لخالقٍ كريم، وأنه هو الرزاق المحيي المميت، وأنه لم يتركنا عبثًا، بل أرسل الرسل، وأوحى بالوحي، وأنه كلَّفنا، ونظرية التكليف تجعلنا نلتزمُ بالأوامر وننتهي عن النواهي، فبين الأمر والزجر يعيشُ المؤمن، عندما يتوثق من أن هذا أمر وأن هذا نهي أو زجر،

ثم بعد ذلك غدًا نعود إلى ربنا في يومٍ للحساب، وهناك الجنة والنار، أو الثواب والعقاب، وأن الله -سبحانه وتعالى- لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

رؤية واضحة للإجابة على هذه الأسئلة الفلسفية العظمى، التي أُجِيب عنها في الحضارة الغربية، بأنها قد نَحَّت مسألة الإله، وجعلتها من مجال الإيمان لا من مجال العلم، ولذلك فليؤمن به من آمن وليكفر به من كفر، فهذه عندهم حريةٌ شخصية لا يُسأل عنها الإنسان، وليفعل ما يشاء في هذا المجال، إلا أننا يمكن أن نسأل أسئلةً أخرى، وهو كيف نشأ هذا الكون؟ فوضعت نظريات، ونُقِضت هذه النظريات في جدلٍ لا نهاية له، فهناك نظرية الانفجار الكبير، وهو أن العالم كان نقطة، ثم انفجر فكانت هذه المادة الأولى، التي تشكَّلت بدورانٍ عشوائي، وهو يدور حتى الآن، بينما يقول الله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[1]، فربنا إذًا لم يُشْهِدهم خلق السماوات ولا خلق الأرض، ولم يَدُلَّهم على ذلك، فجاءت مجموعةٌ من العلوم كالجيولوجيا والأنثروبولوجيا لتبحث هذه في طبقات الأرض، وتبحث هذه في الإنسان وفي ثقافاته واجتماعه وتفرقه وانتقالاته وهجرته، حتى تصل إلى إجابة بعض الأسئلة، ويأتي داروين فيتأمل الإنسان، ويراه أنه على قمة تطورٍ، بدأ من السمكة، فالطائر، فالحيوان، فالقرد، فالقِرَدَة العليا، فالإنسان، ولكنه لم يُجب على كل الأسئلة، واختلطت عليه وَحْدة الخلق التي تدل على وحدة الخالق.

اختلط عليه ذلك لما رأى أن هناك خالقًا واحدًا وراء الجميع، بقضية التطور التي أَلَّفها، والتي انتقدت كثيرًا، حتى لزم الأمر أن يأتي كثيرٌ من العلماء بالداروينية الحديثة.

إذًا فالنموذج المعرفي عند المسلمين يتمثل في أن الإنسان مخلوقٌ لخالق،

(١) سورة الكهف، آية [٥١].

وأن الإنسان مكلفٌ في حياته الدنيا، وأن الإنسان سيعود في يومٍ آخر للحساب (الثواب والعقاب)، وهذا الإيمان باليوم الآخر يتحكم في سلوك الإنسان، ويتحكم في أفعاله، ويتحكم في اتخاذ قراراته، ولذلك فهو في غاية الأهمية، فلِمَ يُحجم الإنسان عن الزنا أو عن السرقة أو عن القتل؟ إنه يخاف الله ويأتمر بأمره، وليست المسألة مسألة أخلاقية فقط، وليست المسألة مسألة تَفَضُّل من ذلك الإنسان الذي امتنع عن الزنا والخنا والفاحشة والسرقة، بل المسألة هي مسألة الإيمان باليوم الآخر، الذي ربط فيه الله -سبحانه وتعالى- الخير بالثواب، والشر بالعقاب، رؤية أخرى غير الرؤية التي نحّت الإله من ناحية، ونَحَّت اليوم الآخر من ناحية.

ثم سؤال آخر: كيف ننظر إلى الإنسان؟ الإنسان له عقل يستطيع أن يفكر به، ولذلك فهو بهذا العقل يُنشئ الأحكام، ونحن عندنا العقل يفسر الأحكام، ويطبق الأحكام، ويفهم الأحكام، لكنَّ الذي يُنشئ الحكم هو الله، فالله هو الحاكم لا إله إلا هو، ترتب على ذلك، القول بمجلسٍ له سلطة تشريع الأحكام، وأنه هو الذي يُنشئ الأحكام، وعلى ذلك فقد أباحوا ما حرَّم الله من إجهاضٍ، ومن شذوذٍ، ومن أمورٍ لا تليق بالبشرية، ولا بالاجتماع البشري، حتى عند العقلاء، وما زال العقلاء في أغلب بقاع الدنيا يأبون هذا ويرفضونه، ظهر هذا عندما ظهرت وثيقة الأمم المتحدة لمؤتمر السكان في القاهرة، وفي مؤتمر بكين، وبكين +١٠، أو +٥، وبعد ذلك اجتمع أكثر من ثلاثين دينًا على وجه الأرض، منهم الشنتو والهندوك والبوذية والجيتا والمسلمون واليهود والنصارى وكل أنواع الديانات الكبرى على وجه الأرض في بلجيكا، واتفقوا على رفض هذه الوثيقة، لِما تشتمل عليه من حريةٍ جنسية، أو من شذوذٍ، أو من إجهاضٍ، أو غير ذلك، لكن هذا هو الـ (New Age)، أو العصر الجديد، أو الفكر الجديد.

نموذجنا المعرفي إذًا يشتمل على أن الإنسان مخلوقٌ لخالق، وأنه مكلف، وأن هناك يومًا آخر سنعود فيه إلى ربنا، ويجيب بذلك على الأسئلة الثلاثة الكبرى.

كذلك نموذجنا المعرفي يرى أن الإنسان سيدٌ في الكون، وليس سيدًا للكون؛ فإن السيد هو الله، أما الإنسان فهو مُكرَّم، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1] فأسجد الله الملائكة لآدم؛ لعلو شأنه ولعلمه، وسورة البقرة وهي تتكلم عن قصة الخلق، تؤكد ذلك المعنى الذي يفيدنا في بناءِ نموذجنا المعرفي.

الإنسان سيدٌ في الكون، وهذا الكون مسخرٌ له، فسخر الله لنا السماوات وسخر لنا الأرض، فنعرف من هذا النموذج المعرفي أن هذا الكون يسبح ويعبد ربه، وأنه يمتثل للإرادة الإلهية فنراه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[2].

هذا الكون المُسَبِّح إذا ما عبدنا ربنا -سبحانه وتعالى- فنحن نسير في تياره، وإذا ما عاندنا وتركنا عبادة الله، التي هي هدف الدنيا ومرادها، سرنا في غير اتجاه هذا الكون: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3].

نحن نؤمن بالعبادة والعِمارة والتزكية، فربنا سبحانه وتعالى أمرنا بالعبادة، وأمرنا أيضًا بعمارة الأرض فقال سبحانه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[4]، وأمرنا بالتزكية فقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[5]، وربنا سبحانه وتعالى نهانا عن التدمير وأمرنا بالتعمير، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[6]، ويقول سبحانه: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ

(١) سورة الإسراء، آية [٧٠].
(٢) سورة الإسراء، آية [٤٤].
(٣) سورة الذاريات، آية [٥٦].
(٤) سورة هود، آية [٦١].
(٥) سورة الشمس، الآيتان [٩، ١٠].
(٦) سورة البقرة، الآيتان [٢٠٤، ٢٠٥].

عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۝ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾(١).

ربنا -سبحانه وتعالى- يبني لنا في الكتاب وفي السنة المشرفة على لسان نبيه ﷺ نموذجنا المعرفي، الذي يقول إننا نُقدِّس شيئًا من عالم الأشياء، وشيئًا من عالم الأشخاص، وشيئًا من الزمان، وشيئًا من المكان، فنحن نقدس الكعبة، ونقدس المصحف، ونحترم النبي ﷺ احترامًا بليغًا، ونحن نعتز بتتبع ليلة القدر، ونحن نعلم أن الكعبةَ هي محل نظر الله -سبحانه وتعالى-، وأن المتعلِّق بالملتَزَم يُستجاب له الدعاء، نعم، نؤمن بذلك، ولا يستطيع أحدنا أن يُلْقِي بالمصحف، أو أن يناوله أخاه من على بعد، بل كلما أمسكنا بالمصحف رفعناه فوق كل كتاب، ورفعناه فوق رؤوسنا، أو قبّلناه، إنه التقديس الذي تُنكره حضارات أخرى، ينكرون فيها التقديس مطلقًا، حتى إنهم ينكرون تقبيل يد الأب، أو الأم، أو العالِم، أو الكبير.

فنحن إذًا أمام نموذج معرفي مختلف، يؤمن بالاحترام، وهناك نموذجٌ آخر يؤمن بالتساوي المطلق، حتى بين الإنسان وبين الكائنات، ولذلك فإننا نستخلص من نموذجنا المعرفي أن الإنسان ليس جزءًا من الكون، ولكن هناك من يرى أنه جزءٌ من الكون، ولذلك يخضع للطب التجريبي خضوعًا مهينًا، ولا يراعي كثيرًا من خصوصيات الإنسان، إلا إذا ثبت ذلك بالتجريب أيضًا، وأما المسائل الروحية والنفسية، وهي التخصص الشاق الذي عاش له كثير من الأطباء، فقد نسي تمامًا، فعاملوا الإنسان كقطعة لحم بيولوجية، وليس كإنسان مكرم مخلوق، له نفس وروح وكينونة، فقديمًا كان الطبيب يشم عرق الإنسان، ويسأله عن مشكلاته بينه وبين أبنائه، وبينه وبين زوجته، وعن مشكلاته المالية وغير ذلك، حتى يصف له العلاج المناسب. أما الآن فإن الأمر محصورٌ في التحاليل والأشعة، وشيءٍ من التعامل شبه المادي مع

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان [٣١، ٣٢].

هذا الجسد الذي أمامنا، مما دعى كثيرًا من الناس إلى الدعوة للطب البديل، حتى نشأ أكثر من عشرين نوعًا من أنواع الطب البديل؛ وذلك لأن الفارماكولوجي، ولأن هذا النظام الطبي التجريبي الذي عامل الإنسان كمادة، أو كَكَمٍّ، لم يعد يُفلح في كثيرٍ من الأحيان، إذًا النموذج المعرفي يؤثر في حياة الناس سلبًا أو إيجابًا.

ولو أخذنا نتتبع مفردات هذا النموذج المعرفي لطال بنا المقام؛ لأن النموذج المعرفي يشتمل أيضًا على مجموعةٍ من السنن الإلهية، التي علمنا الله -سبحانه وتعالى- إياها في القرآن، فعلمنا أن هذا الكون قد حُكِم بالتوازن، وأن الأصل في العلاقة بين الإنسان والكون، وبين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان وأخيه، إنما هي التكامل وليست الصراع، وأن العلاقة بين الرجل والمرأة كذلك هي التكامل، ثم هناك التوازن، وهناك التدافع، إلى غير ذلك من السنن الربانية، التي تزيد على الخمسين، والتي جعلها الله -سبحانه وتعالى- هي الحاكمة في حياة الناس وفي مسيرتها، كذلك فإن هناك المبادئ القرآنية التي تزيد على الثلاثين، وهناك المقاصد الشرعية، وهناك مراعاة مصالح الناس ومصالح العباد، كل هذا يُكوِّن النموذج المعرفي الذي نسعى لصَوْغِهِ، ولعله مجرد صياغة جديدة لكلام معروف مألوف، كلنا نقرأه في الكتاب وفي السنة، ولكن قد يكون بألفاظ أخرى، وقد يكون بترتيبٍ آخر، والمصدر في كل الأحوال هو الكتاب والسنة، لا يخرج عنهما أبدًا.

النموذج المعرفي يُفيد في الدعوة إلى الله تعالى، ويُفيد في الخطاب العالمي، فنحن نؤمن بعالمية الإسلام، ويُفيد في المقارنة بينه وبين الآخرين، عندما يُسأل أحدنا: من أنت؟ وما إسلامك؟ وما معنى مسلم؟

عندنا أيضًا اهتمام بالنظر في قضية المفاهيم في القرآن، ما هي؟ وما إحصائها؟ وكيف نوضح جوانبها وأبعادها؟ وذلك لأنها تعطي وتفتح رؤية تامة في هذا الموضع، لا سيما ونحن ندعو الناس إلى كيفية التفكير.

قضية المفاهيم هي نسق مفتوح، أخاف أن نأمر أحدهم أن يجعلها بحثًا فيغلقها، فهذه المفاهيم ينبغي أن تتولد كل يوم، ونحن نستطيع أن نضبط كيفية استنباط المفاهيم من القرآن الكريم.

القضية الثانية: هي قضية الثنائية التي بيننا وبين العصر من جهة، وبيننا وبين التراث من جهة أخرى، وهذا الكلام بعينه هو تفسير وتوظيف لقضية ثارت عند السلف، عندما تكلموا عن أن القرآن غير مخلوق، فكلمة (القرآن غير مخلوق) يعنون بها البحث في علاقة الصفات بالإله، وهو مبحث جاء من عند أرسطو، وخاض فيه المعتزلة، ومعنى عدم مخلوقية القرآن التي قال بها أهل السنة، تؤول إلى أنه يتجاوز الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، وهي الأمور التي يسميها (القرافي) جهات التشخيص الأربعة، والتي يصير بها الشيء مشخَّصًا جزئيًّا تاريخيًّا مُحْدَثًا، فإذا ما تجاوزتْ أو تجاوز مفهومٌ معينٌ هذه الجهات الأربعة صار مطلقًا، وصار أساسيًّا لأنه مطلق، ولأن من صفات المطلق أنه لا يتغير، وكل هذا تأسيس على شيء مركوز فعلًا من غير جهد لإنشائه، وهو قضية أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن كلام الله تعالى صفة من صفاته، باق ببقائه، لا يعتريه الزمان بمشخصاته، ولكن لا بد من أن يكون مردود كلمة (عدم خلق القرآن) على أذن السامع الآن مغايرة نوع تغاير للأبحاث الكلامية الدقيقة، المتعلقة بمشكلة أرسطو في قيام الصفات بالقديم من عدمها؛ لأن هذه القضية انتهت، وأشبعناها كلامًا.

فقضية المفاهيم قضية مهمة جدًّا، ونبدأ في دراسة تكوينات للمفاهيم، كيف تكون المفاهيم؟ وما هي المفاهيم؟ وكيف نستنبط المفاهيم؟ وما هي الضوابط التي نراعيها عند استنباط المفاهيم؟ وكيف نجرد المفاهيم؟ وكيف نتجاوز بهذه المفاهيم الجهات الأربعة؟ إلى آخر ما هنالك من الأبحاث، فهذا شيء مهم جدًّا، ألا وهو مشروع أسس استخراج المفاهيم وضوابطها.

وحتى نتجاوز هذا الذي حدث في أوربا بين النص وبين الإدراك الكوني، فنحن ننبه إلى مفهوم دقيق، وهو أن القرآن هو كتاب الله المسطور، وأن الكون هو كتاب الله المنظور، والذي أنزل القرآن هو الذي خلق الكون، والقرآن وصل إلينا كما أنزله الله، فإذا ما قرأنا القرآن قراءة دقيقة، وقرأنا الكون قراءة دقيقة، فمن المستحيل أن نجد أدنى تعارض، فكل ما اكتشفه العلم بمجهره وبالتلسكوب أو الميكروسكوب، وجدناه لا يعارض هذا النص، لكنه عارض نصوصًا أخري، فهذه نقطة مهمة، وهناك منهج آخر غير مرتبط بمسار متقن في فهمه، فأصحاب هذا المنهج يقولون: يفهمه من شاء كما شاء، فهذا منهج ليس له قواعد أصلًا، وهو منهج يريد أن يصل إلى النسبية المطلقة، وهو منهج يكر على المطلق بالبطلان، بينما هذا الكتاب الكريم قد تجاوز المشخصات الأربعة، التي هي الزمان والمكان والأحوال والأشخاص، فهو نص مطلق.

غيرنا يقول: هو بتجاوزه للأربعة صار نسبيًا، فهذا ليس بتجاوز، وغيرنا يقول: كل من أراد أن يغمسه في شيء من الجهات الأربعة فليفعل، أي فليقل من شاء ما شاء، فهذا ضد هذا، الأول يقول: هذا تاريخ واتركه في حاله، والآخر يقول: كل منَّا يقول الذي يريده، وفرق كبير جدًّا بين هذه المعاني الثلاثة، هذه التاريخية أو التاريخانية هي التي ستجعله كأنه مخلوق، والانفلات هو الذي سيجعله ينغمس في أي جهة من الأربعة، والتجاوز هو الذي سيجعله دائمًا أبدًا طريًا غضًا، وكأنه نزل الآن.

توليد العلوم من القرآن الكريم
(السنن الإلهية نموذجًا)

والقضية ليست في الجزئيات، وإنما في الدلالة على أن القرآن ما زال فاتحًا أبوابه لإنشاء علوم جديدة، وهذا ما نريد أن نلفت النظر إليه؛ إذ نريد أن نلتفت إلى السنن الإلهية في التاريخ، وفي أنفسنا، وفي كوننا، وأن هذه السنن الإلهية تمثل الوسط الذي يعيش فيه الإنسان، وتكوِّن النموذج المعرفي للمسلم، وتكون أساسًا لدراسة العلوم الاجتماعية والإنسانية التي انطلقت من نموذج معرفي آخر، لا يرى للكون إلهًا، أو هو يُنَحِّي قضية الألوهية، أو لا يرى للتكليف موضعًا فينحيه، أو لا يرى للآخرة وجودًا فينحيها، إلى آخر ما هنالك من اختلاف في النماذج المعرفية للبشر، خاصة بين الإسلام وبين العلمانية مثلًا.

وتؤْخذ السنن الكونية الإلهية من كتاب الله المنظور، وكتاب الله المنظور: هو ذلك العالم الذي نعيش فيه، حينما نسير في الأرض فننظر ونعتبر ونتأمل، ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(١) وذلك أننا أُمرنا بأن نتدبَّر الكتاب المسطور، وأُمرنا بأن نتدبَّر الكتاب المنظور؛ ولذلك يرى بعضُهُم أن الإنسان هو كتاب الله أيضًا، وفيه جُمِعَ العالم، فهو مقدورٌ لله -سبحانه وتعالى- فسماه: كتاب الله المقدور.

فالكتب إذًا ثلاثة: الوحي، والوجود، والإنسان الذي يصل بينهما، إنها دائرة لا نعرف قَبِيْلَها من دَبِيرها، ولا بدايتها من نهايتها، وقد قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾(٢) فتكلَّم عن الخلق أولًا؛ ليلفت النظر إلى الكون المخلوق، ثم بعد ذلك

(١) سورة آل عمران، آية [١٩١].

(٢) سورة العلق، آية [١].

يُعيد طلب القراءة فيقول: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾[1] يعني الوحي، فهو يلفتُ الإنسان إلى الخلق؛ حتى يتوصل به إلى صحة الوحي، فكتاب الله المنظور -وهو الكون- لا يُعارِض، بل ويتفق اتفاقًا عجيبًا مع كتاب الله المسطور، وهو القرآن أو الوحي.

وفي موضع آخر نراه يبدأُ بالوحي، ثم يتكلم عن الوجود ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾[2] فبدأ بتعليم القرآن، ثم بتعليم الإنسان البيان، بعد ما خلقه في كونه الفسيح.

فهي كتبٌ ثلاثة: الوحي، والوجود، والإنسان الذي يصل بينهما بالتدبر والتفكر، كما أمرنا ربنا -سبحانه وتعالى-، فهذه هي مصادر السنن الإلهية، سواءٌ أكانت في التاريخ، أو كانت في النفس، أو كانت في الآفاق ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾[3].

والسنن الكونية عندما نتتبعُهَا في القرآن الكريم نجد أنها أكثر من خمسين سنة إلهية، سواءٌ في التاريخ؛ لأن التاريخ له نظام وله مَسِيرة، والمتأمل في هذه المسيرة يستنبط منها سُننًا إلهية لا تتخلف، منها هلاك الأمم، ومنها بقاء الأمم. ومنها سنن تتعلق بعِمَارة الأرض، ومنها سنن تتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

فالسنن الإلهية إذًا لها مصادر، ولها حقائق، ولها مفاهيم، وهي أدوات يمكن بها التفسير، ويمكن إنشاء شبكة منها، لنتبين سنن الله -سبحانه وتعالى- في كونه؛ لأن السنن الإلهية، مع المقاصد الشرعية، مع منظومة القيم المأخوذة من أسماء الله الحسنى، مع قضية المبادئ القرآنية- تمثل وَحْدةً تندرج تحت مفهوم النموذج المعرفي.

---

(١) سورة العلق، الآيتان [٣، ٤].
(٢) سورة الرحمن، آية [١-٤].
(٣) سورة فصِّلت، آية [٥٣].

إن دراسة السنن الإلهية، بل واستقلال علم بدراستها، وبيان علاقتها مع المبادئ العامة القرآنية، التي تُكَوِّن أيضًا عقل المسلم من نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾[3]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[5] إلى آخر ما هنالك من أسس ومبادئ، تبين أن الضرر يزال، وأن اليقين لا يرفع بالشك، وأن الأمور بمقاصدها، ونحو ذلك.

أقول: إن دارسة السنن الإلهية أصبح واجبًا، يمكن أن يفيد الإنسان والإنسانية بنظرة جديدة لمجموعة العلوم الاجتماعية والإنسانية، ويمكن بهذه النظرة أن تتهيأ الإنسانية لتجديدٍ علميٍّ واعٍ للخطاب الديني، ومجالاته ومنطلقاته وأفكاره ومداخله، مع الحفاظ على نصوصه، وأدواته، ومناهج فهمه.

وقد قمنا بأبحاث ابتدائية: هل هناك ما يسمى بالسنن الإلهية؟ فاستخرجنا نحو تسعين سنةً إلهيةً موجودةً في القرآن، ولم يكن هذا فجأة، بل إننا في أول دراساتنا ولقاءاتنا حصَّلنا ثلاثين سُنَّة، فرفعنا هممنا وسافرنا عند الدكتور فتحي مكاوي في الأردن، وأكملنا البحث فأصبحت خمسين، فلما رجعنا إلى مصر وجدنا أحد الباحثين قد أخذ فيها ماجستير ثم دكتوراه، فوصلت إلى تسعين، وفي هذا الوقت ومن هذه الأعوام تقدم أناس وطبعوا كتبًا كثيرة، وكل هذه الكتب ليس فيها تحديد لمعنى السُّنّة؛ ولذلك دخل فيها ما قد نختلف مع مؤلفه في كونه سنة إلهية، وخرج منها ما قد نختلف معه أنه من السنن، فالمسألة إذًا ما زالت في بداية الطريق.

(١) سورة الأنعام، آية [١٦٤].
(٢) سورة البقرة، آية [١٧٩].
(٣) سورة المائدة، آية [٩٥].
(٤) سورة النجم، آية [٣٩].
(٥) سورة الحج، آية [٧٨].

وقد ألَّف المرحوم الشيخ محمد الصادق عرجون عن السنن الإلهية، ودعا الشيخ رشيد رضا في «المنار» إلى الالتفات إليها، ومن المحدثين تكلم عنها الدكتور جمال عطية، وكتبت السيدة زينب عطية موسوعة لها، وللدكتور عبد الكريم زيدان كتاب مستقل، وهناك إسهامات الدكتور مصطفى الشكعة وتلامذته في هذا الشأن، أما الدكتور سيف عبد الفتاح في كتابه «مدخل القيم» فإنه يعد محاولة جادة ورصينة لبدء تكوين هذا العلم، الذي قد يصل بنا إلى بناء علم أصول فقه الحضارة، بعد أن وضع الإمام الشافعي أصول فقه النص الشريف.

ولقد تكلم القرآن عن هذه السنن الإلهية، وبَيَّن أنها تعد البيئة الخارجية للنشاط البشري، وهي التي تتحكم في المسلم عند نشاطه واختياراته ووضع برامجه وأهدافه، حتى إذا ما غابت هذه الإدراكات عن ذهن مسلم؛ فإنه يتخبط ويفقد المعيار السليم للقرار السليم، ويضع استراتيجيات أخرى غير التي أمر الله بها.

فمن تلك السنن: سُنّة التكامل: فقد خلق الله -سبحانه وتعالى- الأكوان مختلفةً في ظاهرها، لكنها متحدةٌ في الهدف والغاية، فهذا الخلاف والاختلاف إنما هو للتنوع وليس للتضاد، فالليل والنهار يشكلان يومًا واحدًا، لكل منهما خصائص، والذكر والأنثى لكل منهما خصائص، ولكل منهما وظيفة، والحاكم والمحكوم لكل منهما وظيفة، والغني والفقير، وأغلب الثنائيات الخلقية أو القدرية، الخلقية كالليل والنهار والذكر والأنثى، والقدرية كالحاكم والمحكوم، والغني والفقير، سميناها قدرية لنفرقها عن الخلقية، وإن كان فيها سعي للإنسان واختيار وكسب، إلا أنها من فضل الله وقدره أيضًا.

إن فهم سنة التكامل يجعل أصل الخلق عند المسلم هو التكامل وليس الصراع؛ ولذلك يفهم العلاقة بين الذكر والأنثى على أنهما خلقا للتكامل، بخلاف التوجه الذي يدعو إلى أن الأصل هو الصراع، وأنه يجب على المرأة أن تصارع الرجل لتحصل

على حقوقها، وأن المحكوم يجب أن يصارع الحاكم للحصول على حقوقه، وأن الإنسان يجب أن يصارع الكون حتى يُحصِّل منه منفعته، على ما استقر في الفكر الإغريقي من فكرة صراع الآلهة وانتصار الإنسان في النهاية عليها.

وفهم سنة التكامل لا ينفي حدوث الصراع أو إمكانية حدوثه ووقوعه، ولكن هناك فرق بين أن نجعله أصلًا للخلقة، لا يمكن الفرار منه، وبين أن نجعله حالة عارضة يجب أن نسعى لإنهائها، حتى تستقر الأمور على الوضع الأول الذي خلقه الله.

هذا التكامل هو الذي يفرق -عند تفهمه- بين المعنى الروحي للجهاد في سبيل الله، ومعنى كونه في سبيل الله، وبين الحرب التي تشن هنا وهناك لأجل المصالح والهيمنة، والاستعلاء في الأرض والإفساد فيها أيضًا.

فانظر إلى قوله تعالى في أول سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾[4].

فالجهاد في سبيل الله منه أصغر وأكبر، والصغر والكبر إنما يعودان إلى الزمن الذي يستغرقه كل واحد منهما، فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «**رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ**»[5]، رواه البيهقي في «الزهد»، والخطيب في «تاريخ

---

(١) سورة النساء، آية [١].
(٢) سورة الإسراء، آية [١٢].
(٣) سورة آل عمران، آية [٢٦].
(٤) سورة الزُّخرف، آية [٣٢].
(٥) رواه البيهقي في «الزهد»: (رقم٣٨٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد»: (١٣/ ٥٢٣)، وقد أفرد له الحافظ =

بغداد»، وقال الله تعالى: ﴿وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

فالجهاد بالقتال لا يستغرق إلا مدة المعركة، وهي قليلة على كل حال، أما الذي يمتد العمر كله، ويعم الناس كلهم، والأرض كلها، فهو جهاد النفس.

وجهاد القتال يجود فيه الإنسان بنفسه من أجل سعادة غيره، ففيه معنى الفداء، فوصفه بالأصغر لا يقلل من علو شأنه وأهميته، ولكنه يشير إلى مدته، وأنه صراع عارض، لأجل الرجوع إلى حالة الاستقرار والتوازن، التي خلق الله الناس عليها أول مرة.

من أجل ذلك رأينا أن القاتل غير المقاتل، وأن من قتل أول مرة عليه وزر من اتخذ هذا سبيلًا له عبر التاريخ، ويقص علينا ربنا سبحانه قصة ابني آدم من أجل هذه العبرة في سورة المائدة، ويتبين منها أن الجهاد في سبيله، غايته الفلاح، وإنهاء الفساد في الأرض، والخروج عن مفهوم القتل، الذي جعله الله علامة على خذلان ابن آدم وعقابه، إلى مفهوم القتال؛ لرفع العدوان، ودفع الطغيان، وعدم السكوت على المنكر، وعدم السكوت على الإفساد الخسيس للأرض.

ومنها: سُنّة التعارف: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾[3] (لتعارفوا) هذه هي القضية، وليس (لتقاتلوا)، إنما يريد التعارف، وهذا التعارف ما دمنا شعوبًا وقبائل مختلفة فلا بد فيها من جسور، من ضمنها: تعلم اللغات؛ لأن الإنسان عندما يتعلم اللغات فإنه

= أحمد بن الصديق الغماري جزءًا حديثيًا، انتهى فيه إلى تحسين الحديث، واسم كتابه: «تحسين الخبر، الوارد في الجهاد الأكبر»، وهو مخطوط.

(١) سورة الحج، آية [٧٨].

(٢) سورة العنكبوت، آية [٦٩].

(٣) سورة الحجرات، آية [١٣].

يتعارف مع الآخرين، وأمر تعلم اللغات هذا غريب جدًّا؛ لأن هذه اللغات كان الناس يتعلمونها على مرِّ الدهور، وإلا لما استطاعوا أن يتصلوا ببعضهم البعض! ولَـمَّا سارت التجارات بينهم! ولَـمَّا دخل نابليون إلى مصر وجد أناسًا في الأزهر يتكلمون الفرنسية، ويحكي عبد الرحمن الجبرتي أن الفرنسيين كانوا يأتون لأبيه ليتعلموا الرياضيات، فكان الأزهريون يتعلمون من هؤلاء الفرنسيين اللغة الفرنسية، كانوا يقولون: إذا كنا حفظنا «الشاطبية» و«الطيبة» أفلا نستطيع أن نحفظ هذه اللغة؟! ولَـمَّا ذهبت بعثات محمد علي إلى فرنسا نظموا الشعر بالفرنسية بعد ستة أشهر، فهل من المعقول أن هؤلاء لم يكونوا يعلمون شيئًا عن الفرنسية؟! فهذه ليست عبقرية بحتة ولكنه استعداد، فهناك شيء قبل ذلك حصل ولكنه لم يسجل.

ومن ضمن تلك الجسور الحراك الفكري والثقافي والاجتماعي الذي يجري بين الأمم، التي تمتلك مشروعًا حضاريًّا، فيحصل تبادل المعارف والعلوم.

والمقصود أن سنة التعارف هذه سنة مهمة جدًّا، يتم فيها إنشاء الجسور بين الحضارات، ويتم فيها التوصل إلى المشترك الذي نتفق جميعًا عليه، ويتم فيها دفع عجلة العمران.

ومنها: سُنّة التدافع: وهي سنة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1]، وهذا التعبير القرآني يبين حقيقة علو القرآن على التفاسير التي خطها البشر، فهو لم يحصر هذا في القتال أو النزاع والخصام، كما ورد في بعض التفاسير، بل عَبَّر بالتدافع ليشمل كل أنواع التعاون والاختلاف، بل والصراع والصدام، للوصول بكل وسيلة إلى الاستقرار، وتحقيق مراد الله من خلقه: عبادةً، وعمارةً، وتزكية.

(١) سورة البقرة، آية [٢٥١].

فالتدافع سنة إلهية تبين أن الإنسان قد خلقه الله -سبحانه وتعالى- اجتماعيًّا، يحتاج إلى الآخرين، وهم يحتاجون إليه، فلم يخلقه منعزلًا قادرًا على البقاء وحده، وذلك حتى يحقق مراد الله من خلقه، بل إنه لا بد أن يعمل في فريق ليصل إلى هدفه، وعمله في الفريق، وحراكه الاجتماعي، ونشاطه الذاتي، يحتاج إلى إدراك سنة التدافع، وإدراك هذه السنة يتولد منه قوانين كثيرة، لضبط هذا النشاط والحراك، وعليه فإن عمليةً فكريةً لا بد أن تسبق النشاط، وهو ما قد يكون الإنسان العصري قد افتقده حيث سبق النشاط عنده الفكر، وكان ينبغي أن يسبق الفكر النشاط، وأن يسبق حديث القلب أيضًا الفكر، ولهذا موضع آخر يشرح الفرق بين الأمرين.

وهذا التدافع عندما نطالع معناه في بعض التفاسير تجدها تتحدث عن القتال، ولكن ربنا سبحانه ذكر القتال في القرآن نحو مائة مرة، فلِمَ قال هنا: التدافع؟! فالله -جل جلاله- ذكر أمور القتال والحرب بقوة في مواضع كثيرة من القرآن، فلِماذا عدل هنا عن لفظ الحرب إلى التعبير بـ(التدافع)، أو (الدفع)؟ لأن التدافع قد يكون في الحرب وقد يكون في السلام، إذًا هؤلاء المفسرون لم يخطئوا أيضًا؛ لأنهم تناولوا جانبًا من جوانب التدافع، لكن يقع الخطأ عندما يتوهم القارئ حصر الكلام في الحرب وحده، بينما السنة هي التدافع، بل إن السلام أولى، وهو قبل الحرب، وهو المقدم عليه فهذا يؤدي بنا إلى أمور: إلى إعادة النظر في القراءة، وإلى إمكانية توسيع المعاني، ما دام ذلك جاريًا في إطار اللغة العربية، والقواعد الـمَرْعيَّة، وبقية قواعد الشرع.

وسنة التدافع هذه يمكن أن تتولد منها مفاهيم الحراك الاجتماعي، والانتقال من طبقة إلى طبقة، أو من مستوى إلى مستوى، ويمكن أن يفهم منها قضايا التخصص وتقسيم العمل، ويمكن أن يفهم منها قضايا العلاقات البينية التي توجد في المجتمعات، وكيفية تنشيطها وأنها تحتاج إلى شيء من الدفع، وأنها قد لا تتحرك وحدها، ونسبح في الكلمة، ونولد منها المعاني، ونختبر هذه المعاني، ونجرب هذه

المعاني، ونبحث عن هذه المعاني، وننشط في فهم القرآن واستخراج هدايته كما نشط آباؤنا وأجدادنا.

ومنها: سُنّة التوازن: وهي سُنة قد أشار الله -سبحانه وتعالى- إليها كونيًّا، فقال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾(١)، وأشار إليها قيميًّا، فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾(٤).

ونرى مرة ثانية أن الاستقرار هو الأساس الذي يجب أن ينتهي إليه النشاط الإنساني بعد التوتر الذي يبدأ به، وإذا تحدثنا عن مثل هذه السنة لرأينا أنها سنة كونية، وسنة قيمية كما سبق، ونأخذ منها موقفنا من قضايا البيئة، وموقفنا من قضايا الفكر، وموقفنا من مفهوم العدل، خاصة إذا رأيناها تمتد إلى الآخرة والحساب، وتمثل دالًّا على عدل الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾(٥)، وقال سبحانه: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾(٦)، والذي لا بد للإنسان أن يتمثل به، ثم يأتي التكليف على وفق هذه السنة، مشيرًا إلى أن التكليف بالأحكام مرتبط ارتباطًا تامًّا بالسنن الإلهية المحيطة بنا، وأن تطبيق هذه الأحكام من خلال فهمنا للسنن، وتفاعلنا معها، هو الضامن لتحقيق هدفها، والوصول إلى مقاصدها يقول تعالى: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾(٧).

---

(١) سورة الحجر، آية [٩].
(٢) سورة الرحمن، آية [٩].
(٣) سورة الشورى، آية [١٧].
(٤) سورة الحديد، آية [٢٥].
(٥) سورة الأنبياء، آية [٤٧].
(٦) سورة الأعراف، آية [٨].
(٧) سورة الأعراف، آية [٨٥].

إن توليد العلوم والذي توقف في القرن الرابع الهجري، وتوليد الحضارة منها على مقتضيات العصر الذي نعيشه، هو الأصل في تجديد الخطاب الديني، بعيدًا عن الجهالة، وعن الأماني، وعن الآمال التي قد تخطر ببالنا، مع كسل مريع في تحصيل العلم، فالقرآن ومنهج السلف الصالح يدعونا إلى أن يكون هذا الأمر نسقًا مفتوحًا، يزيد ولا ينقص، فنحن نطالب الأمة -لأن هذه قضية أمة وليست قضية فرد من الأفراد- أن تولد العلوم، وللعلوم طريقة في توليدها، موجودة عندنا في مكانها، ولها مبادئ عشرة، هي التي لخصها الناظم في هذه الأبيات الشعرية المهمة:

مَن رَامَ فَنًّا فَلْيُقَدِّم أولا * عِلمًا بحدٍّ، ثم موضوع تلا

وواضع، ونسبة، وما استُمد * منه، وفضله، وحكم يعتمد

واسم، وما أفاد، والمسائل * فتلك عشر للمُنَى وسائل

وبعضُهُم فيها على البعض اقتصر * ومن يكن يدري جميعها انتصر

فهذه أصول ومناهج موجودة، وهناك عمل علمي عليها وحولها، ولكن الفكرة الأساسية التي نريدها -حتى لا تغيب عنا- هي استمرار توليد العلوم، بالرغم من أننا قد تغافلنا ونمنا عن توليد العلوم الخادمة زمنًا طويلًا، فلا بد علينا أن نستمر في خدمة القرآن، وفي توليد العلوم حوله.

إذًا نستطيع أن نقول: إنه كما كانت الدارسات الإسلامية حول القرآن عميقة، وكانت مستمرة، إلا أنها كانت في ازدياد مستمر، وللماضي فضل موجود، لكنها كانت عند الأقدمين في ازدياد مستمر، يستوعب المستجدات، وهذا يعطينا اليوم مشروعية لأن نولد العلوم كما ولدت من قبل، خدمةً للقرآن، لاسيما وأن توليد العلوم بهذه الصفة يدل علي حياة الأمة، وأن عدم توليد العلوم يدل على عكس ذلك، وعكس الحياة إما النوم وإما الموت.

وفي بداية الطريق يستحسن عدم وضع المعلومات في قولبة علمية قابلة للنقل، حتى ينطلق الفكر، ويفكر حرًّا طليقًا من قيود القولبة وضوابطها، ثم لما أن يستقر الفكر، وتتفق الجماعة العلمية على شيء، فحينئذ نضعه في قالب قابل للنقل، وقد كانت هذه هي الوظيفة الأساسية للجامعات المختلفة في العالم، والتي تركت الفكر وتحولت إلى التلقين، والتي كان من المفترض فيها أنها تولد الفكر الذي يخدم العلم، حيث إنه رافد من روافد نهر العلم، وهذا في العالم كله وليس في بلد دون سواه.

وأؤكد هنا على هذا الضابط الذي أراه مهمًّا، في التفرقة بين العلم والفكر، فالعلم يبقى مضبوطًا، قابلًا للتكرار، ويمكن أن يدرس في الجامعات، ومجالس الدرس، أما الفكر فينبغي أن يكون حرًّا، طليقًا، من القواعد والاصطلاحات، ففي مرحلة الفكر ينبغي أن يفهم بعضنا بعضًا؛ لأنه لم تولد المصطلحات بعدُ، ولم توضع بإزائها معان محددة، بل تكون فكرةً يحاول المفكر أن يستولدها، وأن يستنبطها، ثم بعد ذلك تجلس الجماعة العلمية، وتحاول أن تجعل لها لفظًا، وأن تصنع لها مصطلحًا تسير عليه، فيتحول الفكر إلى علم، ومن ثم فلا بد لنا من أن نرجع بالفكر لكي يغذي العلم، ويطور طرق نقله ومضمونه، كما كان الأمر في القرون الأولى، وكما هو الحال في الأمم المتقدمة.

فالجامعات جمدت عما كانت عليه في أول الأمر، باعتبارها محضنًا للفكر، وهذا لما أن كان المسلمون عندهم فكر، وعندما يستوي هذا الفكر يخرج الإمام الشافعي مثلًا ليؤلف كتاب: «الرسالة»، فيضع بذلك علمًا جديدًا اسمه أصول الفقه، وإن كان الذي ذكره فيه موجودًا قبله في أذهان كبار العلماء، لكنه كان فكرة اختلفوا فيها، ثم جاء هو فقولبه ونمطه فصار علمًا، ثم هذا العلم يأخذ في النمو إلى أن يصل إلى غاية، يعد البقاء معها جمودًا، فيأتي الفكر فيغذيه، فينمو مرة أخرى، وهكذا أبدًا، في حراك لا نهاية له، إلا بنهاية العالم، فالعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة.

حَفْرِيَّـات القــرآن

مما قصَّر فيه المسلمون قضية حفريات القرآن، والمراد بها تنشيط بعثات وبحوث وفِرَقِ عمل، تخرج للتنقيب في الأماكن والإحداثيات التي تكلم عنها القرآن الكريم، لا سيما وأن القرآن يشير إشارات لطيفة جدًّا، إلى أن الله تعالى ترك لنا بقايا من أحداث الأمم الخالية وآثارهم لنتفكر فيها، وننشئ حولها البحوث، فيقول سبحانه عن سفينة نوح: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1]، ويقول سبحانه عن قرى قوم لوط: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2]، فهو سبحانه يعلمنا بأنه ترك سفينة نوح آية، ويأمرنا بالتدبر في بقايا قرى قوم لوط، والتي هي شاهد صدق على عاقبة الانحراف والسوء، ولا شك في أن الخطاب القرآني بذلك غير موقوف على زمن معين.

ويتضح لك ذلك إذا قرنت قوله سبحانه في قرى قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3]، بقوله -جل شأنه- عن تلك القرى نفسها، في موضع آخر من كتابه الكريم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[4] فأعلمنا -سبحانه وتعالى- بأنه ترك فيها آية، فلا بد من التفتيش عن تلك الآية، والبحث حولها.

وحفريات القرآن لها شبيه في علاقة الآثار بالبحث والتنقيب في الكتاب

---

(١) سورة القمر، آية [١٥].

(٢) سورة الصافات، الآيات [١٣٦-١٣٨].

(٣) سورة الصافات، الآيتان [١٣٧-١٣٨].

(٤) سورة الذاريات، الآيات [٣١-٣٧].

المقدس؛ فقد صنعوا قاموس الكتاب المُقَدَّس، وأنشأوا أبحاثًا عن كل كلمة، وقاموا بتمويل بعثات لاستكشاف المناطق الأثرية التي ورد لها ذِكْر في الكتاب المقدس، ولـم يقتصر البحث على الروايات التاريخية التي تتناول تلك الأماكن، وبحثوا طويلًا: أين سدوم؟ وأين عمورية؟ إلى آخره، وتوصلوا إلى أبحاث، وزُوِّرَتْ أبحاث أخرى، نعم زورت تزويرًا؛ لأن الساحة خالية من المقابل والدارس! وليس من المعيب أن نهتم بمثل هذه العلوم بحثًا عن الكهف، أو عن مكان سفينة نوح، أو عن سد ذي القرنين، أو عن إرم ذات العماد، أو عن سد مأرب، أو عن موضع انشقاق البحر لموسى، لكن لما نجد الناس تحركوا للسعي في الأرض، ففي سنة ألف وثمانمائة وتسعين ابتدأت الرحلات الاستكشافية الغربية لجبال أرارات بتركيا، بحثًا عن موطن سفينة نوح، وواحد منهم يكتب كتابًا، ويقول إنها على قمة جبل صغير يسميه أهله الجودي، والباحث المذكور غير مسلم، ولا يعرف عن الإسلام شيئًا! وهي في الكتاب المقدس أرارات، فيكون الاثنان صادقين؛ لأنها سلسلة جبال الأرارات، على قمة الجودي، ولكن الجودي غير معروف، وهنا تأتي أبحاث ومعانٍ كثيرة تحرك الدنيا؛ لأن المقصود أن يتحرك الناس، وأن يسعوا؛ فإن البعثات التي ذهبت -وعددها نحو أربعة أو خمسة إلى الآن، آخرها بعد سنة ألف وتسعمائة وثمانين- حركت مصانع، وفعّلت أدوات، وحركت وسائل بحث ومناهج؛ ولذلك فإن القضية ليست قضية معلومات، بقدر ما هي قضية حياة، وتمكن في هذه الحياة، وما الذي يوصل إلى هذه الحياة.

ومن المعاصرين الذين اهتموا بهذه القضية، وبذل لها تمويلًا ضخمًا، وقام ببحوث، ورحلات استكشاف، ودراسات موسعة حول شيء من حفريات القرآن: العلامة أبو الكلام آزاد، وزير المعارف الهندي الأسبق، فقد قضى وقتًا طويلًا وهو يتتبع مسألة سد ذي القرنين، وقام بدراسة واسعة حول الروايات والآثار التي

تتحدث عن السد، وتصف موقعه، ثم انتقل إلى محاولة تحديد تلك الإحداثيات المكانية على الخريطة، ثم ذهب بالطائرة إلى المواقع التي اجتهد في تحديدها، وصور السد، وقد كتب الشيخ عبد المنعم النمر كتابًا ضخمًا عن أبي الكلام آزاد، ووصف فيه تلك البحوث بالتفصيل[1].

وليس المقصود هنا هو البحث في هذه المسائل عن طريق حشد الروايات التاريخية، والاشتغال بالنظر فيها أو التوفيق بينها؛ فإن هذا موجود عندنا، بل لا توجد أمة على ظهر الأرض تملك من أدوات توثيق النصوص مثل الذي تملكه هذه الأمة، وإنما المقصود أن تقوم فرق علمية متخصصة في الجغرافيا والتاريخ والجيولوجيا، بالإضافة إلى خبراء التاريخ وخبراء الآثار، وتحدد إحداثيات الأماكن التي وقعت فيها أحداث ورد ذكرها في القرآن الكريم، وتجتهد في تمحيص التاريخ لتحديد منطلق علمي واضح، ثم تتحرك فرق البحث والتنقيب لدراسة ميدانية لتلك الأماكن، وتنشر تلك البحوث على نطاقٍ واسعٍ، نظير ما فعل العلَّامة أبو الكلام آزاد رحمه الله.

---

(١) علم آثار الكتاب المقدس، أو الأركيولوجيا العلمية للكتاب المقدس: (مبحثٌ علميٌّ مهم، يهتم بالبحث والتنقيب عن ودراسة- الآثار المادية المرتبطة بتاريخ الكتاب المقدس، والنصوص الفردية، والموضوعات الرئيسية الواردة فيه، ويتم تنفيذ الحفريات الآثارية لهذا الغرض، في منطقة فلسطين القديمة، وبلاد ما بين النهرين، ومصر، وفي أماكن أخرى في منطقة المتوسط، وقد أتاحت النتائج التي تم التوصل إليها إمكانية توفير أساس تاريخي لتحليل الكتاب المقدس، والتحقق من صحة المعلومات الواردة فيه، ولا يقل عن ذلك أهمية تلك الفرصة التي وفرها هذا المبحث العلمي للحصول على الأسفار المختلفة للكتب المقدسة، ومنذ منتصف القرن التاسع عشر فصاعدًا بدأت الأوساط والمنظمات الأكاديمية في تخصيص موارد كبيرة للبعثات الأثرية لأراضي الكتاب المقدس)، انظر: «المعجم العلمي للمعتقدات الدينية» (ص٨٢).

المبادئ القرآنية العامة، مدخل آخر لفهم القرآن

من مبادئنا التي نَبْنِي عليها مسيرتنا في فهم القرآن وبناء الحضارة: أننا نتعامل مع القرآن الكريم باعتباره كتابًا مُعْجِزًا، لا تنتهي عجائبه، ولا يَخْلَقُ من كثرة الرَّد، كما وصفه رسول الله ﷺ، وأنه باقٍ كمعجزةٍ لرسالة النبي ﷺ إلى يوم الدين، وأنه محفوظٌ بحفظ الله -سبحانه وتعالى- له، وأنه في إعجازه وعدم انتهاء عجائبه يظهر منه في كل عصر ما به تقوم الحُجَّة.

فنرى أن كتاب الله معجز مع كل سقفٍ معرفي، فعندما كان البدوي في الصحراء يرى الشمس تشرق من المشرق، وتتحرك في حركةٍ ظاهريةٍ في السماء، ثم تَغْرُبُ بعد ذلك في جهة المغرب، كان يفهم قولَ الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[1] بأن الشمس تتحرك؛ فإنه ليس من أصحاب الرياضة، وليس من أصحاب علوم الفَلَك، وإنما هو يتحدث بالظاهر أمامه، والقرآن لا يُخرجه من ثقافته هذه، وهو يقول: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ ويَحْمِلها البدوي على ظاهر الحركة الشمسية، ثم تتقدم العلوم ويثبت علماء الفلك وعلماء الرياضة حجم الشمس الكبير، مما لا يمكن معه أن تكون الأرض هي التي تُحَرِّكُها، بل العكس هو الصحيح؛ فإن الشمس هي التي تحرك الأرض، ويكتشفون ذلك شيئًا بعد شيء، أولًا من الناحية الرياضية، ثم بعد ذلك من الناحية الحسية، وعندما انفصلوا عن الأرض ورأوها بأعينهم، فرأوا أن الأرض هي التي تدور، وأنها تدور دورات مختلفة، مرةً حول نفسها فتسبب الليل والنهار، ومرةً حول الشمس، ثم إن القمر هو الذي يدور في فَلَكِهَا، فهو الذي يتحرك حركةً حقيقية توافق ما نراه بأعيننا،

(١) سورة يس، آية [٣٨].

وإن كانت الشمس والقمر يتحركان نفس الحركة أمام الراصد من على الأرض، ولكن حركة القمر حقيقية فهو يتحرك فعلًا، والشمس حركتها حركةٌ ظاهرية.

إلا أن العلماء عندما يكتشفون هذا، يكتشفون أيضًا حركاتٍ للشمس نفسها، فالشمس تجري حول نفسها وتدور، والشمس أيضًا تجري في الفضاء في الْمجَرَّة، نحو نجم يسمى بنجم فيجا، ونجم فيجا هذا الذي تتوجه إليه الشمس تُسْرِع في اتجاهه بمقدار حدَّدوه بـ ١٢ كيلو مترًا في الثانية الواحدة، فهذه سرعة رهيبة، تجري بها الشمس، وتَجُرُّ وراءها المجموعة الشمسية كلها بكل ما فيها من كواكب، منها الأرض، وهي تسبح في الفضاء العظيم، ويصبح جريان الشمس له معنًى آخر، بسقفٍ معرفيٍّ آخر، مختلف عن ذلك السقف الذي كان عند الأوائل، ويبقى النص القرآني صادقًا، لا يختلف عن أي حقيقةٍ كانت.

إذًا، فالقرآن معجز في صياغته، ومن ضمن هذه المعاني أشياء في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية، وفي مجال الفكر.

وهنا قضية «المبادئ القرآنية»، وخلاصتها: أن القرآن يتكلم بكلامٍ وبجُمَلٍ مفيدة، هذه الجمل المفيدة قد تكون متعلقة بالعقيدة، مثل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1] فهذه جملة مفيدة، تصف الرَّبّ -سبحانه وتعالى- بأنه غفور، يُكَرِّر الغفران ويسامح، وبأنه رحيم يُكَرِّر الرحمة، فالمغفرة والرحمة من صفات الله -سبحانه وتعالى-، فهذه حقيقة، ولكنها مَرَدُّها إلى صفات الله، وإلى العقيدة، وعندما يقول: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[2] فهذه حقيقة أيضًا، إذًا فالذي نبحث عنه هنا ليس هو الحقائق؛ لأن هناك حقائق عقائدية، وحقائق فقهية تُبيِّن الأحكام، كقوله سبحانه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ

(١) سورة النساء، آية [٩٦].

(٢) سورة يس، آية [٣٨].

قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾[1] هذا الكلام الجليل هو الذي نأخذ منه أحكام مواقيت الصلاة، ونأخذُ منه وجوب الصلاة على المؤمن، ونأخذ منه فضل قراءة القرآن بالليل، لقوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[2] فكل هذه حقائق وأحكام، ولكن فكرة «المبادئ القرآنية» لها منطلق آخر؛ إذ هناك أيضًا أشياء في القرآن الكريم تُعَدُّ مُلخَّصًا للفكر البشري، وتعد أجزاء من النموذج المعرفي، الذي هو في حقيقته الرؤية الكلية للإنسان والكون والحياة، وما قبل ذلك وما بعد ذلك، وتعد قسمًا من موقف الإنسان من العالم، وهذه هي التي نُطْلِقُ عليها «المبادئ القرآنية».

وكلمة مبادئ هي جمع لكلمة مبدأ، ومبدأ مصدرٌ ميمي، يعني مصدر يبدأ بحرف الميم، والمصدر الميمي يَصْلُحُ للدِلالة على الزمان والمكان والحدث، إذًا فهذا المصدر (مبدأ) يصلح للدلالة على نفس البدء على الحدث، ويصلح للدلالة على زمان البدء، بل ويصلح للدلالة على مكان البدء، بل ويصلح للدلالة عليها جميعًا، فكلمة (مبدأ) يعني بداية الأمر، سواءٌ في نفسه، أو في مكانه، أو في زمانه، فهذا معنى المبدأ؛ ولذلك نحن هنا نُطْلِقُ المبدأ على هذه الجملة القرآنية المفيدة، التي لا نريد بها تقرير حقيقة، ولا شرح حقيقة، سواء عقائدية أو كونية، ولا نريد بها حكمًا ولا أن تشرح حكمًا، ولا تأمر به سواء أكان شرعيًّا أو غير ذلك، ولكنها تعطي لنا مبدأً نسير عليه، تعطي لنا طرف الخيط من أوله، فإذا سِرْنا في ذلك الطريق مع هذا المبدأ؛ فإننا نكون قد وصلنا إلى التفكير المستقيم، فهي تمهيد للحقائق أو للأحكام.

وعندما تأملنا آيات القرآن، وحاولنا أن نستخرج منها هذا المفهوم، وجدنا أن الله -سبحانه وتعالى- يقول: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[3] فهذا نموذجٌ لِمَا نسميه

(١) سورة الإسراء، آية [٧٨].
(٢) سورة الإسراء، آية [٧٩].
(٣) سورة البقرة، آية [١٧٩].

المبدأ القرآني، حيث إنه يتكلم عن شيءٍ ينبغي علينا أن نؤمن به أولًا، ثانيًا: أن نُطَبِّقَهُ، ثالثًا: هو في كل المجالات، سواءٌ في مجال قانون العقوبات، أو في مجال تربية الطفل، أو في مجال أسس الاجتماع البشري والجماعة البشرية، أو في مجال العقيدة، أو في أي مجالٍ كان، نجد المبدأ ساريًا، ليس خاصًّا بمجالٍ دون مجال، ولكن المبدأ هو بداية الخيط الذي يمكن أن نسير معه في كل المجالات، فهو مُكَوِّن من مكونات العقل المسلم ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

فإذا أتت لنا أفكار تتكلم عن خطيئة آدم، وأن هذه الخطيئة موروثة، وأنها لا تزول عن الإنسان إلا بطرقٍ معينة، فإن هذا الفكر الذي يُجيز وراثة الخطيئة هو ضد ذلك المبدأ، وهذا المبدأ هو ضد ذلك الفكر؛ ولذلك ترى المُسْلِم لا يستطيع من البداية بصورةٍ واضحة أن يقبل فكرة وراثة الخطيئة، فالمبدأ أنه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وعندما يسمع المُسْلِم في بعض الثقافات، ومنها الثقافة العربية الجاهلية قبل الإسلام، أنه (خذ ثأرك من جارك) فإنه يرفض هذا المبدأ، ويرفض هذا المَنْحَى، وينفر من هذا التصرف؛ لأن مبدأهُ الذي كوَّن عقله هو أنه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وعليه فإن المسلم يأباه، ويشعر أن فيه ظُلْمًا، وأنه لا يمكن أن نأخذ ثأرنا إلا ممن ظلمنا، إذا لم نسلك سبيل الصبر والاحتساب، ولكن إذا سلكنا سبيل الصبر والاحتساب فإننا نصبر على هذا البلاء، ونوسع صدورنا، ونرجو ثواب ربنا، ونتجاوز عن هذا البلاء، وفي ذلك الخير الكثير كما وصف الله -سبحانه وتعالى-، وكما أمرنا رسوله ﷺ في كلامٍ طويل في الصبر على البلاء، وعلى الأذى من الناس.

إنما المبدأ هو أنه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فهل هذا المعنى يمثل حقيقةً كونية؟ لا، وهل هو يمثل مبدأً يَشْتَمِل على أوامر، مثل ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾؟ أبدًا، إنه يتكلم كما لو كان يخبر أنه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فلم يقل لنا: أنتم مُكَلَّفُون بأن لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، بل جعلها قاعدةً عامة، وجعلها مبدأً في كل

المجالات، ولذلك فإن الله -سبحانه وتعالى- وصف نفسه بأنه لا يُضيعُ أجرَ مَن أحسنَ عَمَلًا، ووصف نفسه فقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(1)، وأخبرنا بأن مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ، وأنه لا يَظْلِمُ، ولا يُظْلَمُ عنده أحد، وأنه سبحانه حَرَّم الظلم على نفسه وجعله بين العباد مُحَرَّمًا، فكل ذلك يتسق مع ذلك المبدأ الذي يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

وهذا المبدأ قديم، جاء في الشرائع كلها، فهو كما في سورة النجم في صُحُف إبراهيم وموسى، وهو في الكتب السابقة، فهو إذًا مبدأ لا يَخْتَصُ به القرآن، ومخالفة ذلك المبدأ كما نرى سوف تدخل في نطاقٍ واسعٍ من المخالفة، حتى في العقائد، فإن أديانًا بحالها لا يستطيع المسلم أن يُصَدِّقَ جزئياتها، وما فيها مما وضعه الكهنة لهذه الأديان، وذلك بسبب هذه الكلمة الموجزة، والتي هي في نفس الوقت تعد مبدأً عامًّا.

ومن المبادئ -مثلًا- القرآنية: (القصاص حياة)، فقال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُولِي الْأَلْبَـٰبِ﴾(2)، فعندما يسمع المسلم هذا المبدأ، فإنه يَأْنَفُ من قول الجاهلية: (القتل أنفى للقتل)، فإن القصاص ليس قتلًا إلا في الصورة، بل إنه في مقابلة عُدوان ثابت عن طريق القضاء، ولذلك فهو موصوف بصفات مهمة جدًّا، منها أنه لرد العدوان، وأنه ثابت، وأنه عن طريق القضاء، فلا يكون إلا في المُجْرِم، وليس على سبيل الثَّأْر الذي اخترعه الناس في صعيد مصر مثلًا، بحيث إذا قُتِلَ من عائلتهم واحد، فإنهم يقتلون الكبير في العائلة المقابلة، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(3) يبين لنا أن ذلك الشخص الكبير ما ذنبه حتى يُؤْخَذ بِجَرِيرَة القاتل، والقاتل قد يكون فردًا من أفراد الناس، وليس كبيرًا ولا عظيمًا، وهو في بعض

(1) سورة فصلت، آية [46]. (2) سورة البقرة، آية [179].
(3) سورة الإسراء، آية [15].

الأحيان مستعد أن يُضَحِّي بنفسه من أجل العائلة، ولكن الظُلْمَ تمادى بهؤلاء فقتلوا الكبير، عندما قُتل منهم أحد.

أما (القِصَاص) فإنه بخلاف ذلك، وأتذكر ونحن نتعمق في هذا المبدأ، أن أحدَهُم قد اعترض مرة على قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، وقال: هذه كلماتٌ أربع، فأين هذا الإيجاز والإعجاز الذي تتكلمون عنه في القرآن؟ إنه من الأَوْلَى أن نقول: (القتل أنفى للقتل) كما كانت تقول العرب، فردَّ على هذا مصطفى صادق الرافعي[1] -رحمه الله تعالى- كما هو منشور في تجميع مقالاته التي سُمِّيت بـ«وَحْي الْقَلَم»، وفي هذه المقالات يَرُد فيها على ذلك الزاعم، الذي يزعم بأن هناك ما هو أبلغ من القرآن، في عبارة: (القتل أنفى للقتل) وأنها أَوْلَى من قول الله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ بل وأصغر؛ فالقتل أنفى للقتل، كلماتٌ ثلاث، وهذه كلماتٌ أربع ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ يَرُد مصطفى الرافعي، ويَرُد غيره على هذا، فيقول: «إن هذه الكلمة إذا ما أردنا أن نقارنها فعلينا أن نقارنها بما يقابلها، لا بما يزيد عنها في المعنى من القرآن الكريم، والذي يقابلها من القرآن الكريم (الْقِصَاص حَيَاةٌ)، فهذه واحدة.

ثانيًا: «التَكْرَار في هذه العبارة: القتل أنفى للقتل، فقد تكَرَّر لفظ القتل مرتين، والقتل الثاني والقتل الأول لم نعرف كُنْهه، أما كلمة القِصَاصْ فإن القتل الأول يكون ظُلْمًا، والقتل الثاني يكون عُقُوبَةً، وهناك فارقٌ بين الظُّلْم وبين العقوبة».

ثالثًا: (القتل أنفى للقتل) في مُقَابَلَة (الْقِصَاص حَيَاةٌ) إذا عَدَدتها أنها كلمات

---

(١) العلامة اللغوي الكبير مصطفى صادق الرافعي، من ذرِّية سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، من أعيان العصر في معرفة أسرار اللسان العربي، وله في النقد الأدبي نَفَسٌ يُذَكِّر بأئمة هذا الشأن من الأقدمين، ويكفي أن يكون من تلامذته أمثال العلامة المحقق اللغوي محمود محمد شاكر، رحم الله الجميع، وقد توفي الرافعي سنة ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م، من مؤلفاته: «تاريخ آداب العرب»، و«حديث القمر»، و«وحي القلم»، و«على السفود»، و«تحت راية القرآن»، وقد ترجم له الدكتور محمد سعيد العريان ترجمة واسعة في مجلد، عنوانه: «حياة الرافعي».

ثلاث، (القتل أنفى للقتل) باعتبار اتصال اللام الأخيرة بالقتل، فإننا نكون أمام كلمتين بإزاء ثلاثة، ولكن الحقيقة أن (القتل أنفى للقتل) أربع كلمات وليست ثلاثة، لأن القتل واحدة، أنفى ثانية، ثم اللام -وهي حرف جر، وهي من الكلمات- ثالثة، والقتل رابعة، ثم إن (القتل أنفى للقتل) كلام خطأ في المعنى، وهذا هو الوجه الرابع أو الخامس في الرد على ذلك.

أما القِصَاص، فإنه فِعْلًا يوقف ثوران الفتن، التي يحاول فيها المظلوم أن يأخذ بثأره من الظالم، والقِصَاص يكون أمام القضاء، ويكون بعد الإثبات، ويكون بعد إعطاء الإنسان حقوقه في نفي التهمة عن نفسه، ويكون ذلك بالبينات وبالأيمان وبالأدلة وبالقرائن، وبغير ذلك مما هو ثابت في المرافعات أمام القاضي، الذي يُثْبِتُ أو لا يُثْبِتُ الجريمة التي تستحق القصاص.

فالقتل ليس أنفى للقتل، بل القتل أَشد إثارة للقتل، بينما القِصَاص شريعةٌ من عند الله؛ ولذلك فيها العفو في مقابل الدِّيَة، وفيها العفو مجانًا، فكم من قتيل يتمنى أهله أن يموت، وكم من قاتلٍ يكون قد قتل بدافع، بدافع الدفاع عن النفس، أو عن العِرْض، أو عن المال، وقد يكون المقتول في بعض الأحيان هو الظالم، والقاتل هو المظلوم، ولذلك فإن العفو مجانًا، أو العفو عن طريق دفع الدِّيَة، أو عدم العفو بالمرَّة والقصاص، كل ذلك مُرَكَّبٌ في هذا الكلام.

(القتل أنفى للقتل) كلماتٌ فيها عَوَار من ناحية النُّطق، ليس في التَكْرَار فقط، بل في استعمال القاف وهي من حروف الجَهْر، من غير أن نستعمل معها شيئًا يخففها، بل إننا كررناها، أما القِصَاص فإننا وجدنا في المقابل لها حياة، وكلمة حياة مكونة من الحاء، والحاء مهموسة وهي أيضًا مُرَقَّقَة، والياء كذلك، والألف لينة،

---

(١) وللحافظ السيوطي -رحمه الله تعالى- مبحث طويل في كتاب «الإتقان»: (٢/ ١٤٩) ساق فيه عشرين وجهًا في تفضيل الآية الكريمة على العبارة المذكورة.

والهاء تخرج من الفم بهذه الطريقة التي تُخَفِّفُ وقع كلمة القِصَاص، التي فيها غِلْظَة وقوة وشدة وحزم، فتخففها كلمة حياة، ويأخذ الرجل في بيان هذا المبدأ القرآني: (الْقِصَاص حَيَاةٌ)، ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[1].

فهذا المبدأ القرآني يضاف إلى المبدأ الأول، وهناك أكثر من ثلاثين مبدأ في القرآن على هذا النحو، منها ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[2] وهذا مبدأٌ قرآني، وكلمة ﴿مِّثْلُهَا﴾ تعبر عن المساواة، وفي بعض الأحيان تتعذر المساواة في العقوبة؛ ولذلك فإن الله -سبحانه وتعالى- يرشدنا حينئذٍ إلى العفو، ما دمنا إذا أردنا أن نأخذ حقنا فلا نستطيع أن نأخذه بمثل ما قد أوذينا به، فعلينا إذًا أن نعفو، وهذا المعنى تراه في بعض التفاسير، كـ«تفسير القرطبي»، عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[3]، فهناك لفظ الْجَرْح وهو مصدر، ولفظ الْجُرْح بضم الجيم وهو اسم المصدر الناتج عنه؛ لأن العلاقة بين المصدر واسم المصدر: أن اسم المصدر هو أثر المصدر، ولذلك العطاء هو المصدر، والعطية التي أعطيت في هذا العطاء هي اسم المصدر، والْجَرْح هو المصدر، والْجُرْح هو أثر هذه العملية وهي الْجَرْح. فمبدأ الـ(الْجُرُوح قِصَاص) قد يسُدّ القِصَاص نفسه؛ لأن الجرح له طول وعرض وعمق، فهل يمكن أن نضرب المعتدي بحيث نُحْدِث فيه ذات الجرح؟ نعم يمكن ذلك نظريًّا، فهل يمكن عمليًّا؟ إنه أمر في غاية الصعوبة، لدرجة أنه كأن ربنا -سبحانه وتعالى- أراد منا العفو ما دمنا لا نستطيع المماثلة، فالنهاية تؤدي إلى إيقاف هذا الانتقام، والتحوُّل إلى الصبر، والتحول إلى العفو، والتحول إلى قَبُول الدِّيَات، وهكذا يأمرنا من طرفٍ خفي بالعفو، بعد أن يُهَدِّئ بَالَنَا، وأن الجروح فيها الْقِصَاص، ولكن افعلها بالمماثلة، فإن قلت: لا أستطيع يا رب أن أفعلها بالمماثلة، إذًا فعليك بالعفو.

---

(١) وللحافظ السيوطي -رحمه الله تعالى- مبحث طويل في كتاب «الإتقان»: (٢/ ١٤٩) ساق فيه عشرين وجهًا في تفضيل الآية الكريمة على العبارة المذكورة.

(٢) سورة الشورى، آية [٤٠].

(٣) سورة المائدة، آية [٤٥].

فالمبادئ القرآنية في الحقيقة هي من مبادئنا؛ لأنها تحول القرآن إلى كتاب هداية، ولأنها تكشف عن أحد مكونات العقل المسلم، ولأنها جزءٌ من النموذج المعرفي، ولأنها تجعل القرآن الكريم لا تنتهي عجائبه، كما أخبر رسول الله ﷺ، وأنه لا يَخْلَقُ من كثرة الرد، وأنه هداية للعالمين -وليس للمسلمين فقط- إلى يوم الدين، ولكن لمن أراد منه الهداية، ولمن دخله لا يريد أن يتلاعب به، وإنما يُعَظِّمُ شأنه.

المبادئ القرآنية من أهم الأشياء التي نبَّهْنا إليها، وكتبنا فيها، وأرشدنا تلامذتنا لأخذ الرسائل العلمية فيها، وقد تم كل ذلك والحمد لله، ويبقى أن تتحول إلى منهجٍ في الفهم، وإلى منهجٍ يُدَرَّس لطلاب العلم، حتى نُعَلِّم الناس كيف تتعامل مع القرآن الكريم.

وكان أول من درس ظاهرة المبادئ القرآنية هو الأستاذ الدكتور محمد السيد بدر، أستاذ ورئيس قسم فلسفة القانون وتاريخه، بكلية الحقوق، بجامعة عين شمس، في كتاب له سماه: «المبادئ العامة في القرآن الكريم» طبع بالقاهرة سنة ١٩٩٦م، في ثلاثمائة وثلاث وخمسين صفحة، دون دار نشر، وتكلم عن المبادئ القرآنية من الصفحة: ٢٩٢ إلى الصفحة رقم: ٣٥٣، لكن لا بد من تحويلها إلى علم تام، يعين على فهم كتاب الله تعالى بعد أن نبع منه.

أسماء الله تعالى في القرآن ومنظومة القِيَم

هناك مائة واثنان وخمسون اسمًا تقريبًا من أسماء الله تعالى موجودة في القرآن، وهناك مائة وأربعة وستون اسمًا موجودة في السنة، فهي مائتان وعشرون اسمًا تقريبًا عند حذف المكرر، فهذه هي الأسماء الحسنى التي أرشدنا الله تعالى أن ندعوه بها، قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[2]، وهذه الأسماء لها دور مهمٌّ عظيم، ألا وهو أننا نعرف بها من نعبد، فإننا نعبد الله الحي القيوم، الموصوف بكل هذه الأوصاف، والمسمى بكل هذه الأسماء، وهذه وحدها تكفي لإنشاء خطابٍ لبناء العقل المسلم، في كيفية تحويله إلى عدم الاعتماد على الأسباب، وإلى التمسك بها، وإلى معرفة مراد الله من خلقه، وهذه الأسماء تمثل منظومة عجيبة؛ فإننا عندما نتأملها نجد فيها صفات الجمال، مثل: الرحمن، الرحيم، الغفور، الودود، ونجد فيها صفات الجلال، مثل: المنتقم، شديد المحال، المتكبر، ونجد فيها صفات الكمال، مثل: الله، الأول الآخر، الظاهر الباطن، النافع الضار، وهي التي تسمى صفات الكمال؛ لأنها تُذكر سويًّا فيتم بها المقصود، فلا تقل: ربنا هو الضار فقط، فهذا لا يصلح، بل لا بد من أن تقول: النافع الضار، بمعنى أن النفع والضر بيده، ويسمونها الأسماء المزدوجة، وأهل العلم يقولون: لا تذكر الله بواحد منها فقط، بل هو سبحانه الظاهر الباطن معًا، فهو ليس غائبًا، ولكنه ليس حالًّا في خلقه؛ فالرب رب والعبد عبد، وهناك فارق بين المخلوق والخالق، فالجمال والجلال والكمال محاور تنشأ منها منظومة القيم؛ حيث نتخلق بالجمال، ونتحقق بالكمال، ونتعلق بالجلال، فنتخلق بالجمال؛

---

(١) سورة الأعراف، آية [١٨٠].

(٢) سورة الإسراء، آية [١١٠].

حتى تمتلئ قلوبنا رفقًا وشفقة ورحمة وبرًّا ومعروفًا، فيتمكن في قلوبنا معنى قوله ﷺ: «يا عَائِشَةُ إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»[1]، وقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ»[2] بمعنى: كن نظيفًا ظاهرًا وباطنًا؛ لأن ربنا سبحانه يحب النظافة، ولأن الملائكة الكرام تكره الرائحة الكريهة، فاجعل بيتك دائمًا جميلًا ونظيفًا، ثم إنه أمرنا بالطهارة للصلوات، وللخروج إلى الجُمع والجماعات، وكل هذا يصب في التخلق، وهذا يمكن أن تصنف فيه مجلدات.

ونتحقق بالكمال، ونتعلّق بالجلال، فنحذر من التكبر، ومن التجبر، فالمنظومة القائمة على هذه الأسماء تُمثل التجلّي والتحلّي والتخلّي، وتمثل التخلُّق، والتعلُّق، والتحقق، فهي منظومة متكاملة بعلاقاتها البينية، تمثلها أسماء الله الحسنى، ودراسة هذا المنحى فيها لطائف وعجائب وغرائب، وإلى الآن لم يدرس مثل هذا التوجه، ولذلك نصحنا أحد أبنائنا أن يأخذ الدكتوراه في القيم وعلاقتها بأسماء الله الحسنى، فيدرس أسماء الله الحسنى، وكيف تؤثر، وكيف تستعمل في علم النفس، وفي التربية، وغيرها من المناحي المختلفة، وفي منظومة القيم والعلاقات البينية القائمة بينها؟ فكيف نُفَعِّل ونُحَوِّل مثل هذه الأسماء إلى واقعٍ معيش وإلى أخلاقٍ مرضية، وإلى القضاء على الصفات الرَّدِيّة؟ وكيف نحول هذه القيم إلى مناهج تربوية؟

وسوف تبرز ظواهر عجيبة، فقد توقفنا مثلًا عند اسمه تعالى (الجبار)، هل هو من

---

(١) ورد عنه ﷺ من مسند عائشة وأنس رضي الله عنهما، أما حديث عائشة رضي الله عنها فقد رواه ابن أبي شيبة في «المصنف»: (٥/ ٢٠٩)، ومسلم في «صحيحه»: (٤/ ٢٠٠٤)، وابن حبان في «صحيحه»: (٢/ ٣١٠)، وأبو داود في «سننه»: (٣/ ٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى»: (١٠/ ١٩٣)، وأما حديث أنس رضي الله عنه، فقد رواه عبد الرزاق في «مصنفه»: (١١/ ١٤١)، ومن طريقه عبد بن حميد في «مسنده»: (١/ ٣٧٢)، وابن حبان في «صحيحه»: (٢/ ٣١١)، والترمذي في «سننه»: (٤/ ٣٤٩)، وابن ماجه في «سننه»: (٢/ ١٤٠٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب»: (٢/ ١٦).

(٢) رواه أحمد بن إبراهيم الدورقي في جزئه المسمى: «مسند سعد بن أبي وقاص»: (ص٢٣)، ورواه الترمذي في «سننه»: (٥/ ١١١)، وأبو يعلى في «مسنده»: (٢/ ١٢١)، والبزار في «مسنده»: (٣/ ٣٢٠)، ويعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ»: (٣/ ٣٨٧).

قبيل الجمال أو من قبيل الجلال؟ فهو جلال من وجه؛ لما فيه من معنى القهر والانتقام والقيومية، وهو جمال من وجه؛ لأنه يجبر الخواطر، ويجبر كسر المساكين والمنكسرين، فيكون اسم (الجبار) هنا يعني أنه سبحانه جبار للكسر، فهو من قبيل الجمال، فتخرج أنت منه بأنه عليك أن لا تكسر خواطر الناس، وخصوصًا المساكين، وسوف تستخرج من ذلك أشياء كثيرة، وعلوم تتولد، فالفكرة هي استمرار ذلك التولد.

وأسوق إليكم هنا مثالًا مهمًّا لقضية أسماء الله الحسنى، وأثرها في فهم القرآن واستخراج مقاصده، فإن هناك سبع آيات متتاليات، ختمت كل آية منها باسمين كريمين من أسماء الله تعالى، وهي قوله سبحانه في سورة الحج: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، حتى جعلها الإمامُ ابنُ الجوزيِّ -رحمه الله تعالى- في كتاب «فنون الأفنان، في عجائب علوم القرآن» من الألغاز القرآنية، التي يختبرون بها دقة حفظ أهل القرآن، فيقال: (أخبرني عن سبع آيات متتاليات، كل آية منها ختمت باسمين من أسماء الله تعالى؟)، ولكن نحن لنا فيها نظر آخر، فنرى هنا ظاهرة قرآنية في غاية العجب، ألا وهي: أنَّ الله تعالى اختار في ختام كلِّ آيةٍ اسمين كريمين، فيهما مغزى معين، يُعِينُ على تحقيقِ مقصود الآية، ويوقعُ في النفس المراد القرآنيَّ من الآية ملخصًا محددًا محكمًا واضحًا لا لبس فيه، فختمت الآية الأولى بـ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ لتوكيد أن المدخل الذي اختاره الله لهم

(١) سورة الحج، آية [٥٩-٦٥].

نابع من علمه المحيط، الذي لا تخفى عليه خافية، وأن مراد الله تعالى بهم في هذا المدخل هو غاية الحلم والرأفة، مما يرسخ في النفوس الرضا باختيار الله لهم، وختم الآية الثانية بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ ليلفت النظر بلطف إلى أنه سبحانه يحب من عباده اختيار العفو، بعد أن أكد سبحانه لهم أنه سينصرهم، إن انتصروا لأنفسهم من بغي وقع عليهم، ثم ختم الآية الثالثة بـ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾؛ ليلفت النظر إلى أن إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، وتقليب العباد بين هذه الأحوال من ورائه سمع الله وبصره بهم، فلا ينشغل العباد بشئون تقلب الليل والنهار، ويغيبون عن معية الله لهم على وجه العلم بهم والمحاسبة لهم، ثم لك أن تتأمل بقية الآيات على هذا النحو، فكانت أسماء الله تعالى في خواتيم الآيات هي معيار الفهم لمراد الله تعالى من كل آية، لا سيما وأنه سبحانه يختم كل آية باسم من أسمائه العظيمة، لا يصلح في مكانه أي اسم آخر من أسمائه تعالى.

وهذا المعنى شبيه بقصة مشهورة وقعت للأصمعي -رحمه الله- قال: قرأت هذه الآية: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] وإلى جنبي أعرابي، فقلت: (والله غفور رحيم) سهوًا؛ فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ قلت: كلام الله! قال: أعد، فأعدت: (والله غفور رحيم)، فقال: ليس هذا كلام الله! فتنبهت، فقلت: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فقال: أصبت! هذا كلام الله، فقلت له: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟؟ فقال: يا هذا! عزَّ فحكَمَ فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع.

---

(١) سورة المائدة، آية [٣٨].

المقاصد الشرعية وأثرها في فهم النص القرآني

علم المقاصد علم شريف، جليل المقدار، ناشئ من استقراء النصوص الشرعية، ودراسة نَسَقِها، ومعرفة مآلاتها، حتى نرى المعاني الكبرى التي يريد منا الشرع الشريف أن نصل إليها من خلال عقائده، وأحكامه، وتشريعاته، وآدابه وقيمه، وأخلاقه، ولهذا العلم أثر مهمٌّ جدًّا في فهم القرآن الكريم، وفي فهم قضاياه وقصصه، ولا بد من الاعتناء به حتى نفهم القرآن الكريم فهمًا يوصلنا إلى معرفة مراد ربنا سبحانه في كتابه.

وقد أشار إلى هذا العلم الجليل الإمام الجويني في كتاب «البرهان»، ثم حجة الإسلام الغزالي، ثم العز بن عبد السلام، إلى أن توسع الشاطبي في دراسته في كتاب «الموافقات»، وبعد ما كتب فيه الشاطبي لم يدرس في معاهد المسلمين ومدارسهم العلمية، إلى أواخر القرن التاسع عشر، فظهر أناس في تونس، أخرجوا عدة كتب في هذا الباب، فمنهم الشيخ الساوي، وكتابه اسمه: «المُرافق، على الموافق» يشرح فيه «الموافقات»، ولم يهتم به أحد، ثم جاء بعده الطاهر بن عاشور(١)، فأخرج كتاب «مقاصد الشريعة»، وهذا هو الكتاب الذي سارت به الركبان، وقد نشر محمد عبده(٢)

---

(١) العلامة الطاهر بن عاشور، شيخ جامع الزيتونة بتونس، ولد سنة ١٢٩٦هـ، ت ١٣٩٣هـ، وترقى حتى وصل إلى مرتبة شيخ الإسلام في مذهب المالكية، من مؤلفاته الجليلة تفسيره المسمى: «التحرير والتنوير»، وكتاب «أليس الصبح بقريب»، وكتاب «مقاصد الشريعة الإسلامية» وكثير من الكتب والمؤلفات.

(٢) الأستاذ الإمام محمد عبده، من أعلام الإسلام في العصر الحديث، ومفتي الديار المصرية في أوائل القرن الماضي، شارك شيخه جمال الدين الأفغاني في إصدار مجلة «العروة الوثقى»، ثم أكمل هو مسيرته العلمية، فكان من أبرز أعماله «رسالة التوحيد»، و«تفسير المنار»، وقد جمع الدكتور محمد عمارة تراثه المتفرّق في الأعمال الكاملة، وطبع في دار الشروق، وترجم له تلميذه محمد رشيد رضا في كتاب ضخم في عدة أجزاء، عنوانه: «تاريخ الأستاذ الإمام»، وقد توفي إلى رحمة الله سنة ١٩٠٥م-١٣٢٢هـ.

ورشيد رضا[1] في «المنار» أعمالًا في هذا الباب، والآن يُدْعَى إليها أن تكون علمًا، وهذا شيء حسن، ولكنه حراك ببطء شديد، والزمن يجري، ويجب علينا أن لا نهمل هذا المعنى الذي أيده عقلاء المسلمين عبر التاريخ، وبذلوا فيه الشيء الكثير؛ لأن هذه القواعد هي التي تعلم التفكير المستقيم، وهي التي تنظم الفكر.

وحتى يتبين لنا سياق قضية المقاصد، وأنها سِبَاحةٌ وغوص في بحور الشريعة، وفي نسق القرآن؛ فإننا نضطر هنا إلى شيء من الاستطراد المشتمل على فوائد مهمة.

فالمقاصد الشرعية قضية ذكرها علماء الأُصُول وهُم يتكلمون عن مسألة المُناسِبِ، في كِتاب القياس من علم أصول الفِقه؛ إذ هُناك أصل، وهذا الأصل وارِد في الشريعة بنصٍّ في الكِتابِ أو السُّنة، وهذا الأصل له حُكم، وبالبحثِ والسُّؤالِ والتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ في أنه: لِماذا أُعطيَ هذا الأصل هذا الحُكم؟ استطاع العُلماء أن يَصِلوا إلى العِلة، وهي السبب الذي مِن أجلِهِ أُعطيَ هذا الأصل ذاك الحُكم، هذهِ العِلة قد تكُونُ منصوصةً أيضًا في الكِتابِ والسُّنة، وقد لا تكُونُ منصوصة، وإنما تكون مستنبطة، بأن فهمها العُلماء مِن مُجمل الشريعةِ، ومن التأمل والتَّدبُّر في ذلك النص، ومُجمل الشريعةِ معنًى أسمَوهُ بعد ذلك: بالمقاصد.

فهُناك ما يُسمى بالأصل، وهُناك ما يُسمى بالعِلة، وهُناك ما يُسمى بِحُكم ذلك الأصل، والعِلة ناتِجة مِن أنني أسأل: لماذا شرع الله هذا الحكم؟ فالخمر مثلًا حُكمُها الحُرمة، فأسأل نفسي: لماذا حرَّم الله -سُبحانهُ وتعالى- الخمر؟ فهذا سُؤالٌ أول، أُجيبُ عليه بأنها مُسكِرة، فأسأل نفسي سُؤالًا ثانيًا: ولِماذا حرَّم الله المُسكِر؟

---

(١) السيد محمد رشيد رضا، تتلمذ في بلاد الشام على العلّامة المحدّث أبي المحاسن محمد بن خليل القاوقجي ت١٣٠٥هـ، ثم نزل مصر رغبة في ملازمة الأستاذ الإمام محمد عبده، فخدم فكره وتراثه، وهو الذي أخرج للناس «تفسير المنار» وأكمله بعد وفاة شيخه، وتوفي سنة ١٣٥٤هـ، وقد ترجم له أمير البيان شكيب أرسلان ترجمة واسعة في مجلد ضخم مطبوع عنوانه: «السيد رشيد رضا، أو إخاء أربعين سنة»، طبع في دمشق سنة ١٣٥٦هـ.

فالإجابة: لأنهُ يُذهِبُ العقل، فأسأل نفسي: ولِماذا جعل الله ذهاب العقل مُحرمًا؟ وما الذي يحدث إن غاب عقلِي؟ فأنا أنام فيغِيبُ عقلي، وكذلك أتناول البِنج من أجل عملية جراحية فيغِيبُ عقلي، وقد يَعرِضُ لي الإغماء فيغِيبُ عقلي، فلِماذا حرم الله -سُبحانه وتعالى- ما يحدُثُ في طبيعةِ الخلقِ الذي خلقه سُبحانهُ كالنَّومِ، والإغماءِ، أو أباحه كتناول البِنج من أجل إجراء العملية؟ فلِماذا لا يبيح لي في وقت ما -ولو كان بعد العِشاء- أن أتناول الخمر وأسكر ويذهب عقلي؟ فتأتي الإجابة بأن الله -سُبحانهُ وتعالى- كلَّفنَا، وجعل العقل مناط التَّكليف؛ ومن أجل ذلك منعنا أن نُغيِّب هذا العقل من غير ضرورة، أما في حالة العملية الجراحية فهذا اضطرار، وأما الطبيعة التي تجعل هُناك إغماءً، أو تجعل هُناك نومًا فهذا ليس بيدي، بل هُوَ مَرَدُّهُ إلى الاحتياج الذي خلق الله الإنسان عليه، وهُوَ أنه مُحتاج إلى النَّوم، وأنه ضعيف قد يتعرض للإغماء؛ ولأجل ذلك فليس لي دَخل في هذا، ولكن الله حرَّم عليَّ أن يكون لي دَخل مِن غير اضطرار، فأُذْهِب ما بُنِيَ عليه التكليف.

ثم يستمر التساؤل: ولِماذا كلفني الله -سُبحانهُ وتعالى-؟

والإجابة أن الله -سُبحانهُ وتعالى- كلَّفني من أجل أن أعْبُدَ الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، ومن أجل أن أُعمِّرَ الأرض: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[2]، ومن أجل أن أُزكيَ النَّفس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[3]، فقد توصلنا إلى العقيدة من الأسئلة المُتتالية، فكانت الأسئلة المُتتالية منهجًا توصلوا بِهِ إلى المقاصِد.

فلو أخذنا كُل آية، وكُل حُكم، وبحثنا فيه بهذه الطريقة؛ لوجدنا أن هُناك أمرًا مُناسِبًا لتشريعِ الحُكمِ، فوجدنا ونحنُ نسأل هـذِهِ الأسئلة المُتتالية في كُل حُكم:

(١) سورة الذاريات، آية [٥٦].
(٢) سورة هود، آية [٦١].
(٣) سورة الشمس، الآيتان [٩، ١٠].

لِمَ حرم الله السَّرِقة؟ ولِمَ حرم الله القتل؟ ولِمَ حرم الله شُرب الخمر؟ ولِمَ حرم الله الزِّنا؟ ولِمَ حرَّم الله الرِّبا؟ ولِمَ حرَّم الله كذا وكذا.. وقد قمنا أيضًا بهذا العمل التأملي في كُل شيء من المُحرمات أو من الواجبات، فتفكرنا أيضًا في أنه: لِمَ أوجب الله الصلاة؟ ولِمَ أوجب الله الزَّكاة؟ وهكذا نجد إجابة على هذِهِ الأسئلة المُتتالية، التي هي مستويات متعاقبة للسؤال بـ(لِماذا).

فنحن هنا إذًا أمام ظاهرة علمية، أو مسلك علمي يمكن أن نسميه بالأسئلة الممتدة، ونعني بالأسئلة الممتدة: السؤال بـ(لماذا)، بعد كل إجابة عن سؤال سابق، ساعين بذلك إلى الكشف عن حقائق الأشياء، والبحث عن أسسها وأصولها.

إن هذه الأسئلة الممتدة -كما شرحناها- تبين مصادر وموارد أي علم، وتبين علاقة ذلك العلم بغيره من العلوم.

ومن شأن الأسئلة الممتدة -كما رأينا- أن تصعد بنا بالتدريج من الجزئيات والفروع، حتى نصل إلى المبادئ الكبرى، التي سرت في كل الصور والفروع الجزئية، فهي استقراء وسير عكسي، يرتقي بنا من الفروع إلى المقاصد.

وأنت ترى أن هذا يتم بالاستقراء، الاستقراء الذي يعني التتبُع، فبعد أن انتهينا من الإجابة على الفُرُوع الفقهية التي وردت أحكامُها في الكِتابِ وفي السُّنة، بل والتي وردت حتى عن طريق القياس بإلحاق الشبيه إلى شبيهِهِ، والنظير إلى نظيره، بعدما فعلنا هذا وجدنا أنفُسنا أمام ما أسماه العُلماء بمقاصد الشرع من التَّشريع، فوجدنا أنفُسنا أمام خمسة من المقاصد، توصلنا إليها بالاستقراء، هذِهِ الخمسة: هِيَ الحِفاظ على النَّفس، والحِفاظ على العقل، والحِفاظ على الدِّين، والحِفاظ على العِرض وفي بعض الأحيان يُعبرون عنه بالنَّسل، وأنا أُعبر عنه بعبارة حديثة، تُوافق الأدبيات الحديثة فأسميه: كرامة الإنسان؛ لأن العِرض لم يكُن إلا مفهوم كرامة الإنسان في اصطلاحهم وتعريفِهم، وخامِسًا: الحِفاظ على المِلْك، وبعضُهُم يقُول:

الحِفاظ على المال، ومعناهما واحد أيضًا؛ لأن علاقة الإنسان بالمال هِيَ علاقة الملكية، فهذه إذًا هي المقاصِد العُليا للشريعة.

فمن أراد أن يقرأ القرآن، وكان مُسْتَحْضِرًا لهذه المقاصد؛ فإنه يفهم بعمق مغزى الأحكام والتشريعات، الواردة في قضية الخمر، والميسر، والجهاد، والعقود والمعاملات، وتَلُوحُ له أسرارٌ وأعماقٌ لم تكن لتظهر له لو قرأ القرآن بدونها.

وبعد أن يلتفت القارئ إلى وجود هذه المقاصد، ويفهم على ضوئها الأحكام والدلالات القرآنية؛ فإنه ينتقل من الإفراد إلى التركيب، فماذا لو طرأت مسألة تعارض فيها مقصدان، أو تردد فيها فهمنا بين مقصدين، أيهما يقدم؟ فنشأ البحث حول ترتيب تلك المقاصد، وأثر هذا الترتيب في الترجيح بين الفروع المختلفة.

وقد رأينا الشَّاطِبِيَّ، ومن قبلَهُ، وكثيرٌ ممن بعدَهُ، يُرتِّبون هذِهِ الخمسة على هذا النحو: الدِّين، فالنَّفس، فالعقل، فالعِرض، فالمال أو المِلْك. فقدَّموا الدِّين، وبعضُ العُلماء المُعاصرين من أساتِذتِنا ومشايخنا ربما أورد الإجماع على هذا التَّرتيب، ونحنُ نُؤكد -بعد بحث وتفتيش- على أنه ليس هُناك أيّ إجماع على هذا التَّرتيب؛ فإن الزَّركشِيّ مثلًا قد رتب هذِهِ المقاصد الخمسة ترتيبًا آخر، ورتبها غير الزَّركشيّ ترتيبًا ثالثًا، ورابعًا وهكذا، إلا أن هُناك شُيُوعًا موجُودًا في الكُتُب على هذا التَّرتيب، لوجهة نظر ذكرها الإمام الشَّاطِبِيّ في «المُوافقات»، وهُوَ أن الجِهاد يجعل الدِّين مُقدَّمًا، على النَّفس، والإجابة على ذلك: أننا لم نُؤمر بقتل أنفُسِنا حتى يُقال ذلِك، فإننا ونحنُ نخرجُ إلى الجِهاد نَصُدُ العُدوان، ونرفع الطُغيان، وليس المقصد أن نموت، والنَّبِيّ ﷺ: «**أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ**»[1] كما أخرجهُ البُخارِي،

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه»: (٥/ ١٧١فتح) كتاب: العتق، باب من مَلَكَ من العرب رَقِيقًا فَوَهَبَ، ومسلم في «صحيحه»: (٣/ ١٣٥٦) كتاب الجهاد والسير، باب جَوَاز الإغَارة عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمْ دَعْوَةُ الإِسْلاَمِ مِنْ غَيْرِ تَقَدُّمِ الإعلام بِالإغَارَةِ، وأبو داود في «سننه»: (٣/ ٤٢) كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أي هجم عليهم في حينِ غفلتهم من أجل حقن الدِّماء، ومن أجل أن لا يَمُوت أحد، وإنما نُريدُ أن نكسر شوكة هذا العدو الذي يُهددنا، أو الذي يأخُذُ مِن أراضينا، أو الذي يقطع السبيل على الناس، بدونِ أي خسائِر، بل بطريقةٍ بيضاء، لا بطريقةٍ حمراء ملطخة بالدماء.

القتل إذًا ليس هُوَ الحَتْم والمطلُوب، أي أنه لم يأمُرني ربِّي كما أمر الأمم السابقة: ﴿ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[1]، لكن أمرني ربِّي بالقتال، وأنا أتمنى إحدى الحُسْنَيَيْن: النَّصر أو الشَّهادة، فيُمكن أن أنتصر وأعود بِلا قتل.

صحيح أن الغالِب في الحُرُوب أن يقع قتلى، ولكن أنبه هنا إلى أنه لم يأمُرني ربِّي بأن أقتُل نفسِي مِن أجل دِيني، بل أمرني أن أُجاهِد في سبيله حتى لو تعرَّضت للقتل، وهُناك فرق بين الأمر بالقتل الصرف للنفس، وبين الأمر بِفعلِ شيءٍ وإن تعرضت فيه للقتل.

وأنا أرى أن نبدأ ترتيبًا منطقيًّا للمقاصد، فإذا كان الإنسان هو محل رِعاية الشريعة التي أتت بتلك المقاصِد، فإن أول شيءٍ يجب علينا أن نُحافظ عليه فيه هو نفْسُه، ثم نحافظ بعد ذلك على عقلِهِ؛ حتى يفهم ويتلقى الأوامر الإلهية من الوحي بـ(افعل) و(لا تفعل)، وحتى يكُون مُتمكنًا من تطبيقِ ما أُمِرَ بِهِ من رِضا الله، والبُعد عن سخطِهِ؛ ولِذلك نبدأ بالنَّفس ونُثنِّي بالعقل؛ لأن ضياع النَّفس لا يبقى معه دين ولا دُنيا، وضياع النَّفس معناها الخُرُوج من ساحة الكون، فلا بُد أن نبدأ في المقاصِد بالنَّفس، ثُمَّ هذِهِ النَّفس تُحافِظُ على العقل القائم فيها، حتى يكون ذلك العقل مناطًا للتكليف، ويأتي بعد ذلك الدِّين، والحِفاظ على الدِّينِ حينئذٍ معناه: منع الكُفر بالله، والمنع من مُعاكسة ومضادة مُراد الله تعالى في كونه وفي خلقه.

ورابِعًا تأتي كرامة الإنسان، والتي نُعبر عنها بهذا التَّعبير، حتى تشمل حُرْمة

---

(١) سورة النساء، آية [٦٦].

تعذيب الجسد، فكرامة الإنسان كلمة تشمل العِرض، وتشمل النَّسل، وغير ذلك من المعانى الجليلة التي أكدتها الشريعة في نُصُوصِها.

خامِسًا يأتي المال أو المِلْك، والمِلك قد يكُونُ أيضًا -في مفهُومِهِ عِندِي- أوسع من المال، واحترام المِلك الذي يشمل الملكية الفكرية، والذي يشمل الخُصُوصية الإنسانية والأُسرية، والذي يشمل الحُرية السياسية والأداء السياسي من حزبٍ إلى حِزبٍ، أو من رأيٍ إلى رأي. كُل هذِهِ الأشياء قد تكون في مفهوم المِلك تتجاوز المال، خاصةً المُحدثات من مِثل قضية حُقوق الملكية الفكرية.

فهذه خمسةٌ مِن المقاصِد العظمى، وهي بهذا التَّرتيب تُكَوِّن النِّظام العام في البلاد والعِباد، ونحنُ قد وفقنا فيها لأمرين: الأمر الأول: أننا اجتهدنا في الوصول بها إلى التَّرتيب الأنسب، وتغيير التَّرتيب نراهُ جائزًا؛ لأنه ليس هُناك اتفاق ولا إجماع، والأمر الثاني: أننا بهذا التَّرتيب وَسَّعْنا مفهوم العِرض إلى كرامة الإنسان، ووسعنا مفهوم الدِّين للحِفاظِ على الدِّينِ في ذاتِه، وأصبحت هذِهِ المقاصِد الخمسة تُمثِلُ الإسلام، وربما أمكننا أن نقول: إن كلمة (الدِين) هُنا ليست مقصورة على الإسلام فقط، بل هي أوسع من ذلك، لتشمل كُل دين، حتى تكون بذلك هناك مسئولية يتحملها المجتمع الدولي في سن الإجراءات التي تمنع من ازدراء الأديان.

ومن هنا نعلم أن هذا النِّظام العام، يمثل مقاصد عامة لم يختلف عليها أحد؛ فإن حِفظ النَّفس موجود في كُل القوانين وفي كُل العالم، يُوافق عليه المُسلم وغير المُسلم، داخل المجتمع المُسلم وداخِل المُجتمع غير المُسلم، وحفظ العقل على مُستوى الفرد وعلى مُستوى الأُمة بوجُوب التَّعليم، ووجوب المُشاركة، ووجوبُ بِناء الحضارة. فحِفظ العقل، يشمل عقل الفرد في صورته البسيطة الفردية، كحُرمة الخمر، والمُخدرات، والعُدوان على ذات المُخ والعقل، وأيضًا العقل في معناه الكلي الَّذِي هو بمعنى التَّعليم، وكذلك الدِّين، وكذلك كرامة الإنسان، وكذلك المِلك،

وما زالت هذِهِ الخمسة تُمثِلُ -فعلًا- النِّظام العام لِكُلِ التَّشارِيع التي في الدُّنيا، وقد نص الشاطبي على أن مقاصد الشريعة -والتي هي الأمور الخمسة التي نتكلم عنها- هي في الحقيقة مقصد للشرائع كلها.

فهذه هي وجهة نظرنا في المقاصِد الشرعية العُليا، من ناحية ترتيبها، ومن ناحية مفهومها، ومن ناحية تفعيلها باعتبارها النِّظام العام، وهذا المدخل هو الذي يوضح لنا الفرق بين دين الإسلام، وحضارة الإسلام؛ فإن حضارة الإسلام قد قُبِلت من غير المُسلمين وهُم على أديانِهِم، ودخلوا فيها، وارتضوا أن يكونوا مع المُسلمين في حضارتهم، وكُلُّ ذلك يخدمُهُ ترتيب المقاصِد مع توسيعِ مفاهيمها.

ثم هنا أمر ثالث في غاية الأهمية، بعد ترتيب المقاصد وتوسيع مفهوم كل مقصد، ألا وهو توسيع دائرة المقاصد، حتى نرجع إلى استقراء القرآن لاستخراج مقاصد الشريعة في مستوياتها الأربعة، المستوى الأول: هو الفرد، والمستوى الثاني: هو الأسرة، والمستوى الثالث: هو المجتمع، والمستوى الرابع: هو الإنسانية، فلا بد من دراسة المقاصد الشرعية الخاصة بكل مستوى من المستويات المذكورة.

فمن المداخل المهمة لتفسير كتاب الله تعالى أن نستحضر كل هذه الخلفيات، ثم ننطلق لقراءة القرآن، ونحن نعرف ونستحضر القضايا التي نريد استخراج هدي القرآن فيها.

القواعد الفقهية وأثرها في فهم النص القرآني

تكلم الإمام القرافي -رحمه الله تعالى- عن القواعد الفقهية بكلام في غاية الأهمية، فقال في كتاب «الفروق»: هي (قواعد كلية فقهية جليلة، كثيرة العدد، عظيمة المدد، مشتملة على أسرار الشرع وحِكَمه)، إلى أن قال: (وهذه القواعد مهمة في الفقه، عظيمة النفع، بقدر الإحاطة بها يعلو قدر الفقيه ويَشْرُف، ويظهر رونق الفقه ويُعْرَف، وتتضح مناهج الفتاوى وتُكْشف، فيها تنافس العلماء، وتفاضل الفضلاء)[1] إلى آخر كلامه، وكلامه كله مهم.

فالقواعد الفقهية هي التي يمكن من خلالها أن نعلم الناس كيف تقرأ، حيث إن هذا يمثل أبجديةً عقليةً للتفكير المستقيم، وهي القواعد التي اعتنى بها الفقهاء، وتأملوا الشريعة فتوصلوا إليها، وأخص منها أمهات القواعد الفقهية، التي يتفرع عنها غيرها من قواعد لا تحصى ولا تُعَدّ، وأعني بها القواعد الخمسة التي يمكن أن تصير مكوِّنًا من المكونات التي ندخل بها لتفسير القرآن الكريم.

فمنها: أن (الضرر يُزال)؛ إذ الشريعة لا تأتي بضررٍ أبدًا، ولا ترغب في الضرر، ولا تحب الضرر، بل هي تُزيل الضر، **ومنها**: أن (العرف مُعْتَبر)، ما لم يخالف هذا العُرْف أمرًا إلهيًّا أو نبويًّا أُمِرْنَا باتباعه، قال سبحانه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2]، **ومنها**: (أن المشقة تجلبُ التيسير) ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[3]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ

(١) «الفروق»: (١/ ٦٢).

(٢) سورة الأعراف، آية [١٩٩].

(٣) سورة الشرح، الآيتان [٥، ٦].

ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾[1].

ومنها: أن (الشك لا يرفع اليقين)، وكل ذلك منضبط تحت قوله ﷺ فيما أخرجه البخاري في صدر «صحيحه»: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»[2]، وهو يفسر قولـهُ تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3] فلا بد في كل ذلك من الإخلاص، ومن توجيه النية لله، ولا بد علينا من أن يكون ذلك صافيًا لا تشوبه شائبة.

فهذه القواعد إذًا جزءٌ من أدوات التفسير التي نُكَوِّن بها مداخل التفسير، وقد نظمها بعضهم في أبيات لطيفة، ليسهل حفظها، فقال:

خمسٌ محررةٌ قواعدُ مذهبٍ * للشافعيِّ، بها تكونُ بصيرا
ضررٌ يزال، وعادةٌ قد حُكِّمَتْ * وكذا المشقة تجلب التيسيرا
والشك لا ترفع به متيقنا * وخلوص نية إن أردت أجورا

وقد كثرت مؤلفات العلماء في القواعد الفقهية، فألف فيها ابن الوكيل ولم يكمل كتابه، وألَّف فيها الإمام المجتهد تاج الدين السبكي، ثم الحافظ السيوطي، وله زيادات دقيقة على كتاب ابن السبكي، كما يتبين عند من قارن الكتابين ودرسهما دراسة جيدة، ثم من بعد السيوطي جاء العلامة ابن نجيم فلخص كتاب السيوطي، ثم جاء ابن عابدين فأخذ كتاب ابن نجيم وشرحه.

---

(١) سورة الحج، آية [٧٨].

(٢) رواه البخاري في «صحيحه»: (١/ ١٠) فتح، باب كيف كان بدء الوحي، ومسلم في «صحيحه»: (٣/ ١٥١٥) ن كتاب: الإمارة، باب قوله ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ**»، وابن خزيمة في «صحيحه»: (١/ ٧٣) جماع أبواب الوضوء وسننه، باب إيجاب إحداث النية للوضوء والغسل.

(٣) سورة غافر، آية [١٤].

والمقصود أن هذه القواعد مهمة جدًّا في فهم القرآن الكريم، أنها تمثل جانبًا من أدوات الفهم، التي يقتدر معها المفسر على الوصول إلى معنى سديد للآية.

ومن المعلوم أن المقاصد الشرعية والقواعد الفقهية كلها أمور استنبطتها الأمة من استقراء نسق القرآن، واستخرجتها من مشكاته، فهي في الحقيقة مبادئ قرآنية كامنة وراء كل حكم أو تشريع قرآني، فإذا عرفها القارئ والتفت إليها قبل الدخول إلى القراءة والتفسير؛ فإنها تكون قد كشفت له عن جوانب جليلة، تعينه على سرعة فهم مراد القرآن ومقصوده.

تداعي المعاني، وأثرها في فهم النص القرآني

النصوص القرآنية نزلت على المسلمين ليقوموا بتحويلها إلى مناهج عمل، وقد قام الصحابة الكرام ﭫ بذلك فعلًا، فما نظروا إلى النص القرآني على أنه نص نتعبَّد بتلاوته فقط، بل فهموا من النص أنه يحمل رصيدًا من التوجيه والتأسيس لمناهج بناء الأمم والحضارات، فما هي الآليات التي يتم من خلالها تحويل النص القرآني إلى مناهج عمل، تفضي إلى بناء مؤسسات، وإنشاء مراكز، وتوفير مصادر تمويل؟ الحقيقة أنها قضيةٌ كبرى تمثل جسرًا يربط بين النص القرآني وبين الواقع، ويبرز من خلاله أثرُ القرآن في الواقع اليومي المعيش، ويتنزل به النص القرآني إلى دائرة التطبيق، ونضرب مثالًا يوضح ذلك، فنقول:

قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾[1]، هذه الآية أمر إلهي، وتوجيه رباني، بإعداد الجيوش والمؤسسات العسكرية القادرة على رد العدوان وصد الطغيان، فبدأنا نتأمل في كيفية تنفيذ الأمر الإلهي، وننظر في كيفيةٍ تتمكن بها الدول من إعداد جيوشها، وتوفير السلاح لها، وهي أمور لا يمكن إنجازها إلا بميزانيات ضخمة، يعجز الأفراد عن توفيرها؛ فاقتضى ذلك إيجاد توجه قومي إلى تنشيط الإنتاج والتصدير، الذي يوفر مصادر التمويل الضخم، القادر على بناء المؤسسات العسكرية؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فاقتضى ذلك توفير المناخ الأمني والسياسي الملائِمَيْن لجذب فرص الاستثمار، فاقتضى ذلك وجود مصالحة وطنية وقومية تزول بها أسباب النزاع بين الأحزاب والتيارات، واقتضى أيضًا وجود البورصات والمحافظ الاستثمارية، وغيرها من دوائر تدوير الأموال،

(١) سورة الأنفال، آية [٦٠].

واقتضى ذلك وجود البنوك التي هي كيانات ضخمة تتصرف في الأموال، واقتضى ذلك وجود بناء اقتصادي قوي، يتعامل مع التوجهات الاقتصادية العالمية...إلخ.

فهذا الأسلوب من النظر في كيفية تطبيق النص القرآني، يتم فيه الوقوف عند كل مبدأ أو توجيه جاء به القرآن، لنتأمل كيف يمكن تحقيقه، فإذا به لا يتحقق إلا بإيجاد مبدأ يسبقه، فننتقل إلى ذلك المبدأ، لنجد أنه لا يتحقق إلا بتوفير جو عام فننفذه، وهذا الذي يمكن أن نسميه بتداعي المعاني، وهو عند تأمله يمثل منهجًا مهمًّا ودقيقًا لتفسير القرآن وفهمه وتطبيقه.

المقدمة الثانية

مداخل أخرى
قبل الشروع في التفسير

المقدمة الثانية

ثم إننا بعد كل ما سبق نعيش مع كتاب الله -سبحانه وتعالى- الذي وصل إلينا غضًا طريًّا، من غير تحريف ولا زيادة فيه ولا نقصان، صانه الله تعالى وحفظه تحقيقًا وفعلًا، بعد أن تكفل بحفظه أزلًا ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1] فصدق الله، قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾[2]، صدق الله فحفظ الكتاب، ولم يحفظه على مستوى عدد سوره، ولا آياته، ولا ألفاظه، ولا عدد حروفه فقط، بل حفظه -سبحانه وتعالى- حتى بالأداء الصوتي، فنرى كبار القراء في الإذاعة وغيرها يقرأون القرآن قراءة صحيحة، يعطون فيها كل حرف حقه ومستحقه، وحق الحرف أن يخرج من مخرجه، ومستحق الحرف مجموعة من الصفات، التي تجعلك تنطق به نطقًا عربيًّا صحيحًا، فالطاء طاء، والتاء تاء، والثاء ثاء، والذال ذال، من غير إخلال بذات الحرف ولا صفاته.

وهكذا ننطق القرآن، فإذا ما سمعه العربي الذي أُنزل في عصره عرف ما تقول، ووعى كلام الله -سبحانه وتعالى- منك أنت أيها المتأخر، بعد ألف وأربعمائة عام من نزول القرآن أو يزيد.

القرآن الكريم كتاب الله، لا تنتهي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، ولا يزال مليئًا بالأسرار والكنوز ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[3].

والقرآن معجزةُ رسالة، ولم يقتصر مجيء رسول الله ﷺ على معجزة الرسول، بل أتى بأكثر من ألف معجزة، حَوَتْ جميع معجزات الأنبياء، وكأنه هو البؤرة التي

---

(١) سورة الحجر، آية [٩].

(٢) سورة آل عمران، آية [٩٥].

(٣) سورة فصّلت، آية [٥٣].

تجمعت فيها أشعة الأنبياء كلهم، فهو سيدهم، وهو رأسهم، وهو قمتهم، وهو الإنسان الكامل، وهو خاتم المرسلين، وحبيب رب العالمين ﷺ، فأتى بكل معجزة وردت على يد نبي من قبله.

وكان من معجزاته ﷺ أن تكاثر الماء من بين أصابعه الشريفة؛ فسقى الجيش من كوب ماء[1]، وكان ﷺ لما ترك جذع النخلة، الذي كان يرتقيه يوم الجمعة في المسجد إلى منبر من عيدان، قد صنعوه له، فحنَّ الجذع واشتكى، وسمع الصحابة له أنينًا، حتى نزل ﷺ من على منبره الشريف فاحتضنه فسكن[2].

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه»: (٤/ ١٥٢٦) كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، ومسلم في «صحيحه»: (٤/ ٢٣٠٨) كتاب الزهد والرقائق، باب في حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، وابن حبان في «صحيحه»: (١٤/ ٤٨٠) باب المعجزات، ذكر البيان بأن الماء الذي ذكرنا حيث بورك للمصطفى ﷺ، وابن خزيمة في «صحيحه»: (١/ ٦٥)، وأحمد في «المسند»: (٣/ ٣٢٩)، والطبراني في «الأوسط»: (٣/ ١٤١)، والأصبهاني في «دلائل النبوة»: (ص١٢٠) كلهم من حديث جابر، ثم في المعنى حديث أنس أيضًا، رواه البيهقي في «السنن الكبرى»: (١/ ٤٣) جماع أبواب سنة الوضوء وفرضه، باب: التسمية على الوضوء، والدارقطني في «السنن»: (١/ ٧١) كتاب الطهارة، باب: التسمية على الوضوء، وأبو يعلى في «مسنده»: (٥/ ٣٧٩)، هذا وقد نبع الماء من بين أصابعه الشريفة في غير موضع، قال الحافظ في «فتح الباري»: (٥/ ٣٣٧): (وفي هذا الفصل معجزات ظاهرة، وفيه بركة سلاحه وما ينسب إليه، وقد وقع نبع الماء من بين أصابعه في عدة مواطن غير هذه).

(٢) حنين الجذع ورد من حديث جماعة من الصحابة، منهم: ابن عمر، وابن عباس، وأنس، وجابر بن عبدالله، وأبي بن كعب، وسهل بن سعد، وأبي سعيد، وعائشة ﷺ، أما حديث ابن عمر: فقد رواه البخاري في «صحيحه»: (٣/ ١٣١٣) كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، وابن حبان في «صحيحه»: (١٣/ ٤٣٥)، وأما حديث ابن عباس: فرواه ابن أبي شيبة في «مصنفه»: (٦/ ٣١٩)، والضياء المقدسي في «المختارة»: (٥/ ٣٨)، وأحمد في «المسند»: (١/ ٢٦٦)، وأما حديث أنس: فرواه الترمذي في «السنن»: (٥/ ٥٩٤) كتاب المناقب، وقال: حسن صحيح، والضياء المقدسي في «المختارة»: (٥/ ٣٧) وصححه، وأحمد في «المسند»: (١/ ٢٦٦)، وابن ماجه في «السنن»: (١/ ٤٥٤) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في بدء شأن المنبر، وأبو يعلى في «مسنده»: (٦/ ١١٤)، وأما حديث جابر: فقد رواه أحمد في «المسند»: (٣/ ٣٠٦)، وابن ماجه في «سننه»: (١/ ٤٥٥)، وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/ ١٦): إسناده صحيح، وعبدالرزاق في «المصنف»: (٦/ ٣١٩)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ»: (٣/ ٣٨٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق»: (٤/ ٣٩٣)، وأما حديث أبي بن كعب: فقد رواه ابن ماجه في «سننه»: (١/ ٤٥٤)، واللالكائي في «اعتقاد أهل السنة»: (٤/ ٨٠٠)، وأما حديث سهل بن سعد: فعند عبدالرزاق في «المصنف»: (٦/ ٣١٩)، =

وكان من معجزاته ﷺ أن سبح الحصى في يديه(١)، وكانت معجزات النبي ﷺ الحسية المرئية كثيرة تتراءى لهم، فكانوا يرون المعجزات المستمرة ليل نهار، مما يحفظهم من الزيغ، حيث إن معجزاته ﷺ كانت لا تنتهي: فكلَّمته الدّواب، وكلَّمه الجن، وكلمته الجمادات، وحَدَثت البركة بكل أشكالها، وكان دعاؤه ﷺ مجابًا، وكان مؤيدًا من ربه؛ لأنه ﷺ كان من عند الله، ومن كان مع الله كان الله معه.

= وأما حديث أبي سعيد: فقد رواه عبد الرزاق في «مصنفه»: (٦/ ٣١٩)، وأما حديث عائشة: فقد رواه الطبراني في «المعجم الأوسط»: (٢/ ٣٦٧).

(فائدة): روى ابن حبان في «صحيحه»: (١٤/ ٤٣٦) حديث أنس هذا من طريق مُبَارَك بن فَضَالَة، عن الحسن البصري، عنه، ثم قال: وَكَانَ الْحَسَنُ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ بَكَى، ثُمَّ قَالَ: يَا عِبَادَ الله! الْخَشَبَةُ تَحِنُّ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ شَوْقًا إِلَيْهِ لِمَكَانِهِ مِنَ الله عزَّ وجلَّ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ أَنْ تَشْتَاقُوا إِلَى لِقَائِهِ.

(١) حديث تسبيح الحصى في كفه الشريف ﷺ ورد من حديث أبي ذر، ومن حديث أنس رضي الله عنه، أما حديث أبي ذر: فقد رواه البزار في «مسنده»: (٩/ ٤٣١)، من طريق صالح بن أبي الأخضر، عن الزهري، عن سويد بن يزيد، عن أبي ذر، ورواه في موضع آخر (٩/ ٤٣٤) من طريق الوليد بن عبد الرحمن، عن جبير بن نفير، عن أبي ذر، ثم عقب على الطريق الأول بأن: (فيه صالح بن أبي الأخضر: لين الحديث، قال: وقد احتمل حديثه جماعة من أهل العلم وحدثوا عنه) اهـ.

قلت: وشدَّد ابن الجوزي، فجعل الحديث لا يصح لأجله، قال في «العلل المتناهية» (١/ ٢٠٦): لا يصح، ثم ساق كلام العلماء في صالح.

وأقول: لكن تابعه شعيب بن أبي حمزة، فرواه معه عن الزهري، أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٤/ ٢٤٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ١١٨)، فضلًا عن ثاني طريقي البزار، فضلًا عن طريق آخر رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٩/ ١١٩): من طريق حميد بن عبدالله، عن عبد الرحمن بن أبي عوف الحرشي، أنه سمع ابن عبد ربه، أنه سمع عاصم بن حميد، يقول: كان أبو ذر.. فذكره، فضلًا عن حديث أنس، وقد رواه محمد بن إسحاق بن يحيى في «جزء من حديث خيثمة» (ص١٠٦)، وابن الجوزي نفسه في «العلل» (١/ ٢٠٧)، والعجيب أن الحافظ ابن حجر ذكر في «الفتح» (٦/ ٥٩٢) أحاديث انشقاق القمر، وحنين الجذع، وتسبيح الحصى، وتسليم الغزالة، ثم قال: (والذي أقول: إنها كلها مشتهرة عند الناس، وأما من حيث الرواية فليست على حد سواء؛ فإن حنين الجذع، وانشقاق القمر نقل كل منهما نقلًا مستفيضًا يفيد القطع، عند من يطلع على طرق ذلك من أئمة الحديث، دون غيرهم ممن لا ممارسة له في ذلك، وأما تسبيح الحصى فليست له إلا هذه الطريق الواحدة مع ضعفها، وأما تسليم الغزالة فلم نجد له إسنادًا، لا من وجه قوي ولا من وجه ضعيف والله أعلم)، لكن ذكر الحافظ ابن كثير في «تحفة الطالب» (ص١٨٣) الكلام في صالح ثم قال: (لكن رواه ابن أبي عاصم من طريق أخرى، ورواه غيره من طرق أيضًا)، بل صححه الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٥/ ١٧٩)، قال: (وله طريق أحسن من هذا في علامات النبوة، وإسناده صحيح).

إلا أننا -نحن المتأخرين- لم نر ذلك، وإنما رآه الصحابة الكرام، ورآه المشركون، ومن المعلوم أن معجزات الرسول ﷺ تنتهي بانتقاله إلى الرفيق الأعلى، وتبقى الرسالة التي هي منهجه وشرعه، ولأن الرسالة المحمدية رسالة خاتمة، ولأنها للعالمين، ولكل الناس أجمعين عبر الزمان والمكان، ولكل شخص وفي كل حال- كان لا بد لها من معجزة تبقى بعد انتقال الرسول، فكانت معجزة الرسالة هي القرآن.

فهناك معجزة رسول ومعجزة رسالة، أما معجزات الرسول ﷺ فعدد كبير جدًّا، بلغ ألف معجزة، موجودة في كتب الخصائص النبوية وغيرها، لكننا لا نعول عليها الآن في الخطاب والتبليغ، بل نعتمد على القرآن، الذي هو المعجزة الكبرى للرسالة المحمدية.

ومن عرف معجزة القرآن آمن بالله، ومن حُجب عنها لم يؤمن به سبحانه، ولم يؤمن بسيدنا محمد ﷺ، فهذا القرآن معجزة، وسنرى كيف هو معجزة، وسنرى كيف نطلب هدايته، وسنرى كيف أن الله -سبحانه وتعالى- أبقى هذا الكتاب، فصدق الله وعده.

المصحف الشريف وكيفية وصوله إلينا

ولا بد أن نتكلم عن المصحف الشريف، وعن كيفية وصوله إلينا، قبل أن نخوض في تفسير القرآن كلمة كلمة، بل حرفًا حرفًا، فإننا سوف نقف -إن شاء الله- عند كل حرف منه؛ لأنه من عند الله، ولأنه محفوظ، ولأن كل حرف له دلالة، وحينئذ سنعلم لماذا أنزل الله القرآن بلغة العرب دون سواها من اللغات؟ وسنعلم أن هذه اللغات من خلق الله، وأن الله عليم بخلقه، وأنه -سبحانه وتعالى- اختار العربية من أجل أن يبقى هذا الكتاب أبد الآبدين إلى يوم الدين.

سنرحل مع قصة المصحف الشريف، الذي هو دال على كلام الله تعالى، ثم ندخل لنسمع كلام الله حرفًا حرفًا، وكلمةً كلمة، نعرضها على العالمين، ونتخذ ما أمرنا الله به ديدنًا لنا: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾(1)، ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾(2)، ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾(3) أي لا تتركه ولو بعد أن تسمعه حتى تبلغه مأمنه.

أما قصة المصحف الشريف فإن له قصة عجيبة نعيش معها، فلو أمسكنا بالمصحف ونحن في أوائل القرن الحادي والعشرين، وفي أوائل القرن الخامس عشر الهجري لوجدناه مطبوعًا، ولم يكن كذلك في البداية، بل كان مكتوبًا على كل أنواع الورق، وكل أنواع المُهيأ للكتابة.

كانوا يأتون بجريدة النخل ويفتحونها، وينظفونها، ويكتبون عليها، وكذلك العظم الخاص بالإبل، فإن منه جزءًا عريضًا عند الحوض، يحضرونه وينظفونه

---

(1) سورة البقرة، آية [256].
(2) سورة النحل، آية [125].
(3) سورة التوبة، آية [6].

ويكشطونه ويكتبون عليه، وورق البردي أيضًا، كانوا يحضرون ورقتين ويضعونهما عكس بعضهما، ويدقون عليهما بالدقماق، ويكتبون عليها وهكذا.

فكُتب القرآن على كل ما يصلح للكتابة في عهد رسول الله ﷺ، وكانت الصحابة تمسك هذه الأشياء المكتوب عليها لتحفظ، وقصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أخته فاطمة بنت الخطاب مشهورة، فقد دخل عليها فوجد معها ما تقرأ فيه، فقال: ما هذا؟؟ قالت: اذهب فتطهر؛ فإنه لا يمسه إلا المطهرون، فذهب فتطهر فأتى فقرأ أو لمس هذا المكتوب، فمَنَّ الله عليه بالإسلام.

بعد ذلك، وبعد أن حفظ المسلمون الكتاب حفظًا جيدًا، قرأوه على رسول الله ﷺ، فرشح منهم المتقدمين الذين برعوا فيه، فقال: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**»[1]، يقصد عبد الله بن مسعود، وهو متخصص في القراءات جالس للقرآن، وأُبَيّ بن كعب كذلك، وكان النبي ﷺ

---

(١) ورد الحديث من مسند أبي بكر، وعمر، وعلي بن أبي طالب، وأبي هريرة، وعمار بن ياسر، وابن مسعود نفسه؛ إذ هو الذي حكى عن أبي بكر وعمر أنهما حدثاه بالعبارة النبوية المذكورة، وقد نص على ذلك البزار في «مسنده»، ومن حديث عمرو بن الحارث بن المصطلق رضي الله عنه، أما حديث عمر: فرواه النسائي في «السنن الكبرى»: (٥/ ٧١)، وأحمد في «المسند»: (١/ ٣٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى»: (١/ ٤٥٢)، والضياء المقدسي في «المختارة»: (١/ ٣٨٤)، والحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٢٤٧)، (٣/ ٣٥٩) وصححه في الموضعين، والطبراني في «الكبير»: (٩/ ٦٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف»: (٦/ ١٣٩)، وأما حديث علي: فعند الحاكم في «المستدرك»: (٣/ ٣٥٨)، وأما حديث أبي هريرة: فقد رواه أبو يعلى في «مسنده»: (١٠/ ٤٩١)، وقال الهيثمي في «المجمع»: (٩/ ٢٨٨): فيه جرير بن عبد الله: متروك، وكذا العقيلي في «الضعفاء»: (١/ ١٩٧) ترجمة جرير، وأما حديث عمار بن ياسر: فرواه الطبراني في «الأوسط»: (٣/ ٣٣٧) وقال: لا يروى هذا الحديث عن عمار إلا بهذا الإسناد، تفرَّد به الأويسي، ورواه البزار في «مسنده»: (٤/ ٢٤٠)، وأما حديث ابن مسعود: فرواه ابن ماجه في «السنن»: (١/ ٤٩)، والضياء المقدسي في «المختارة»: (١/ ٩٢)، وابن حبان في «الصحيح»: (١٥/ ٥٤٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى»: (٢/ ١٥٣)، والطبراني في «الكبير»: (٩/ ٦٧)، وأبو يعلى في «مسنده»: (١/ ٢٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف»: (٦/ ١٣٩)، وأما حديث عمرو بن الحارث: فعند أحمد في «المسند»: (٤/ ٢٧٨)، والبخاري في «التاريخ الكبير»: (٦/ ٣٠٨)، والحارث بن أبي أسامة في «مسنده» -كما في «زوائد مسند الحارث» للهيثمي: (٢/ ٩٢٢)-، وابن أبي شيبة في «مصنفه»: (٦/ ١٣٩).

مرة في الصلاة فنوزع في القرآن، وتلك أيضًا خاصية للقرآن الكريم، أنك وأنت تقرأ في الصلاة وأحد من الناس يتلو خلفك فإنه ينازعك، وتحس أنك تجذب من شيء شديد، فقال ﷺ: «**هل كان يقرأ أحدكم خلفي؟**» قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «**ولذلك قلت: ما لي أُنَازَعُ الْقُرْآنَ**»[1] سبحان الله!! فهذه خاصية غير موجودة في الشعر ولا النثر ولا في كلام الناس، أن يتكلم أحد فيعيد رفاقه ما يتكلم به سرًّا، فيجد هو منازعة، ولذلك لا تجد مسلمًا عرف إسلامه يترك الإسلام، ومن يترك الإسلام فإنه شخص لم يعرف الإسلام.

فلو كان الواحد منا حافظًا للقرآن، ووقف يصلي بالناس ويقرأ في المحراب، وخلفه شيخ حافظ أيضًا، وهو يقرأ خلف الإمام؛ فإن الإمام تقع له منازعة وشدة في التلاوة، والحال أن هذا إمام يقف أمام الصفوف، والآخر مأموم يقف آخر الصف، فهذا شيء يخص كلام الله، فهذا الكلام ليس ككل الكلام، وقوانينه ليست ككل القوانين.

وَصَلَ إلينا المصحف بعد أن مَرَّ بمراحل، من ضمنها مرحلة سيدنا أبي بكر الصديق، فقد جمع الناس وأعلمهم أن كل آية تكتب لا بد من أن نعرف أين كتبت، وأن نجد -على الأقل- شاهدين يشهدان أنهما يحفظانها، ويشهدان أنها في هذا الموطن من القرآن؛ لأن القرآن نزل مُنجمًا، فمن الذي يستطيع ذلك؟ يستطيعه أولئك الذين رشحهم النبي ﷺ: أُبَيّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وأشباههم.

فاختار منهم ولم يخترهم كلهم؛ لأنهم كثيرون جدًّا، ومن فن اللجان العلمية المتخصصة أن تتكون من ثلاثة أو أربعة أو عدد محدد، حتى يستطيعوا الإلمام

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه»: (٥/ ١٥١)، والترمذي في «السنن»: (٢/ ١١٨)، وأبو داود في «السنن»: (١/ ٢١٨)، وابن ماجه في «السنن»: (١/ ٢٧٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى»: (٢/ ١٥٧) عن أبي هريرة.

والإنتاج بسرعة، فاجتمعت تلك اللجنة، وأكبت على الكتابة والتدقيق حتى انتهوا من كتابة القرآن كله، سوى آيتين، وجد أعضاء اللجنة أنهم يحفظونهما، وأن بقية الصحابة يحفظونهما، لكنهم لم يجدوا لهاتين الآيتين وثيقةً مكتوبة، بخلاف كل آيات القرآن الأخرى، فقد تم إثباتها كتابةً، بناءً على إطباق الصحابة على حفظها في الصدور، وعلى وجودها مكتوبةً أيضًا، وهاتان الآيتان هما قوله تعالى في آخر سورة التوبة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾(١).

وفي هذا الوقت كان الجهاد في سبيل الله، وكان صد الطغيان، وكان رد العدوان، وكان القُرَّاءُ قد خرجوا يجاهدون في سبيل الله، فبحثوا في المدينة عن أحد يشهد، فتقدَّم خزيمة بن ثابت رضي الله عنه فأقر بأنه يشهد أن هاتين الآيتين في موضعهما المعلوم من سورة التوبة، فطلبوا منه شخصًا آخر يشهد معه.

وهنا حدثت واقعة مدهشة، تعجب لها الصحابة رضي الله عنهم، ولا تزال تثير الدهشة إلى يومنا هذا، وذلك أن خزيمة رضي الله عنه وحده هو الذي قَدَّر الله تعالى أن تكون شهادته بشهادة رجلين، وقد جعل النبي ﷺ شهادته بشهادة برجلين، بسبب واقعة سيأتي ذكرها بعد قليل، ولا أحد بعده على وجه الأرض إلى يوم الدين تعدل شهادته شهادة رجلين، حتى عُرف خزيمة بذي الشهادتين(٢)، فهل كان النبي ﷺ حينما

(١) سورة التوبة، الآيتان [١٢٨، ١٢٩].

(٢) وقد صارت هذه خاصية من خصائص سيدنا خزيمة بن ثابت، وقد كان رضي الله عنه من السابقين الأولين، شهد بدرًا وما بعدها، واستشهد بصفين في جيش سيدنا عليّ، وعرف بذي الشهادتين، ضمن جماعة من الصحب الكرام تميَّزوا بمزايا لم تعرف لغيرهم، واشتهروا بالأذواء من الصحابة، منهم: (ذُو الْيَدَيْنِ)، وهو رجل من بني سليم، له قصة مشهورة مع النبي ﷺ قال فيها: أَقُصِرَتِ الصَّلَاةُ أَمْ نَسِيتَ؟ رواه البخاري ومسلم، ومنهم: (ذُو الشِّمَالَيْنِ)، عمير بن عَبْدِ عَمْرِو بنِ نَضْلَةَ الْخُزَاعِيّ، استشهد يوم بدر، ومنهم: (ذُو الْبِجَادَيْنِ)، عبد الله بن عبد نهم المزني، أسلم فجرده عمه من كل شيء حتى ثوبه، وكان لأمه بجاد شقته نصفين فاتخذ نصفه إزارًا ونصفه رداء، فلما رآه النبي ﷺ قال له: «أنت عبد الله ذو البجادين»، ومنهم: (ذو الجناحين)، وهو جعفر بن أبي طالب أخو سيدنا علي، قطعت يداه في غزوة مؤتة وهو يحتضن الراية، فعوضه الله بهما جناحين في الجنة، ومنهم: (ذو النورين)، وهو عثمان بن عفان لأنه تزوج اثنتين من بنات النبي ﷺ، ومنهم: (ذو الأذنين)، وهو أنس بن مالك، مازحه بذلك =

جعل شهادته بشهادة رجلين، يعلم أنه بعد وفاته ﷺ سينهض أصحابه بتدوين القرآن، فلا يفتقدون في النص المُدوَّن إلا لآيتين يشهد بهما خزيمة هذا بعينه؟ وهل اتفق معه النبي ﷺ وهو يقول له هذه الكلمة العظيمة، أن يفقد الناس في وقت جمع القرآن الشاهد الثاني، فإن القرآن ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية، وعلى مدى ستة آلاف ومائتين وأربع وثلاثين آية منها يشهد لوجود المكتوب في كل آية شاهدان، فما لهذه الآية خصوصًا، أليس هذا شأنًا إلهيًا محضًا؟!.

فما هذه القصة العجيبة؟ القصة أن سيدنا رسول الله ﷺ كان عائدًا مرة من المدينة، فوجد جملًا مع أعرابي فأعجبه، وقال له: هل تريد البيع؟ قال: نعم، فأعطى رسول الله ﷺ المال للرجل، ومضى والناقة معه، والأعرابي يتابعه، فلما دخل المدينة، سأل الناسُ الأعرابيَّ: هل تريد البيع؟ فسوّل له الشيطان وهو سائر أن يبيع الناقة مرة أخرى، فقال: نعم، فقال له النبي ﷺ: «**قد اشتريتها منك وأعطيتك المال**»، فقال الأعرابي: هل معك شاهد؟؟ وكان خزيمة واقفًا فقال: أنا أشهد يا رسول الله أنك قد اشتريت من هذا الأعرابي، فقال له: «**أرأيتني يا خزيمة؟!!**» قال له: يا رسول الله أصدقك أن خبر السماء يأتيك من فوق سبع سماوات، ولا أصدقك أنك اشتريت من هذا الأعرابي ذلك الجمل!!، وقال للأعرابي: «**اتق الله هل بعت هذه الناقة أم لا؟**» فقال: نعم بعتها، فقال النبي ﷺ: «**مَنْ شَهِدَ لَهُ خُزَيْمَةُ فَهُوَ حَسْبُهُ**»[1]، (وَجَعَلَ ﷺ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ)[2].

= النبي ﷺ في حديث رواه أبو داود والترمذي عنه، ومنهم: (ذو السيفين)، وهو أبو الْهَيْثَم بن التَّيْهَان الأنصاري، ومنهم: (ذُو الْعَقِيصَتَيْنِ)، وهو ضِمَام بن ثَعْلَبَة، ومنهم: (ذو اللسانين)، وهو موله بن كثيف، رضي الله عنهم أجمعين، ثم إني علمت أن أحد أصدقائنا جمع فيهم مؤلفًا مستقلًا سمَّاه: «الإنباء، بأخبار الأذواء» ولم أره.

(١) رواه بهذا اللفظ الطبراني في «الكبير»: (٤/ ٨٧)، والحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٢٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى»: (١٠/ ١٤٦)، وقال الهيثمي في «المجمع» ٩/ ٣٢٠: ورجاله -يعني إسناد الطبراني- كلهم ثقات، وقد ورد مطولًا، كما سيأتي في الهامش بعد.

(٢) رواه أبو داود في «السنن»: (٣/ ٣٠٨) كتاب الأقضية، باب: إذا علم الحاكم صدق الشاهد، والنسائي في «سننه»: (٧/ ٣٠١) كتاب البيوع، باب: التسهيل في ترك الإشهاد على البيع، والطبراني في «الكبير»: (٢٢/ ٣٧٩)، =

والحاصل أن أبا بكر الصديق ﷺ أتمَّ كتابة المصحف كما ذكرنا، وأشهد على كل آية فيه رجلين، إلا أواخر سورة التوبة فشهد عليها رجل واحد كان رسول الله ﷺ قال في شأنه: «**مَنْ شَهِدَ لَهُ خُزَيْمَةُ فَهُوَ حَسْبُهُ**»، وجعل شهادته بشهادة رجلين.

وظل هذا المصحف -ويسمى بالمصحف الإمام- عند أبي بكر ﷺ لأنه خليفة المسلمين، فلما مات أبو بكر ﷺ، صار هذا المصحف جزءًا من دولة الإسلام؛ لأن المصحف هو محور حضارة المسلمين، منه الانطلاق، وإليه المرجع، وبه التقويم، وله الخدمة، وهو كتاب رب العالمين، وهو حبل الله المتين، ولذلك أيضًا انتقل إلى عمر بن الخطاب ﷺ بوفاة أبي بكر ﷺ، وقد قال الإمام أبو المظفر السمعاني في كتاب «قواطع الأدلة»: (والمصحف الإمام هو هذا المصحف الذي بين المسلمين، جُمع في زمان أبي بكر الصديق ﷺ بإجماع الصحابة، وأُخرج في زمن عثمان ﷺ، ونُسخ منه المصاحف، وفُرقت في البلدان، وعليه الاتفاق)[1].

أي أن تلك النسخة قد صارت أصلًا، بحيث إذا أراد أي شخص أن يكتب نسخة أخرى فإنه يكتبها من تلك النسخة الأصلية، ولكنَّ حدوث الخطأ أو السهو عند الكتابة وارد، بأن ينسى الكاتب حرفًا مثلًا لسرعة الكتابة أو غير ذلك، ولذلك

= والحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٢١) وصححه، قال: هذا حديث صحيح الإسناد ورجاله باتفاق الشيخين ثقات، والبيهقي في «السنن الكبرى»: (٧/ ٦٦)، وقال الحافظ أبو الفداء ابن كثير في «تحفة الطالب» ص٢٤٩: (إسناده صحيحٌ حجة).

(١) قواطع الأدلة: (١/ ٣٠)، قلت: وكتاب قواطع الأدلة من أجلِّ ما كتبه الشافعية في أصول الفقه، وكان الإمام المجتهد التاج السبكي يعظم هذا الكتاب جدًّا، قال في ترجمة أبي المظفر السمعاني من «طبقات الشافعية الكبرى» (٥/ ٣٤٢): (وصنف في أصول الفقه: «القواطع»، وهو يغني عن كل ما صنف في ذلك الفن)، ثم قال بعدها بقليل: (قلت: ولا أعرف في أصول الفقه أحسن من كتاب «القواطع» ولا أجمع، كما لا أعرف فيه أجل ولا أفحل من «برهان» إمام الحرمين، فبينهما في الحسن عموم وخصوص)، قلت: ومن فوائد هذا الكتاب الجليل أنه معتمدٌ في حكاية مذهب السادة الأحناف، قال الإمام الزَّركشي في «تشنيف المسامع» ١/ ٢٣١: (حكاه ابنُ السمعانيِّ في «القواطع»، وهو عمدةٌ في الحكاية عن الحنفية؛ لكونه كان حنفيًّا ثم تَشَفَّع)، فرحم الله الجميع، وأسكنهم من الفردوس المكانَ الرفيع.

لم تعتمد الأمة في حفظ القرآن على الكتابة بل على حفظه في الصدور، وتلقيه بالتواتر، أما الكتابة فإنها وثيقة كونتها لجنة علمية دقيقة، وقد كانت هذه اللجنة في الحقيقة معجزة، وسنرى كيف ذلك؛ لأن كل كرامة لولي في هذه الأمة فهي معجزة للنبي ﷺ، فهذه اللجنة التي كتبت القرآن على أيام أبي بكر قامت بعمل جليل، لا يزال معجزًا إلى الآن، فهي معجزة تشهد لرسول الله ﷺ، ثم إن المصحف كما ذكرنا حُفظ عند أبي بكر رضي الله عنه، فلما مات ذهب إلى رئاسة الدولة، فذهب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وخلافة أبي بكر رضي الله عنه سنتان تقريبًا، أما عمر رضي الله عنه فقد ظلت خلافته لأكثر من عشر سنوات.

وعليه فقد نسخت منه مصاحف، لكن النسخة الأصلية ظلت محفوظة، فشاعت المصاحف وكثرت، ورغم ذلك، قد بقي الأساس، والأصل هو أن: (أناجيل هذه الأمة -أي قرآنها- لا يبلها الماء)؛ وذلك لحفظهم القرآن، وهكذا وُصِف المسلمون في الكتب السابقة، فإنه في القلب، وما في القلب لا يبل.

فالقضية إذًا ليست قضية صحفٍ، يزيد أحد فيها ورقة أو ينقص منها ورقة، أو تزيد فيه كلمة، أو يخطئ الناسخ هنا أو هناك، بل القضية هي قضية الشخص الحي الحافظ، ولذلك لدينا مقارئ للقرآن، تنتشر في المشارق والمغارب، ولدينا ما يسمى بـ(شيخ المقارئ)، كمثل أئمة القراء في الماضي، والذين منهم: الإمام عاصم[1]، والإمام نافع[2]، والإمام

(١) هو عاصم بن أبي النجود الأسدي، أحد القراء السبعة، معدود في التابعين، قرأ على أبي عبد الرحمن السلمي، وزر بن حبيش وجماعة، إليه انتهت إمامة القراء في الكوفة بعد شيخه أبي عبد الرحمن السلمي، وكان -رحمه الله- ذا نسك وأدب، وفصاحة وحسن صوت، وكان متقنًا مجودًا، انظر ترجمته في: «معرفة القراء الكبار» للذهبي: (١/ ٨٨)، و«سير أعلام النبلاء»: (٥/ ٢٥٦)، و«شذرات الذهب» لابن العماد: (١/ ١٧٥).

(٢) هو نافع بن عبد الرحمن، أبو رويم، المقرئ المدني، توفي سنة ٦٩هـ، قرأ على عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، وأبي جعفر القارئ، وغيرهما، كان يقول: قرأت على سبعين من التابعين، وهو من تلامذة نافع مولى ابن عمر، وعامر ابن عبد الله بن الزبير، وقال مالك بن أنس: نافع إمام الناس في القراءة، ترجمته في «معرفة القراء الكبار»: (١/ ١٠٧).

أبــو جعفـر[١]، والإمام حمزة الزيات[٢]، والإمام ابن كثير[٣]، والإمام أبو عمرو[٤]، وغيرهــم، فهــم عشــرة من الأئمـة، كـل واحـد منهـم أخذ بأسانيده الموصولة إلى رسول الله ﷺ طريقة التلاوة، فلدينا المصحف لا يصبح مصحفًا إلا إذا قال الشيخ الحافظ: (نعم، هو صحيح ومطابق لما تلقيناه عن مشايخنا قراءة وحفظًا وتلاوة)، فالاعتماد عندنا كما قلنا على الحفظ.

وقد طبعنا مرة مصحفًا، وكان الشيخ (محمود برانق) -رحمه الله- هو مصحح المصحف الشريف، وكان قرآنًا يمشي على الأرض، واسمعوا هذه الكرامة العجيبة التي وقعت منه، وكرامة الولي معجزة للنبي، راجعنا ذلك المصحف نحو أربعين مرة، حتى ضبطناه تمامًا، ثم أردنا أن يراجعه الشيخ برانق، فقال الشيخ: أروني المصحف، وسأل: هل قمتم بمراجعة هذه النسخة؟؟ قلنا: نعم، راجعناها، فقال: لا بأس، ثم فتح نسخة المصحف ليراجعها، ففوجئنا به يقول: إذًا أين الشَّدّة هنا؟!!

---

(١) هو يزيد بن القعقاع، أبو جعفر القارئ، أحد العشرة، مدني مشهور، قرأ على (عبد الله بن عياش)، وتصدَّى لإقراء القرآن دهرًا، توفي سنة ١٣٣هـ أو نحوها، ترجمته في «غاية النهاية» لابن الجزري: (٢/ ٣٨٢)، و«معرفة القراء الكبار»: (١/ ٧٢).

(٢) حمزة بن حبيب الزيات، أحد القراء السبعة، قرأ على الأعمش، وجعفر الصادق، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وغيرهم، وتصدر للإقراء مدة، وقرأ عليه عدد كثير، كان إمامًا حجة، قيمًا بكتاب الله تعالى، حافظًا للحديث، بصيرًا بالفرائض والعربية، كان أبو حنيفة يقول له: شيئان غلبتنا عليهما، القرآن والفرائض -أي المواريث- توفي سنة ١٥٨هـ، ترجم له ابن سعد في «الطبقات»: (٦/ ٣٨٥)، وابن قتيبة في «المعارف»: (ص٥٢٩)، والذهبي في «معرفة القراء الكبار»: (١/ ١١١).

(٣) عبد الله بن كثير بن المطلب، إمام المكيين في القراءة، قرأ على (عبد الله بن السائب) وغيره، وتصدر للإقراء، وصار إمام أهل مكة في القراءة، توفي سنة ١٢٠هـ، ترجم له ابن الجزري في «غاية النهاية»: (١/ ٤٤٣)، وابن سعد في «الطبقات»: (٥/ ٤٨٤)، والذهبي في «سير أعلام النبلاء»: (٥/ ٣١٨).

(٤) أبو عمرو بن العلاء المازني البصري، النحوي المقرئ الإمام، مقرئ أهل البصرة، أخذ القراءة عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، وابن كثير، وغيرهم من أهل الحجاز، وأهل البصرة، توفي سنة ١٥٤هـ ترجمته في «التاريخ الكبير» للبخاري: (٩/ ٥٥)، و«المعارف» لابن قتيبة: (ص٥٣١)، و«أخبار النحويين البصريين»: (ص٢٢)، و«كامل ابن الأثير»: (٥/ ٣٨)، و«معرفة القراء الكبار»: (١/ ١٠٠).

انظروا، فهذا والله ما هو بالشيء المعتاد، تلك الشَّدّة الوحيدة التي فاتنا إثباتها بعد مراجعة أربعين مرة، هي التي تقع عليها عين الشيخ!! فهذا شيء عجيب، لكنه وقع أمامنا والله، ولعلكم قد فَطِنْتم إلى سر قناعتنا بهذا الدين؟ أننا نرى الله تعالى في هذه المظاهر المعجزة دائمًا، ثم إن الشيخ قلَّب نظره في المصحف سريعًا ثم قال: هيا، توكلوا على الله واطبعوه، قلنا: كيف نطبعه، ألن تراجعه؟ فقال الشيخ: ألم تراجعوه أربعين مرة؟ توكلوا على الله.

حقيقةً، لقد خفنا أن يكون الشيخ قد تكاسل، لا سيما وقد وجدنا شَدَّةً ناقصة بعد مراجعة أربعين مرة، فقمنا بمراجعة هذا المصحف سبع عشرة مرة بعد ذلك، فلم نجد فيه أي خطأ؛ فتأكدنا أن هذا الموقف من عند الله.

فالمصحف محفوظ محفوظ، حفظ فجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه وظل المصحف عنده، وبعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد شاعت النسخ- حفظته السيدة حفصة، فهل كان ذلك لأنها ابنة عمر رضي الله عنه؟ لا؛ بل لأنها حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ، وهذا جزء من قيادة الدولة، وكل ذلك حتى لا يتوهم أحدٌ أن عمر أعطى النسخة لابنته، بل أعطى النسخة لأحد أركان الدولة وهي حفصة، أي أنها سيدة، أي أنها أم المؤمنين؛ فينبغي أن نقرأ الإسلام قراءة صحيحة، ثم ظل عندها، وشاع المصحف.

وفي شيوع المصحف المكتوب خطورة؛ لأنه قد يقع خطأ في كلمة أو حرف، في حين أن الأصل الحفظ، فقالوا لعثمان: يجب أن نعمل مصاحف معتمدة في كل قطر، ولا يكفي مصحف معتمد واحد؛ لأن الناس بدأوا يختلفون على صحة وخطأ النسخ، فوافق، وقال لحفصة: أرسلي النسخة العمدة، وشَكَّل لجنة أخرى على رأسها زيد بن ثابت، الذي كان عضوًا في اللجنة الأولى، ونسخوا من هذا المصحف ست نسخ: نسخة له، ونسخة أرسلها مكة، ونسخة للكوفة، ونسخة للشام، وهكذا.

وأصبح لكل دولة المصحف المرجع المكتوب كوثيقة، لكن الأساس هو ما يذكر في الحفظ في الكتاتيب والمساجد والبيوت والشوارع وهكذا؛ وبذلك حَفظ الله القرآن، والحمد لله رب العالمين.

إذًا فقد وصل إلينا المصحف الشريف غضًّا طريًّا عبر العصور، بأسانيد بلغت مبلغ الاستفاضة والتواتر والعلو، بكل ما تعنيه هذه الكلمات، فأصبح القرآن الكريم يحفظه كل أحد، العربي والأعجمي، والأطفال والكبار، والرجال والنساء، والعلماء والأميون، كلهم حفظوا كتاب الله عن ظهر قلب.

والشيخ علي الخواص[1] كان أميًّا، لا يستطيع القراءة ولا الكتابة، وكان حافظًا لكتاب الله تعالى، وكذلك الشيخ عبد العزيز الدباغ[2]، وغيرهم كثير.

***

وتجد بعد ذلك أشياء عجيبة في هذا المعنى، ففي تركيا مثلًا ستة آلاف مَدْرسة تُحَفِّظ القرآن، والولد هناك يحفظ القرآن بشكل غريب، ذهبت مرة إلى إحدى هذه المدارس، وصرت أفتح المصحف في أي موضع وأسأله، فيقول لي: نعم هذه يمين الصفحة، وهذه يسارها، وهذه في المنتصف، وهو يقرأ بمجرد أن أذكر له بداية الآية، وهو لا يعرف العربية، يعني لو أخرجته عن الحفظ وكلمته باللسان العربي لا يفقه

---

(١) هو الشيخ علي الخواص المتوفى سنة ٩٣٦هـ، كان من أهل الصلاح والولاية رغم أميته، من تلامذته الشيخ عبد الوهاب الشعراني، وجمع من فوائده كتابًا اسمه: «درر الغوّاص، من فتاوى سيدي عليّ الخوَّاص» ترجم له ابن العماد في «شذرات الذهب»: (٨/ ٢٣٣)، وعلي مبارك باشا في «الخطط التوفيقية»: (٩/ ٨٨).

(٢) عبد العزيز بن مسعود الدباغ من السادة الأكابر أهل الصلاح والولاية والمعرفة، ولد ومات بفاس من بلاد المغرب الأقصى، كانت وفاته سنة ١١٣٢هـ، كان أمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب، إلا أنه مع ذلك صاحب علوم ومعارف، وقد جمع تلميذه العلامة المحقق الشيخ أحمد بن المبارك السجلماسي طرفًا من إفاداته في كتاب، اسمه: «الإبريز، من كلام سيدي عبد العزيز» وهو مطبوع، وقد ترجم للشيخ الدباغ العلَّامة القادري في كتاب «نشر المثاني»: (٢/ ١١٨)، والزركلي في «الأعلام»: (٤/ ٢٨).

شيئًا، أليست هذه كرامة؟! وهل حدث مثل ذلك في كتاب في الدنيا، أن ملايين البشر حفظته، فلم يحدث أن كتابًا حُفظ بكل هذا الحفظ، ولا بكل هذا العدد.

المهم أنني قد استغربت، هذا التركي كيف حفظ؟! فوجدت أنهم يسمون طبعة المصحف عندهم -والتي تشبه طبعة الملك فهد- بطريقة (الدر كنار)، وما مزية طبعة الملك فهد للمصحف؟ مزيتها أنك تجد أن كلَّ جزءٍ عشرون صفحة، وكلَّ صفحةٍ خمسة عشر سطرًا، فلدينا ثلاثون جزءًا، تُضرب في عشرين، فيصبح الناتج: ستمائة ورقة، أو ستمائة واثنتين من الصفحات؛ لوجود زخرفة بالفاتحة والبقرة، وكذلك جزء عم؛ فإن سوره صغيرة، فيصبح الكتاب ستمائة صفحة وأربع صفحات، وكل صفحة تبدأ بآية وتنتهي بآية، إذًا الآية لا تنقسم بين صفحتين، وهذه الطريقة تسمى: (در كنار) وتعني: «في الإطار» وكأن هناك شيئًا محسوبًا في الإطار، فنجعل الولد يحفظ الصفحة الأولى من الجزء الأول، والصفحة الأولى من الجزء الثاني وهي رقم واحد وعشرون، ثم الصفحة الأولى من الجزء الثالث وهي صفحة واحد وأربعون، ثم واحد وستون، وهكذا حتى يحفظ ثلاثين صفحة، وهي الصفحة الأولى من كل جزء، ثم يرجع فيحفظ الصفحة الثانية، ثم الصفحة رقم اثنين وعشرين، ثم اثنين وأربعين، ثم اثنين وستين، وهكذا يتم حفظ ستين صفحة، ثم يحفظ الصفحة الثالثة، فالرابعة، فالخامسة، وهكذا حتى العشرين، فيكون قد أتم حفظ القرآن كاملًا.

ويوجد هذا الكلام كما قلنا في تركيا، فقلنا: ما فكرتها؟! فقالوا: لا نعلم، ولماذا يحفظ الولد؟ فقالوا: لا نعلم، لكن من يحفظ بهذه الطريقة وهذه الكيفية لا ينسى، وتصبح ذاكرته فوتوغرافية، قلنا لهم: من ابتكر هذه الطريقة؟ ولماذا؟ ومن وراءها؟ قالوا: لا نعلم، لكننا نشأنا فوجدنا طريقة (الدر كنار) هذه، ومن العجيب أنها بالفعل عند تجربتها وجد أنها نافعة جدًّا، فهذه تجربة بشرية تحتاج إلى دراسات

وبحوث، وأن يتحرك المسلمون وأن يُقلِّبوا ويدرسوا: ما هذا الذي يحدث في المخ بهذه الطريقة؟

وهذه المصاحف (الدر كنار) شاعت بعد مصاحف الملك فهد؛ لأنه لما أنْ ذاع وشاع صارت كل المطابع الآن تطبع بهذه الطريقة، وإن لم تذكر أنها طريقة (الدر كنار)، هذه الطريقة كنا نطبع بها في مصر سابقًا، وكانت تكتب على المصاحف، وإذا رأيت المصاحف المطبوعة عندنا في الصنادقية وغيرها تجد مكتوبًا عليها: «طبعت على طريقة (الدر كنار)» أو طريقة (الكنار) ولا يكتب (در) وهي كلمة فارسية معناها: (في).

***

هذا وقد طبع المصحف منذ نحو مائة وثمانين سنة، ولما طبع كان العلماء خائفين من أن يحدث به تحريف، والتحريف يكون بالحبر، والحبر يصبح ثابتًا؛ لأن ما كان يُكتَب باليد كان يمكن شطبه أو تصليحه.

فلما أن جاء محمد علي باشا[1] قال لهم: (نحن نريد طباعة المصحف؛ لأننا دخلنا عصرًا جديدًا، ويجب أن يكون المصحف في يد الناس)، ونحن الآن نعرف ذلك؛ لأن الناس تزداد من سنة ١٨٣٠م زيادة مضطردة، فيجب أن نطبع المصحف، فطبع في المطبعة الأميرية، طبعوا منه مائتي نسخة، فظهرت بها أخطاء، فغضب المشايخ والعلماء، فقال لهم: سوف أرصد لكم قدرًا من المال لتصححوها كلمةً كلمة، فصححوها كلمةً كلمة، ولم تصدر من المطبعة الأميرية إلا وهي مصححة كلمةً كلمة.

(١) محمد علي باشا، والي مصر، ومن مؤسسي الدولة المصرية الحديثة، له أعمال تاريخية كبيرة، من بناء للجيش، ومعارك حربية، وإرساليات تعليمية إلى فرنسا وغيرها، ولد سنة ١٧٦٩م، وتوفي سنة ١٨٤٩م، ترجم له الأستاذ إبراهيم مصطفى الوليلي في كتاب «مفاخرة الأجيال، في سير أعاظم الرجال»: (ص٧-٢٢)، والأستاذ إلياس زخورة في كتاب «مرآة العصر، في تاريخ ورسوم أكابر الرجال بمصر»: (ص١٧-٢٤) وغيرهما كثير.

وعلى عصر الشيخ المتولي الكبير، إمام القراءة في مصر[1]، والشيخ رضوان المُخللاتي[2] كُتبت مقدمةٌ ضافية، أضافها أبو زيد على مصحفه.

وهنا وقفة مهمة، ومرحلة اشتملت على مجهود كبير في خدمة القرآن الكريم، مرحلة عايشت فصولها بنفسي، وأذكر هنا بعض ملامحها على سبيل الاستطراد، فأقول: قد مَنَّ الله تعالى عليَّ -وله الحمد والمنة- بأن اشتركتُ في تأسيس مؤسسة تُسمى بـ(المَكْنَز الإسلامي)، والمَكْنَز الإسلامي يهتم بأمور خادمة للقرآن والحديث، فمن جملة ذلك: الانطلاق من القِمم التي وَصَلَ إليها الخط العربي، الذي كتب به المصحف الشريف، والانطلاق من القمم التي وصل إليها التجليد، تجليد الكتب المملوكية، والانطلاق من الزخرفة التي وصلت إلى غايتها وإلى منتهاها في العصر المملوكي، أو في الفن المُغْلي أو في الفن التركي.

الانطلاق من كل هذا لإعادة هذه الحضارة، وإعادة اليقظة لها؛ لأنها لَم تَمُت،

---

(١) الإمام القارئ المتقن، إمام أهل زمانه في القراءات وعلومها، وهو ملتقى أسانيد أهل القراءات، تصب كلها عنده وتجتمع عليه، وعليه تخرَّج الأكابر من أئمة هذا الشأن، توفي سنة ١٣١٣هـ، وسيأتي له ترجمة بعد صفحات.

(٢) رضوان بن محمد بن سليمان المُخللاتي، ولد في نحو ١٢٥٠هـ، وتوفي سنة ١٣١١هـ، الشهير بأبي عيد، مصري، شافعي، من قراء المحافل، ويعتبر -رحمه الله- من كبار علماء القراءات والرسم العثماني وغيرهما، تلقَّى علومه بالجامع الأزهر على علماء عصره، و تتلمذ في القراءات على: محمد السرسي، ومحمد العقاد، والعلامة المتولي، وقرأ عليه القراءات السبع بمضمن الشاطبية محمد بن علي الشهير بالبدوي، وأخذ عنه العلوم العربية والفنون الأدبية جماعة، منهم أحمد تيمور باشا، ومن أجل أعماله كتابة المصحف على قواعد الرسم العثماني، صَدَّره بمقدمة مفيدة، تتضمن تاريخ القرآن وبعض المواضيع القرآنية المهمة، وعلى هذا المصحف عَوَّل العلماء في عصره وبعد عصره لجلالة قدره، له مؤلفات في فنون شتى منها: «أرجوزة في التوحيد»، «إرشاد القراء والكاتبين، إلى معرفة رسم الكتاب المبين»، «الإفاضة الربانية، بشرح ألفاظ البردة المحمدية»، «شفاء الصدور، بذكر قراءات الأئمة السبعة البدور»، «فتح المقفلات، لما تضمنه نظم الحرز والدرة من القراءات»، «القول الوجيز، في فواصل الكتاب العزيز»، «الكوكب السائر، فيما يتعلق بخطب المنابر»، «اللؤلؤ المنظوم، فيما يلزم من الشروط في حق الإمام والمأموم»، وما زالت هذه الكتب وغيرها من مؤلفاته مخطوطة، انظر ترجمته في: «الأعلام للزركلي»: (٣/ ٢٧)، و«النور المتجلي، في ترجمة المتولي»: (ص٩)، و«أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث»: (ص٨٥) لتلميذه أحمد تيمور باشا.

وإن كانت قد خَبَت ولم يعد لها الرِّيادة، إلا أن الإنسانيةَ كلها -في اعتقادنا وفي مبادئنا- تحتاجُ إلى هذه الحضارة، وإلى أن تعود مرةً ثانية، بما تشتملُ عليه من رموز، وبما تشتملُ عليه من جمال، وبما تشتملُ عليه من رِقَّة في المشاعر والأحاسيس، وبما تشتمل عليه من فنون وعلوم وآداب؛ ولذلك قامت هذه المؤسسة بتطوير الحرف العربي، من أجل خدمة المصحف الشريف، فكيف ذلك؟

لقد قامت بالبحث في الحرف العربي في الطباعة، فوجدْنَا أن صُندوق الحرف العربي الذي كانت تستعمله المطابعُ الأميرية في أولِ أمرِهَا قبل تطويره، كان يشتمل على أكثر من ألف شكل للحرف، لكل حرف، بمعنى أن كل حرف من حروف المعجم له عندهم ألف صورة في رسمه، أو ألف شكل في كتابته، وهذا العدد جاء من أن الحرف العربي يختلف شكلُهُ، فمثلًا الألف المفردة تختلف عن الألف التي هي متصلة بآخر الكلمة، أو هي في وسط الكلمة، والكاف في أول الكلمة بخلافِ منتصف الكلمة، بخلاف آخر الكلمة وهي متصلة، وبخلافها في آخر الكلمة وهي منفصلة، فهناك حروف تتصلُ بما قبلها ولا تتصل بما بعدها، مثل الواو والدال والذال والراء والزَّاي، وهناك حروف تتصلُ بما قبلها وبما بعدها، مثل السين والشين والعين والغين، وهناك حروف لا تتصلُ بما بعدها لكنها تتصلُ بما قبلها، مثل الألف.

إذًا، الحروف على أنواع، ومكانها في الكلمة يختلفُ في الرسم، وكذلك يتفنَّن الفنان المسلم قديمًا في رسم هذا الحرف، فيرسم الكاف بطرقٍ مختلفة؛ ولذلك عندنا خط يسمى بخط الرُّقْعَة، وخط يسمى بخط النسخ، وخط يسمى بالخط الديواني، والريحاني، والتاجي، إلى آخر أنواع الخطوط، وهي نحو أربعين نوعًا من أنواع الخطوط.

بحثنا فيما كُتِبَ به المصحف الشريف، وأي الخطوط كان أحلى وأجمل، وأكثر

راحة للعينين، وتكون به العين أكثر انجذابًا لبهائها ورونقها، فوجدنا ذلك متوفرًا بجلاء في مصحف الملك فؤاد رَحِمَهُ الله تعالى، مَلِك مصر.

وهنا جئنا لنبحث عن صندوق حروف هذا المصحف الشريف، الذي كُتِبَ في آخره أنه: كَتَبَ أصله بخطه الشيخ محمد خلف الحسيني، شيخ المقارئ المصرية[1]، وإن كان في هذه المعلومة نقاش، وهي مكتوبة في آخر المصحف الذي أصدره الملك فؤاد[2] سنة ١٩٢١م، وفاز هذا المصحف في إتقانه وجماله بجائزة معرض فرانكفورت للمطبوعات على مستوى العالم.

وكان بعض الخطاطين يُشَكِّكُ في أن كاتبه هو الشيخ الحسيني، ويقول: إنما كتب الشيخ محمد خلف الحسيني أصلَهُ الرَّسمي، بمعنى الرسم العثماني بخطه، إنما هذا خط الخطاط المشهور جَعْفَر بك، هذه المعلومة معلومة يتناقَلها الخطاطون شفويًّا فيما بينهم، ولعل لهم عليها أدلة أو براهين، ولكن المكتوب فعلًا أن هذا خط محمد خلف الحسيني.

وعلى كل حال، سواءٌ أكان بخط فضيلة الشيخ محمد خلف الحسيني، شيخ المقارئ المصرية، وأن هذا خطُّهُ فعلًا، أو هو بخط جعفر بك الخطاط المشهور، فإنه خطٌّ بديعٌ رائقٌ له قصة، وهي أن الملك فؤاد أرادَ أن يُخْرِجَ المصحف على أحسن وجه، فأتى بالشيخ محمد عبدالعزيز الرِّفاعي من تركيا، وهو خطاطٌ عظيم، وأمرَهُ أن يَخُطَّ له مصحفًا، فكأنَّ الخطاطين المصريين غَضِبُوا أو أحفظهم ذلك، بأنه كيف

---

(١) محمد بن علي بن خلف الحسيني المالكي، الشهير بالحداد توفي سنة ١٣٥٧هـ، إمام مقرئ فقيه، تلقى القرآن وعلومه على عمه حسن الحسيني تلميذ الإمام المتولي، وله عدد من المؤلفات منها: «إرشاد الحيران، في رسم القرآن»، ترجم له زكي مجاهد في «الأعلام الشرقية»: (٢/ ١٧٢)، والزركلي في «الأعلام»: (٦/ ٣٠٤).

(٢) الملك فؤاد الأول ابن الخديوي إسماعيل، ملك مصر، تولى الملك سنة ١٩١٧م، وتوفي سنة ١٩٣٦م، تجد أخباره وأحداث حياته عند أحمد شفيق باشا في كتابه: «مذكراتي في نصف قرن» وهو مطبوع في الهيئة المصرية العامة للكتاب، والأستاذ محمد صبيح في كتاب مستقل اسمه: «فؤاد الأول» طبع في دار إحياء الكتب العربية، (د. ت).

تستورد لنا خطّاطًا من تركيا، ونحن هنا عندنا من الخطاطين الفنانين ما الله به عليم، وقد وصلوا إلى الغاية في الكتابة.

وكان الخطّاطون في هذا العصر يعتمدون الخطاط، ويسلمون له بأنه صار خطّاطًا عندما يصل إلى كتابة المصحف، بمعنى أن مَن كتبَ المصحف يُعدُّ حينئذٍ خطاطًا، وكان هذا الخط قد وضعه ابن مُقْلَة من أجل كتابة كتاب الله، وقد قال أبوحيان التوحيدي: (إن ابن مُقْلَة قد أوحى الله تعالى لهُ تسديس الخط، كما أوحى للنحلِ بتسديسِ بيوتها)، وللفنان العالمي الدكتور أحمد مصطفى[1] رسالة علمية في تفسير هذا التسديس، وكيف كان من المسَدَّس داخل الدائرة، وكيف أن الألف هي ميزان الحروف، أخذ بها الدكتوراة من جامعة لندن، وتُترجَم الآن إلى العربية، حتى يعلم الناس مَدَى الفلسفة الكامنة وراء الخط العربي، وأنه كُتِبَ بنسبةٍ إلهيةٍ فاضلة، تُناسِبُ كتاب الله، الذي نَزَلَ بنسبةٍ إلهيةٍ فاضلة، جعلتهُ يختلفُ عن الشعر، ويختلفُ عن النثر، ويختلفُ عن كلام الناس، رغم أنه من الألفاظ العربية التي يستعملها الخَلْق، وهو مسموعٌ ومفهوم، وعلى الرغم من ذلك، فإن سيَاقَهُ وسِبَاقَهُ ونَظْمَهُ يختلفُ اختلافًا كُليًّا عن كلام البشر، يَعْرِفُ هذا العلماء والراسخون، بل ويسمعُ هذا كُل مَن رُتِّلَ أمامَهُ القرآن، حتى الأداء الصوتي يؤكد أنَّهُ ليس من كلام البشر، هذه عقيدة المسلمين، وهذا هو الذي نَلْقَى الله -سبحانه وتعالى- عليه.

لـمَّا غَضِبَ الخطاطون من مَجِيء محمد عبدالعزيز الرفاعي أمرَهُ الملك فؤاد أن يَخُطَّ لَهُ مصحفًا، وفي الحقيقة كنتُ أظن أن هذا المصحف محفوظ في دار الكتب

---

(١) الفنان المصري العالمي الدكتور أحمد مصطفى، كشف عن نظرية هندسة الخط العربي، وقدّم الأسس العلمية التي بُنِيَ عليها ذلك الخط، في دراسة أكاديمية، استغرقت أربعة عشر عامًا، واستطاع أن يكتشف الأسس العلمية والهندسية، التي بنى عليها عبقري الكتابة العلّامة ابن مقلة إبداعاته في تصميم الخط العربي، الذي كُتِبَ به المصحف الشريف، ومن أعماله الجليلة لوحته التي سماها: (حيث يلتقي البحران)، والتي أهدتها الملكةُ إليزابيث الثانية، ملكة بريطانيا إلى شعب باكستان، بمناسبة مرور خمسين سنة على إنشاء دولته.

المصرية، كما ورد ذلك في بعض الأخبار التي في المجلات والصحف، لكن بالبحث في دار الكتب المصرية لَم نَحْصُل على هذا المصحف، فلعله في الخزائن التي لَم تُصَنَّف بعْد، أو لعلَّهُ قد كان في مكتبة الملك فؤاد احتفظ به لنفسه، أو شيء آخر من هذا القبيل، لكن على كل حال عندما بحثنا عنه حديثًا لَم نَجِدْه في دار الكتب المصرية، هذا المصحف الذي هو بخط محمد عبدالعزيز الرفاعي، والذي وردت لنا الأخبار مستفيضة بأنه أكمله فعلًا، وأنه أتمه في عهد الملك فؤاد.

طبع الملك فؤاد ما كان بخط محمد خلف الحسيني -رحمه الله-، وهو المطبوع الآن، وهو الذي فيه نزاع، هل هو لمحمد خلف الحسيني أو لجعفر بك؟ فبحثنا عن صندوقِ حروف هذا الكَنْز، الذي يُعد أعلى حَرْف كُتِبَت به الطباعة العربية، مِن نَحْو أكثر من خمسين مطبعة، في بيروت وفي مصر، تبدأ بالأميرية، ثم تطوير الأميرية الذي وصل إلى ٤٢٥ حرفًا، ثم تطوير ذلك إلى أن وصلنا إلى الآلة الكاتبة التي كان فيها ١٤٠ شكلًا فقط للحروف، فمن ١٣٧٥ حرفًا إلى ١٤٠ حرفًا، وكُلَّما اختُصِرَت الحروف، كان الخط ليس جميلًا، ولكن كُتِبَت باللغة العربية كِتابات كثيرة في المطبعة العربية، والمقصود: أننا لَمَّا أن رأينا أعلاها هو ما كُتِبَ به مصحف الملك فؤاد؛ انطلقنا منه، وكنا -عندما انطلقنا- نُريد شكل الحروف فلم نجدها، وجدنا أنَّ المطابع الأميرية قد تصرفت فيها، باعتبارها كأنها شيء قد باعوه للناس ولم يحتفظوا به، أو باعتبارها شيئًا من المستعملات التي تُباع، وإنا لله وإنا إليه راجعون، فاشتغلنا أكثر من أربع سنوات بالكمبيوتر، متعاونين مع شركة ألمانية في الطباعة، في ألمانيا حيثما نشأت المطبعة في القرن الخامس عشر الميلادي، حتى توصلنا إلى فَكّ الحروف، بحيث أمكننا بعد ذلك أن نكتُب بهذه الحروف أيَّ كتابةٍ نريدها، وطبعنا بها الكتب الحديثية السبعة: البخاري ومسلم، والسنن الأربعة والموطأ، بعد تحقيقها على المخطوطات، طبعناها بهذا الحرف، وخرجت هذه الكتب في نحو ١٦ مجلدًا،

مضافًا إليها ٣ مجلدات أخرى، هي عبارة عن تصوير للنسخة البولاقية، المشهورة بالسلطانية، لـ«صحيح البخاري»، صوَّرناها كما هي بأخطائها، وبأحوالها، وبشكلها، حتى تصل المجموعة إلى ١٩ مجلدًا، وتنظُر إلى الفرق ما بين صندوق حروف الأميرية، الذي كان هو أعلى أنواع الجمال، مقارنةً بصندوق حروف الملك فؤاد، فتجد البَوْن الشاسع، وأن مصحف الملك فؤاد كُتِبَ بطريقة أجمل بكثير جدًّا من صندوق الحروف المطبعية بالمطبعة الأميرية، في أعلى حالات كماله وجماله، فكان هذا أعلى منها، فانطلقنا منه، واستطعنا بواسطة الكمبيوتر أن نستفيد من حضارة الآخرين من أجل تطوير شكل الحرف المطبعي العربي.

وهذا العمل ربما يستهين به بعضهم ولا يقدر له قدره، ولكننا وصلنا إلى مرحلة حضارية، يُمكننا أن نكتُبَ بها كل المطبوعات وكل الكتب التي تصدُر عندنا، نتيجة تَمكُّننا وامتلاكنا لهذا الحرف العربي الجميل، الذي يُعَبِّر عن فلسفةٍ كامنةٍ في هذا الحرف؛ لأنه بين كل حرفٍ وآخر نسبة إلهية فاضلة، تُشْبه نسبة الدائرة، والتي هي واحد وعشرون على سبعة، والتي نستطيع أن نَصِل من خلالها إلى مساحة الدائرة، وإلى محيط الدائرة، وإلى التفاضل والتكامل، وكل هذه العلوم التي بُنِيَت من تأمل الكون، ومن استخلاص ما وراء هذا الكون من تدبير الحكيم سبحانه؛ ولذلك كان فيثاغورس يرى أن الرياضة هي الدالّة على وجود الله -سبحانه وتعالى-، وأنه سبحانه حكيم ومُبدع؛ لأننا كلما فكّرنا بالتفكير المجرد في أذهاننا، وجدنا ما فكّرنَا فيه مطابقًا للخارج الموجود في الكون، فكيف وقع هذا التطابق، وأنا لم أنشئ الكون، فهناك إذًا مَن أنشأني وأنشأ الكون، والذي أنشأني وأنشأه هو الذي وضع هذا الإحكام خلال هذه العملية.

إذًا، فتطوير الحرف العربي استفدنا فيه من الآخرين، فنشأت علاقة وتعارف بيني وبين ذلك الرجل الألماني غير المسلم، الذي نَعْمَل معه على تطوير هذا الحرف،

ووصلنا معه إلى هذه الغاية، فكانت هناك مساحة مشتركة بيني وبين الناس، يُمكن بها شُيوع الجمال، ورِقَّة الإحساس، وحُسن الهيئة، وحضارة ينبغي علينا أن نَمنحَهَا للعالمين، وكل الناس في حاجةٍ إليها.

فعَلْنا مثل هذا مع الزخرفة، الزخرفة أدخلناها من كتاب ماتع، أَلَّفَهُ مدير المُتْحَف البريطاني السيد: (مارتن لينجز)[1]، وهو رجل إنجليزي وصل إلى مرتبة مدير المُتْحَف البريطاني، وله اهتمام بالمصحف الشريف، وأسلم مارتن لينجز عندما كان عمره نحوًا من ثلاثين أو ثمانية وعشرين عامًا، وحَسُنَ إسلامُهُ، وألَّف في السيرة النبوية كتابًا ماتعًا بالإنجليزية، استحق عليه جائزة الدولة المصرية في المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في الثمانينيات، وهذا الكتاب أيضًا يُعَد للترجمة إلى اللغة العربية؛ لما فيه من فوائد وعجائب وغرائب حول سيرة المصطفي ﷺ، فوائد ليست في غيره من الكتب.

وقد أَلَّف كتابًا حول روائع الخط العربي من خلال المصاحف المكتوبة، مثل مصحف السلطان شعبان، والمصحف الذي كَتَبَهُ ياقوت المستعصمي، والمصحف الذي كتبَهُ ابن البوَّاب، الخطاط المشهور، ومن خلال الزخرفة التي تطورت عَبْر التاريخ، حتى وصلت إلى العصر المملوكي، ثم العصر التركي، وقد تأمل في الألوان، وفي فلسفتها، وتأمل في روائع هذا الخط العربي، فهذا رجلُ إنجليزي لكنه أسلم وخدم الإسلام والمصحف الشريف، فالإسلام نَسَقٌ مفتوح، وهناك مُشْتَرَكٌ بيني وبين الآخرين، أستطيع أن أستفيد منه، فما الذي فعله ذلك الرجل؟ ترك لنا شيئًا عظيمًا جميلًا، لا يُنْكِر أحد جَمَالَهُ، وقد طُبِعَ هذا الكتاب باللغة الإنجليزية، وكُنتُ

(١) الفنان الكبير، والمفكر المسلم الجليل مارتن لينجز، أو الشيخ أبو بكر سراج الدين، وقد توفي هذا الشيخ الجليل صباح الثاني عشر من مايو سنة ٢٠٠٥م، عن ستٍ وتسعين سنةً، وكان قد أصدر سنة ١٩٧٣م رائعته: «محمد رسول الله، وحياته، اعتمادًا على أقدم المراجع»، ونال عن هذا الكتاب جائزة الرئيس الباكستاني.

حريصًا أن يُترجم إلى اللغة العربية، فترجم بفضل الله، وقدَّمتُ له بمقدمة، أتكلَّمُ فيها عن ملخص ما توصَّل إليه من فلسفة الألوان ودِلالاتها عند المسلمين.

فهذه حضارات يستفيدُ بعضُهَا من بعض، غير منفصلة عن عِمَارة الأرض، هذا الكتاب أخذنا منه الأشكال الزخرفية، وأدخلناها إلى الكمبيوتر، ووجدنا معهدًا في بريطانيا اسمه (معهد فيتا)، وفيتا هذا مهتم بهذه الزخرفة المملوكية وبتطويرها.

وهناك برامج لتحليل اللوحة التي أمامنا، وهناك برامج من أجل تعليم الناس كيف يُنشئون لوحة جديدة لم تكن مِن قبل، فإذا رأيتَهَا نسبتَها إلى الفن المملوكي، وهناك برامج في الكمبيوتر، تستطيع بها أن تجمع بين خصائص لوحات مختلفة دون تنافر، لا في الألوان ولا في الخطوط، ونحنُ في هذه الزخرفة أمام استعمال الخطوط الهندسية، كالنقطة، والخط، والدائرة، والمربع، والمثلث، وتركيبات كل هذا من المُثمَّنات، والمُخمسات، والمسدسات، والمسبَّعات، إلى آخره، وعالم آخر من الخطوط الهندسية يُستعمل في الزخرفة، وهناك أيضًا التعشيبات النباتية، وكيف تتوافق بعضها مع بعض من ناحية، وكيف تتوافق أيضًا من ناحية الألوان، ومن عناصر أخرى كثيرة لا أُريد أن أستفيض فيها.

هناك أيضًا رموز وجدناها في الكِلِيم التُّركي، كشجرة الحياة، وعين الحياة، والطائر، وأشياء لها دِلالات، تشهد بأنه:

وفي كل شيءٍ لهُ آيةٌ * تدُلُّ على أنَّهُ واحِدُ

وأن الله -سبحانه وتعالى- تجلَّى أمامنا في هذا الكون بصفاته، فنحنُ نرى الحكمةَ والإبداعَ والإحياءَ والإماتةَ والرِّزْق والخَالِقِيّة والرَّحمة، نراها بأعيُنِنَا في عالم النبات، وفي عالم الأسماك، وفي عالم البحار، وفي عالم الحيوان، وفي عالم الإنسان، وفي أفلاك السماء، وفي تخوم الأرض، نراها بأعيُنِنَا، ونرى كيف نستطيع أن نستفيد من خِلْقَةِ الله لسمكة ملونة، وإبداع هذا الخالق العظيم في الألوان، ما بين البرتقالي

والبني، أو بين الأزرق والأحمر، أو بين الأخضر والأصفر، هذا الإبداع الإلهي كيف نستفيد منه، ونُحوِّلُهُ إلى لوحات فنية، تُخرِجُ إبداعات الإنسان، بعد معاناة، وبعد تدريب، وبعد عِلم، وبعد مَلَكَة، وبعد موهبة ربانية، يُعطيها ربنا -سبحانه وتعالى- لمن يشاء من عباده.

اشتغلنا في هذا الجانب، واستفدنا من معهد «فيتا»، واستفدنا أيضًا من تراثنا، واستفدنا من هذا الاهتمام البليغ الذي ينبغي أن نبدَأَهُ نحنُ؛ لأننا أبناء هؤلاء الذين أبدعوه وصنعوه وعلَّموه ونشروه، نحن أبناؤهم، ولكن ما دام غيرُنا قد سَبَقنا إلى هذا؛ فيجب علينا أن نهتم به، وأن ندْرُس هذه الحالة.

أخرجنا أربعًا وعشرين لوحة من كتاب مارتن لينجز، لكن كتابه فيه كثير من اللوحات، وقد يصل الحال فيها إلى ٢٠٠ لوحة، فنحن أخرجنا نحو ١٠٪ أو ١١٪ مما في الكتاب كإصدارٍ أول، لوحات يفتَخِر بها الإنسان، سواء في مقام الزخرفة، أو سواء في مقام كتابة المصحف، وهو الأمر الذي اختص به كتاب مارتن لينجز، الذي سَمَّى نفسَهُ بعدما أسلم بـ(أبي بكر سراج الدين)، رحمه الله تعالى.

ذهبنا وطبعنا هذه اللوحات في كوريا؛ لأننا وجدنا هذا المكان أنسب الأماكن وأعلاها من ناحية التَّقَنِيَّات الحديثة، وأعلاها من ناحية نوعية الورق في هذا المقام، إذًا فهناك مساحة مشتركة يُمكن أن نعمل عليها، قد يستهين بها بعضُ الناس، وقد يرى في ذلك أمرًا ثانويًا، أو قد لا يراه مُطلقًا، فهو حُرٌّ، ولكن نحنُ نُبيِّنُ مبادئنا التي سِرنَا عليها، والتي نَلْقَى الله -سبحانه وتعالى- بها، والتي نُوجِدُ من خلالها المُشْتَرَك الذي نتحدَّث عنه كثيرًا، فنحنُ نستفيد من الحضارات في كل مكان ونفيدها.

وبالإضافة إلى تطوير الحرف العربي، وإلى الزخرفة المملوكية والتركية، وبالإضافة إلى إحيائها، وبالإضافة إلى البحث في فلسفتها، وبالإضافة إلى تدريب الناس عليها، وبالإضافة إلى استمرارها وانطلاقها بواسطة الكمبيوتر وفنيّاتِهِ؛ من أجل إحْدَاث

شيء هو منها، ولكن ليس مشابِهًا لها، أو ليس تقليدًا لها، إنما هو غوص في مناهجها واستعمالها، والغوصُ في المناهج، وعدم الوقوف عند المسائل والأشكال، فهذه فلسفتُنا، وهذه مبادئنا التي نوضحُها.

أضفنا إلى ذلك تجليد الكتب، فبعد تطوير الحرف والزخرفة طوَّرنا الكتاب وتجليده، وأتذكر أن شيخي: الشيخ أحمد محمد مرسي -رحمه الله تعالى- كان يتحدث عن شيخه: الشيخ محمد راشد، وأنه عندما تكوَّنت هيئة كِبار العلماء سنة ١٩١١م كان الشيخ محمد راشد هو الاسم الأول في هيئة كِبار العلماء، كان الشيخ محمد راشد هو أستاذ التفسير في الجامع الأزهر الشريف قبل إنشاء الكليات بربع قرن، وكان الشيخ محمد راشد هو إمام الخاصَّة الخديوية، فكان إمامًا للخاصة الخديوية أيام الخديوي عباس حلمي، وكان الشيخ -رحمه الله- من الأتقياء الأنقياء.

أنا أقول كل هذا، من أجل شيء مهم في حياة هذا الشيخ الجليل، يتعلَّقُ بمقامنا الذي نتكلمُ فيه، وهو أنه قد ذهب إلى تركيا؛ حتى يتعلم تجليد الكتب وتذهيبها، وليرى كيف تُذَهَّب الكتب وكيف تُجَلَّد؟ فسافر إلى تركيا في شبابه ليتعلَّم ذلك، وكانت عنده مكتبة كبيرة ضخمة، كُلُّها مجلَّدة، وكُلُّها من تَجْلِيدِهِ، هو الذي جلَّدَهَا، فما الذي يجعلُ عالمًا من هيئة كِبار العلماء، ومن المفسرين العِظام، وممن يثق فيهم الخديوي فيجعله إمامًا له -هذا الرجل الذي حَكَينا عنه- يذهب إلى تركيا ليتعلم تجليد الكتب؟ وتجليد الكتب هذا مسألة مِهَنية، لكنه يأبى إلا ذلك؛ لأنه كان عنده من الحس، ومن المشاعر، ومن تقدير الجمال، وكان عنده من الحالة الروحية مع الكتب التي يجب أن نحترِمَها، وأن نجلدها على وجهها بمنظرٍ جميل، ثم أيضًا للحفاظ على الكتاب.

وقد تدهورت صِناعة التجليد عندنا، وأصبحت ظاهرًا وباطنًا لا تؤدي وظيفتها، وأصبح التجليد لا علاقة له بفن التجليد الذي سبقنا، سبقنا في الماضي

وسبقنا في الحاضر؛ فكان لا بد علينا أن نَرْجِع إلى ذلك مرةً ثانية.

واهتمام الشيخ محمد راشد بالتجليد كان اهتمامًا يُبين لنا أن هذا الأمر أمر جليل، وأنه ليس من نافلة القول، وأنه له عَلاقة بالإنسان، الذي هو في مبادئِنَا مُقَدَّمٌ على البُنيان؛ ولذلك اهتممنا في (المكنز) بعد الحرف والزخرفة بإحياء القمة التي وَصَلَ إليها التجليد المملوكي؛ فدرسنا وافتتحنا ورشة لعمل التجليد، وجئنا لندرب الناس فيها، فتعثَّرنا وفشلنا؛ لبعض الصفات التي شاعت في عصرنا من الاستهانة، ومن عدم الرغبة في التعلُّم وغير ذلك، لكننا مستمرون على قول ابن الوَرْدِي في منظومَتِهِ اللامية:

لا تَقُلْ قَـدْ ذَهَـبَـتْ أَرْبَـابُـهُ * كُلُّ مَنْ سَـارَ عَلَى الـدَّرْبِ وَصَـلْ

والمقصود: أن المصحف الذي بين أيدينا، والذي شاع الآن وذاع بطريقة (الدر كنار) وهي الصفحة التي تبدأ بآية وتنتهي بآية، وعدد سطورها خمسة عشر سطرًا، وكل جزء في عشرين ورقة، وهو الذي طبع به (مصحف الملك فهد)، ثم شاع بعد ذلك في الناس، وسمي في مصر: (در كنار)، والتي هي كلمة كان يستعملها العثمانيون في وصف المصحف إذا كان بهذه الصفة، وقد وضع كذلك من أجل الحفظ، فهم يحفظونه بطريقة معينة تكلمنا عنها قبل ذلك.

مراحل أخرى من خدمة المصحف الشريف

هذا وقد مرت خدمة الكتاب الكريم بمراحل؛ فقد جاء الحجاج بن يوسف الثقفي[1]، وقال: أريد أن أقرأ القرآن في أسبوع، فجمع العلماء، وشرعوا في عد حروف القرآن الكريم، وبعد ذلك قسموها إلى سبعة أجزاء، كل جزء يمثل سُبعًا من القرآن الكريم؛ حتى يستطيعوا تحديد كل سُبعٍ على حدة؛ ليقرأ القارئ كل يوم السُبع الخاص به، فأصبح بذلك بين أيدي المسلمين عدد حروف المصحف الشريف.

وجاء أحد الأئمة وهو الإمام أبو بكر بن عياش[2]، وهو من القراء والمهتمين بكتاب الله، وقال: ما لنا وللحجاج! فهو يستطيع أن يختم القرآن في سبعة أيام، لكن عموم المسلمين لا يستطيعون ذلك، فقسم القرآن إلى ثلاثين جزءًا، وهو الموجود حتى الآن، وكان ذلك في القرن الهجري الثاني، وتم التقسيم طبقًا للحروف؛ فنستطيع القول بأن كل جزء من الأجزاء الثلاثين مساوٍ للجزء الثاني في الحروف تقريبًا؛ لأن هناك بعض الأجزاء أزيد أو أنقص من أجزاء أخرى بقدر بسيط، وذلك بسبب الوقف، أو تكملة الآية، لكن الفكرة الأساسية أن كل جزء يساوي الجزء الثاني في عدد حروفه.

---

(١) الحجاج بن يوسف الثقفي، توفي سنة ٩٥هـ، كان رغم ظلمه وغشمه صاحب اعتناء كبير بالقرآن، ولي على العراق والمشرق عشرين سنة، وكانت له سيرة سوء، إلا أنه مع ذلك كان ذا تعلُّق عظيم بالقرآن، يديم التلاوة والنظر فيه، قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٤٣): (كان ظلومًا جبارًا، ناصبيًّا خبيثًا، سَفَّاكًا للدماء، وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة، وتعظيم للقرآن).

قلت: له أخبار منثورة في بطون التواريخ وكتب الأدب، ترجم له ابن الأثير في «الكامل»: (٤/ ٥٨٣-٥٩٠)، والذهبي بتوسع في «تاريخ الإسلام»: (٦/ ٣١٤-٣٢٧).

(٢) هو أبو بكر بن عياش الأسدي، المقرئ الفقيه، شيخ الإسلام، وبقية الأعلام، توفي سنة ١٩٣هـ عن ست وتسعين سنة، ترجم له الذهبي في «تذكرة الحفاظ»: (١/ ٢٦٥)، وفي «سير أعلام النبلاء»: (٨/ ٤٣٥)، وابن العماد في «الشذرات»: (١/ ٣٣٤).

ثم جاء الناس على نفس الفكرة، وقالوا: نريد عمل حصة صباحية وحصة مسائية من تلاوة القرآن الكريم، وكانت فكرة أذكار الصباح والمساء مسيطرة على الجو العام -الجو العبادي- وكان حفاظ الحديث يؤلفون أعمال اليوم والليلة، وقد قام بذلك الإمام النسائي مثلًا وابن السني وغيرهما، فتم تقسيم الجزء إلى حزبين، وكلمة «حزب» معناها: الشيء الذي تقرأه صباحًا والذي تقرأه مساءً، طبقًا لعدد الحروف؛ لأنها المفتاح في مسألة التقسيم، وقد سبق عدها أيام الحجاج، وهذا أيضًا غالبًا؛ إذ قد يزيد أو ينقص.

ثم قالوا: كم عدد ركعات النهار التي نقرأ فيها بعد الفاتحة؟ قالوا: الظهر والعصر فعددها أربعة، وفي المساء: المغرب والعشاء، قالوا: إذًا نقسم الحزب أربعة أرباع؛ حتى نستطيع قراءة ربع في كل ركعة، طبقًا للحروف فعملوا الأرباع، فتجد المصحف مقسمًا إلى ثلاثين جزءًا، وكلَّ جزءٍ مقسمًا إلى حزبين، وكلَّ حزبٍ مقسَّمًا إلى أربعة أرباع، وأصبح القرآن به ثلاثون جزءًا، وستون حزبًا، ومائتان وأربعون ربعًا، أما الفجر فيحتاج إلى قراءة طويلة قليلًا، فنقرأ فيه حزبًا مثلًا ونعيده، فارتضوا هذه الطريقة، وساعدهم هذا في قضية أخرى، وهي قضية الحفظ؛ فأصبحوا يقدرون على حفظ الجزء في زمن معين.

ثم عملوا الربعة، والربعة: هي مصحف مجزَّأ إلى ثلاثين جزءًا، وكل جزءٍ مطبوع ومجلد بمفرده، فكان الرجل لا يتركه حتى يتم حفظه ثم يعيده للربعة، والربعة عبارة عن صندوق نضع به المصحف ذا الثلاثين جزءًا.

ومن (الدر كنار) أصبح هناك تقسيم آخر، يساعد في الحفظ أيضًا والتلاوة، خاصة في التراويح، وهو الصفحة، فلو قرأت صفحة في الركعة فالصفحة مضروبة في عشرين ركعة يصبح جزءًا.

والهنود قالوا: لدينا فكرة أخرى، قالوا: إن القرآن ستة آلاف آية برواية حمزة،

وبراوية حفص ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية، ويمكن أن نقسم هذه الآيات عشرةً عشرةً، ونسمي كل عشرة بالـ(ركوع)، أي: اركع هنا، أي أن القرآن يُقَسَّمُ بالآيات، لا بالحروف ولا بالكلمات، قالوا: فكم عدد الركعات في اليوم؟؟ قلنا: سبع عشرة ركعة، وقالوا: كم عدد الركعات التي نقرأ فيها؟؟ قلنا: عشر ركعات، قالوا: كم ناتج عشرة في عشرة؟؟ قلنا: مائة، ثم قالوا: كم عدد الركعات المسنونة؟؟ قلنا: سبع عشرة ركعة، نقرأ في عشرة، ثم قالوا: عشرة في عشرة بمائة، فيصبح الناتج مائتين، ثم مائتان في ثلاثين ينتج منها: ستة آلاف! فهذه آيات القرآن.

وهكذا سوف تختم القرآن في كل شهر مرة؛ ولذلك سوف تجد مطبوعًا حرف (ع) على الهامش، في المصحف المطبوع بالهند، أي: ركوع، وتكون بعد كل عشر آيات، فقد تفنن إذًا المسلمون في صور تقسيم القرآن الكريم؛ من أجل الذِّكْر والعبادة.

كتاب الله قسَّمه المسلمون إلى ثلاثين جزءًا، وكل جزءٍ إلى حزبين أي ستين حزبًا، وكل حزب قسموه إلى أربعة أرباع فأصبح مائتين وأربعين ربعًا.

والكتاب ترجم إلى مائتين واثنتين وثلاثين لغة؛ فترجم إلى الإنجليزية مائتين وستًّا وسبعين مرة، فهل كل هذه التراجم صحيحة؟؟ لا، بل منها الباطل، ومنها المغرض، ومنها الكاذب، وكتاب الله تعالى ثابت، هو المرجع وإليه المحاكمة، فإذا قرأ شخص على الشيخ، فاختلفا في آية؛ فإنهما يرجعان إلى كتاب الله؛ فكتاب الله ثابت، وهو حجة علينا ولسنا نحن الحجج عليه، فكتاب الله -سبحانه وتعالى- لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وهذا الكتاب الكريم مائة وأربع عشرة سورة، وهذه السور من عند الله، وبأمر الله، وكان جبريل إذا نزل بالآية يدل النبي ﷺ أنها بين هذه وتلك، فيضعها النبي ﷺ في مكانها، فهذا القرآن المعجز الذي وصل إلينا بهذه الكيفية العجيبة الغريبة، التي لم يصل بها أي نص في العالم.

بل حتى حديث سيدنا رسول الله ﷺ، أنشأنا له عشرين عِلمًا لضبطه، ورغم ذلك جاء فيه ما يسمى: الرواية بالمعنى، أي: أن الصحابي أو الراوي يروي ما فهمه وفق ضوابط معينة. أما هذا الكتاب، فإنه لم يُروَ بالمعنى، بل روي بنصه وفصه، روي بلفظه وحركاته، روي كما هو، وكما أنزل.

* * *

هذه الحقيقة البسيطة التي يعيش فيها المسلمون، كثير جدًّا من الأجانب لا يعلمها، لا يعلمون أن هذا الكتاب وصل بهذه الكيفية؛ لأنهم لم يروا مثل هذا في أي نص لا بشري أو إلهي، أن يكون أصلًا ويكون ثابتًا، وأحيانًا يقولون في بعض المؤتمرات: يُختصر القرآن بأن يُعدل أو يُحذف منه.

وكلامهم هذا يذكرني بقصة طريفة حدثت بحي الأزهر، وذلك أن أحد الحُفَّاظ وهو الإمام المنذري اختصر «صحيح مسلم» وسماه: «مختصر صحيح مسلم»، فشاع الكتاب بين الناس وانتشر، وعرف بينهم باسم: «مختصر مسلم»، فجاء مرة شخص ريفي، يبدو أن أحدًا غرر به؛ فقال لصاحب المكتبة: ألا تملك مختصرًا للقرآن الكريم تبيعني إياه؟! فاندهش صاحب المكتبة، وأخذ يفكر ماذا يفعل! وأجلسه وفكر، بم يجيبه وكيف يعلمه؟ وهل يجهل مسلم أن القرآن كتاب الله، وأنه محفوظ لا يدخله اختصار، ولا يتدخل فيه بشر؟! وبينما صاحب المكتبة يتفكر، إذ أتى إليه شخص آخر يسأله عن «مختصر مسلم»، يقصد نسخةً من «مختصر صحيح مسلم»؛ فأشار له صاحب المكتبة إلى الشخص الأول الذي جاء يسأل عن مختصر للقرآن، وقال له: خذ هذا الشخص، هذا مختصر مسلم، أي أن هذا الشخص يجهل حقيقة من الحقائق الكبرى التي لا تخفى على مسلم، فكأنه مسلم لكن دخله الاختصار.

فذكرني هذا بالمستشرقين، وهم يطالبون في المؤتمرات في الخارج باختصار القرآن، ونقول لهم: هذا الكتاب جاء من عند الله، وهو الذي حفظه، وليس البشر،

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(١) وهو كذلك فعلًا، فبالفعل القرآن الكريم ليس له منافس، وحاول الناس عبر التاريخ من غير المسلمين أن يحرفوه، فما استطاعوا، ففي الآية ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾(٢) قرأها شخص خطأً، قرأها: (عذابي أصيب به من أساء) فكلمة (أساء) مثل (أشاء)، وكلمة (أساء) واردة أيضًا؛ لأن الرسم القديم غير المنقوط يحتملها، ومعناها جائز، ولكن كتبت عندنا في الكتب.

وحمزة الزيات وهو صغير، قال له والده -وكان يبيع الزيت: إنني أراك لا تقرأ القرآن فاقرأه، ففتح ابنه المصحف، وقرأ (ذلك الكتاب لا زيت فيه) بدلًا من ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾(٣)، وهذا خطأ وليس بقراءة، فغضب أبوه، وقال له: (دع المصحف، وتلقن من أفواه الرجال)(٤)، فذهب إلى المكتب يقرأ على الشيخ، وأصبح إمامًا في القراءات، وكتبنا هذا في الكتب، فيظهر شخص يبحث في الكتب، ويقول: إن هناك من يحرف في القرآن، ولكن نقول له: إن هذا يثبت ثبات القرآن وإعجازه، بالرغم من كل المحاولات لتحريفه، فليس له منافس، فهو بعينه في كراتشي، وفي طنجة، وفي القاهرة، وليس له نسخ متعددة مختلفة، وهذه الأخطاء عند بعض القراء بقيت؛ حتى تدلنا على إعجاز القرآن، وعلى أنه لا يزال محفوظًا من عند الله، بالرغم من كل تلك المحاولات، وقال النبي ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ!! إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ اللهِ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي**»(٥) وهل تدرون ما حدث لعترته أهل بيته

---

(١) سورة الحجر، آية [٩].

(٢) سورة الأعراف، آية [١٥٦].

(٣) سورة البقرة، آية [٢].

(٤) أورد هذا الخبرَ الإمامُ العلامةُ الشيخ أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري في كتاب: «تصحيفات المحدثين»: (١/ ١٤٥).

(٥) حديث الثقلين: (كتاب الله) و(أهل بيت المصطفى ﷺ): ورد عن جماعة من الصحابة، منهم: جابر بن عبدالله، وزيد بن أرقم، وأبو سعيد الخدري، وزيد بن ثابت، وحذيفة بن أسيد الغفاري، وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنهم-، أما حديث جابر: فقد رواه الترمذي في «السنن»: (٥/ ٦٦٢) كتاب المناقب، باب: مناقب أهل =

الكرام؟ ذُبحوا تذبيحًا، فقتل سيدنا الحسين وقتل أولاده، وإذ بعلي زين العابدين ينجو من القتل، وإذ بسيدنا الحسن لم يبق من أولاده إلا الحسن المثنى وزيد الأبلج، فكأنه كان من الممكن أن تهلك هذه الذرية الكريمة كلها، ولا يبقى لسيدنا محمد ﷺ نسل، ولكن بقي أهل البيت بفضل الله، وبقي القرآن الكريم بفضل الله، فسبحان من أَيَّدَ النبي ﷺ بأتم تأييد.

***

وكتاب الله تعالى شأنه عظيم؛ لأنه هدىً للمتقين، وإن كان -وهو في نفس النص- عمًى على الكافرين، فسبحان الله! نص واحد إذا دخلته تطلب منه الهداية؛ هداك وانفتح لك، ورأيته نسقًا مفتوحًا، ترى فيه العجب العجاب كل يوم، ولا تنتهي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، كما وصفه رسول الله ﷺ، وإذا دخلته تتلاعب به، أو تريد أن تنقضه؛ أي: تهدمه، أو تنقده؛ أي: تخوض في شأنه بالسوء، وهو كله محاسن- استغلق عليك، فلا هو قابل للنقض، ولا هو قابل للنقد؛ لأنه ليس من كلام البشر، بل هو كلام رب العالمين، هو الذي أنزله وجعله العهد الأخير بينه وبين البشر، إذا دخلته للعب؛ أغلق نفسه عليك، وصار عمًى وحسرة على من يدخل فيه بهذا الوصف، وكل هذا في نص واحد، فما هذا الإعجاز؟! فهذه وحدها

= بيت النبي ﷺ، وقال: حسن غريب، والطبراني في «الكبير»: (٣/ ٦٦)، والرافعي في «التدوين»: (٢/ ٢٦٦)، وأما حديث زيد بن أرقم: فقد رواه ابن خزيمة في «صحيحه»: (٤/ ٦٢)، والترمذي في «السنن»: (٥/ ٦٦٣)، والنسائي في «السنن الكبرى»: (٥/ ٤٥)، والدارمي في «سننه»: (٢/ ٥٢٤)، والطبراني في «الكبير»: (٥/ ١٦٦) ثم أطال -رحمه الله- في إيراد طرقه عن زيد، والحاكم في «المستدرك»: (٣/ ١١٨، ١٦٠) وصححه، وأما حديث أبي سعيد: فقد رواه أحمد في «فضائل الصحابة»: (١/ ١٧١)، وابن سعد في «الطبقات»: (٢/ ١٩٤)، والطبراني في «الأوسط»: (٤/ ٣٣)، و«الصغير»: (١/ ٢٣٢)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ»: (١/ ٢٩٦)، وأما حديث زيد بن ثابت: فقد رواه الطبراني في «الكبير»: (٥/ ١٥٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف»: (٦/ ٣٠٩)، وابن أبي عاصم في «كتاب السنة»: (٢/ ٣٥١)، وأما حديث حذيفة: فقد رواه الخطيب في «تاريخ بغداد»: (٨/ ٤٤٢)، وبقي بن مخلد في: «جزء الحوض والكوثر»: (ص٨٨)، وأما حديث عليّ: فقد رواه البزار في «مسنده»: (٣/ ٨٩).

معجزة أخرى؛ ولذلك هو معجزة الرسالة المستمرة، يصفه ربنا سبحانه فيقول: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[1].

فسبحان الله، المؤمن يدخل فيراه هدًى وشفاء ويهديه؛ لأنه استهداه، وغير المؤمن يصم آذانه عنه، ويدخل للعب والعبث والنقد والهدم؛ فإذ به يكون عليه عمًى، كل هذا وهو نص واحد، فكيف يكون هذا؟ وكيف يكون هكذا؟!

وقد أمرنا الله -سبحانه وتعالى- أن ندخله طالبين للهداية، فإذا ما سمعناه طلبًا للهداية اهتدينا ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[2] فلو أنه سمع كلام الله فعسى أن يكون متهيئًا للهداية، فهيا بنا ندخل إلى كتاب الله -سبحانه وتعالى- طلبًا للهداية.

(١) سورة فصلت، آية [٤٤].

(٢) سورة التوبة، آية [٦].

تفسير
سُورة الفاتحة

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ

ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ

وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ

وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾.

الفاتحة [١-٧]

تفسير سورة الفاتحة

ندخل إلى كتاب الله -سبحانه وتعالى- فنجد الفاتحة، وكانت العرب إذا أحبت شيئًا أكثرت من أسمائه، فأحب المسلمون الفاتحة؛ لأنها تلخص كل القضية، كالعَلاقة بين الإنسان وبين رب الناس، والعلاقة بين الإنسان وبين الأكوان، والعلاقة بين الإنسان وبين نفسه.

إنها تلخص كل حياة الإنسان، والإنسان الذي لا هدف له؛ فإنه في ضلالة، فيجب على كل إنسان أن يجعل لنفسه هدفًا، وهدفنا ومقصودنا ومقصود الكل هو الله -سبحانه وتعالى-، فأنا هدفي في الحياة هو الله، ولأجل الله تعالى أفعل وأترك، وأتكلم وأسكت.

وقد أحبت العرب الخمر؛ فسموها تسعين اسمًا، منها: الشَّمول، والداء، والدواء، والصفراء، وغيرها؛ ولذلك عندما نزل تشريع تحريم الخمر-حفاظًا على العقل كان صعبًا عليهم، لكنهم استجابوا لله ولرسوله ﷺ، فشرع لهم الإسلام ما بناهم من الداخل، وجعلهم يعمرون الأرض، ويفقهون عن الله.

وخافوا من الأسد؛ فأكثروا من أسمائه، فله عندهم سبعمائة اسم أو تزيد، منها: الليث، والغضنفر، والضرغام وغير ذلك[1].

كانوا يخافون من البحر؛ فسموه ثلاثين اسمًا، منها: اليم، والبحر، والظُّلَم،

(١) وقد بلغ من كثرة أسماء الأسد أن أفرد عدد من العلماء مؤلفاتٍ كاملةً في أسماء الأسد، لكثرتها، فمنها: كتاب «أسماء الأسد» لابن خالويه، ومنها أيضًا: كتاب «أنواء الغيث، في أسماء الليث» للفيروزآبادي، ومنها: كتاب «نظام اللسد، في أسماء الأسد» للحافظ السيوطي، ومن كتابات المعاصرين في ذلك كتاب: «رفع اللثام، عن أسماء الضرغام» للأستاذ الشيخ أحمد مفتاح -رحم الله الجميع.

والكافر؛ لأنه يكفر ما ينزل فيه، أي: يستر ما ينزل فيه، وسُمي الكافر كافرًا؛ لأنه يستر الإيمان، لدرجة أنهم سموا النهر بحرًا أيضًا، وهكذا كانت العرب تستكثر من أسماء الأشياء[1].

وكذلك الفاتحة لها عشرون اسمًا تقريبًا، منها: الكافية، والشافية، والفاتحة، وغير ذلك، فكانت العرب إذا أحبت شيئًا أكثرت من أسمائه.

فمع الفاتحة، الشافية، الكافية، التي هي في الصدارة من كتاب الله، وهي أول ما نجده عندما نفتح المصحف الشريف، وهي التي تعد ركنًا من أركان الصلاة؛ إذ لا بد عليك أن تقرأ الفاتحة في مذهب الإمام الشافعي، وإلا بطلت صلاتك؛ ولذلك تجد جميع المسلمين يحفظون الفاتحة.

ولما كانت الفاتحة مدخلًا للقرآن؛ كانت أيضًا مدخلًا للدعاء، ومدخل الدعاء نجده في حديث الرقية؛ إذ نزلت الصحابة على قبيلة أثناء رحلتهم، فوجدوا أن زعيم القبيلة لدغته عقرب، والعقرب به سم، فقاموا بما يستطيعون من العلاج، وقرأوا عليه الفاتحة فشفي، وذهب السم، ورجعوا إلى النبي ﷺ وقد أعطاهم الرجل شاة، فقال الصحابة: لا نأكل منها خوفًا من أن يكون ما صنعناه خطأ، فذهبوا إلى النبي ﷺ فقال: «**وَمَا أَدْرَاكُمْ أَنَّهَا رُقْيَةٌ**»[2] أي: من أطلعكم على هذا السر، ومن أعلمكم أن الفاتحة للدعاء، فأخذ العلماء من ذلك أن الفاتحة كما هي مدخل لكتاب الله، وكما هي مدخل للصلاة، فإنها مدخل الدعاء، والرقية في حقيقتها دعاء؛ ولذلك قالوا: العبرة فيها بالقارئ لا بالمقروء، فالمقروء عظيم -وهو كتاب الله-، ولكن هناك دعاء،

---

(١) حتى جمع الإمام الحافظ اللغوي المجد الفيروزآبادي صاحب «القاموس» كتابًا في ما كثرت أسماؤه، اسمه: «الروض المسلوف، فيما له اسمان إلى ألوف».

(٢) رواه البخاري في «صحيحه»: (٤/ ١٩١٣) كتاب فضائل القرآن، باب: فضل فاتحة الكتاب، و(٥/ ٢١٦٦) كتاب الطب، باب: الرُّقَى بفاتحة الكتاب، ورواه مسلم في «صحيحه»: (٤/ ١٧٢٧)، باب: لا بأس بالرُّقَى ما لم يكن فيه شِرك، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ٧٤٦)، وأبو داود في «سننه»: (٤/ ١٤) كتاب الطب، باب: كيف الرُّقَى. وغيرهم، كلهم عن أبي سعيد رضي الله عنه.

والدعاء يستجاب أو لا يستجاب، بحسب حال الداعي.

ولذلك عندما يكون لدينا مريض ونقرأ عليه الفاتحة فهذا دعاء، فإذا كان يقينك قويًا، وذكرتها مخلصًا من قلبك، وقلتها وأنت ملتجئ إلى الله؛ تجد أن الأثر ظهر، وشفي المريض.

فالرقية إنما هي دعاء، وهي رغم هذا لا تغني عن الذهاب إلى الطبيب، فاذهب إلى الطبيب وقل: يا رب، فأنت تذهب للطبيب وتأخذ الدواء، وتقول: اللهم اشفني، وتجري العملية الجراحية، وتقول: اللهم اشفني؛ فيستجيب الله -سبحانه وتعالى- للدعاء، أو يدخره لك، أو يؤخره؛ فإنه حكيم سبحانه وتعالى.

وبعض الناس يخلط ما بين هذا وذاك، ويرى أن الرقية في حد ذاتها كأنها طِبّ، وليس كذلك؛ فإن الرقية دعاء، والفاتحة مدخل للدعاء، ولما رأى المسلمون ذلك شاع في أقطارهم قراءة الفاتحة مدخلًا للعقود، حيث إنهم يقولون: نحن قَرَأْنَا الفاتحة، فهناك رجل يريد أن يخطب بنتًا ولم يستعدوا للخطبة فيقرأون الفاتحة، ومعناها: منع الناس عن أن يأتي لهذه البنت خاطب آخر، أي أنها نوع من أنواع الإعلان، كأنهم يقولون فيه: نحن شَرَعْنا في أمر الخطبة، لكنهم في الجزائر مثلًا يقرأون الفاتحة على عقد الزواج، فجعلوا الفاتحة بداية عقد الزواج وليس بداية الخطبة.

كذلك جعلها المسلمون توثيقًا لعقود البيع والشراء، فتجد الناس إذا اجتمعوا وأرادوا عمل عقد بيع يقرأون الفاتحة توثيقًا، وبدايةً باسم الله -سبحانه وتعالى-، وهذا لا بأس به ما دام قد استعمل في شيء دل الشرع عليه، أي أن النبي ﷺ وصحابته كانوا لا يفعلون هذا بالضرورة، ولكننا جميعًا نحفظ الفاتحة، ونريد أن نتبرَّك بشيء من القرآن، فنتبرَّك بما نحفظه جميعًا، وهو الفاتحة، وهل جعل الشارع الفاتحة مدخلًا؟ نعم، جعلها مدخلًا للقرآن، وجعلها مدخلًا للصلاة، وجعلها مدخلًا للدعاء، فإذا جعلناها مدخلًا للعقود ومدخلًا للبركة فلا مانع.

أما قوله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[1] فيدل على أن ما كان منه فهو سنة حسنة، ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[2]، ومعنى السنة الحسنة: أن تكون تنفيذًا لمنهج الدين، أي: لا نقف عند زمن من الأزمان، ولكننا دائمًا مع كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ نلتمس منهما منهج التفكير الشرعي.

ولذلك فقد رأى رسول الله ﷺ سيدنا بلالًا في الجنة، قال: «سمعت خشخشة نعليك في الجنة، فبم ذلك؟» قال: لا أدري يا رسول الله، إلا أني كلما أحْدَثْت توضَّأت، وكلما توضَّأت رَأَيْتُ أَنَّ لله عَلَيَّ رَكْعَتَيْنِ أُصَلِّيهِمَا. فقَالَ ﷺ: «بِهَا»[3]، فصارت سُنّة للوضوء ولم يذكرها له النبي ﷺ، ولا أمره بها، ولكن بلالًا هو الذي قام بها؛ لأنه فهم من الدين أننا نتبع منهجه.

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه»: (٢/ ٩٥٩) كتاب الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، ومسلم في «صحيحه»: (٣/ ١٣٤٣) كتاب الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، وابن حبان في «صحيحه»: (١/ ٢٠٧) باب: الاعتصام بالسنة، ذكر الزجر عن أن يحدث المرء في أمور المسلمين مالم يأذن به الله ولا رسوله، وأبو داود في «سننه»: (٤/ ٢٠٠) كتاب السنة، باب في لزوم السنة، وابن ماجه في «سننه»: (١/ ٧) في المقدمة، باب: تعظيم حديث رسول الله ﷺ، وغيرهم، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

(٢) رواه مسلم في «صحيحه»: (٤/ ٢٠٥٩) كتاب العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة، وابن خزيمة في «صحيحه»: (٤/ ١١٢) جماع أبواب صدقة التطوع، باب: استحباب الإعلان بالصدقة، وابن ماجه في «السنن»: (١/ ٧٤) في المقدمة، باب: من سَنَّ سُنّة حسنة أو سيئة. وغيرهم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) رواه بهذا اللفظ ابن حبان في «صحيحه»: (١٥/ ٥٦١) كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب: ذكر البيان بأن بلالًا كان لا تصيبه حالة حَدَث إلا توضَّأ بعقبها وصلَّى، من حديث بريدة رضي الله عنه، والروياني في «مسنده»: (٢/ ٢٧٧) من حديث أبي أمامة، ثم إن الحديث بلفظ: «سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ»، من حديث أبي هريرة: عند البخاري في «الصحيح»: (١/ ٣٨٦) أبواب التهجد، باب: فضل الطهور بالليل والنهار، وفضل الصلاة بعد الوضوء بالليل والنهار، ومسلم في «الصحيح»: (٤/ ١٩١٠) كتاب الفضائل، باب: من فضائل بلال رضي الله عنه، وابن خزيمة في «صحيحه»: (٢/ ٢١٣)، والنسائي في «السنن الكبرى»: (٥/ ٦٦)، وأبي يعلى في «مسنده»: (١٠/ ٤٩٠).

قال سبحانه:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ﴾

[الفاتحة: ١]

سورة الفاتحة شأنها عظيم جدًّا، وعندما تفتح المصحف تجد قوله تعالى: ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، وهذه بداية الرسالة، فتعرف أنها من عند الرحمن الرحيم.

وقد ذكرنا من قبل في مداخل هذا التفسير: أن أسماء الله الحسنى في القرآن أكثر من مائة وخمسين اسمًا، وفي السُّنّة مائة وأربعة وستون اسمًا، وعندما تحذف المكرر تجدها صارت مائتين وعشرين اسمًا، بعضها صفات كمال، وبعضها صفات جمال، وبعضها صفات جلال، فالاسم الكريم (الله) من صفات الكمال، وهذا الاسم الجليل (الله) لا وجود لمثله في أي لغة على وجه الأرض، ويدل بكله عليه سبحانه وتعالى؛ لأنه مكوَّن من ألف ولام ولام وهاء، فإذا حذفت الألف تصبح (لله)، وإذا حذفت اللام تصبح (له)، وإذا حذفت اللام الأخرى يتبقى الضمير (هو)، فلا إله إلا هو، فهو إذًا اسم كريم يدل بكله عليه سبحانه، ويشير إلى أن الله مقصود الكل، فهل هذا النمط موجود في أي لغة؟ فكلمة: (god) مثلًا في الإنجليزية عندما نحذف الـ(g) أو الـ(o) فهل تدل الـ(d) على شيء؟ أبدًا، لا تدل على شيء، فليس على وجه الأرض لغة تدل على كلمة (الله) بهذا الشكل، بالرغم من وجود ثلاثة آلافٍ وستمائة لغة على الأرض، شائع منها نحو ثمانٍ وعشرين لغة؛ لذلك أنزل الله القرآن بالعربية، فـ(بسم الله) كلمة جامعة عجيبة غريبة.

ثم إن الفاتحة وهي الشافية الكافية، هي المتصدرة، وهي الركن لصلاة المسلمين، وهي المدخل للقرآن الكريم مع (بسم الله الرحمن الرحيم).

وما دام هناك حرف جر في اللغة العربية؛ فلا بد من وجود فعل يتعلق به ذلك الحرف، كما يقول النُّحاة، فهو كتعلق الطفل بثياب أبيه، وكان المسلمون يتعاملون مع القرآن -لأنه محفوظ- على مستوى الحرف، وليس على مستوى الحرف فقط، بل على مستوى السمع والأداء لكل حرف.

فالباء حرف جر، وما دام حرفًا فيجب أن نقف قليلًا عند الحروف؛ لأن الكلام العربي ثلاثة أجزاء: اسم، وفعل، وحرف، وقد ذكرنا من قبل أن الحروف نوعان: حروف المباني، وهي التي أبني منها الكلمة، وحروف المعاني، ولكل حرف فيها معنًى ووظيفة.

وحروف المعاني على خمسة أنحاء: بعضها على حرف واحد، مثل: الباء في (بسم الله)، ومثل التاء والواو في (تالله)، و(والله)، فالتاء والواو والباء حروف، ومنها ما هو على حرفين مثل: عن، ومن، ومنها ما هو على ثلاثة أحرف مثل: إلى، وخلا، ومنها ما هو على أربعة أحرف مثل: لعل، فاللام الأخيرة مشددة فهي بحرفين، ومثل: حاشا، وهناك خمسة حروف مثل: لكنّ، ففي آخرها ألف لا تكتب، والنون بحرفين؛ فتصبح خمسة حروف.

فالباء في (بسم الله) من النمط الأول، ولها معان كثيرة؛ لأن حروف المباني تسعة وعشرون حرفًا بإضافة اللام ألف، أو ثمانية وعشرون حرفًا بدونها. أما حروف المعاني فتسعون حرفًا، كل حرف له معنًى، أو معنيان، أو ثلاثة، أو أربعة، أو تسعة، حتى يصل مجموع ذلك إلى ستة وخمسين معنًى، وقد جمع ذلك ابن هشام، وهو إمام النحاة في زمانه؛ فقد صنف كتابًا اسمه: «مغني اللبيب»، جمع فيه حروف المعاني، مع معاني كل حرف.

ولم تذكر جميع الحروف في القرآن، بل ذكر في القرآن عدد محدود، وأيضًا لم تذكر المعاني الستة والخمسون في القرآن، فذكر منها الأقل، فجاء القرآن لينقي لغة العرب،

وليصحح فكرهم، ويعلمهم التفكير المستقيم، ولو درسنا ما فيه من لغة لأصبح التفكير مستقيمًا، وهذا إعجاز فوق إعجاز.

فكتاب الله تعالى به جذور لغوية؛ إذ لدينا ثمانون ألف جذر في اللغة العربية، والقرآن به ألف وثمانمائة وعشرة من الجذور، مثل: ضربَ، وأكلَ، وشربَ، وعند قسمة ألف وثمانمائة وعشرة على ثمانين ألفًا؛ يصبح الناتج نحو ٢,٥٪ مثلًا، فيصبح القرآن ٢,٥٪ من لغة العرب، وهو يحافظ عليها، وهو يعلمك التفكير المستقيم، فهذا إعجاز؛ لأنه ليس الشأن بكثرة الكلام، ولا بالتكرار الممل أو المخل، وذلك أن الأديب الروسي (تولستوي)[1] ألَّف مرة رواية كبيرة اسمها: «الحرب والسلام» فقالوا عنه: إنه أديب كبير جدًّا؛ لأنه لم يكرر فيه أربع كلمات على طول الكتاب كله، فنقول: تعالوا إلى القرآن، كم كلمة فيه لم تتكرر رغم صغر حجمه؟ فيه ألف وستمائة وعشرون كلمة لم تتكرر، بل ذكرت مرة واحدة، من جملة ألف وثمانمائة وعشرة من الجذور، فهل هذا من عند محمد ﷺ؟! أبدًا والله، هذا والله من عند الله، وهل يستطيع أحد أن يفعل هذا؟! لا، بل لا بد في أسلوب الكاتب من تكرير لازمة عنده، وهذا من أجل أربع كلمات؛ قالوا عنه أديب الأدباء، نعم فسيدنا محمد ﷺ ليس أديبًا، إنه المبلغ عن ربه، إنه رسول الله، وإنما تلقَّى ذلك من ربه بإذن ربه؛ من أجل دعوة ربه، إلى خلق ربه سبحانه.

ونستخلص من هذه الحقيقة نقطة ثانية حول هذا الكلام، فنَعْرف أن الكتاب

---

(١) أديب روسي مشهور، من أعلام الأدب العالمي، ولد سنة ١٨٢٨م، وتوفي سنة ١٩١٠م، من أعماله الرواية الملحمية المشهورة: «الحرب والسلام» أصدرها سنة ١٨٦٩م، ورواية «آنا كارنينا» أصدرها سنة ١٨٧٧م، وكان يحترم شخصية سيدنا محمد ﷺ، حتى أصدر كتابًا بالروسية عنوانه: «حِكَمُ النبي محمد» صدر سنة ١٩٠٩م أي قبل وفاته بعام واحد، وكنتُ قد تتبعتُ أخبارَ هذا الرجل، ورأيت هذا الكتاب مترجمًا إلى العربية، وكان قد قرأ القرآن الكريم مترجمًا باللغة الفرنسية، وترجم له الأستاذ محمد فريد وجدي في «دائرة معارف القرن العشرين»: (٢/ ٧٠٣)، قلت: وقد ترجم له أيضًا: جولد ينفيزير في كتاب مستقل، اسمه: «بالقرب من تولستوي»، وترجم له طبيبه الخاص ماكو فينسكي في كتاب مستقل أيضًا، اسمه: «مع تولستوي»، وللدكتورة مكارم الغمري كتابة واسعة عنه، في كتابها: «مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي».

الكريم فيه ستة وستون ألف كلمة تقريبًا، وهذه الكلمات مَرَدُّها إلى ما لا يزيد على ألف وثمانمائة وعشرة من الجذور، فـ«ضَرَبَ» هذا جذر، تتفرع منه شجرة المشتقات، فيتأتى منه: ضارب ومضروب وضرَّاب ومضرب، إلى آخره، فلو أننا أتينا بجذور القرآن الكريم، أو الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم؛ لوجدناها ألفًا وثمانمائة وعشرة من الجذور اللغوية، بما في ذلك الأعلام، مثل: إبراهيم وإسماعيل وإدريس أيضًا؛ فإن هذه الأعلام تدخل معنا في هذا؛ لأن بعض الناس لا يعد الأعلام باعتبار أنها -أو أغلبها- أعلامٌ أعجمية، ولذلك تُمْنَعْ من الصرف؛ إذ العلم الأعجمي يمنع من الصرف، لكن لو عددنا أيضًا هذا وجعلنا له جذورًا؛ فإنه لا يزيد عن هذا العدد المذكور، فهذا هو القدر المقدس من اللغة.

ولو ذهبنا إلى السُّنَّة وفعلنا فيها مثل ذلك، وأحصينا جذور السُّنَّة النبوية، لوجدناها ثلاثة آلاف وستمائة تقريبًا، فكأنها ضعف ما في القرآن، والعجيب أن الألف والثمانمائة التي في القرآن موجودة في الثلاثة آلاف والستمائة أيضًا، فنستطيع أن نقول: إن ثلاثة آلاف وستمائة جذر تكفي للقرآن والسنة، حيث إن ما ورد في القرآن هو مضمَّن أيضًا في السنة النبوية الشريفة.

وهناك من اللغة ما يطرأ عليه الإهمال، ويطرأ عليه التغيير، وغير ذلك، لكن الذي به قِوامُ التفكير هو الثلاثة آلاف وستمائة جذر.

ولو أننا رأينا الدراسات الحديثة اللغوية، التي تُبين كيف نتعلم -مثلًا- لغة كالإنجليزية أو غيرها، وجدناهم يقولون: إن الإنسان يستطيع أن يتعلم أي لغة إذا أدرك منها ثلاثة آلاف جذر، وتسعمائة جملة مفيدة؛ فإنك تستطيع بهذا القدر أن تتكلم الإنجليزية أو الفرنسية أو الصينية أو العربية، وهذا القدر يكفي لتَعَلُّم اللغة وإتقانها، إذًا فلقد فُسِّرَ لنا عن طريق الدراسات اللغوية العامة كيف انتشر الإسلام؟ وكيف انتشرت اللغة العربية؟ إنها عن طريق القرآن، هذا القرآن الذي حُفِظَ وتُلِيَ

وفُسِّرَ، ودخل في الأتراك والأردو والملايو وغيرهم، فأصبحت اللغة العربية من خلال هذا القدر من الجذور لغة مقبولة، فلما أن أرادوا أن يتعلموها لم يجدوا عائقًا كبيرًا فيها، لكن مِن غير تعلم القرآن ومِن غير شُيوع السنة سيكون هناك عائق كبير جدًّا في تعلم اللغة العربية. إذًا الاهتمام بالقرآن يُفيد اللغة، واللغة تفيد الاهتمام بالقرآن، فهما يمثلان دائرةً واحدة لا تنفصل.

وقد نبهنا إلى أن اللغة باعتبار عدد حروفها، قابلة لتوليد خمسمائة مليون احتمال من الكلمات الثلاثية الأحرف، وهي نتيجة التباديل والتوافيق للحروف الثمانية والعشرين، والتي هي حروف المعجم العربي، ولكن الذي ورد أنه استعمل بالفعل هو الجذور المستعملة في «لسان العرب»، وعددها -كما ذكرنا- ثمانون ألفًا، وعندما نقارن اللغة العربية بالإنجليزية، فنقارن المعاجم العربية بمعجم «أكسفورد» مثلًا، نجد أن الكلمات التي تقابل ما عندنا نحو ثمانمائة وستين ألف كلمة، سوى الذي دخل في الإنجليزية من الجرمانية، والعربية، واللاتينية وغيرها، هذا في «أكسفورد» الكبير، الذي يبلغ نحو خمسة وعشرين مجلدًا، بينما الكلمات في «وبستر» لا تزيد على مائة ألف كلمة، وانتبه أننا نقول: (كلمة) لا جذر، والكلمات في «مايكل وبست» نحو أربعة وعشرين ألفًا، أما اللغة العربية فقد ذكرنا أن «لسان العرب» اشتمل على ثمانين ألف جذر، منها ثلاثون ألف جذر في «المعجم الوسيط» الذي أصدره مجمع اللغة العربية في مصر، وأما «القاموس المحيط» ففيه نحو أربعين ألف جذر تقريبًا.

إذًا قوله تعالى: (بسم الله الرحمن الرحيم) الباء حرف جر يفيد المصاحبة، فلا بد من تقدير فعل يتعلق به حرف الجر هذا، فما معنى التعلق؟؟ معناه أن العرب تكلمت بالفعل والفاعل والمفعول، مثل: (زرع الفلاح الحقل)، فيعربون الحقل مفعولًا به للفعل زرع، فهذه الزراعة يجب أن تتم على شيء وهو الحقل، والفلاح هو الذي قام بالزراعة، وهناك المفعول المطلق المؤكد مثل: (أكلَ أكلًا) فيسمونه: المفعول المطلق، ومثل: (قمت لأستاذي احترامًا)، فيسمونه: المفعول لأجله، فكأنه قيل: لم قمت؟

قلتَ: احترامًا، وإجلالًا لذوي الفضل؛ إذًا هناك مفعول مطلق، ومفعول به، ومفعول لأجله، فهل هناك في اللغة العربية مفعول إليه؟؟ أي أن نقول مثلا: ذهب الطالب المدرسة، قال العلماء: لا يوجد؛ لأن العرب قامت بدلًا عن ذلك بشيء مهم، ألا وهو أن نحضر لفظة حرف يتعلق بذلك الفعل ويوصل إلى المفعول، فنقول: إلى المدرسة، أو: وضعت الكتاب على المنضدة؛ لأنه ليس هناك مفعول إليه، ولا مفعول عليه.

فجاءوا بالحروف لتحل محل المفعولات، فالحقل أو الأكل هو عبارة عن مفعول، بمعنى أن الفعل ارتبط به ووقع عليه؛ ولذلك فإن المدرسة هي التي ذُهِبَ إليها، والمنضدة هي التي وضع عليها الكتاب؛ ومن أجل ذلك تعلقت الحروف بالأفعال، ولذلك فإنني عندما أرى أمامي حرفًا من الحروف؛ أنتبه إلى تقدير فعل. فعندما يُذكر قوله سبحانه: (بسم الله الرحمن الرحيم) يجب أن أحضر فعلًا قبلها، فأقول: أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، فهل من الممكن أن أقول: أبدأ بسم الله الرحمن الرحيم، وهل من الممكن أن أقول: بسم الله الرحمن الرحيم أبدأ، أو أقرأ؟ نعم يمكن ذلك.

إذًا من الممكن أن أُقَدّر فعلًا عامًّا، فأقول: بسم الله الرحمن الرحيم أبدأ، قبل شروعي في الأكل، أو أقول: آكل بسم الله الرحمن الرحيم، وهذا فعل خاص، ويمكن أن يكون قبلها أو بعدها، فلي أن أقدر فعلًا عند قراءة بسم الله الرحمن الرحيم، هذا الفعل قد يكون مقدمًا أو مؤخرًا، عامًّا أو خاصًّا.

فـ(بسم الله الرحمن الرحيم) أبدأ بها في كل أمر، كالمأكل والمشرب وما شابه، لكن لا نبدأ بها في الحرام، فاللص عندما يسرق فيقول: (بسم الله)؛ فإنه يحاسب حسابين: يحاسب على السرقة، وعلى أنه استعمل هذا الاسم الكريم في غير موضعه، بل في موضع مناقض لمقصوده، والغزالي يقول: لا حرج عليه؛ لعله أن يتوب عند ذكر الله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾[1]

---

(١) سورة العنكبوت، آية [٤٥].

فإن ذكر الله أكبر من الصلاة؛ لأنه ينهى عن الفحشاء والمنكر، وقال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[1] أي: لعل الله -سبحانه وتعالى- أن يَمُنّ عليه بالعودة من هذا الإثم.

فيكون معنى قولنا: (بسم الله) هو: أبدأ بسم الله، أو: أقرأ بسم الله، وأيضًا أقرأ بسم الله، معناها: مصاحبًا اسم الله، أو متبركًا بسم الله؛ لأن الباء حرف له معنًى، أي: أبدأ القراءة وأنا أتبرّك أن أذكر أول ما أذكر اسم الله، وكل هذا الكلام موجود في الباء؛ لأن الباء حرف من حروف المعاني، وحروف المعاني لا بد لها من تعلق بفعل؛ لأن أصل اللغة هكذا، فلا بد من تقدير فعل، ولك أن تقدره خاصًّا أو عامًّا، كأن تقول: أبدأ بسم الله، ولكن، لم يقل ربنا: أبدأ أو أقرأ، نقول: ولكن الباء ذكرتها. وهذا فائدة كون هذا القرآن عربيًّا، أي: لا بد أن تقرأه بلغة العرب، وأن تفهمه وفق لغة العرب؛ حتى تدرك مقاصده، فما الذي جعل هذا القرآن يبني أهل العربية الأولى بأكثر مما قد بنانا، هو العلم بالعربية؛ لأنهم كانوا علماء بالعربية، فتلذذوا بالقرآن، وعرفوا قيمته فآمنوا، وكلما جهل الناس اللغة؛ ابتعدوا عن كتاب الله تعالى.

وأما كلمة (اسم)، فإن همزته همزة وصل، ومن شأنها أن تسقط في الوصل، وهناك عشر كلمات في اللغة العربية همزتها همزة وصل، ورد بها السماع من العرب، ومعناها أن نقول: (بسم) وليس (بإسم)، فسقطت الهمزة هنا عند الوصل، وتسقط الهمزة أيضًا مع بقية الأسماء العشرة السماعية موصولة الهمزة، وقد ورد منها سبعة في القرآن، ففي القرآن: (اسم، واثنان، واثنتان، وابن، وابنة، وامرؤ، وامرأة) والثلاثة الباقية: (ابنم، واست، وايْمُ) وهذه لغات مهجورة.

وقد ذكرنا قوله تعالى وهو يفتتح الكلام، ويرسل الرسالة، ويكلم البشر: (بسم الله الرحمن الرحيم) والباء لا بد أن تتعلق، أي: ترتبط بفعل، فكأنك تقول: أقرأ، أو

---

(١) سورة الأعراف، آية [٢٠١].

أبدأ تلاوتي بسم الله، فما معنى الباء؟ قالوا: معناها المصاحبة، أي أن نحذفها ونضع مكانها كلمة المصاحبة أو ما يشتق منها، كأن أقول: أقرأ أو أبدأ مصاحبًا اسم الله، فهذا معنى أن الحرف له معنًى، أي: أن تضع المعنى مكان الحرف فتجد الكلام قد استقام.

فمعنى (بسم الله الرحمن الرحيم) أنني أقرأ وأبدأ تلاوتي أو أكلي وغير ذلك مصاحبًا اسم الله تبركًا؛ ولذلك أتبرك بها في ابتداء الكلام، والبركة تعني النماء، وتعني أن يصبح التراب في يدك ذهبًا؛ لشدة نشاطك في عملك، بما يعود عليك وعلى المجتمع بالغنى والكفاية؛ لما حصل عندك من البركة، وتعني أن قليل الطعام يشبعك، وتعني أنك عند الزواج تقول: بسم الله؛ فيبارك الله لك في زوجتك، وتعني أن المرأة تقولها عند الولادة؛ فتنجب طفلًا فيه بركة، فيكون بارًّا بوالديه، غير عاق لهما، وإنما تكون فيه بركة بأن يكون على درب الله، وطريق الله، ولا يكون شيطانًا، مفسدًا في الأرض، متعبًا لوالديه والمجتمع، وهكذا.

إذًا البركة شيء مهم، قد نفتقده في كثير من المجالات؛ للعصيان الذي يقع فيها، فتنزع البركة، ألا تسمع الناس يقولون: حصلت البركة، فما معنى حصلت البركة؟ معناها: أنه بوجودك تم الصلح، أو بوجودك حدث النماء، أو بوجودك وُفّق العمل، أو بوجودك صلح الحال.

فعند فك الباء وحذفها وإحضار معناها؛ نجده للمصاحبة، وفائدتها التبرك، ولأنه حرف جر؛ فإنه يقتضي فعلًا، وقدرناه (اقرأ) مثلًا، ولأنه له معنًى؛ فإنه المصاحبة، ولأن لازم المصاحبة مع اسم الله في هذه الحالة هو البركة؛ فإنه شيء مبارك، ويصبح معنى العبارة: أبدأ عملي هذا مصاحبًا اسم الله من أجل البركة، وهل كل هذا الكلام موجود أمامنا؟ الجواب: نعم موجود، فلماذا لم نستحضره في أذهاننا؟ لأننا لم نستحضر العربية، فإن هذا كلام عربي، والعربي الفصيح إذا قال: (بسم الله الرحمن الرحيم) فهم منها: أبدأ عملي هذا مصاحبًا اسم الله لتحصل البركة.

ثـم كلمة (اسم) مـا معناهـا؟ قلنا: جـاءت بطريقة من طريقتين، ففي اللغة العربية إما أن ترجع الكلمة إلى جذر واحد وأصل واحد، أو أن ترجع إلى أصلين، وسنرى في القرآن الكريم معًا أمثلة كثيرة لذلك، وعمق المعنى يختلف، فكلمة اسم هل ترجع إلى أصل واحـد، أو إلى أصلين؟ قد تكون من هذا وقد تكـون من هـذا، وهذا من سعة القرآن؛ لأنه فيه ألفًا وثمانمائة وعشرة من الجذور، وقد صنع مجمع اللغة العربية معجمًا للقرآن ذكر فيه ألفًا وسبعمائة وتسعين؛ لأنه أهمل الأعلام، ومعجم المجمع موجود، صدر في الخمسينيات، يقول فيه: إن الجذر يكون له معنًى أو معنيان أو ثلاثة، وربما جاءت الكلمة من هذا الجذر، أو من جذر لغوي آخر.

فكلمة (اسم) اختلف فيها العلماء، قد تكون من السمو، أي: العلو؛ لأن اسم الإنسـان أشرف شيء فيه، وهـو أكثر شيء يستعمله، لـدرجـة أننـا عنـدمـا نحب أن نداعب شخصًا نقول: إنه نسي اسمه، أي أنه شيء عجيب أن ينسى الشخص اسمه، وكذلك يقولون: إنه يحفظ الشيء كما يحفظ اسمه، يعنون شدة الحفظ، كما يقولون: فلان يحفظ القرآن كما يحفظ الفاتحة، يريدون شدة الحفظ.

وإذا شتم أحـد أحـدًا فإنه يأتي باسمه ويشتمه؛ فيكـون أهانه، ولـذلك تجد الناس بمراكش عندما ينادون ولدًا اسمه محمد؛ يقولون له: (سيدي محمد)، حتى ولـو كـان ابنه وهـو يضربه، فإنه يضربه وهو يخاطبه باسم: (سيدي محمد)؛ تعظيمًا للاسم الكريم.

وكلمة (اسـم) أيضًـا قد تكـون من: السمة، أي: العلامـة؛ لأن الاسم علامة الإنسان، واسمه كصورته بالضبط، فإذا ذكر اسم الشخص في المحافل عرف به؛ لأنه علامـة عليه، واسم الله دال على الله -سبحـانه وتعـالى-، والله هـو الذات الـواجب الوجود، المستحق لجميع المحامد، وهو سبحانه رب مخالف لهذه الأكوان، والرب رب والعبد العبد، وهنـاك فارق بين المخلوق والخالق، ولفظ (الله) دال على الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك نكتبه وننطقه.

والفاتحة هي التي قال فيها العلماء: إن الله قد جمع فيها علوم الأولين والآخرين، وكأنهم يعنون بذلك أنه قد جمعت فيها قضايا الإنسان، وهدف الإنسان في الحياة، وطريقة مخاطبة الإنسان لربه، فبعض الأديان تقول: الحمد لله الذي خلقني ذكرًا ولم يخلقني أنثى، أي: كأن المرأة لا تصلي عندهم، لكن الفاتحة شيء عالٍ جدًّا، يقرأها الصغير والكبير، والمرأة والرجل، والقوي والضعيف، والغني والفقير، ويشعرون فيها بأحاسيس ومشاعر ربانية.

فنبدأ قراءتنا مصاحبين على سبيل التبرُّك اسم الله، الرحمن الرحيم؛ لأنه قد غلبت رحمته غضبه، وسبقت رحمته عذابه، وهو سبحانه وتعالى إذ يكلمنا ويخاطبنا ويكلفنا، فإنه يكلفنا بالرحمة، لا يكلفنا بالعنت، ولا بالضيق ولا بالحرج ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾[1].

وقد اختار سبحانه هنا ثلاثة من الأسماء الكريمة الجليلة، وهي: (الله)، و(الرحمن)، و(الرحيم)، وقد ذكرنا سابقًا: أن الاسم الجليل (الله) فيه ما فيه من عجائب، أما (الرحمن الرحيم) فقد كررها سبحانه؛ من أجل أن تعلم أن الله قد واجهك بصفات الجمال؛ لأنه إذا قال: (الرحمن) جاز أن يكمل ويقول: (المنتقم)، ولكنه ذكر: (الرحيم) ليعلمك أنه رحمن ورحيم.

قالوا: فلم أعدتم الرحمن الرحيم، وذكرتموها مرتين؟ قلنا: الذي أعاد هو الله، ونحن لا نعيد ولا نزيد؛ لأنه لا يستطيع أحد من البشر أن يفعل مثل هذا، أيضًا لِم لَم يأت بصفة من صفات الجلال؟ لأنه يواجه الخلق برسالة هي الرحمة، ويعلمنا أن نظام الأكوان يقوم على الرحمة، وأن السر الذي تنتظم به المجتمعات ويبنى عليه هذا الدين هو الرحمة.

---

(١) سورة الحج، آية [٧٨].

ثم قال سبحانه:

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾

[الفاتحة: ٢]

فالحمد هو الثناء، والعرب كانت تحب للغتها أن تكون واسعة، ولها جَرْس ووقع، فيقولون: (الثناء) ويريدون المدح بخير، ويقولون: (النثاء) بتقديم النون، ويريدون الذم بالشر، فثناء بتقديم الثاء: مدحٌ بخير، وبتقديم النون: ذِكرٌ بِشَرٍّ.

كانوا يحبون للغتهم أن تكون لطيفة، فيها خصائص قد لا توجد في لغة غيرها، وإذا وجدت في لغة أخرى كانت باهتة، أما اللغة العربية -لسعتها ولتمكنها، ولجذورها، وللاشتقاق الكبير فيها، ولأحوالها النحوية والصرفية والأسلوبية؛ فأنزل الله تعالى الكتاب بها، بالإضافة إلى أنها لغة المخاطبين الذين جاء منهم النبي ﷺ، وكلفهم الله فيما كلفهم بالدعوة إليه، فقال سبحانه: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾[1].

ولكي تقرأ القرآن وتفهمه؛ لا بد من أن تقف على كل حرف فيه، ولا تقرأه كقراءة الصحيفة، بحيث تمر نظرك على المقال من أوله إلى آخره دون تأمل؛ فإن هذا يصنع عقلية هشة، غير قادرة على الاستيعاب والإحاطة، والنظرة الشاملة المتدبرة، لكن الطريقة الدقيقة التي تصنع العقل هي أن تقف عند كل كلمة وعند كل حرف، فتقول: (ال) وتقف، وتسأل ما معنى (ال) هذه؟ قالت العرب: إن (ال) وظيفتها التعريف، فالكلام منه: حَمْد، ومنه: الحمد، ومنه: حُسْن، ومنه: الحسن، فهذه نكرة، وهذه المعرفة، هذا عن وظيفة (ال)، لكن ما معناها؟ جاز أن تحملها على معنى

---

(١) سورة النحل، آية [١٢٥].

الاستغراق، فما معنى الاستغراق؟ معناه: أن تحذفها وتضع مكانها (كل)، وللإمام الكبير تقي الدين السبكي[1] -رحمه الله- كتاب، اسمه: «أحكام كل، وما عليه تدل»، فنقول: (ال) بمعنى كل، وهي تفيد الاستغراق، فيكون معنى (الحمد لله) هو: (كل حمد لله)، ويصح به المعنى، أي كل أنوع الحمد لله، فهل للحمد أنواع؟ نعم، هناك حمد يرجع إلى الذات، من حيث كون تلك الذات تستحق الثناء والتعظيم والتبجيل، وهناك حمد يرجع إلى ما سبق من العطاء والإنعام، وهناك حمد يرجع إلى دفع المكاره والمصائب، وجميع أنواع المحامد واجبة لله تعالى، ثابتة له.

ثم هناك حمد ربنا سبحانه لذاته، أي: حمد قديم لقديم، ومنها: حمد قديم لحادث، مثل ثناء الله تعالى على سيدنا محمد ﷺ، فربنا سبحانه مدحه وزكاه، ورفع قدره، وأعلى ذكره، فمدح الله تعالى للبشر يكون مَدْحَ قَدِيْمٍ لحادث، فحادث معناها: أنه كان بعد أن لم يكن، ثم منها: حمد حادثٍ لقديم، مثلما تقول أنت: (الحمد لله)، ومنها: حمد حادث لحادث، كثناء البشر والناس بعضهم على بعض.

إذًا قد تكون (ال) للاستغراق، أي أنها استغرقت أنواع الحمد وصوره وأحواله، فيكون المعنى: كل المحامد لله تعالى، فهذا معنًى حسن، يليق به سبحانه، أن كل حمد هو لك يا رب، صدر منا أو من غيرنا، حتى إننا إذا شكرنا أحدًا من الخلق، فالحمد الأصلي يكون لله.

وقد تكون (ال) للجنس، فما معنى الجنس؟ هو مادة الشيء، فمادة هذه الجبة القماش، وليس الخشب ولا الحديد ولا الورق، ومادة هذا الكرسي الخشب، فالجنس

---

(١) هو شيخ الإسلام، الإمام الحافظ، الأصولي الفقيه المجتهد، تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي ت ٧٥٦هـ، من أفراد الأئمة علمًا وجلالة وحفظًا، ترجم له ولده الإمام المجتهد المدقق الحافظ تاج الدين السبكي في آواخر جمهرته الماتعة: «طبقات الشافعية الكبرى»: (١٠/ ١٣٩-٣٣٨)، وابن حجر في «الدرر الكامنة»: (٣/ ١٣٤-١٤٢)، وللأستاذ محمد الصادق حسين كتاب، اسمه: «البيت السبكي» تتبع فيه أعيان البيت السبكي وأعلامه، وترجم لهم، وهو مطبوع.

معناه مادة الشيء، فمادة الحمد لله، أي: جنس الحمد لله، وانتبه إلى أن ما نقوله هنا وارد في كل (ال) في القرآن، لكنها أحيانًا تصلح للاستغراق، وأحيانًا للجنس، أو لغير ذلك مما سيأتي، وهكذا، فنحن هنا نؤسس؛ لتكون معنا قواعد نفهم بها القرآن.

فـ(ال) قد تكون للاستغراق، وقد تكون للجنس، وقد تكون أيضًا للعهد، فما معنى العهد؟ معناه المعلوم بيني وبينك، ومعنى العهد: ما عهدتُه أنا وعهدتَه أنت معي، فمثلًا عندما نتكلم أنا وأنت عن شخص معين، وفجأة يدخل علينا ذلك الرجل الذي كنا نتكلم عنه؛ فأقول لك: إن هذا الرجل... وتكمل الحديث، أي ذلك الرجل المعهود الذي كنا نتكلم عنه، فالألف واللام هنا للعهد الذي بيني وبينك، والذي كنا نتكلم عنه، أي: أنني لا أريد لأحد غيري وغيرك أن يعرفه.

فالألف واللام قد تأتي للعهد، ثم قالوا: والعهد نوعان: عهد حضوري، أي حاضر بين أيدينا، وعهد ذهني، إذًا (ال) على أربعة أنواع: إما أن تكون للاستغراق، وإما للجنس، وإما للعهد الحضوري، أو للعهد الذهني، فالألف واللام تصح أن تكون على كل هذه الأنواع.

تكلمنا إذًا عن قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فقلنا: إن الألف واللام تأتي في لغة العرب إما للاستغراق، أي: كل الحمد لله، وإما للجنس، أي: مادة الحمد، وإما للعهد، أي: الحمد المعهود المعروف بيني وبينك.

فالحمد هذا عبادة، وعندما تقول: (الحمد لله) تكون قد قمت بعبادة، وقد قمت بعمل خير صالح، فأنت موفق، ومن الذي وفقك؟ إنه الله، وعندما يوفقك الله ينبغي عليك أن تحمده، وبمجرد أن تقول: الحمد لله كان ينبغي عليك أن تقول: لك الحمد يا الله، أنك وفقتني أن أقول: الحمد لله، فلو فعلت هذا تكون قد قمت بعبادة تستوجب حمدًا آخر، فلو جلست طوال يومك تقول: الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله؛ فإن كل واحدة منها تدل على توفيقٍ في التي قبلها، فما الحل؟ هو أنك تعرف أنك

عاجز عن القيام بحق الله، فأخرجنا رسول الله ﷺ من هذه المشكلة، والتي هي العجز عن حمد الله، فيقول رسول الله ﷺ: «**لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ سُبْحَانَكَ**»[1] فهذا هو إظهار العجز، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فانظر إلى كرم الله الذي وهبنا كل هذه النعم، ثم رضي منا هذا القدر الضئيل من الحمد، وانظر كيف أن رسول الله ﷺ عظيم، وهو يخرجك من ورطة العجز، فهذا هو معنى الحمد الذي هو للعهد، فالمعنى: الحمد لك كما حمدك نبيك، هذا عن الحمد.

ثم قولنا: (لله) فاللام في لغة العرب من حروف المعاني التي تكلمنا عنها، فماذا تعني؟ قالوا: تأتي اللام في لغة العرب للملك، فتقول مثلًا: (لي كتاب) أي أملك كتابًا، وتكون أيضًا للاختصاص، وهذا لأنني عاقل، فلما قلت: (هذا الكتاب لي) كانت العلاقة بيني وبين الكتاب هي الملك، فهل الكرسي مثلًا ممتلك لأرجله؟ لا؛ لأن الكرسي لا يمتلك، ولأنه شيء يُملَك لكن لا يَملِك، فتكون العبارة هنا: (رِجل للكرسي) وقعت فيها اللام للاختصاص، وعندما نقول: (كتاب للرجل) تكون للملك، فالفرق بين الاختصاص والملك أن الطرفين هناك أشياء، لكن هنا إنسان وشيء. واللام تأتي لمعان أخرى، فتأتي أيضًا لأدنى ملابسة بين شيئين، فتدخل في ذلك أشياء كثيرة، فتقول: (صلاة لليل)، فالصلاة فعل والليل زمن، فما المعنى؟ قال: هي لأدنى ملابسة، واللام هي التي تحل محل الإضافة، كأنك قلت: صلاةُ الليلِ، ويمكنك أن تقول: (في الليل) وتكون (في) للظرفية، فقولك: الحمد لله، أي مملوك لله؛ لأنه سبحانه ملك الملوك، ولأنه يملكنا، ويملك أفعالنا، ويملك حمدنا، بل هو الموفق له.

ثم هل يجوز أن يكون المعنى: هذا الحمد متوجه لله، أو أنه مقصور على الله؟

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه»: (١/ ٣٥٢) كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، وابن حبان في «صحيحه»: (٥/ ٢٥٨)، وابن خزيمة في «صحيحه»: (١/ ٣٢٩)، وأبو داود في «السنن»: (١/ ٢٣٢) وغيرهم، عن عائشة رضي الله عنها، ثم هو من حديث علي بن أبي طالب: عند الحاكم في «المستدرك»: (١/ ٤٤٩) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وكذا هو عند الضياء المقدسي في «المختارة»: (٢/ ٢٥١)، وعند البيهقي في «السنن الكبرى»: (٣/ ٤٢).

ومعنى الكلام: الحمد لا يكون إلا لله، فهذه أفضل وأجمل؛ لأن فيها إظهارًا للعجز، وعندما تقول: الحمد لله، بمعنى أنه مقصور لله وحده، ولا يكون لغيره، فيكون المراد هو الحمد الحقيقي الكامل، فتتناسب مع كون الألف واللام للاستغراق.

ذكرنا إذًا: أن (الحمد لله) تعني أن كل الحمد، بأنواعه المختلفة، وأقسامه، وأجناسه، مختص بالله -سبحانه وتعالى-، والله -سبحانه وتعالى- يملك العبد وعمله، وهو الذي كلف، وهو الذي أمر، وهو الذي يقبل التوبة من عباده.

وكلمة (رب) فيها نوع من أنواع الرعاية والعناية، ونوع من أنواع النمو والتزكية؛ ولذلك يطلق الرب في لغة العرب على نحو عشرين معنًى، فيطلق على (الرجل) أنه رب البيت؛ لما يتصف به من سعي على الأرزاق، ومن وجوب النفقة عليه، ومن الرعاية والعناية، والقوامة المكلف بها لأهله وأولاده، فالرجل الذي هو بهذه الصفة يكون ربًّا للبيت.

و(الرب): المربي، ولو لم يكن أبًا أو أمًّا، لماذا؟ لأنه يعتني بمن يربيه، ولأنه يرعاه، مِن باب: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[1]، ولأنه يرعى مَن تحته.

و(الرب): بمعنى الحاكم، والملك، والرئيس؛ فالرب بمعنى الحاكم؛ لأنه راعٍ

---

(١) ورد الحديث من مسند جماعة من الصحابة، منهم: عبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وأبي لبابة بن عبد المنذر، وأبي موسى رضي الله عنه، أما حديث ابن عمر رضي الله عنهما: فقد رواه البخاري في «صحيحه»: (٥/ ١٩٨٨) كتاب النكاح، باب: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾، ومسلم في «صحيحه»: (٦/ ٧)، كتاب الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، وأبو داود في «سننه»: (٣/ ٩١)، باب: ما يلزم الإمام من حق الرعية، والترمذي في «سننه»: (٤/ ٢٠٨)، باب: ما جاء في الإمام، وابن حبان في «صحيحه»: (١٠/ ٣٤٢)، ومالك في «الموطأ» رواية محمد بن الحسن: (٣/ ٥٠٣)، وأحمد في «مسنده»: (٨/ ٨٣)، والبزار في «مسنده»: (٢/ ٢١٩)، وأبو عوانة في «مسنده»: (٤/ ٣٨٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى»: (٧/ ٢٩١)، وفي «شعب الإيمان»: (٦/ ١٢)، والطبراني في «الأوسط»: (٤/ ٢٩٩)، و (٧/ ٧٠)، وفي «الكبير»: (١١/ ٢٣٣)، وأما حديث أنس رضي الله عنه: فقد رواه الطبراني في «الأوسط»: (٤/ ٤٧)، وفي «الصغير»: (١/ ٢٧٣)، وأما حديث أبي لبابة رضي الله عنه: فقد رواه الطبراني في «الأوسط»: (٤/ ١٧٠)، بزيادة في أوله: أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الجنان التي في البيوت، وقال: كلكم راعٍ... إلخ، وأما حديث أبي موسى رضي الله عنه: فقد رواه الطبراني في «الأوسط»: (٦/ ١١٠)، وفي «الكبير»: (٢٠/ ١٨٨).

ومسئول عن رعيته، ثم إن كثرة الاستعمال بهذه الصورة، هل تجعل لكلمة (رب) معاني مختلفة؟ أو أنها كلها تعود إلى الرعاية والعناية؟ فيقول بعض العلماء: معانيها جميعًا ترجع إلى الرعاية والعناية، فيجب لكل كلمة أن يكون لها معنًى جامع، وبعض العلماء يقول: ليس كذلك؛ بل هناك فرق بين الحاكم، وبين المربي، وبين الرب، وبين كل هؤلاء كبشر وبين الله.

فما معنى أسماء الله التي تطلق على الناس وعلى الله تعالى؟ قال الإمام الغزالي: هي من قبيل المشترك اللفظي، فما هو المشترك اللفظي؟ قال العلماء: حقائق مختلفة تمامًا، بحيث إنه لا علاقة بين هذا وذاك إلا اللفظ، فكلمة (عين) تعني: بئر، وتعني: جاسوس، فما العلاقة بينهما؟ لا علاقة، فهذا مشترك لفظي.

بل قد يطلق المشترك اللفظي على معنيين من الأضداد، مثل: (السليم) فهو الذي لدغته العقرب، وهو أيضًا الشخص السليم الصحيح، فتطلق السليم على الصحيح والمريض[1]، إذًا عندما نطلق على الله تعالى أنه: (رحمن) فهذا من الألفاظ التي لا يجوز أن نطلقها على أحد من البشر، لدرجة أن مسيلمة الكذاب عندما أراد أن يتفاخر؛ أطلق على نفسه: رحمن اليمامة، فلما أن تجرأ ووصف نفسه بوصف من أوصاف الحق -تبارك وتعالى- عاقبه الحق سبحانه بأن جعل الناس كلهم يصفونه بالكذاب، فلا يُعرفُ ولا يذكر إلا بهذا الوصف الذميم.

لكن (رحيم) يمكن أن نطلقها على البشر، وقد قال تعالى في حق النبي ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، ويمكن أن أقول لأي إنسان: إنك رحيم، فما هي الرحمة؟ الرحمة شفقة في القلب، وهل الله تعالى كالبشر؟ بالطبع لا؛ فالرب رب، والعبد عبد،

(١) وقد جمع الإمام أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ت٣٢٧هـ كتابًا كاملًا في تلك الألفاظ، التي تستخدم في المعنى ونقيضه، والمعروفة بألفاظ الأضداد، اسمه: «كتاب الأضداد» وهو مطبوع بتحقيق الأستاذ محمد أبوالفضل إبراهيم، ضمن «سلسلة التراث العربي» الصادرة في الكويت، كما أُلِّفت في الأضداد مؤلفات أخرى كثيرة.

(٢) سورة التوبة، آية [١٢٨].

وهناك فارق بين المخلوق والخالق، فإطلاقها عليك من قبيل شفقة القلب، لكنها في حق الله تعالى تعني: أنه قد وسعك برحمته، لا أن له قلبًا شفوقًا، تعالى الله عن ذلك، وهو سبحانه منزه عن هذا، فالله هو الذي رعانا بعد ما خلقنا، ورزقنا فاعتنى بنا ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(١) فالله -سبحانه وتعالى- كريم، يعطينا من نعمه ويُرَبِّينا.

وقد عرف المسلمون أحوالًا رأوا فيها في الناس قابلية للربانية، أي أن هناك فطرًا سليمة، تكون قابلة للصلاح والإصلاح، فكانوا يقولون عليه: (رباه ربه)، أي أن ربنا سبحانه هو الذي رباه، يريدون أن هذا الشخص صار شخصًا منورًا، صاحب بصيرة وصلاح، وقد فتح الله عليه، رغم أنه لم يلق عناية كبيرة من البشر، بل في فطرته وسجيته ونحيزته ما يجعله مهيأً للصلاح والإصلاح.

ومنه القول الشائع: (أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي)(٢) وهو ليس بحديث، ولكن معناه صحيح، فالذي قال هذه العبارة قالها من واقع رؤيته لحال النبي ﷺ، رغم أنه ﷺ لم يقل هذه العبارة، فلِمَ لَمْ يجعلها المسلمون من كلام رسول الله ﷺ؟! نقول: المسلمون أهل توثيق، ليس عندهم الخرافات والأساطير التي في أذهان الناس

---

(١) سورة الشعراء، آية [٨٠].

(٢) هذه العبارة رواها العسكري في كتاب «الأمثال»، وذكرها ابن الأثير في خطبة كتاب «النهاية»: (١/ ٣) عن علي رضي الله عنه، وقال الحافظ ابن حجر في فتاوى له في الحديث، آخر كتاب «الإمتاع، بالأربعين المتباينة بشرط السماع» له (ص٩٧) عن طريق العسكري: (سنده غريب)، فتعقب ذلك تلميذه الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص٢٩) قال: (وسنده ضعيف جدًّا، وإن اقتصر شيخنا على الحكم عليه بالغرابة في بعض فتاويه)، قلت: ثم توسَّع السخاوي في تتبع طرقه ومخارجه؛ إذ قد رواه أيضًا الحافظ أبو سعد ابن السمعاني في «أدب الإملاء» عن ابن مسعود رضي الله عنه، لكن سنده منقطع، ورواه ثابت السرقسطي في كتاب «الدلائل»، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤/ ٧) من حديث جد محمد بن عبد الرحمن الزهري بسند واه، وقد ختم السخاوي كلامه عليه بقوله: (وبالجملة فهو كما قال ابن تيمية: «لا يعرف له إسناد ثابت»)، قال كاتب هذه السطور: وابن تيمية وإن قال ذلك، إلا أنه أقر صحة معناه؛ قال في «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٣٦): (معناه صحيح، ولكن لا يعرف له إسناد ثابت)، وقال الزركشي: (معناه صحيح، لكن لم يرد من طريق صحيح) نقله المناوي في «فيض القدير» (١/ ٢٢٥)، وكذا الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص٣٢٧)، وقد أغرب الحافظ أبو الفضل ابن ناصر فقال بصحته، نقله عنه الحافظ السيوطي في «الدرر المنتثرة» (ص١١)، وانظر أيضًا: «كشف الخفا» للعجلوني (١/ ٧٢)، و«المداوي، لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي» للحافظ الناقد أحمد بن الصديق الغماري (١/ ٢٤٩).

أبدًا، بل شرعهم محفوظ كلمة فكلمة، ويقوم دينهم على حفظ مصادر الشرع وأصوله، فلا يدخل فيها ما ليس منها، وإن كان معناه جميلًا جليلًا، ولا يخرج منها ما هو منها، وقد أنشأ المسلمون علومًا كاملةً للتوثيق والتثبت، ونقل المرويات دون أدنى خلل ولا تحريف.

وقوله سبحانه: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وقف العلماء عند كلمة (العالمين)، ما معناها؟ هل هي ما سوى الله؟ أو هي جمعٌ لعالم؟ وأنت عندما تقف أمام القرآن معك اللغة، واللغة واسعة، حتى قال الإمام الشافعي في شأنها: (لا يحيط باللغة إلا نبي) وهذا المعنى هو الذي سيجعل القرآن لا تنتهي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، وهو الذي يجعل القرآن كلما ازداد السقف المعرفي للناس؛ قُبِل ما في القرآن من علوم تهدي الإنسان في حياته إلى سواء السبيل، وليس المراد به تفصيل العلوم الكونية، مع أنه لا يصادم حقيقة كونية أبدًا.

فالعالَمون عبارة عن جمع لكلمة عالَم، جاز هذا، وهو في نطاق اللغة، وفي نطاق القرآن، فما هي هذه العوالم الكثيرة؟ هناك عالم الجن، وعالم الإنس، وعالم الحشرات، وعالم النبات، وعالم البحار، وعالم الفضاء، وعالم الملائكة، وعالم الملأ الأعلى، وعالم الجنة، وعالم النار، وكل هذه عوالم، وهي عوالم بينها فوارق، فهناك فارق بين الجماد وبين الحيوان وبين النبات وبين الإنسان، وهكذا.

فمن الممكن أن تكون جمعًا لعالم، أو أن تكون كلمة على هيئة الجمع، لكنها تدل على ما سوى الله، أليست المعاني متقاربة؟ بلى، ولكن الفهم العميق الذي قد يفتح الله به لك معنًى جديدًا قد يختلف من هنا إلى هنا، فنستطيع القول، بأن (العالمين) إما أن تكون جمعًا لعالم، وإما أن تكون اسمًا لما سوى الله -سبحانه وتعالى-، ويكون إعرابها أنها ملحق بجمع المذكر، وليست من جمع المذكر.

ثم قال سبحانه:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝﴾

[الفاتحة: ٣]

فكررها سبحانه مرة ثانية، والتكرار لا يمكن أن يأتي في كلام الله الموجز -والإيجاز إعجاز- إلا لحكمة جليلة، فيجب أن تقف وأن تتأمل، فكأنه أعاد ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ليطمئن فؤادك؛ لأنه بدأ بالتشريف ثم بعد ذلك بالتكليف، وعندما ينتقل الإنسان من التشريف إلى التكليف يحدث له فزع ورهبة؛ لأن التكليف فيه مشقة، والإنسان جُبِلَ على طلب الراحة، فعندما ذكر ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حدث له انشراح، وفهم أن الله تعالى سوف يرحمه ويعفو عنه، فلما قال ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ شعر في قرارة نفسه بالتكليف، وأنه قد كلف أن يشكر ربه، ومن شكر ربه تحمل التكاليف تجاه المجتمع، في وجوه المعاملات والعقود وصور العلاقات الاجتماعية المختلفة؛ لقول رسول الله ﷺ: **«مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ»**[1] فهنا تكليف واضح، ومثاله: إذا أدّى أحدهم لك معروفًا؛ فلتقل: جزاك الله خيرًا، **«ومن قال لأخيه: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ»**[2] فهذا تكليف.

---

(١) رواه الترمذي في «السنن»: (٤/ ٣٣٩)، والطبراني في «الأوسط»: (٤/ ٥١)، وأبو يعلى في «مسنده»: (٢/ ٣٦٥) كلهم من حديث أبي سعيد، وقال الترمذي: حسن صحيح، وحَسَّن الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٨١) سند الطبراني، هذا وللحديث طرق أخرى، فقد ورد من حديث أبي هريرة: عند أبي داود في «سننه»: (٤/ ٢٥٥) وابن حبان في «صحيحه»: (٨/ ١٩٨)، ومن حديث النعمان بن بشير: رواه القضاعي في «مسند الشهاب»: (١/ ٦١)، والبيهقي في «الشعب»: (٤/ ١٠٢) وغيرهما، وضعَّفه الحافظ السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٤٠٥)، ومن حديث جابر: عند أبي داود في «سننه»: (٤/ ٢٥٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى»: (٦/ ١٨٢)، وأبي يعلى في «مسنده»: (٤/ ١٠٤)، حتى أفرد الحافظ شرف الدين الدمياطي طرقه في جزء.

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه»: (٨/ ٢٠٢)، والترمذي في «السنن»: (٤/ ٣٨٠)، والضياء المقدسي في «المختارة»: (٤/ ١١٠)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان»: (٢/ ٣٢٣)، والخطيب في «تالي التلخيص»: (١/ ٢٧٨) =

فكأن العبد لما أن قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ شعر بجمال الله ولطفه ورحمته، فلما أن قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ شعر بجلاله وعظمته وهيبته، فحتى يتدارك العبد نفسه ولا يغرق في الجلال، ولا في المشقة، ولا في التكليف؛ فقد أسعفه الله تعالى بقوله: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، يشير سبحانه بذلك إلى أن الذي كلفك رحمن رحيم.

ف ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الأولى تشريف، والثانية تهدئة، وكأنه يهدئ من روعك، ويقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم يقول لك أيضًا: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أتى بها في المنتصف مراعيًا أنك قد أديت التكليف المنوط بك فيها، وتصورت عظمة قولك: ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وتصورت سعة العوالم حتى تفضي إلى العرش، فتشعر بالضآلة؛ لعجزك عن التصور، فعند قولك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ حدثت لك هزة وتهيُّب، فأدركك، وقال: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ ليهدئ من روعك.

ومثالها أيضًا، قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾[1] فسأله عنها ليهدئ من روعه؛ لأنه حصل له جلال وخوف، قال سبحانه: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾[2] فذكر هنا أنه خاف، وأنه وَلَّى مُدبِرًا ولم يعقب، فقال له: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾؛ ليهدئ من روعه، ويذهب عنه الخوف.

وهذا لتعرف أن هذا الدين رحمة في رحمة في رحمة، وماذا بعد أن قال لك: أنا رحمن، أنا رحيم، أنا رحمن، أنا رحيم، وكلام الله تعالى ليس عبثًا، بل يفهم على مستوى الحرف كما قلنا. ولذلك يقول النبي ﷺ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ -تبارك**

= قال النووي في «رياض الصالحين» باب: في مسائل من الدعاء: قال الترمذي: حسن صحيح، قلت: لكن الذي في «السنن» قول الترمذي: حسن جيد غريب، لا نعرفه من حديث أسامة إلا من هذا الوجه.

(١) سورة طه، آية [١٧].

(٢) سورة طه، آية [٢١].

وتعالى- ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[1]، فالمحدثون يجعلون هذا الحديث أولَ حديثٍ يذكرونه في مجالسهم لطلابهم، ويحدثونهم به في مفتتح اجتماع بعضهم ببعض، فأول حديث يجيزون به طلابهم هو هذا الحديث؛ حتى سمي بـ(الحديث المسلسل بالأولية)، فما معنى كونه مسلسلًا بالأولية؟ معناه أن كل شيخ يفتتح درسه أو إجازته لتلميذه، فإنه يصدر كلامه بهذا الحديث المذكور، والذي هو حديث الرحمة، ويقول: (حدثنا شيخنا فلان، وهو أول حديث سمعته منه)، وهكذا الشأن في أولية سماع كل راو من شيخه إلى أواخر السند، حتى يكون كل طالب عبر التاريخ يقول: (حدثني شيخي وكان أول حديث أسمعه منه هو هذا الحديث)، فلماذا جعلوا هذا الحديث مسلسلًا بالأولية؟! قالوا: تأسِّيًا بالقرآن الكريم، فأين هذا المعنى في القرآن؟ هو في هذا الموضع الذي نتكلم عنه، قال سبحانه: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ

---

(١) رواه البخاري في «التاريخ»: (٧/ ١٩٤)، وفي كتاب «الكنى»: (ص٦٤)، وأبو داود في «سننه»: (٤/ ٢٨٥)، والترمذي في «السنن»: (٤/ ٣٢٣) مع زيادة، وقال: حسن صحيح، وابن المبارك في «مسنده»: (ص١٦٥)، وأحمد في «المسند»: (٢/ ٢٦٩)، والبيهقي في «الشعب»: (٧/ ٤٧٦)، وأسنده الذهبي في «السير»: (١٧/ ٦٥٦) مسلسلًا، وظاهر كلام الحافظ في «الفتح» (٣/ ١٥٨) تصحيحه، قال: (لكن ثبت في حديث ابن عمرو عند أبي داود...إلخ).

وأقول: وهذا الحديث هو المعروف بالحديث المسلسل بالأولية؛ للمعنى الذي ذكره شيخنا الإمام صاحب هذا التفسير، وقد عُني به المحدثون، وحرصوا على أن يكون هو أول حديث يسمعه الطالب من شيخه عند أول اجتماعه به، وما زال الأمر على ذلك النمط من أيام سفيان بن عيينة إلى يومنا هذا، وقد وقع لنا مسلسلًا، واتصل بنا إسناده على هذه الصفة، بالسماع من شيخنا الإمام صاحب هذا التفسير، ومن عددٍ جمٍّ من مشايخنا من المشارقة والمغاربة، قال شيخ مشايخنا العلّامة السيد محمد عبد الحي الكتاني في «فهرس الفهارس» (١/ ٩٣) عن هذا الحديث: (تداولته الأمة، واعتنى به أهل الصناعة، فقدَّموه في الرواية على غيره؛ ليتم لهم بذلك التسلسل كما فعلنا، وليقتدي به طالب العلم، فيعلم أن مبنى العلم على التراحم، والتوادد والتواصل، لا على التدابر والتقاطع، فإذا شبَّ الطالب على ذلك شبَّت معه نعرة التعارف والتراحم، فيشتد ساعده بذلك، فلا يشب إلا وقد تخلَّق بالرحمة، وعرَّف غيره بفوائدها ونتائجها، فيتأدب الثاني بأدب الأول، وعلى الله في الإخلاص والقبول المعول).

وأقول أيضًا: وقد أفرده الحفاظ والعلماء بمؤلفات يجمعون فيها طرقه، ويتكلمون فيها على فوائده، فممن أفرده بالتأليف: منصور بن سليم الرازي، وابن الصلاح، وابن ناصر الدين الدمشقي، والسخاوي، والصفي البخاري، وابن الأبار الأندلسي، ومحمد مرتضى الزَّبيدي، وعبد الحي الكتاني، وعبد العزيز الصديق الغماري، وغيرهم كثير.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾(١)، وأيضًا لغرس معاني الرحمة في روع الطالب؛ حتى ينشأ وقد وعى في وجدانه أن الرحمة هي أساس التعامل مع الخلق أجمعين.

وقلنا: إن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ معناها: رحمن الدنيا، يرحم المؤمن وغير المؤمن، ويرحم الملحد الذي ينكر وجوده سبحانه وتعالى، يرحمه فيطعمه ويسقيه ويرزقه، وربما لو تتبعت هذا الملحد تجده لا يمرض أبدًا، فهذا من رحمة الله، بل من وسيع رحمته سبحانه بعبده؛ لعله أن يرجع، قالوا: لأن الله يحب صنعته، فإن هذا الملحد آدمي، شمله تكريم الله تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾(٢)، فلعله أن يتوب إلى الله عن قريب، وأما ما فيه من سوء وفسق، وفساد وإلحاد وكفر، فهناك يوم آخر، اسمه: يوم القيامة، تكفل الله فيه بحساب خلقه، وليست الدنيا بمبلغ علمنا ولا غاية أملنا، وسيأتي ذكر اليوم الآخر بعد قليل في قوله جل شأنه: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾(٣) أي أن إيمانك بيوم القيامة يجعلك رحيمًا بالبشر؛ لأن الحساب ليس هنا، والنزاع والجدال ليس هنا، والحقيقة المطلقة والبرهان الذي لا يرد ليس هنا، فهنا نسعى لمعرفة اليقين والبرهان رغم أن أغلب البشر يأبون هذا، فهم أحرار ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾(٤)، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾(٥).

فماذا نفعل في هذه الإنسانية؟ نقوم فيها بواجب التبليغ عن الله، فقد قال ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»(٦)، وقال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ

---

(١) سورة الفاتحة، آية [١-٣].

(٢) سورة الإسراء، آية [٧٠].

(٣) سورة الفاتحة، آية [٤].

(٤) سورة الكافرون، آية [٦].

(٥) سورة البقرة، آية [٢٥٦].

(٦) رواه البخاري في «صحيحه»: (٣/ ١٢٧٥)، وابن حبان: (١٤/ ١٤٩)، والترمذي: (٥/ ٤٠)، والدارمي في «سننه»: (١/ ١٤٥)، وأحمد في «المسند»: (٢/ ١٥٩) عن عبد الله بن عمرو.

وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[1]. والحاصل: أنه تبارك وتعالى كرر ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تهدئة للبال والقلب، أي أنه سبحانه رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، قال سبحانه: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾[2] فرحمة الآخرة خاصة بالمؤمنين، أما في الدنيا فالرحمة للمؤمن، ولغير المؤمن، بأن يرزقه ويستره، ويقبل توبته إذا تاب قبل الممات، ويفتح له أبوابه، ويستجيب دعائه إذا كان مظلومًا؛ لأنه صنعته.

فـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الثانية هذه في تكرارها إعجاز؛ لأننا لو تخيلنا أن أحدًا يكتب هذا من عند نفسه، لكان أمرًا في غاية العجب، لأن هذا كلام من قد اطلع على قلوب البشر، وعلى أحوالهم، وعقولهم، ونفوسهم، وليس هذا لأحد من البشر، بل هو لله وحده: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[3]، وهو سبحانه عليم بذات الصدور، وليس أحد من البشر بقادر على أن يعلم ما في الصدور، ولا ما في العقول، ولا ما عند البشر من تقلبات في قلوبهم، فعلى هذا المنوال فُسر قوله جل جلاله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[4].

عرفنا إذًا أن تكرار ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تهدئة لقلب المؤمن، الذي قد دخل من التشريف الموجود في بداية السورة، إلى التكليف الموجود في الحمد، فيعيده الحق سبحانه مرة أخرى إلى سياق الهدوء والسكينة بتكرار قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وليذكر الله تعالى عباده بأن أساسًا من أسس الإيمان هو الإجابة على الأسئلة الثلاثة الكبرى التي شغلت بال البشر عبر تاريخهم، وهي: الماضي، والحاضر، والمستقبل.

---

(١) سورة النحل، آية [١٢٥].

(٢) سورة الأحزاب، آية [٤٣].

(٣) سورة الملك، آية [١٤].

(٤) سورة الفاتحة، آية [١-٣].

أما الماضي فيسأل الإنسان نفسه -وهو يتدبر في كونه وفي حياته: من أين أنا؟ ومن أين جئنا؟ فيجيب الله -سبحانه وتعالى- بأنك خلق من خلقه، ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾(١).

ثم يأتي السؤال الثاني: ماذا نفعل هنا؟ أي: لماذا خلقنا ربنا؟! فأنزل الله الوحي، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب من أجل الإجابة على هذا، فقال سبحانه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(٢)، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٣)، وقال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٤)، وقال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(٥)، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾(٦).

فبين لنا أننا هنا من أجل العبادة، والطاعة، وعمارة الأرض، وتزكية النفس، وهو ما يسمى بالتكليف، وهو الذي يفرق المؤمن عن غير المؤمن، فالمؤمن يؤمن بالتكليف، بمعنى أننا ملتزمون في هذه الحياة الدنيا بطاعة ربنا.

والسؤال الثالث: ماذا سيكون غدًا؟! فقد وجدنا أنفسنا نُخْلق أطفالًا، ثم شبابًا، ثم كهولًا، ثم شيوخًا، ويصيبنا الهرم، ثم بعد ذلك ندخل في غيبوبة الموت، ثم نموت، ومنا من يعجل به، ومنا من يبقى في هذه الحياة الدنيا، وهم جميعًا ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(٧) وإذ بالخلق أمام حقيقة الموت حيارى: ماذا بعد الموت؟ وماذا بعد هذه الحياة الدنيا؟ ويجيب الوحي

---

(١) سورة لقمان، آية [١١].

(٢) سورة المائدة، آية [٤٨].

(٣) سورة الذاريات، آية [٥٦].

(٤) سورة البقرة، آية [٣٠].

(٥) سورة هود، آية [٦١].

(٦) سورة الشمس، الآيتان [٩، ١٠].

(٧) سورة الأعراف، آية [٣٤].

من عند الله، بأن هناك يومًا للقيامة، وبأن هناك يوم دينونة وحساب، وبأن الله -سبحانه وتعالى- يجمعنا ويبعثنا، ويقيم الموازين القسط، وأن هناك عقابًا، وأن هناك ثوابًا، فيوم القيامة ركن من أركان الإيمان، وهو الإيمان باليوم الآخر.

إذًا، هناك ثلاثة أسئلة كبرى: من أين أنا؟ وماذا أفعل الآن؟ وماذا سيكون غدًا؟ أي: سؤال عن الماضي، وسؤال عن الحاضر، وسؤال عن المستقبل، فالأسئلة الثلاثة هذه هي التي حيرت البشرية، وكلما أراد الإنسان أن يصل إلى جواب عليها؛ فإنه يضل الطريق، وتتشتت الأفكار، وتختلف المذاهب، ويتطور نتاج العقول في ذلك الأمر، والله -سبحانه وتعالى- أجاب عنها ابتداءً، وكأنه يقول لك: ابدأ حياتك بالإيمان بهذه الثلاثة، فلا بد عليك من أن تؤمن بخلق الله للبشر، ولا بد عليك من أن تؤمن بالتكليف وتقوم به، ولا بد عليك من أن تؤمن باليوم الآخر وما يقع فيه من مشاهد.

ابدأ حياتك، وسعيك في الأرض، وعمارتك لها، واكتشافاتك، واختراعاتك، وتسيير حياتك، من الإيمان بهذه الثلاثة؛ ولذلك كانت هذه الثلاثة عند المسلمين وحكمائهم تسمى بـ(الأسئلة الكلية)، وعند غيرهم تسمى: بـ(الأسئلة النهائية) فما الفارق بينهما؟ قال الإنسان المعاصر: لا أدري، ولكني سأظل أبحث في الجيولوجيا مثلًا؛ حتى أعلم كيف تكونت الأرض، لكنني الآن لا أعلم، قلنا له: ونحن سنبحث في الجيولوجيا، ولكننا سنبدأ ونحن نعلم أنها من خلق الله، وسنبدأ بالإيمان دون أن يصدنا هذا الإيمان عن العلم، وسنبدأ بالبحث في الجيولوجيا؛ لنستخرج البترول والمعادن، ولنعرف أسباب الزلازل، ولنتعامل مع الحياة، فإن استطعنا أن نتقي الزلزال فحسن، ولكنك أنت ستظل بمنهجك هذا متحيرًا حتى تنتهي؟! قال: نعم، ولكن عندما ننتهي سنجيب عن هذه الأسئلة الثلاثة، فنكشف حقائق التاريخ، ونفهم فلسفة الوجود؛ قلت: بل ستظل متحيرًا دائمًا؛ لأنها أسئلة فطرية في

الإنسان؛ فأجاب: لا بأس بأن أظل متحيرًا؛ لأنها أسئلة نهائية، أي: ينتهي البحث بالإجابة عليها، وهل أجبنا عليها؟ نعم، بعشرات الأجوبة المختلفة، فالله -سبحانه وتعالى- بقدرته يريدك أن تسعى في الكون، وأن تكتشف ما تكتشف، وأن تتعلم، وأن يزداد هذا وأنت موقن بأن الله هو الذي خلق، وهو الذي كلف، وهو الذي سنعود إليه في يوم لا ريب فيه، فقال سبحانه:

﴿ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝ ﴾

[الفاتحة: ٤]

ويوم الدين هو المستقبل الآتي؛ ولذلك فهذه الحياة، لا تعجل بالصراع، ولا بأن يقتتل بعضنا مع بعض على حياة فانية، ولذلك أيضًا فالأصل بين الإنسان وبين الكون هو الاتساق والتكامل، وليس الصدام والحرب، ونقول لأولئك الذين يجعلون الصدام بين الحضارات هو المحرك: أبدًا، إنما التكامل بين الحضارات، واستفادة كل حضارة من الأخرى هي الأصل، فالعلاقة بين الحاكم والمحكوم، وبين الإنسان والكون، وبين الرجل والمرأة، هي التكامل والوفاق، وليس الخصام والنزاع كما يدعون.

وكل ذلك يشعر به المسلم؛ إذ يرى أن اليوم الآخر هو الحياة الباقية، وأن هذه الحياة الدنيا بكل ما فيها، ومهما حدث فيها، فإنها ليست هي المنتهى؛ ومن أجل ذلك لا يكون حريصًا على أن يأخذ حق الغير، ولا أن يتسلط القوي على الضعيف، ولا أن يصارع فيظلم، فهذا هو أصل الإسلام.

ثم إنه قرئ: ﴿ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ وفي قراءة: (مَلِكِ)، والقراءات جاءت توسعة ورحمة، ودليلًا على رحابة الإسلام والقرآن؛ ولتكون مصدرًا أساسيًّا من مصادر التشريع والفهم للحياة، والهداية للمتقين، فـ(مالك) معناها أنه مَلَك شيئًا خاصًّا به، وهو بذلك يفوق المَلِك؛ لأن (المالك) له فيما يملكه حرية التصرف بالبيع والشراء والهبة، أي له خصوصية، أي لا يستطيع أحد أن يتعدى عليه، أما (الملك) فله عمومية، أي أنه يرعى كل الناس، وله رتبة عليَّة، فهو يفوق كل الناس، وربنا سبحانه له كل ذلك، فهو سبحانه مالك وملك، فهذا مُلكه يتصرف فيه كيف يشاء، ومِلكه يتصرف فيه كيف يشاء، على المستوى العام وعلى المستوى الخاص، فهو مالك

وملك ليوم الدين، يفعل فيه ما يشاء، يعفو عمن يشاء، ويغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، والظلم هو التصرف في ملك الغير، فالله لا يوصف بظلم أبدًا؛ لأنه هو المالك الحقيقي، وهو الملك الحقيقي، ويقول رسول الله ﷺ: «**إن أخنع الأسماء عند الله شاه شاه، أي ملك الملوك**»[1] فهو ملك يوم الدين، وهو مالك يوم الدين.

(١) رواه البخاري في «صحيحه» (١٠/ ٥٨٩) فتح، كتاب الأدب، باب: أبغض الأسماء إلى الله، ومسلم في «صحيحه» (٣/ ١٦٨٨)، كتاب الآداب، باب: تَحْرِيم التَّسَمِّي بِمَلِكِ الأَمْلاَكِ وَبِمَلِكِ الْـمُلُوكِ، والحاكم في «المستدرك»: (٤/ ٣٠٦)، وابن حبان في «صحيحه»: (١٣/ ١٤٧)، والترمذي في «سننه» (٥/ ١٣٤) كتاب الأدب عن رسول الله ﷺ، باب ما يكره من الأسماء، والحميدي في «مسنده»: (٢/ ٤٧٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم قال سبحانه:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾

[الفاتحة: ٥]

هذه الآية الجليلة لها موضع عظيم في سورة الفاتحة، وهي أبرز صور العلاقة بين العبد وربه؛ حيث تقوم هذه العلاقة على العبادة والخضوع للحق وطلب المعونة والقبول من جهة، وعلى الإعانة والإمداد والتوفيق من جهة أخرى، فالعبد يقوم بواجب العبودية من جهته، ليتجلى الله تعالى عليه بكرم الربوبية، وقد جاءت الآيةُ على نسقٍ عجيب، فقد تقدمت كلمة ﴿ إِيَّاكَ ﴾ على كلمة ﴿ نَعْبُدُ ﴾، رغم أن الترتيب المألوف في كلام العرب ولسانهم أن يقال: (نعبدك)، أو (نعبد إياك)؛ فالأصل في المفعول به أن يأتي بعد الفعل، ولكن هنا قدمه، قال العلماء: إنما كان ذلك للاختصاص، فمعنى هذا التركيب: أننا لا نعبد ربًّا سواك، ولا نعبد إلا إياك، أي: نخصك أنت وحدك بالعبادة، فمن أين أتى هذا المعنى؟ مع أنه ليس في اللفظ الظاهر أمامنا كلمة: نخصك، ولا كلمة: وحدك؟ ونقول: هو موجود بالقوة في التركيب، كامن فيه، ثم تنشعب من هنا بحوث دقيقة في عمق فلسفة اللغة ودلالاتها، حيث يلوح فارق دقيق بين معنى الحصر، وبين معنى الاختصاص، فالأول: نفي غير المذكور، والثاني: قصد الخاص من جهة خصوصه، ومثل هذا العمق إنما يعتني به أهل الاختصاص المنكبون على اللغة، وقد تتبع هذا المعنى الإمام الكبير تقي الدين السبكي فألف فيه كتابًا مستقلًا اسمه: «الاقتناص، في الفرق بين الحصر والاختصاص».

وهنا قد قال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ولم يقل: نعبد إياك، فعلمنا سبحانه من

خلال هذا التعبير -خاصًا- معنًى دقيقًا، فهذا شيء مهم، وهو أن أساليب العربية لها تراكيب تعطينا المعنى، فلا بد علينا من دراسة تراكيب العربية، وفائدة ذلك تظهر عند الترجمة؛ لأن الترجمة لا تكون لكلام الله أبدًا، وإنما تكون ترجمةً لمعاني كلام الله -سبحانه وتعالى-، فهناك فرق بين كلام الله الذي هو بالعربية -وهو ثابت- وبين المعاني التي تستفاد عن طريق قوانين العربية من كلام الله -سبحانه وتعالى-، فمن الممكن لمن يريد أن يترجم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أن يقول: (نعبدك وحدك لا شريك لك) ويكون صادقًا، بالرغم من أنه لا توجد في التركيب كلمة (وحدك)، ولا كلمة (لا شريك لك)، ولا شيء من هذا القبيل، نقول: ولكنها موجودة في التركيب من الداخل.

وقد جاءت هكذا إظهارًا للحقيقة، ودعوة للأمة، وبيانًا لمفهوم الأمة، ذلك المفهوم الذي اضطربوا في فهمه، فانظر كيف قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ولم يقل: (إياك أعبد)؛ ليفهمك أنك لست وحدك القائم بعبادة الله، فالجن، والإنس، والجماد، والحيوان، والنبات، وغير ذلك من مخلوقات الله، كلهم يعبدونه.

ثانيًا: ليعمق في قلبك معنى: «**لِينُوا فِي أَيْدِي إِخْوَانِكُمْ**»(١)، ومعنى أمره لنا بالجماعة حيث قال: «**عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ**»(٢)؛ لتستحضر وأنت واقف في الصلاة أنك فرد من أفراد الأمة، التي تتوجه بكليتها إلى البيت الحرام، بحق قوله سبحانه: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾(٣)، فأنت وأنت تقول: (نعبد) جزء من كون يعبد ربه

---

(١) رواه أبو داود في «سننه»: (١/ ١٧٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى»: (٣/ ١٠١)، قال الإمام النووي في «رياض الصالحين» (ص٢٦٥): (صحيح، رواه أبو داود بإسناد على شرط مسلم).

(٢) رواه الترمذي في «سننه»: (٤/ ٤٦٥)، والنسائي في «السنن الكبرى»: (٥/ ٣٨٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان»: (٧/ ٤٨٨) عن عمر بن الخطاب ﷺ. وانظر كلام الحفاظ عليه في «نصب الراية» للحافظ الزيلعي: (٤/ ٢٤٩).

(٣) سورة البقرة، آية [١٤٩].

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1].

جزء من كون يسجد لربه، وجزء من كون مخلوق، ومسخر من ربه لك: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[2].

فأنت وأنت تقف في الصلاة وتقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، تشارك الكون في سجوده وعبادته، وفي ذكره لله -سبحانه وتعالى-، فأنت جزء من هذا الكون، ولكنك سيد فيه، وغيرنا يقول: إنك جزء من الكون؛ فأخضعوك للدراسة والتشريح على وجه من التجاهل لحقيقة الإنسان ودوره في الوجود، لكننا مكرمون، سخر الله لنا الكون، ونحن مادة، ولكن كرمنا الله بالتكليف والخطاب الإلهي، أنا مخلوق من مخلوقات الله ولكني أعبده، فأنا أعبد بتكليف لا بحال، فهناك عبادة بتكليف وعبادة بحال، فالجبل يسبح بحاله، والبحر يسبح بحاله، ولكنك تعبد بتكليف، فمن الممكن أن تسبح ومن الممكن أن لا تسبح، فهنا تكليف وثواب، فأنت على قمة الكائنات وهي مسخرة لك، وأنت تعبد الله كعبادتها وأكثر، فإذا لم تعبد الله كانت هي أفضل منك، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[3].

فيجب علينا أن نقف عند النون في قوله: (نعبد) بعد أن وقفنا عند تقديم (إياك)؛ لأنه لو قال: (أعبد) لم تكن هناك دعوة، ولا أمة، ولا علاقة بينك وبين الكون، أما (نعبد)، فمعناها: أنني جزء من الكون وإن كنت سيدًا فيه، ولست سيدًا له، فسيد الكون هو الله، وأنا على أعلى مراتب المخلوقات في هذا الكون، وأشاركه العبادة، وأنا من أمة تتوجه إلى البيت الحرام، وأنا من جماعة مسلمين، يصلون الجماعة لله رب العالمين، فهذا كله من معاني النون في قوله: (نعبد).

---

(١) سورة الإسراء، آية [٤٤]. (٢) سورة لقمان، آية [٢٠].
(٣) سورة الفرقان، آية [٤٤].

وإذا كان الأمر كذلك فإنك أيها المسلم تكون صاحب دعوة، تريد أن تبلغها للناس، تصدهم فيها عن الشر وتدعوهم إلى الخير، من غير إكراه ولا عدوان، بل بإيضاح وبيان وبلاغ.

إذًا هذا هو المسلم، يعبد ربه، ويشرح دينه، ويرى أنه في أمة ممتدة عبر الزمان؛ فإن كل الرسل إنما هم من أمة الإسلام، ابتداءً من آدم، وانتهاءً بسيد الخلق سيدنا محمد ﷺ، ومن أمة ممتدة بعد سيدنا محمد ﷺ عبر الزمان والمكان، في كل الأرض، وبكل الأجناس، فهناك أمة دعوة: وهم كل من على وجه الأرض؛ لأنهم جميعًا محل خطاب بهذا الدين، ونحن مكلفون كأمة بتوصيل كلمة الله إليهم، وهناك أمة إجابة: وهم من صدقوا بالنبي ﷺ فعلًا، واتبعوه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه.

ثم قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يشير إلى أن هناك عبادة وهناك عمارة. أما العبادة فقد أخلصنا الدين لله؛ فلا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، ثم بجوار هذا هناك حياة، قد أمرنا بعمارتها، فماذا نفعل؟ نستعين بالله؛ لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، لكننا نستحضر دائمًا: أن ترك الأسباب جهل، وأن الاعتماد عليها شرك، فمعنى (لا حول ولا قوة إلا بالله) هو الذي جعل الفلاح يلقي الحب، ثم يدعو ويقول: يا رب، ولما أن خرج رسول الله ﷺ يوم أحد ظاهر بين درعيه[1]، أي أنه اتخذ الأسباب، وقال رسول الله ﷺ: «لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ

---

(١) ورد من حديث يزيد بن السكن، ومن حديث عبد الله بن الزبير، ومن حديث طلحة بن عبيد الله، ومن حديث سعد، أما حديث يزيد: فقد رواه ابن المبارك في كتاب «الجهاد»: (ص٧٥)، والبخاري في «التاريخ الكبير»: (٨/ ٣١٤)، وأما حديث ابن الزبير: فقد رواه الحاكم في «المستدرك»: (٣/ ٢٨)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأبو يعلى في «مسنده»: (٢/ ٣٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق»: (٢٥/ ٦٩)، والضياء المقدسي في «المختارة»: (٣/ ٥٨)، وأما حديث طلحة بن عبيد الله: فقد رواه البيهقي في «السنن الكبرى»: (٩/ ٤٦)، وحديث طلحة هذا مروي أيضًا عند الشافعي كما في «مسنده»: (ص٣١٧)، والنسائي في «السنن الكبرى»: (٥/ ١٧١)، وأبي داود في «السنن»: (٣/ ٣١)، وابن ماجه في «السنن»: (٢/ ٩٣٨)، وسعيد بن منصور في «سننه»: (٢/ ٣٥٩)، إلا أنهم جميعًا يقفون به عند السائب بن يزيد، وهو يرويه عن رجل يقال له: معاذ، عن طلحة، كذا رواه البيهقي في الموضع السابق، =

لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»[١] فلا بد من أن تغدو وتروح؛ حتى ترزق، فلم تجلس في عشها وتقول: يا رب ارزقني؛ فإنك ترزق الطير في السماء، هذا حال المسلم، أنه بين العبادة والاستعانة؛ وللحافظ ابن حجر -رحمه الله- عبارة جليلة في «فتح الباري»، قال: (والحق أن من وثق بالله، وأيقن أن قضاءه عليه ماض، لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب؛ اتباعًا لسنته، وسنة رسوله ﷺ، فقد ظاهر ﷺ في الحرب بين درعين، ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة، وهاجر هو ﷺ، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك، وقال للذي سأله: أعقل ناقتي أو أدعها؟ قال: اعقلها وتوكل، فأشار إلى أن الاحتراز لا يدفع التوكل، والله أعلم)[٢].

ولذلك فقد شرح ابن القيم -رحمه الله- كتاب «منازل السائرين، بين إياك نعبد وإياك نستعين» للهروي في ثلاثة مجلدات، وسمى كتابه: «مدارج السالكين، في شرح منازل السائرين، بين إياك نعبد وإياك نستعين»[٣] فالعبادة بدايتهم، ومنها ينتهون إلى الاستعانة، حتى يدور السالك في دائرة الوجود بين (إياك نعبد) وبين (إياك نستعين).

= وأبو يعلى في «مسنده»: (٢/ ٢٤)، والحافظ الأزدي في «المخزون»: (ص١٥٨)، والشاشي في «مسنده»: (١/ ٨٤)، وأما حديث سعد فقد رواه البزار في «مسنده»: (٣/ ٣١١)، والخطيب في «تاريخ بغداد»: (٧/ ٣٠٥)، ورواه الدورقي في «جزء مسند سعد»: (ص١٥٢)، ويقال: ظاهر بين الثوبين إذا لبس أحدهما فوق الآخر، كما في: «تفسير غريب ما في الصحيحين»: (ص١٣٠) للحميدي، وكما في «المحكم»: (٤/ ٢٨٨) لابن سيده.

(١) رواه الحاكم في «المستدرك»: (٤/ ٣٥٤) وصححه، وابن حبان في «صحيحه»: (٢/ ٥٠٩)، والترمذي في «سننه»: (٤/ ٥٧٣) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في «سننه»: (٢/ ١٣٩٤)، وأبو يعلى في «مسنده»: (١/ ٢١٢)، عن عمر رضي الله عنه.

(٢) فتح الباري (١٠/ ٢١٢).

(٣) وقد قام سماحة شيخنا الإمام، صاحب هذا التفسير بشرح كتاب: «منازل السائرين» للهروي في دروس مشهودة على مدى خمسة أشهر في الجامع الأزهر الشريف، ثم تم إخراج شرح مولانا الإمام في كتاب مطبوع، عنوانه: «سبيل المبتدئين، في شرح البدايات من منازل السائرين».

إذًا فهو في دائرة لا نعرف قبيلها من دبيرها، وهذا شأن الدائرة، فأين بدايتها وأين نهايتها؟ ضع يدك على أي شيء في محيطها يفضي بك إلى باقيها، ويرجع بك إلى البداية، فالدائرة من عجائب المخلوقات، التي يفهم بها المؤمن أسرارًا كثيرة، والمرآة أيضًا، والشمعة، والنقطة، والخط.

فعند استيعاب هذه المعاني ترى بها أشياء غريبة! كيف يكون المتعدد المحصور في وضع غير محصور؟! فتجد أن هذه الدائرة لا تعرف بدايتها من نهايتها، لكن لو وضعت يدك على أي نقطة فيها يجوز لك أن تجعلها بداية، وهي في ذات الوقت من الطرف الآخر نهاية، فـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ليست في خط هندسي مستقيم، بل هي دائرة ربانية، يرتقي بها العبد في مراقي العبودية؛ لأن الاستعانة عبادة، والعبادة استعانة.

ثم إن الألف والسين والتاء تدخل في لغة العرب للطلب، فاستعان، أي: طلب المعونة، وعندما تدعو الله وتذكره، فهل تستعين به أو لا؟ نعم تستعين، فالعبادة استعانة، وعندما تستعين بالله وتظهر له طلبك وخضوعك، وسؤالك ودعاءك، أليست هذه عبادة؟ وقال النبي ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**»[1] وفي حديث: «**الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ**»[2] أي أعظم شيء في العبادة، وكان النعمان بن بشير يروي الحديث الأول فيقول: قال رسول الله ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**» ثم يقول: واقرأوا قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[3]،

---

(١) رواه ابن المبارك في «مسنده»: (ص٤٢)، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ٦٦٧) وصححه، وابن حبان في «صحيحه»: (٣/ ١٧٢)، وأبو داود في «سننه»: (٢/ ٧٦)، والترمذي في «سننه»: (٥/ ٢١١) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في «سننه»: (٢/ ١٢٥٨) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، وجوَّد الحافظ ابن حجر سند أصحاب السنن في «فتح الباري»: (١/ ٤٩).

(٢) رواه الترمذي في «السنن»: (٥/ ٤٥٦) وقال: غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة، والطبراني في «الأوسط»: (٣/ ٢٩٣)، وفي كتاب «الدعاء»: (ص٢٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) سورة غافر، آية [٦٠].

فانظروا إليه كيف يدلل على ما يقول، ويأتي له بإثبات؛ إذ المسلمون أمة علم وتوثيق، وإثبات وإسناد، والحاصل: أن المولى سبحانه سمَّى الدعاء عبادة.

فالاستعانة وهي نوع من أنواع الدعاء عبادة، والعبادة استعانة، فقد ارتسمت بذلك الدائرة، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وتأملها تجد أنها ليست مما له بداية بحيث تأتي لها نهاية ثم ننتهي، فهذا خطأ، بل لها بداية، وذات البداية هي النهاية، فكيف نفهم ذلك؟ كيف نفهم أن يكون الشيء هو هو؟ نفهمها بالنقطة، فضع نقطة، والنقطة أصغر شيء، أي أنها لا تتجزأ، وما دامت لا تتجزأ فالبداية فيها هي النهاية، وبذلك تصبح النقطة هي بداية الدائرة وفي الوقت نفسه هي نهايتها، فبين لنا الله أمثلة من الكون حولنا، تعيننا على القيام بالتدبر والفهم ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[1]، فهذا من التدبر؛ حتى تقرأ وتفهم، ثم تذهب للكون من حولك وتنظر وتعتبر ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[2] فيجب أن تقف مع كل كلمة.

وما دامت الدائرة لا تنتهي ففيها معنى الديمومة والاستمرار، ولو سرت في خط مستقيم حتى باب المسجد فسوف تصل؛ لأنه ببداية ونهاية، فهل للعبادة نهاية؟ لا، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[3] وهو الموت، فالمدعي بأنه قد أتم العبادة بحيث لم يعد في حاجة إلى أن يعبد ربه، ويقول: سقط عني التكليف، ولا داعي للصلاة ولا للزكاة؛ فإنه يكون دجالًا، وإذا لم تنتبه إلى أن الاستعانة عبادة والعبادة استعانة، وأنهما معًا يمثلان دائرة، فإنك لن تلحظ هذا المعنى، وها هو القرآن يرد على ذلك، فالعبادة لأنها في دائرة الاستعانة مستمرة، والاستعانة لأنها في دائرة العبادة مستمرة، وسيسير الإنسان في دائرة أبدًا، لا ينتهي، ولا يعرف النهاية؛ لأنه لا بداية هنالك ولا نهاية، إنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء.

---

(١) سورة النساء، آية [٨٢].
(٢) سورة الحشر، آية [٢].
(٣) سورة الحجر، آية [٩٩].

والمقصود أن هذا الكتاب عجيب غريب؛ لأنه من عند رب العالمين، ولا تنتهي عجائبه كما وصفه رسول الله ﷺ، وهو هدى للمتقين، فادخل فيه بتدبر وبتأمل؛ ليفتح الله لك فيه من المعاني ما تستقيم به حياتك، وإذا دخله من يريد أن يتلاعب به، وأن يعبث بقدسيته؛ أغلق عليه أبوابه، فمن أراد الهداية فتحت له كنوزه، ومن أراد غير ذلك أغلقت دونه أبوابه، هذا وهو كلمة واحدة، فهذا إعجاز فوق إعجاز، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[1] فانظر إلى الفارق، شخص دخله ليستهدي، والآخر دخل يتلاعب به؛ فيحدث له ضلال؛ لأنه في أذنيه وقر، وهذا الوقر يمنعه من الاستماع ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[2]، والأول دخله وهو متقٍ، يقرأه، ويستهديه، ويتدبره؛ فيكون في حقه هدى ونورًا، قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3]؛ فيجب على الناس أجمعين أن يدخلوا القرآن باعتباره منبع هداية ونور.

---

(١) سورة فصلت، آية [٤٤]. (٢) سورة فصلت، آية [٢٦].
(٣) سورة البقرة، آية [٢].

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾

[الفاتحة: ٦]

انتقلت بنا هذه الآية الكريمة إلى صفوة المطالب الإنسانية، وجوهر هذا الدين، وخلاصة مقاصد هذا الشرع، والتعبير الأنيق المنور عن غاية المسلم وهدفه، وإشعار العالمين بأن هذا الدين قد جاء ليسوق الخلائق أجمعين إلى الهداية المحفوفة بالاستقامة، والتي اتضحت فيها الحقائق، وثبتت فيها المعايير، وأنتجت التجربة البشرية الراقية عبر أطوار الإنسان وتاريخه.

والأصل في كلمة (اهدنا): أنها فعل أمر، وفعل الأمر عندما يأتي من الأعلى إلى الأقل يكون عادة للوجوب، مثل: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾[1]، فالأوامر ما دامت قد صدرت من الأعلى -وهو الشرع الشريف أي من الله أو من رسول الله ﷺ- فهي للوجوب غالبًا، وقلنا: غالبًا؛ لأن صيغة الأمر تأتي للأمر ولغيره، فقد تكون للتهديد، أو الإهانة، كقوله تعالى ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾[2] فمعناها: ذق عذاب جهنم، فهذه إهانة، إذًا فقد يكون الأمر لغير الوجوب.

أما إذا صدر من الأقل إلى الأعلى فلا يكون أمرًا واجبًا، إنما يكون توسلًا، ودعاءً، وأملًا في جود الله -جل شأنه-، فلما صدرت هذه الكلمة من المؤمن إلى الخالق -سبحانه- كانت دعاءً، فالإنسان وهو يقول: (يا رب اهدني) يكون قد دعا

---

(١) سورة الإسراء، آية [٧٨].

(٢) سورة الدخان، آية [٤٩].

وتضرع إلى الله، ثم هناك نوع آخر، وهو أن يكون الأمر من المساوي للمساوي؛ فتكون رجاءً أو التماسًا.

ونحن هنا لدينا صيغة الأمر، ولكنها لما أن كان من الأقل إلى الأعلى؛ سميت دعاءً، وسوف تمر علينا هذه الصيغة كثيرًا في القرآن الكريم، فقد تبين أن هذه الصيغة أمر في اللغة، وهي دعاء في عرف الشريعة؛ لأنه طلب من الأدنى وهو البشر إلى الأعلى وهو الله رب العالمين سبحانه وتعالى.

يقول سبحانه: ﴿ٱهْدِنَا﴾، فما حقيقة الهداية؟ أن تطلب منه الهدى، فما هو الهدى؟ وما هي الهداية؟

فالهدى: هو أن يهديك الله -سبحانه وتعالى-، وهناك ثلاثة أنواع من الهدى:

أولها: الهدى بمعنى التوفيق، أي أن يخلق الله فيك التوفيق، والتوفيق هو القدرة على أداء الطاعة بأن يوفقك ويعينك، وهو هذا الذي قال الله بشأنه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[1]؛ إذ لا يستطيع النبي ﷺ أن يهدي -بمعنى أن يخلق الطاعة؛ لأنه بشر، فلا يستطيع أن يخلق قدرة الطاعة عند العبد، ولا يمكن على هذا أن يكون هذا الهدى إلا من عند الله.

والثاني: هدى الدلالة، وهو الذي نسبه الله تعالى إلى نبيه ﷺ، فقال سبحانه فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]، وقد قلنا سابقًا: إنه لا يهدي، ونقول هنا: إنه يهدي، فالمراد هنا الدلالة والإرشاد، فسيدنا رسول الله ﷺ هدانا وأرشدنا، ودلنا على الله، وما تركنا إلا على المحجَّة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، قال: **«مَا تَرَكْتُ شَيْئًا مِمَّا أَمَرَكُمْ بِهِ اللهُ إِلَّا وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَمَا تَرَكْتُ شَيْئًا مِمَّا نَهَاكُمُ اللهُ عَنْهُ إِلَّا**

(١) سورة القصص، آية [٥٦].

(٢) سورة الشورى، آية [٥٢].

وَقَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ»(١) فالنبي ﷺ أمر ونهى، ووضّح وبَيَّن، وهدى وأرشد، ودَلّ على طريق الخير.

والثالث: هدى المكان، ومثاله الكعبة، فعندما تدخل الكعبة تحس أن نفسك قد تغيرت، وكأنك خرجت من الدنيا إلى عالم آخر، وعندما ترى الكعبة يحدث لك شيء عجيب يعرفه الناس كلهم، وهو الانجذاب إلى البيت الحرام؛ لأن سيدنا إبراهيم دعا المولى سبحانه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إلى أهل الحرم، فلا تزال القلوب أبدًا متعلقة بالبيت المعظم؛ ولذلك تجد المقتدرين يحجون كل عام، ويعتمرون في العام أكثر من مرة؛ لما غلب عليهم من محبة البيت الحرام والميل إليه.

فالهدى على ثلاثة أقسام: هدى توفيق، وهدى دلالة، وهدى مكان، وهنا يعلمنا أن نقول: ﴿ٱهْدِنَا﴾، أي نطلب الهدى والهداية، فهل يجوز أن يكون المعنى: اهدنا أي وفقنا واخلق فينا القدرة؟ نعم يجوز.

وهل يجوز أن يكون المعنى اهدنا، أي: دلنا وأرشدنا، ووضح لنا؟ نعم، فقد تكون بمعنى: فهِّمنا؛ لأن أول درجات العمل أن تفهم مراد الله تعالى، فإذا نور الله بصيرتك وفهمت؛ قمت بالعمل.

ويجوز أن تكون بمعنى: اجعلنا في مكان الهداية، وشاهده ما ذكره لنا النبي ﷺ من قصص الصادقين من السابقين، أنه: «**كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل**

---

(١) ورد الحديث من مسند الـمُطَّلِب بن حَنْطَب، وابن مسعود، فأما حديث المطلب: فرواه الإمام الشافعي كما في «مسنده»: (١/ ٢٣٣)، ومن طريقه: البيهقي في «السنن الكبرى»: (٧/ ٧٦)، وفي «شعب الإيمان»: (٢/ ٦٧)، وأما حديث ابن مسعود: فرواه هناد بن السري في كتاب «الزهد»: (١/ ٢٨١) من طريق إسماعيل بن أبي خالد، عن عبدالملك بن عمير، عنه، واختلف فيه على إسماعيل، وانظر تفصيل ذلك في «علل الدارقطني»: (٥/ ٢٧٣)، ورواه عبد الرزاق في «المصنف»: (١١/ ١٢٥) عن معمر، عن عمران -صاحب له- قال: قال رسول الله ﷺ فذكره.

تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟! انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن بها أناسًا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء»[1] أي أن مكانهم مكان هداية.

وحدث كذلك في مكة قبل أن تصير ديار إسلام، فقد أمر النبي ﷺ أصحابه لما اشتد عليهم الإيذاء أن يخرجوا إلى أرض الحبشة؛ لأنها (فيها ملك لا يظلم عنده أحد، ولأنها أرض صدق)[2]، فصار مكانه مكان هداية، فمعنى كلمة: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ أنزل علينا هدى التوفيق، وهدى الدلالة والفهم، وهدى المكان، ويؤيد هدى المكان قوله ﴿ٱهۡدِنَا﴾ أي: جميعنا؛ لأن الإنسان بإخوانه.

ثم هل هناك فرق بين الهدى والهداية؟! قالوا: الهداية ينتج منها الهدى، وبعضهم قال: إن الهداية هي نتيجة الهدى، أو أن الاثنين معًا يمثلان دائرة لا يعرف بدايتها من نهايتها، وهنا يقول: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ فجمع بين الأمرين، ومعنى الهداية: الاستقامة، ومن شأنها أن تغرس الهدوء والسكينة في النفس، مما يعين الإنسان على

---

(١) ورد هذا الحديث من مسند أبي سعيد، ومن مسند معاوية، ومن مسند عبد الله بن عمرو، ومن مسند المِقْدَام بن مَعْدِي كَرِب، أما حديث أبي سعيد: فقد رواه البخاري مختصرًا في «صحيحه»: (٦/ ٥١٦) فتح، كتاب الأنبياء، باب: حديث الغار، واللفظ المذكور رواه مسلم في «صحيحه»: (٤/ ٢١١٨)، وابن حبان في «صحيحه»: (٢/ ٣٧٦)، وابن ماجه في «سننه»: (٢/ ٨٧٥)، والبيهقي في «السنن»: (٨/ ١٧)، وأبو يعلى في «مسنده»: (٢/ ٣٠٥)، وأما حديث معاوية: فقد رواه الطبراني في «المعجم الكبير»: (١٩/ ٣٦٩) وفي «مسند الشاميين»: (١/ ٣٤٩)، وأبو يعلى في «مسنده»: (١٣/ ٣٤٧). وأما حديث عبد الله بن عمرو: فقد رواه أبو يعلى في «مسنده» كما في «المطالب العالية»: (١٣/ ٥٦٤)، وأما حديث المقدام: ففي الأول من «أمالي أبي مطيع المصري»: ت٣٣٠هـ (حديث رقم ٥٧).

(٢) ذكره ابن هشام في «السيرة»: (٢/ ١٦٤)، وأبو الربيع الكلاعي في «الاكتفاء»: (١/ ٢٤٠)، والذهبي في «تاريخ الإسلام»: (١/ ١٨٤)، وابن كثير في «البداية والنهاية»: (٣/ ٦٦)، وابن حجر في «فتح الباري»: (٧/ ١٨٨).

الانطلاق في الكون تأمُّلًا وتفكرًا وتعميرًا وبحثًا وفهمًا، وعندما تكون الهداية في الجماعة كلها؛ فإنها تصنع الأمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[2] فالأمة شاهدة، والأمة أيضًا أمة هداية وخيرية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[3].

والإنسان -كما قالوا- بإخوانه، أي لا يستطيع العيش بمفرده، حتى أولئك الذين تأملوا الاجتماع الإنساني بمعزل عن الوحي، قالوا: (الإنسان كائن اجتماعي)، أي لا يستطيع العيش ولا الحياة بمفرده، بل يحتاج إلى آخرين، ثم إن التناسل والتكاثر يحتاج إلى الزواج، فيحتاج الإنسان إلى غيره، وهي غرائز قد فطرها الله في النفس، ومن هنا جاء قوله: ﴿ٱهْدِنَا﴾.

ويقرب هذا أن الكلمة عندما يكون لها أكثر من معنى؛ فإنهم يسمونها: (المشترك)، فهنا قوله سبحانه: ﴿ٱهْدِنَا﴾ معناه: وفقنا، ومعناها: دلنا، وعرفنا، ومعناها: اجعل محيطنا خيرًا ومباركًا، فهذه ثلاثة معان، فهل يصلح أن تدل الكلمة الواحدة على عدة معان مرة واحدة؟ وهذا مبحث يفيدنا في التفسير كله، وليس في هذا الموضع فقط، وإذا كان للكلمة معنًى حقيقي وآخر مجازي، فهل يصح الجمع بين معناها الحقيقي ومعناها المجازي؟ قال العلماء: نعم، يجوز ذلك، ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[4] فطبيعة الصلاة الصادرة عن الله هي الرحمة، وطبيعة الصلاة الصادرة من الملائكة هي الدعاء، فقد تطلق الصلاة إذًا ويراد بها الرحمة؛ لأن الله يصل نبيه بها، قال سبحانه:

---

(١) سورة الأنبياء، آية [٩٢].

(٢) سورة البقرة، آية [١٤٣].

(٣) سورة آل عمران، آية [١١٠].

(٤) سورة الأحزاب، آية [٥٦].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]، وقال ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»[2]. أما الملائكة فإنها تدعو له بمزيد الرفعة والكمال، فالصلاة هنا أطلقت بلفظ واحد وأريد المعنيان معًا: الرحمة والدعاء، فكلمة ﴿يُصَلُّونَ﴾ استُعملت في جانب الحق سبحانه، وفي جانب الملائكة أيضًا بلفظة واحدة، فإذا كانت الكلمة تحتمل معنيين أو ثلاثة جاز استعمالها في معانيها كلها، فيصير الأمر إيجازًا فيه إعجاز.

ويجب التنبه إلى أنه هل هذه المعاني المحتملة في الكلمة متناقضة أو غير متناقضة؟ لأن الاختلاف نوعان: اختلاف تنوع واختلاف تضاد، واختلاف التضاد معناه التناقض، واختلاف التنوع لا تكون فيه مناقضة، وهو الذي يجوز استعماله في معانيه المشتركة، أو الكلمة التي تدل على الحقيقة والمجاز في الحقيقة والمجاز؛ لأن المعاني ليست متضاربة، فيجوز أن يكون المراد: اهدنا أي: اخلق فينا الطاعة، أو اهدنا أي: دلنا وأرشدنا، أو اهدنا أي: أصلح لنا مكاننا ومجتمعنا، وهذه القاعدة التي هي جواز استعمال المشترك في معانيه من قواعد الإمام الشافعي رحمه الله.

ثم قال سبحانه: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي: أرشدنا ودلنا إلى هذا الصراط المستقيم، ومعنى المستقيم في اللغة هو: أقصر خط بين نقطتين، ولذلك تجد أن الطرق التي بين البلاد إما طريق بعيد أو طريق قريب، والقريب يكون مستقيمًا، بينما الطريق البعيد يكون منحنيًا متعرجًا.

فالصراط المستقيم يصل بنا إلى الله تعالى من أقرب طريق، وهذا الطريق يتميز بتوفير الزمن والجهد، فتوفير الزمن مهم جدًّا، لدرجة أن الإمام الشافعي[3] يقول:

---

(١) سورة الأنبياء، آية [١٠٧].

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه»: (٦/ ٣٢٥)، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ٩١)، والقضاعي في «مسند الشهاب»: (٢/ ١٨٩)، والطبراني في «الأوسط»: (٣/ ٢٢٣)، والرامهرمزي في «أمثال الحديث»: (ص٣٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق»: (٥/ ٤٠١)، والذهبي في «تذكرة الحفاظ»: (٣/ ١١٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هو الإمام الحجة، أبو عبد الله محمد بن إدريس المطلبي الشافعي، إمام المذهب، وركن من أركان الشريعة =

(صحبت الصوفية عشر سنين، فما استفدت منهم إلا هذين الحرفين: «الوقت سيف، ومن العصمة أن لا تقدر»)[1]. ومراعاة الأزمان وصلت بسيدنا عمر إلى أن يحاسب نفسه بالأنفاس؛ إذ لو ضاع الزمن لا نستطيع استعادته.

وقضية حفظ الزمان مهمة جدًّا، وهي ثمرة مباشرة للطريق المستقيم الذي يوصل إلى المقصود من أقرب سبيل، فحينما تتضح المقاصد، وتتحدد السبل الموصلة إليها؛ فإن العبد يسلك إلى مراده مباشرة، فلا يضيع عمره في التجارب الطائشة والسعي العابث؛ فينتج أن العبد يعرف غايته، ويعرف طريقها، ويمضي إليها مباشرة، فيتوفر له الوقت في مزيد من معرفتها والتمكن منها، وبحفظ الزمان تدور حركة العمران، وينشغل الخلق بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وبحفظ الزمان يزداد العُبَّاد إقبالًا على مولاهم، ويزداد العلماء نفعًا للخلائق، وإيضاحًا للحقائق، وبحفظ الزمان تنهض الأمم والشعوب لصناعة الحضارة.

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ معناها: اللهم لا تضيع أعمارنا، ثم نستيقظ بعد فوات الأوان على قرب الوفاة؛ فنندم على تفريطنا، وحافظ لنا على أوقاتنا؛ فالأوقات هي دم هذه الحياة، فتخيل أن هذا الدم ينزف؛ فسوف تموت الحياة، ومن معالم الصراط المستقيم: قوة اليقين، ومن كلام الصالحين: «ما سَبَقَكُم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صوم، وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِي قَلْبِهِ»[2]، فليس الشأن بكثرة الصلاة أو الصيام،

= المحمدية، ت٢٠٤هـ، ترجم له عدد من الحفاظ والأئمة في كتب مستقلة، منهم الإمام الحافظ البيهقي ت٤٥٨هـ في كتاب «مناقب الشافعي» مجلدان، وأبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم ت٣٢٧هـ، وأبو الحسن محمد ابن الحسين الآبري ت٣٦٣هـ، والحافظ ابن حجر ت٨٥٢هـ في كتاب «توالي التأسيس، بمعالي محمد بن إدريس» وغيرهم كثير.

(١) رواها الإمام البيهقي في كتاب «مناقب الشافعي» (٢/ ٢٠٨)، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص٤١٣)، ونقلها ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ١٢٩)، إلا أنه جعل الكلمة الثانية (ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل) ثم قال ابن القيم: (قلت: يا لهما من كلمتين ما أنفعهما، وأجمعهما، وأدلهما على علو همة قائلهما ويقظته، ويكفي في هذا ثناء الشافعي على طائفة هذا قدر كلماتهم).

(٢) من كلام أبي بكر بن عياش، كما نص ابن القيم في «المنار المُنيف»: (ص١١٥)، وهو في «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص٣٠) غير منسوب.

ثم لا تجد في قلبك بعد ذلك همة ولا استقامة ولا رضا، بل يمتلئ بالقبيح من الخيانة، ومن ضياع الأمانة مع المولى سبحانه، بل ينبغي علينا أن نقف عند الصراط المستقيم وقفات، حتى نرى كيف ندعو الله تعالى بأن يُبقي علينا أزماننا وهي تجري، ويبقي علينا أعمالنا؛ حتى لا يطول علينا الطريق.

فالصراط هو الطريق، وطريق الله مليء بما يلفت الإنسان، مليء بالمفاتن والشهوات وغيرها، فقال أهل الله وهم سائرون: (إن ملتفتًا في طريق الله لا يصل)، فالمقصود بالهداية في طريق الله: أن نسير في طريق الله تعالى، فلا نلتفت يمينًا ولا يسارًا فيما يشغلنا عن الله، بل لا بد علينا أن نخلي قلوبنا مما سوى الله.

وهنا يقع كثير من الناس في حيرة، فهل نترك الدنيا أو لا نتركها؟ ونحن نقول لهم: لا تتركوا الدنيا، ولا تفتتنوا بالدنيا، وفي دعاء الصالحين حلٌّ لهذه القضية، فقد كانوا يقولون: (اللهم اجعل الدنيا في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا)، فهذه قضية مهمة لا بد أن تحسم، ولا بد أن تكون واضحة عند الناس: أن الاعتماد على أسباب الدنيا شرك، وأن ترك أسباب الدنيا جهل، نهى عنه الشرع الشريف، فكيف إذًا لا أعتمد عليها وكيف لا أتركها؟ نقول: يحصل ذلك كله بالقلب، فقلبك لا يعتمد عليها، ولا يتعلق بها، ولا يتوكل عليها، إنما يتوكل على الله، ثم في نفس الوقت لا يترك أسبابها؛ فإن ترك الأسباب ليس من سنة الأنبياء، ولا من سنن الصالحين، والحاصل: أننا بعد ما نسعى في الأرض، ونمتلك الذهب والفضة من حله، أي من الطريق الحلال، وننفقها في الحلال؛ لا يتعلق قلبنا بها، فكيف ذلك؟ بأن لا يفرح بالموجود، ولا يحزن على المفقود، فقل: الحمد لله عندما تحصل الموجود، وعندما يخرج منك ويذهب؛ تقول: الحمد لله، فلا يوجد حزن، ولكن هناك استمرار في العمل، ولا تيأس؛ فإن اليأس ليس من صفة المؤمنين، فهذا إنسان محب للحياة لكنه يعلم حقيقتها، وأنها إلى الزوال، وأنها من عند الله، وأن الله تعالى قد رسم فيها سعادة

الدارين؛ وعلى ذلك فيجب عليه أن يسير فيها على الصراط المستقيم، ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، بأن لا يحزن على المفقود، وأن لا يفرح بالموجود، ويجعل الدنيا في يده، ولا يجعلها في قلبه، ولا يعتمد على الأسباب، ولا يتركها.

فكثير من الناس يتحير في هذا ويريد أن يتطرف، فإما أن يكون من أهل الدنيا، يتخبط في الحرام والحلال من أجل أن يحصلها، وإما أن ينعزل عنها بدعوى التقوى، ولذلك كانت لسيدنا عمر -وهو التقي القوي- عبارة يقول فيها: «اللهم إني أشكو إليك عجز التقي وفجور القوي»، فكيف أكون قويًا تقيًا؟ بالتربية تكون قويًا تقيًا، بمناهج التعليم والإعلام، وبالرأي العام، وبالأسرة وبقائها واستقرارها، وبرسالة المسجد، فلا بد علينا أن نعود مرة ثانية إلى ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، وإلى تحويل مناهج تعليمنا، وإعلامنا، وأسرتنا، ووظائف مؤسساتنا، إلى عمل يعيش فيه المواطن الصالح، وإنسان الحضارة الذي أراده الله -سبحانه وتعالى-، والذي علمه في الفاتحة أن يقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

فالصراط المستقيم لا يتأتى بالأماني ولا بالاقتناع ولا بمجرد القول، بل يأتي ببرامج العمل في كل مجال ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾(١) فهيا لنعمل؛ إذ لا بد من زيادة الإنتاج، والدخول في مرحلة الإنتاج الوفير؛ فإذا لم يكن طعامك من فأسك لم يكن رأيك من رأسك، وإذا لم تكن كذلك تلاعب بك الناس.

وقد ذكرنا من قبل أن (ملتفتًا في طريق الله لا يصل)، وهذه الحكمة مرتبطة بكلمة ثانية، وهي أن: (الله تعالى مقصود الكل)، أي ينبغي عليك أن تجعل الله مقصودك، وأن تسلك طريقك إليه على بصيرة، وإلا انحرف بك الطريق لكثرة مغرياته؛ فقد ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾(٢)، فلا يجوز أن تلتفت للشهوات يمينًا

---

(١) سورة التوبة، آية [١٠٥].
(٢) سورة آل عمران، آية [١٤].

ويسارًا؛ لأنك بذلك لن تصل لطريق الله، ولأن الزمن عَرَضٌ غيرُ قارٍّ، أي: غير مستقر؛ ولذلك قال أهل الله: (لا بد عليك من القيام بواجب الوقت)، فإن لكل وقتٍ واجبًا، وواجب اليوم يجب تأديته اليوم، فإن للغد عملًا خاصًّا به.

وكل تلك المناحي والمستويات متضمَّنة في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا﴾، فهي هداية توفيق، وهداية دلالة وفهم، وهداية مكان، وأنها بالجمع وليست بالإفراد، وأننا نسأل الله تعالى أن يوفقنا في الطريق إليه، والطريق ملتفت فيه لا يصل، والله مقصود الكل، ويجب علينا أن لا نعتمد على الأسباب وأن لا نتركها، وأن نجعل الدنيا في أيدينا وأن لا نجعلها في قلوبنا، وأن نراعي أوقاتنا وأزماننا، ونراعي أعمالنا، وأن الأمر ليس بكثرة العمل، إنما بشيء قد وقر في القلب.

ثم آخر آية من الفاتحة وهي الآية السابعة، ولذلك سمى بعضهم الفاتحة بالسبع المثاني؛ لأنها تكرر وتثنى في كل صلاة، فآخر آية في السورة الكريمة قوله تعالى:

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝ ﴾.

[الفاتحة: ٧]

فانظروا هنا إلى هذا الجمال، نحن نسأل الله تعالى الهداية، لكننا لسنا منفصلين عن التجربة البشرية، التي أرادها الله لهذا الكون، فقد أرسل الله تعالى آدم، وأرسل بعده الرسل، وفضل بعضهم على بعض، وختمهم بسيد الخلق ﷺ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾[1]، ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ ﴾[2]، فلا بد عليكم أن تتخذوا هذه القصص عبرة؛ لأن هؤلاء الكرام عليهم الصلاة والسلام أنعم الله عليهم بالفهم عنه، ولأن الوحي عندما ينزل على النبي ينقله إلى مرتبة اليقين، واليقين تزول منه الحيرة، والشك، والوهم، والظن، وتصبح المسائل أمامه رأي العين، وتتضح الحقائق، وتلوح سافرة، لا يغطيها شيء من الأهواء أو الزخرف أو التضليل، ثم إنه يصل إلى علم اليقين وعين اليقين، فهو ليس مترددًا، ولا متشككًا بعد الوحي، وتجري على يده هذه المعجزات، ويستجاب له الدعاء؛ ولذلك فقد أنعم الله عليه، فاللهم أنعم علينا بنعمة الفهم، واليقين، والهداية، واستجابة الدعاء، فاستجابة الدعاء شأن يُنشئ صلة بين العبد وربه، ويرى به المؤمن ربه في الدنيا؛ لأنه يدعو الله فيستجيب له، فكيف يسمع لقول منحرف عن طريق الله، وهو يرى ربه؟! أي يرى قدرته وعنايته في كل لحظة؛ فهو سبحانه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، لكن يراه طوال يومه لظهور آثار لطفه وقدرته.

---

(١) سورة الأنعام، آية [٩٠].

(٢) سورة يوسف، آية [١١١].

فالمعنى: اللهم اجعلني على طريق هؤلاء السادة الكرام، الذين هم موصولون دائمًا بك، وقد هديتهم، وأمرتنا أن نقتدي بهداهم، فارض عني، وانقلني من دائرة سخطك إلى دائرة رضاك، واجعلني محلًا لنظرك، واستجب دعائي، وأنعم عليَّ؛ حتى أكون مثلهم في اليقين، والهدى، والهداية، وفي سلوك الطريق إليك.

فمن هم الذين أنعم الله عليهم؟ هنا فائدة مهمة، تظهر في الترجمة؛ لأن المترجم غالبًا ما يترجم المعنى الذي توصل إليه وفهمه، ثم نقارن نحن بين قرب فهمه أو بعده عن النص القرآني، وعلى كل حال فهذا مسلك جديد من مسالك إعجاز القرآن، فترى بعضهم يقول: ﴿صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي صراط الأنبياء، لكن المولى سبحانه لم يقل: (صراط الأنبياء)؛ لأن الأنبياء معصومون، والسياق يريد أن يربطك بكل أهل المعرفة بالله، ابتداءً من الأنبياء وانتهاء بمن عرفناهم من الصالحين، الذين خالطناهم، فرأينا فيهم الشرع الشريف والسلوك الحنيف مجسدًا، وحتى لا يستشكل بعضهم فيقول مثلًا: الأنبياء يستجاب دعاؤهم حتمًا، فكيف يستجاب دعاؤنا ولسنا بأنبياء؟ فنقول له: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أوسع من ذلك، ومن إعجاز الكتاب: أنك لو وضعت أي كلمة أخرى موضعها لما أوصلت إلى المعنى المراد؛ لذلك لم يقل سبحانه: (الأنبياء)، أو (الصالحين)، أو (الشهداء) ولكن قال: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فهي أوسع وأشمل.

وهكذا كلام الله، ولا يستطيع بشر أن يفعل هذا، ولا هو في طوق البشر، ويبقى هذا القرآن لا تنتهي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، وترى الناس لا يفهمون حقيقة علاقة المسلم بكتاب الله، فالمسلم متعلق به؛ لأنه معجزة، فـ(أنعمت عليهم) هذه نقف أمامها، ونتأملها، ونتدبرها، ونتلذذ بها؛ لما فيها من إعجاز.

ثم هنا وقفة في غاية الأهمية، ألا وهي: أن الله -سبحانه وتعالى- أبى أن يسوق في كتابه الحقائق والقيم والمبادئ المجردة، إلا إذا ما ربطها بنماذج بشرية تطبيقية،

يستطيع الإنسان أن يتعلق بها، ويحبها، ويتمثلها، ويقتدي بها، فربط سبحانه معنى التسليم بإبراهيم، وربط معنى التوبة والرجوع بآدم، وربط معنى الحكمة بلقمان، إلى آخر تلك النماذج الربانية، والأشخاص الذين هم أهل الاصطفاء، ومحل نظر الله ورضاه عبر التاريخ، ثم رغَّب كل مؤمن في أن يعلق همته بهؤلاء، وأن ينقب عن أحوالهم وأوصافهم، ومناهجهم، حتى قال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[1]، فلم يكتف بأن أمر بالتقوى، حتى حولها إلى نموذج مشخص بشري حي، يمكن أن أراه، وأن أتعامل معه، وأن أتخلق بأخلاقه، وأن أرى كيف يصبر نفسه على مرضاة الله؛ فأفعل مثله.

وهنا قال سبحانه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، ثم حول هذا الصراط، والذي هو معيارٌ لمعرفة الحقائق، ومنهجٌ في الاهتداء، ومسلكٌ صحيحٌ مطابقٌ لمراد الله، فحوَّله سبحانه إلى نموذج بشري حيٍّ، عاش به أناس عظام قبلنا، منهم النبيون والشهداء والصالحون والأولياء وأهل الاستقامة، فقال سبحانه: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[2]، ومن هنا ينفتح لك باب الفهم لمغزى قصص الأنبياء، وكيف أن من وراء كل قصة مغزًى وقيمة، تم التمثيل له نموذج بشري، هو أبرز صور تحقيقه، ويكون هذا المعنى بارزًا في حياته غاية البروز، مما قد سبق حدوثه بالفعل في مسيرة البشرية، من وقائع الأنبياء والرسل مع أقوامهم؛ فتحويل المناهج المجردة إلى نماذج بشرية نمطٌ قرآني يمكن أن يستفاد منه في مناهج التعليم، وفي صناعة الإعلام، وفي المناهج التربوية وغير ذلك.

* * *

(١) سورة التوبة، آية [١١٩].

(٢) سورة النساء، آية [٦٩].

ثم هنا وقفة أخرى في غاية الأهمية، ألا وهي: أن سورة الفاتحة بيان رباني يلخص قضايا الخليقة كلها، ويلخص مراد الله تعالى من خلقه، ويلخص مناهج البشر في التعامل مع الهداية الربانية، وينبه إلى مفاتيح صناعة الهداية، وإلى موارد الانحراف عن مراد الله، فلخصت سورة الفاتحة ثلاثة مناهج: منهج أهل الإنعام والفهم عن الله، وهو في مقابل منهجين منحرفين، لخص الله أسباب انحرافهما في قضيتين هما: الضلال، وغضب الله.

أما الضلال: فمنهج تنبع منه آلاف الإجراءات التي تُنَظِّر له، وتصنع قيمه، وتنشئ فلسفاته، ولعل أصل الضلال: تنحية العلوم الإلهية التي يأتي بها الوحي، وتجريد العلوم البشرية منها تمامًا، وإنكار عالم ما وراء الطبيعة بالكلية، مما يؤدي إلى نشأة توجهات ثقافية كاملة، تقوم عليها دول وشعوب، وأدوار تاريخية كاملة على فلسفة مادية بحتة.

وأما أهل غضب الله، فلهم أيضًا منهج تنبع منه آلاف الإجراءات والخطوات، التي تُنَظِّر له، وتصنع قيمه، وينطلق أهله للتحدث باسم الله زورًا وبهتانًا وهم يعلمون، فيقع الافتراء على الله، ويحدث السعي بالفساد في الأرض ومحادة أمر الله، تحت عنوان تنفيذ مراد الله، فكان هؤلاء أشد خطورة من سابقيهم؛ حتى جعلهم الله أهل غضبه.

ومن سمات هؤلاء: أنهم يدعون الانطلاق لتنفيذ مراد الله، بمعزل عن مصدر موثق ينقلون به الوحي، الذي يبلغ مراد الله، فتدخل الأهواء، ثم نسبة هذه الأهواء إلى الله تعالى.

ومنهج أهل الإنعام وسط بين هذا وذاك، فهم لا ينكرون قضية الألوهية والوحي، وهم أيضًا لا يدَّعونها بالزور والافتراء، بل ينطلقون لتبليغ مراد الله على بصيرة، فمصادر الوحي عندهم محفوظة موثقة، ومناهج فهمه وتحليله في غاية من

الانضباط والعمق والمنهجية، وتراثهم مشبع بمنهج النبيين في حمل الهداية إلى الخلق أجمعين، مع تمام الشفقة على الخلق، والتلطف بهم، والتحمل منهم.

فهات لي واحدًا في البشرية كلها لا يرضى بالفاتحة على هذا النحو، بل تجد أن كل البشر يرتضون الفاتحة؛ لأنه لا حواجز فيها، فنحن نكلم الإنسان كإنسان، ونمد له أيدينا، ونقول له: تعال لتفكر معنا، نحن لا نريد أن نعرف الحق -أي حق- أبدًا ونحيد عنه، فتعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا الله، فهل تحب أن تكون من الضالين؟! لا.. ولا أحد على وجه الأرض يرضى أن يكون من الضالين، وهل ترضى لنفسك أن تكون من أهل غضب الله؟! لا أحد يرضى لنفسه ذلك.

هم يقولون: نحن نريد الشفافية، ونريد الصدق، ونريد حقوق الإنسان، ونريد الحق، ونحن نقول لهم: خذوا كل ذلك من الفاتحة مربوطًا برب العالمين، نابعًا من هداية الوحي الشريف المعصوم، المنزه عن جزئية النظرة، ونسبية المعايير.

وهذا هو الذي جعل القرآن مرجعًا، فإذا أخطأ مفسر أو مترجم؛ نقول له: انتبه، القرآن ليس هكذا، إذ من إعجاز القرآن: أنك لا تستطيع أن تقول في معنى ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ كلمةً تدانيها في سمو لفظها، وإحاطة معانيها، فلمْ تفرق هذه الفاتحة بين الغني والفقير، ولا بين الحاكم والمحكوم، ولا بين الذكر والأنثى، ولا بين المسلم وغير المسلم، ودعت الجميع إلى كلمةٍ سواء، ودلت على منهج واضح، يجب على الدعاة أن يسيروا عليه.

❊ ❊ ❊

وبعد تلاوة الفاتحة نقول: (آمين)، ونقولها أيضًا في الصلاة، مع أنها ليست من القرآن، وهي كلمة جليلة، معناها: (اللهم استجب)، وهذا يدل على أن المسلمين قد نقلوا الكتاب الكريم نقلًا تامًّا، بحروفه، وشكلاته، وكلماته، وآياته، وسوره، كما هو، فلما كانت البسملة آية من الآيات في قراءة عاصم أثبتوها آية، ولما كانت (آمين) ليست

من القرآن في شيء لم يثبتوها، ولو كانوا يقولونها في كل ركعة، فدل الأمر على أن هذا النقل سنة متبعة، أي لا نستطيع أن نزيد فيها من عند أنفسنا، ولا أن ننقص، فهم نقلوا كما نقلت الصحابة، والصحابة فعلت كما أمر النبي ﷺ؛ فلم يذكروا كلمة (آمين).

وعندما طبعوا مصحف الملك فؤاد سنة ١٩٢١ ميلادية الموافق ١٣٤٢ هجرية في المطابع الأميرية، وقد كان أجمل خط كتب به مصحف في التاريخ -خاصة الطباعة- وإن كان في التاريخ هناك ابن البواب، وابن مقلة، وهناك آخرون، ولكن في عالم الطباعة كان أجمل خط طباعي هو مصحف الملك فؤاد، فكتبوا سورة الفاتحة سبع آيات، ويكتبون في السورة: مكية أو مدنية، ويكتبون: نزلت بعد كذا، فاعترض قومٌ على أن تكتب هذه الأشياء حتى في المصاحف؛ لأن هذه الأشياء ما هي إلا تكملة حول المصحف، ليست فيه وإنما حوله، فحتى هذا اعترضوا عليه أيضًا.

وعندما جاء أحمد باشا زكي[1] يصنع علامات الترقيم، وكانوا يسمونه: شيخ العروبة، وكان مهتمًّا بتطوير الحرف المطبعي، وترجم علامات الترقيم من اللغات الأجنبية كالفرنسية والإنجليزية، وعلامات الترقيم هي: الفاصلة أو الشولة، والنقطة، وعلامة الاستفهام، وعلامة التعجب... وهكذا، وكتب كتابًا اسمه: «علامات الترقيم»، ذكر فيه: أن علامات الترقيم هذه لا تصلح للكتاب المبين، وأنا أقول: الكتاب المبين له علامات أخرى مثل: (ج) أي: الوقف جائز، (صلى) أي: الوصل أولى، (قلي) أي: الوقف أولى، (طب) أي: الوقف طيب، (لا) أي: لا تقف، (م) أي: يجب الوقف، (ك) أي: الوقف كافٍ.

فهذه أيضًا علامات ترقيم، وإنما تتفق مع اللغة العربية، ولكن لا يوجد مثلًا

---

(١) أحمد زكي بن إبراهيم باشا، شيخ العروبة، أديب بحَّاثة مشهور، اشتغل بالأدب والترجمة، وترك نتاجًا كبيرًا ما بين بحوث ومقالات، ت ١٣٥٣هـ-١٩٣٤م، ترجم له الزركلي في «الأعلام»: (١/ ١٢٦).

فصل تام؛ فقد يكون الوصل أولى ويجوز الوقف، أو الوقف أولى ويجوز الوصل، فهذه قضية أخرى متسقة مع مفاهيم اللغة ودلالتها؛ ولذلك نريد باحثًا جيدًا يدرس لنا المقارنة ما بين علامات الترقيم في اللغات الأجنبية وعلامات الوقف في كلام الله تعالى.

فجاء الشيخ أحمد باشا زكي وقال: لا تصلح هذه العلامات للكتاب ولا للسنة، وبالفعل تمت صيانة الكتاب عنها، ولكن السنة استُعلمت فيها علامات الترقيم.

فكلام الله معجز وصلنا كما هو، فلما وجدت الصحابة الكرام (بسم الله الرحمن الرحيم) في سورة البقرة، وليست آية منها، كتبوها كما تركها رسول الله ﷺ، ولم يجعلوها آية، ولا وضعوا لها رقم الآية، لكنهم جعلوها آية من الفاتحة، ولم يجعلوها آية في البقرة، ونأتي في سورة التوبة لا نجد فيها (بسم الله الرحمن الرحيم)، وهذا الاختلاف في اعتبارها آية أو عدم اعتبارها آية، أو عدم كتابتها، كل ذلك للاتباع لما ورد.

فالأصل في هذا الكتاب العزيز هو الاتباع، وأن نقرأه كما تلقيناه، فعلى من قرأناه؟؟ قرأناه على الشيخ: إسماعيل الهمداني[(١)] -رحمه الله تعالى-، والشيخ الهمداني قرأه على الشيخ أحمد الزيات[(٢)]، والشيخ الزيات قرأه على الشيخ خليل

(١) العلَّامة القارئ المتقن الشيخ محمد إسماعيل الهمداني، شيخ مقرأة الجامع الأزهر الشريف، كان محررًا ومتقنًا جدًّا للقراءات وفنونها، حدثنا شيخنا الإمام صاحب هذا التفسير: أن الشيخ الهمداني بلغ من الإتقان للفن بحيث إنه يستدرك على ابن الجزري والشاطبي وأضرابهما من الفحول والأئمة الكبار، وأنه أخذ القراءات على العلامة الشيخ أحمد الزيات ولم يستجزه بعد التخرج، فلما علم بأهمية الإجازة -والتي هي شهادة له بالدراسة على الشيخ- رجع إليه وطلبها منه، فأبى إلا أن يقرأ عليه مرة ثانية كما لو كان مبتدئًا، ففعل فأجازه، رحم الله الجميع، توفي سنة ١٤٠٩هـ.

(٢) هو العلامة المقرئ الفقيه المعمر الشيخ أحمد بن عبد العزيز الزيات، ولد بالقاهرة سنة ١٣٢٤هـ وتوفي يوم الأحد السادس عشر من شهر شعبان ١٤٢٤هـ عن تسعة وتسعين عامًا، التحق بالأزهر الشريف بعد أن حفظ القرآن الكريم، وحصل على كثير من العلوم العربية والشرعية، ثم أخذ القراءات العشر الصغرى من طريقي الشاطبية والدرة، والعشر الكبرى من طريق طيبة النشر، عن الشيخين الكبيرين: الشيخ خليل الجنايني، =

الجنايني[1]، والشيخ خليل الجنايني قرأه على الشيخ المتولّي الكبير[2]، والشيخ المتولّي الكبير قرأه على... وهكذا، حتى أن نصل به إلى سيدنا رسول الله ﷺ، وكذلك القراءات العشر، فقراءة تكون وضعًا، وقراءة أخرى تكون وضعًا آخر، ولكل قراءة قانون؛ مما يؤكد بقاء المصحف على ما كان عليه، وعلى ما تركه لنا سيدنا رسول الله ﷺ، وصدق الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[3].

= والعلَّامة الشيخ عبد الفتاح هنيدي، وهما قد أخذا عن العلَّامة الكبير شيخ الديار المصرية في القراءة والإقراء في وقته الشيخ محمد بن أحمد، الشهير بالمتولي، ثم جلس للإقراء بمنزله جوار الأزهر حتى اختير مدرسًا للقراءات عند تأسيس معهد القراءات إلى أن تقاعد، وقد تخرَّج به عدد من العلماء المحققين في فن القراءات، ألف: «تنقيح فتح الكريم، في تحرير أوجه القرآن العظيم» من طريق طيبة النشر، نظم سلس، وهو من أنفس كتب تحرير طيبة النشر، «شرح تنقيح فتح الكريم»، وهو مخطوط ينقله كل من أخذ عنه القراءات العشر من طريق طيبة النشر، تحقيق «عمدة العرفان» للأزميري مع تلميذه الشيخ جابر المصري، وقد ترجم له تلميذه العلامة الشيخ عبد الفتاح عجمي المرصفي ت ١٧ جمادى الآخرة ١٤٠٩هـ في كتابه: «هداية القاري، إلى تجويد كلام الباري».

(١) العلَّامة المقرئ المحقق خليل محمد غنيم الجنايني ت١٣٤٧هـ، تلقى من المتولي علم القراءات بجميع طرقه، أي بمضمن كل من الشاطبية، والدرة، والطيبة، والفوائد المعتبرة للمتولي، وأخذ العلوم الشرعية والعربية من علماء عصره، وتصدر لإقراء القراءات فأخذ عنه جماعة كثيرة، منهم: العلَّامة الشيخ حنفي السقا، والشيخ سيد الغوري، والشيخ عبد الله البطران، والشيخ أحمد الزيات، له ثلاثة كتب في الرد على من قال بمنع جمع القرآن في المحافل وهي: «هداية القراء والمقرئين»، و«البرهان الوقاد»، و«القسطاس المستقيم»، وجميعها مطبوع، وقد كان -رحمه الله- من مشاهير القراء في المحافل في وقته، انظر ترجمته في: «الأعلام» للزركلي: (٢/ ٣٢٣)، و«النور المتجلي، في ترجمة المتولي»: (ص٩).

(٢) هو الإمام الحجة الكبير، تاج القراء، ابن جزري زمانه، الشيخ محمد بن أحمد بن الحسن المتولي، توفي يوم الخميس الحادي عشر من ربيع الأول سنة ١٣١٣هـ عن خمس وستين سنة، تقدم جدًّا في إتقان القراءات ومتعلقاتها، وحرر في هذا الفن وبرع، حتى اشتهر أمره فقصده الطلبة من مصر والشام والحجاز وموريتانيا وغيرها. حتى غدا إمام أهل زمانه في تلك الفنون، وتخرَّج به عدد من أئمة الفن بعده، ترجم له الأستاذ/ إبراهيم سعيد الدوسري في كتاب، اسمه: «الإمام المتولي وجهوده في علم القراءات» طبع في مكتبة الرشد، وترجم له الأستاذ خالد حسن أبو الجود في كتاب، اسمه: «النور المتجلي، في ترجمة المتولي».

(٣) سورة الحجر، آية [٩].

تفسير
سُورة البقرة

تفسير سورة البقرة

سورة البقرة هي السورة الثانية في المصحف الشريف، وتأتي بعد الفاتحة مباشرة، وكأن الله تعالى قد أجمل المقاصد والمطالب في سورة الفاتحة، ثم جعل القرآن كله تفسيرًا وتفصيلًا لما أُجمل في سورة الفاتحة من المطالب، والمقاصد، والحكم، والعلوم، والمعارف، المنزلة من حضرة الحق سبحانه على الخلائق.

وكأن الحق سبحانه بعد أن ساق البيان الرباني الأول، المشتمل على مقاصد هذا الدين إجمالًا، في سورة الفاتحة، شرع بعدها في أوسع صورة من صور التفصيل والإبانة، لما هو مُكْتَنَزٌ في سورة الفاتحة من المعاني؛ فكانت سورة البقرة أطولَ سور القرآن على الإطلاق؛ لأنها مفتتح الإبانة عن المقاصد التفصيلية التي أرادها الله تعالى من خلقه، ولأنها أيضًا قد اشتملت على إرساء الأسس والأصول والأركان التي تنهض عليها هذه الديانة، وتبنى عليها هذه الشريعة.

وقد اشتملت سورة البقرة على أصول هذا الدين، وعلى انقسام البشر إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين، وعلى أن التسليم للحق سبحانه هو أصل الإيمان، وهو الذي قامت عليه قضية الخليقة من بدايتها، بعد أن بين الله للملائكة أن اصطفاءه لآدم من ورائه علم الله المحيط بخلقه، ومراتبهم في الفضل، ثم توسعت السورة في مناقشة آثار عدم التسليم، كما هو في قصة أصحاب البقرة، وكما هو في طوائف من أهل الكتاب، حتى عبرت السورة على قصة إبراهيم عليه السلام، وبينت معاقد التسليم والربانية التي انطوت عليها شخصيته، وكيف نقل ذلك ولقنه لذريته وعقبه، وكيف أن عدم التسليم لمراد الحق سبحانه أفضى إلى المنازعة في قضية تحويل القبلة، حتى تعبر السورة على قضايا الوصايا والقصاص والصيام والحج والطلاق والعِدَدِ والقتال

والمداينات، مع ما في تضاعيف كل قضيةٍ منها من الاحتكام إلى الحق سبحانه، وفهم مراده، واستخراج المعيارية السلوكية أو القضائية أو النفسية من تلك التشريعات، وهكذا إلى آخر السورة الكريمة.

كل ذلك مع المناقشة والمحاورة، وشرح أصول هذه الديانة من خلال كل ذلك، وغرس معاني الإيمان بالغيب وتعظيم شعائر الله تعالى.

وقد سُمّيت سورة البقرة بذلك؛ لأن الله تعالى قد ذَكَرَ فيها شأن البقرة، التي كانت في قوم موسى، وهو شأنٌ عظيم يُبيِّن لنا حال هؤلاء الناس، ومدى طاعتهم، ومدى عصيانهم، وما الذي نستفيده من هذا كله.

إننا نستفيد كيفية المعاملة مع الله رب العالمين، كما سنرى ذلك بالتفصيل عندما نأتي إلى القصة، فربنا سبحانه يريد منا أن نفهم عنه، وأن لا نتعامل مع أوامره بنفسية المجادل المتعنت، الذي يكثر من أسئلة العناد والمكابرة، فنشدد بذلك على أنفسنا، وربنا سبحانه يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[1]، ويقول سبحانه بعدها: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ﴾[2] أي أصبحوا بسببها كافرين، ويقول سيدنا رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ**»[3]، فما هو لون هذه البقرة؟ وما هو شكلها؟ وما صفتها؟ وفي كل مرة يشددون فيشدد الله عليهم.

ولذلك أيها المؤمن لا تكن كأولئك الذين شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم؛ فالدين يسر، وكلما ضيقت على نفسك؛ حوسبت، فنحن نريد تربية الناس تربية

(١) سورة المائدة، آية [١٠١].

(٢) سورة المائدة، آية [١٠٢].

(٣) رواه مسلم في «صحيحه»: (٤/ ١٨٣٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى»: (٤/ ١٨٣٠)، والدارقطني في «السنن»: (٢/ ٢٨١)، والطبراني في «الأوسط»: (٨/ ٣٢٩) عن أبي هريرة ﷺ.

أخرى، أن يقتنعوا بما معهم ويتقنوه ولا ينصرفوا عن العمل إلى الجدل النظري البحت الذي ليس من ورائه طائل ولا تخف، فغياب بعض الأمور عنك لا يجعلك مسئولًا عن هذا الحكم.

فهذه هي سورة البقرة، لم تأت من أجل أن تقص علينا واقعة جزئية حدثت في زمن مضى وانتهى الأمر؛ بل جاءت من أجل أن تعلم البشرية كيف يتعامل المؤمن مع ربه، وكيف يكون مرضيًّا عند الله، ولتعلمنا أن أشد الناس عذابًا يوم القيامة شخص سأل عن شيء فحرَّم الله هذا الشيء من أجل مسألته، أي أنه بسؤاله ضيق على الأمة، وقد كان هذا حينما كان الوحي يتنزل، ثم هو مستمر إلى يوم القيامة، فالله يريد بك اليسر ولا يريد بك العسر، ويريد منك الهمة ولا يريد منك الكسل، ويريد منك أن تفعل وأن تتقن عملك فيما تعرف، وأن لا يكن عندك شهوة للمعرفة فيما لا تقدر عليه، وأن تتحمل مسئوليتك وتعرف دورك تجاه الأمة، وأن التصرف الفردي قد تترتب عليه مشقة على الأمة، فكن على قدر المسئولية، وسَدِّدوا وقارِبوا، واعلموا أنه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1]، وهذا الشأن لا يفهمه كثير من الناس، ويعتقد الواحد منهم أنه إن لم يسأل، ويفتش، ويدقق، ويزداد في الأسئلة؛ يكون مقصرًا.

وهناك فارق كبير بين السؤال الذي يؤدي إلى المعرفة والتعلم، وفتح آفاق البحث العلمي النزيه الحر، الذي تُبنى على مثله الحضارات، وبين السؤال الناشئ من نفسية الترف والثرثرة والمكابرة، والمعاندة للحق جل شأنه، فهذا سؤال نابع من نفسية ترفض معنى الإيمان، وتأبى مبدأ الخضوع للحق سبحانه أو الانقياد لشرعه، فيجب علينا أن نربي أبناءنا على هذا المعنى الذي جاءت به سورة البقرة، وأن نلفت

---

(١) سورة البقرة، آية [٢٨٦].

أنظارهم إلى الفارق الكبير بين السؤال الذي يبني علمًا ومعرفة، وينتج ثقافة وفكرًا، ويغوص في أعماق الوجود، وفي أسرار الشرع، وبين السؤال المعاند الجاحد، الذي يسأل ليتهرب وليتفلت، وتعالوا لنعايش جميعًا سورة البقرة، ولنستمد من هداية الله تعالى شعاعًا وقبسًا، قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١﴾

[البقرة: ١]

هذه الحروف المقطَّعة معجزة فوق معجزة؛ فإن الله جل شأنه بدأ في تسع وعشرين سورة من القرآن الكريم بهذه الحروف المقطعة، والحروف المقطعة التي بدأ الله تعالى بها تلك السورة، عندما نجمعها ونطرح منها المكرر؛ فإنها تنتهي إلى أربعة عشر حرفًا، فهي على النصف من حروف الهجاء؛ لأن عدد حروف الهجاء ثمانية وعشرون كما هو معلوم، فجمعوا هذه الحروف وحذفوا المكرر، وكونوا منها جملة مفيدة، فإذا بها: (نصٌّ حكيمٌ قاطعٌ له سر)، أو(طرق سمعك النصيحة)، أو(صح طريقك مع السنة)، وكل هذه العبارات تجميع وصياغة لنفس الحروف، وهكذا القرآن: (نص حكيم قاطع له سر).

وقد وجدوا شيئًا عجيبًا، وهو أن هناك ستًّا من السور تبدأ بـ(الم)، فوجدوا أن الألف واللام والميم في هذه السور، هي الأكثر في نسبة هذه الحروف في القرآن الكريم كله، فلو حصرنا النونات المستعملة في هذه السورة مثلًا؛ لوجدنا أن نسبة هذه النونات بالنسبة إلى عدد حروف هذه السورة أكبر نسبة في القرآن، وعندما تأتي بالنون في سورة البقرة على عدد حروف سورة البقرة تجدها أقل، وقد يكون العدد أكثر لكن النسبة أقل، وهذه ظاهرة غريبة، تؤكد معنًى مهمًّا، وهو أن هذا القرآن لم يكن من تأليف أحد من البشر، وأن هذا القرآن لم يكن في طوق أحد، وأن هذا القرآن بهذه الخصائص العجيبة الغريبة لم يكن بيد أحد.

ومنذ أن نزل القرآن الكريم إلى اليوم والعلماء بمختلف مشاربهم ومدارسهم العلمية، وعبر طبقات تاريخهم الطويل، يتفكرون ويتأملون في المعاني المحتملة في ﴿الٓمٓ﴾؛ فتلُوح لهم معانٍ، واحتمالات، وإشارات، وأسرار، وبحوث، حتى إنه لتخطر لي أحيانًا فكرة مهمة جدًّا، ألا وهي: لو أن باحثًا، أو مؤسسة علمية، عكفت على جمعٍ ورصدٍ وحصرٍ لكل ما كتب في تفاسير القرآن عبر أربعة عشر قرنًا حول: ﴿الٓمٓ﴾، مع رصد البحوث المعاصرة التي أثيرت حولها، ثم حذف المكرر منها، ثم التنبيه على المعاني المحتملة التي قيلت، ثم التنبيه على البحوث المبتكرة التي كانت ربما انقدحت لأحد المفسرين، مما لم يذكره من سبقه، ثم نرى المناهج والاتجاهات التي استخدمها المسلمون وطبقوها في فهم القرآن الكريم وتحليله، فلو خرج هذا البحث؛ لكان مرصدًا مهمًّا جدًّا لنتيجة إعمال الفكر البشري، وتلك العقول العبقرية التي حركت المفسرين عبر الزمن، في فهم هذه الأحرف القرآنية، مما لم يوجد له نظير حول أي كتاب عبر التاريخ، من احتشاد العقول على محاولة الفهم والتحليل، بعد الفراغ من قضية الثبوت وتصحيح النقل والأداء.

وفي القدر الذي اطلعنا عليه من التفاسير، ومن كتب علوم القرآن، ومن البحوث القرآنية المعاصرة، رأيناهم يذكرون فوائد كثيرة جدًّا، منها أن هذا تحدٍّ للعرب، فكأنه سبحانه يقول: هذه حروفكم، وهذا القرآن مكوّن منها، وأنتم لا تستطيعون -وأنتم تتكلمون وتستعملون هذه الحروف- أن تأتوا بمثله.

وبعضهم قال: هذه الحروف للتنبيه، فإذا قال: ﴿الٓمٓ﴾؛ فإن العربي الذي امتلأ بالصدود والإعراض، إذا سمع (الم) جذبت انتباهه، واستغربها سمعه، فيصغي لما بعدها.

وبعضهم قال: كانت العرب تعبر بالحروف المفردة عن الكلمات، ومنه قول زهير:

فقلت لها: قفي، فقالت: ق * ....

فنطق بحرف القاف المفرد، ومراده أن يجتزئ به عن كلمة (وقفت)، فيكون كل حرف من هذه الحروف القرآنية مقتطعًا من كلمة، فلعل الألف في ﴿الٓمٓ﴾ من (الله)، واللام من (جبريل)، والميم من (محمد)، فتكون تلك الأحرف إشارة إلى سلسلة الوحي، أي: أن الله تعالى أنزل جبريل على قلب محمد ﷺ بذلك القرآن، فعندما يسمع العربي ﴿الٓمٓ﴾ بعدما يسمع ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ويعلم أن محمدًا ﷺ هو الذي يقرأ هذا الكلام؛ فإنه يرد على ذهنه هذا المعنى.

وبعضهم قال، وبعضهم قال، حتى وصلت الأقوال في محاولة تفسيرها إلى نحو ألف قول، وهذا معناه أنه كتاب يحرك الذهن، وأنه كتاب يدعو إلى التدبر، وأنه كتاب يدعوك إلى التأمل والإبداع، وأنه يحترم اختلاف الآراء.

وأتذكر أن شيخي: الشيخ أحمد مرسي -رحمه الله تعالى- كان يتحدث عن شيخه: الشيخ محمد راشد، وذلك أنه عندما تكوَّنت هيئة كِبار العلماء سنة ١٩١١م كان الشيخ محمد راشد هو الاسم الأول فيها، وكان هو أستاذ التفسير في الجامع الأزهر الشريف، قبل إنشاء الكليات بربع قرن تقريبًا، وكان هو إمام الخاصَّة الخديوية، أيام الخديوي عباس حلمي، وكان -رحمه الله- من الأتقياء الأنقياء، جلس مرة مع الشيخ محمد أمين البغدادي النقشبندي، فقال له: (ليس لي من عملٍ إلا أنني أُصلي ركعتين بالليل، لا يعلَمُ عنهما أحد، حتى أهلي، وأنني لم أترُك هاتين الركعتين والحمد لله أبدًا، لا في حَلّي ولا في ترحالي، ولا في مرضي ولا في صحتي)، فهذه هي الديمومة التي هي عين المنهج النبوي، والغريب العجيب أن يوفقَهُ الله تعالى أن يستر عن أهله سِرَّه في الركعتين، وهذا أمرٌ لو حاولتَهُ لعَرَفْتَ عَمَّن نتكلَّم، والمقصود: أن الشيخ أحمد مرسي يَصِفُهُ فيقول: جلس الشيخ محمد راشد في يوم من الأيام في ساحة الأزهر الشريف، وقد بدأت السنة الدراسية، وجاء الوقت على تفسير

الحواميم، والحواميم في القرآن سبعة متتالية في ترتيب المصحف، فقال أحد الطلاب: نُريدُ أن نسمعَ منك شيئًا تُفَسِّر لنا به هذه الحروف المقطَّعة عمومًا، وتفسر لنا (حم) خصوصًا، فقال الشيخ محمد راشد: هل تريد أن نجلس لتفسير هذه الآية (حم) في درس؟ أو في أسبوع؟ أو في شهر؟ أو في سنة؟ فإنني أستطيع أن أجلس سنة لتفسير (حم)، فتعجب الطلبة وقالوا: بل اجعلها شهرًا؛ فإن خير الأمور الوسط، فاتفقوا على شهر، وجلس الشيخ يُفَسِّر (حم)، ويكتب الطلاب كلامه، إلى أن وصل في آخر الشهر إلى ستة وخمسين تفسيرًا لـ(حم)، ثم قال بعد انتهائه: (واعلموا يا أبنائي أن كل (حم) في القرآن -وعددها سبعة- لها تفسيرات أخرى، مغايرة للخمسين تفسيرًا التي ذكرتها لـ(حم) الأولى).

فالشيخ أحمد مرسي -رحمه الله تعالى- وهو يتكلَّم عن هذا العلاَّمة الجليل يقول: كان يَذْكُرُ أشياءً عجيبة من كتب الأدب، ومن كتب التاريخ، ومن كتب اللغة ومن قواميسها، ومن كتب الفقه، ومن كتب عِلم الكلام والأصول، ولا يقصر نفسه على كتب التفسير، ويأتي بالعجب العُجَاب من هذه الكتب فيما يتعلَّق بما يُفَسِّرُهُ، رحمهُ الله تعالى.

فهذا كتاب لا تنتهي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، فأين المتطاولون على كلام ربنا -سبحانه وتعالى- من ذلك العلم!!

قال سبحانه: ﴿الٓمٓ﴾ فالتفتت العرب، واستمعت، بالرغم من تواصيهم بعدم الاستماع، وآمنوا، وأسلموا، وحسن إسلامهم، وخرجوا من جزيرة العرب، ينشرون النور من الأندلس إلى الهند والصين في مائة سنة، ولم يُكْرِهوا أحدًا أبدًا.

بعدما تنبهوا من نَسَق ﴿الٓمٓ﴾، والتفتوا منها إلى اللغة، كيف تخاطب البشر؟ وكيف ندعو بها؟ وكيف نصل إلى القلوب من خلالها؟ فـ(الم) هي حروف هذه اللغة، وهذا الكتاب من عند الله، والوحي حق، والإنسان من غير اعتبار الوحي

تـائـه، فقـد قـال سبحـانـه: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾(١)، ثـم قـال: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾(٢)، فأمرنا بالقراءة مرتين، قراءة في الكون المنظور، وقراءة في الكون المسطور؛ فصرنا نأخذ معارفنا من هذا الكون الذي خلقه الله تعالى، ومن هذا الكتاب الكريم الذي أكرمنا الله تعالى به.

ومن لم يعرف معنًى لهذه الأحرف الكريمة؛ فإنه يقف بإجلالٍ أمام هذا الكتاب الكريم، فما كل شيء تستطيع أن تعرفه بسهولة، بل هناك دقائق في كل علم، تحرك العقول، وتدفع الأذهان للفكر، ويتبين لنا بها أنه فوق كل ذي علم عليم.

---

(١) سورة العلق، آية [١].

(٢) سورة العلق، الآيتان [٣، ٤].

ثم قال سبحانه:

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾

[البقرة: ٢]

كلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾ تأتي في اللغة العربية للإشارة إلى البعيد، ولكن الله تعالى قريب، فكيف يصح ذلك؟ الحقيقة أنه لا بد من مزيد تدقيق وتبصر بالمستويات العليا لمدلول هذه الكلمة، وأنت إذا تأملت وجدت أن كلمة (ذلك) تأتي للتعظيم، مثالها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1] فهي هنا للتعظيم، وكأن البعد فيها بعد منزلة، فهو في منزلة بعيدة التناول؛ لعظمة شأنها، وعندما يسمع العربي كلمة (ذلك)، ثم يشاهد ما بعدها وأنه قريب، يستشعر العظمة، فإذا قلت: ذلك الرجل؛ فإنه يحس بأن هذا الرجل عظيم، وعندما يسمع قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ يداخله إحساس بالفخامة والعظمة.

فلما أن قال المولى سبحانه هنا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، وهو قريب بين أيدينا، أفاد ذلك معنى العظمة، فهو كتاب عظيم ليس ككل الكتب؛ ولذلك لا نضع شيئًا أعلاه، ويناوله أحدنا لأخيه باحترام وإجلال؛ ولذلك أيضًا فالمصحف لا يمسه إلا طاهر.

ثم لدينا اسم الإشارة (ذا) تدخل عليه هاء التنبيه فتصبح: هذا، وتدخل عليها الكاف التي للخطاب فتصبح: ذاك، وتدخل عليها اللام؛ فإن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا، فتصبح: ذلك، فهي أربعة أحرف، ولكن الألف لا تكتب؛

(١) سورة السجدة، آية [٦].

ولأجل ذلك التركيب جعلوها للبعيد أو للعظيم.

أما الكتاب، فالألف واللام قد تكون للجنس، وقد تكون للعهد: الحضوري، أو الذهني، أو اللفظي، وقد تكون للاستغراق، لكنها هنا لا تصلح للاستغراق، ولا للجنس، فتصبح للعهد الحضوري أو الذهني.

وكلمة الكتاب، إذا ذهبنا إلى جذرها؛ وجدنا: (ك ت ب) معناها: ضم شيئًا إلى شيء، وسُمِي كتابًا؛ لأنه ضم الحرف إلى أخيه فصارت كلمة، وضم الكلمة إلى أختها فصارت آية، وضم الآية إلى أختها فصارت سورة، فكتب، أي: ضم، والكتاب مصدر أطلق على هذه الذات، وهو المصحف الشريف، أو المتلو بالألسنة، أو القائم بالأذهان والقلوب، أو أطلق على المعاني كلها، فهذه وجوه لشيء واحد، مثل المكعب، له ستة أوجه، وكله مكعب واحد.

ومنه الكتيبة، ومعناها: ضم عسكري إلى عسكري فصنع فصيلة، وضم فصيلة لفصيلة فصنع كتيبة، فالكتيبة جاءت من الضم، والكتاب فيه ضم.

فالكتاب له خصوصية بذلك عن كل وسيلة اتصال، وهو هنا سماه كتابًا ولم يسمه مصحفًا، ولا صحفًا، ولا متلوًّا، ولا مقروءًا، ولا أي شيء آخر مما يصلح أن تسمى به هذه الآيات أو السور؛ ولذا سيظل الكتاب الوسيلة الأكثر فاعلية في تربية الإنسان، لماذا؟

انظر إلى الفارق بين هذا الكتاب وبين الفوتونات الضوئية التي تكون على الإنترنت، والتي تكون على شاشة الكمبيوتر، تجد أنها سريعة الزوال، وليست بثابتة، فإذا فسدت الأسطوانة أو انقطعت الكهرباء تلاشى المكتوب، بينما الكتاب موجود، تستطيع أن تراجعه في ليل أو نهار، فالكتاب يقتضي المراجعة، وتستطيع الرجوع إليه في أي وقت، ومعنى المراجعة التكرار، فما الدافع للرجوع إليه؟ وما الدافع إلى هذه

المراجعة؟ الدافع قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[1]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[2].

فهدف المراجعة هو التدبر، وهو سبحانه يريدك أن تتدبر، ولا يتأتى التدبر إلا بالمراجعة، والمراجعة لا تتأتى إلا مع الثابت، والثابت هو الكتاب، فسيظل الكتاب هو الوسيلة المثلى لإيصال المعلومات والفهم إلى بني البشر، ولا يفهم من هذا أننا ضد الإنترنت، بل نحن ندعو إلى الانتفاع بكل إمكانياته المعرفية، ولكن القضية حقيقة من الحقائق، وهي أن هذا الكتاب سمَّاه ربنا كتابًا؛ للمراجعة من أجل التأمل، والتدبر، والتكرار، ومن أجل أن يستفيد الإنسان منه فائدة بعد فائدة، ولما فيه من خاصية عجيبة وهي استنباط أحكام جديدة أبدًا كلما رجعت إليه، لا يناقض بعضها بعضًا، بل تتسع دائرة المعرفة بها، وهذه خاصية من خصائص القرآن سوف نشاهدها معًا.

وقد ذكر المفسرون نحو عشرة أقوال في الكتاب، وهو من اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، لكن نحن نريد أن نعيش معه لا أن نورد كلام المفسرين.

وقوله سبحانه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ نفي للريب، والريب يطلق في لغة العرب على الشك، أي: لا شك فيه، ويطلق على الحاجة، قال الشاعر:

قضينا من تهامة كل ريبٍ * ....

أي: كل حاجة، ويطلق على التهمة، تقول العرب: أربتني، أي: اتهمتني، قال جميل:

قالت بثينةُ يا جميلُ أربتني * فقلتُ كلانا يا بثينُ مريبُ

فالريب يطلق بمعنى التهمة، ويطلق بمعنى الحاجة، ويطلق بمعنى الشك،

---

(١) سورة النساء، آية [٨٢].
(٢) سورة محمد، آية [٢٤].

فهل يجوز أن ننفي الريب بكل معانيه عن الكتاب؛ فإنه لا شك فيه، وإنه لا تهمة فيه، وإنه محقق للاحتياج الأصلي الذي لأجله خلق الإنسان، وهو الوصول إلى الله؛ بحيث إننا ندخل إلى هذا الكتاب ونحن لا نريد به شيئًا سوى الله، يجوز ذلك، فنحن لا نريد به إلا وجه الله، لا نريد به دنيا، ولا أن نتأثل مالاً.

ثم هنا ما يسمى بعلامة التعانق، وأنت تراها في المصحف على هيئة ثلاث نقاط، بعضها فوق بعض، مكررة مرتين، وحكمها أنه يجوز لك أن تقف عند الأولى فلا تقف عند الثانية، وإذا وقفت عند الثانية فلا تقف عند الأولى، ونرى علامة التعانق في المصحف الشريف هنا عند قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ﴾ وعليها علامة التعانق، ثم ﴿فِيهِ ۛ﴾ وعليها علامة التعانق، وعلى ذلك فيمكن أن نقرأ هذه الآية على وجهين: الأول: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ﴾ ثم ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، والوجه الثاني: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثم ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

والفرق بينهما: أنك إذا قلت: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ﴾ ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ فإنه يكون هداية لبعض المتقين، ولا يكون هداية دائمًا للمتقين، بل إن بعض المتقين يُغلق عليهم، ولكن ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ معناه: إذا كنت تقيًّا فسوف يفتح الله لك في هذا القرآن ما لم تكن تعرفه، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾[1]، وعلى ذلك إذا لم يفتح عليك؛ فأنت لم تصل إلى درجة المتقين، فالأُولى: لا استلزام فيها بين وصولك للفتح وبين التقوى، بل قد تكون تقيًّا ولم يفتح عليك بعد، والثانية: فيها استلزام بين الفتح وبين التقوى، إذا لم يفتح عليك؛ فإنك لست تقيًّا؛ لأنك لم تصل إلى الدرجة التي سيعلمك الله فيها بتقواك، وإن كنت مؤمنًا ومسلمًا، أو أن الوقف على الصورة الأولى يجعل الهدى شيئًا مما يندرج فيه، والوقف على الصورة الثانية يجعله كله هدًى؛ فالهداية شأنه وشأن كل كلمة فيه.

---

(١) سورة البقرة، آية [٢٨٢].

وكلاهما معنًى صحيح؛ ولذلك يجوز أن تقرأ هكذا وتقرأ هكذا، وإن كان غالب مشايخنا يقرأونها ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فيكون هذا الكتاب كله هدًى للمتقين دائمًا، وأن المتقي إذا وصل إلى هذه الدرجة فتح عليه بالهداية بواسطة كتابه سبحانه، وهذا الكتاب كما أنه هدًى للمتقين، فهو حسرة على الظالمين، وهو مغلق أمام الذين لا يؤمنون ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[(١)].

هذا الكتاب إذًا هداية، ولكنه هداية للمتقين، والهداية كما سبق في سورة الفاتحة على ثلاثة أنواع: منها التوفيق، ومنها الدلالة والفهم، ومنها هداية المكان، والقرآن يقوم بهداية الدلالة، فهو يدل على الخير، والقرآن وهو يدل على الخير ليس فيه ما يرغم، إنما هو دال، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وأما الحساب للمؤمن والكافر فهو يوم القيامة ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[(٢)]، إنما هنا ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾[(٣)]، و﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾[(٤)]، ثم بعد ذلك نرجع إلى ربنا، ونعود إليه، في يوم ينبئنا فيه بما كنا نعمل، وبما كنا فيه نختلف، ويحكم بيننا فيما كنا فيه نختلف وهكذا، ولكن القضية هي: أن هذه الحياة الدنيا فيها دعوة وهداية وتعليم ودلالة وبيان؛ قال سبحانه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[(٥)].

هذه هي حقيقة القرآن، أنه هدًى للمتقين، وأنه لا ريب فيه، وأنه ذلك الكتاب العظيم الذي يحمله من آمن به للناس أجمعين.

---

(١) سورة فصلت، آية [٤٤].
(٢) سورة الكهف، آية [٢٩].
(٣) سورة الكافرون، آية [٦].
(٤) سورة البقرة، آية [٢٥٦].
(٥) سورة النحل، آية [١٢٥].

فإذا نحن فعلنا ذلك؛ سرنا على الدرب، درب الذين أنعم الله عليهم والمهتدين، درب منزه عن أن يغضب الله علينا فيه، وعن أن نضل، وعن أن نحتار، كما سألناه سبحانه ذلك كله في الفاتحة.

فهذا القرآن العظيم يبدأ بهاتين الآيتين العظيمتين: ﴿الٓمٓ﴾ وهي آية، ثم ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، ثم يصف سبحانه هؤلاء المتقين، فيقول:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾.

[البقرة: ٣]

كلمة: (الذين) اسم موصول، وقد جاءت بعد معرفة، وهي كلمة المتقين، التي انتهت بها الآية السابقة، والقاعدة: أن الاسم الموصول إذا جاء بعد معرفة يكون صفة، فكأنه عندما قال: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أراد أن يصف المتقين بمشتملاتها ومضمونها، ونظيرها قولك: (مصر التي في خاطري وفي دمي)، فكلمة مصر معرفة، وبعدها اسم موصول وهو كلمة (التي)، فهي صفة لمصر، فما صفتها هنا؟ صفتها أنها دائما في فؤادي وخاطري، أي: أنني أحبها، وكذلك هنا، فهو يصف المتقين بصفات متعددة متوالية، فتكون هذه الصفات هي عناصر التقوى ومكوناتها، وأول هذه الصفات: أن تؤمن بالغيب؛ ولذلك عندما سئل سيدنا عليّ ﷺ عن التقوى؛ قال: (الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرِّضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل)، وكلها غيب، وفي بيان معنى التقوى عند العلماء كلام كثير.

أما الإيمان بالغيب فهو أساس هذا الدين، وهو الضابط الذي ننطلق منه في حياتنا، فنبدأ حياتنا ونحن نؤمن بالله، ونؤمن بما أنزل، نبدأها ونحن نعلم أننا في التزام وتكليف، وأن هناك يومًا آخر سنعود فيه إلى ربنا، ونحن موقنون مطمئنون إلى أننا في ذلك اليوم نطمع في وجه الله الكريم أن يدخلنا الجنة، وأن يقيمنا في الخير والهدى في هذه الحياة الدنيا، وأن يوفقنا إلى ما يحب ويرضى، ثم ننطلق لنعمل ونعمر الأرض على هدى من الله، هذا هو المسلم الحقيقي الذي يحقق مضمون قوله تعالى:

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[1].

إذًا لا بد للإنسان في نفسه من أن يكون تقيًّا، ولا ينتصر في هذه الحياة الدنيا إلا من خلال أمته، الذين يجب عليهم أيضًا أن يكونوا أتقياء، فإن كان وحده تقيًّا نجح في حياته، وأكرمه الله، ولكن هل ينجح وحده إذا كان مَن حوله في حال فشل وانهيار، وليسوا بأتقياء؟؟ وللإجابة على ذلك عبّر سبحانه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فهي إذًا تخاطب جمعًا، وتريد أن يكون التوجه العام في المجتمع مُتَّصفًا بالأوصاف المذكورة، وكأن هذا الدين لا يتم إلا في مجموع، وفي أمة.

بعض الناس يسأل: لماذا تخلّف المسلمون؟!! فنقول: لأنهم خرجوا عن حَدّ التقوى الجماعية، التي تَكُونُ سمتًا عامًّا للمجتمع بأسره، فترى بعض الأشخاص يقولون: نحن لم نخرج عن التقوى، نعم، أنت لم تخرج ولذا سوف تنجح وتوفق، وسوف يكرمك الله تعالى، لكننا نريد لهذا الدين أن يكون مبنيًّا على كلمة ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والتي يستفاد منها عموم التقوى، وشيوعها في المجتمع، وكلمة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هذه تثبت أنه دين دعوة وليس دينًا شخصيًّا، ليس فيه (آمن واسكت)، بل (آمن وبلغ).

ثم يأتي قوله سبحانه: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، إذًا الإيمان القلبي وحده هو البداية، وهذا صحيح، لكنه لا يكفي؛ إذ لا بد من العمل المصدق لهذا الإيمان، ألا تذكرون تلك الكلمة الجليلة: «**وإن قومًا قد غرهم بالله الغرور** -والغرور هو الشيطان- **يقولون: نحن نحسن الظن بالله، وكذبوا؛ لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل**»[2]، وتجد من الناس من يقول: أنا مؤمن، قلبي ما بينه وبين الله معمور، وهو لا يصلي، ولا يصوم، ولا يزكي، فكيف يستقيم هذا؟! فالغيب إذًا ركيزة الإيمان، وسيتولد من هذه الركيزة كل أنواع الإيمان، وكل أقسامه، وكل مفردات الإيمان، وركيزة العمل الصلاة.

---

(١) سورة البقرة، الآيتان [٢، ٣].

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في جزء: «الوجل، والتوثق بالعمل»: (ص٢٨)، وأسنده ابن الجوزي في كتاب: «كشف المشكل»: (٣/ ٣٢٣) عن الحسن البصري من كلامه ومواعظه، رحمه الله.

فالنبي ﷺ وهو يقول: «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ»[1] فجعل الصلاة بعد الشهادتين مباشرة، ويقول ﷺ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاَةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»[2] وانتبه إلى قوله: (فَقَدْ كَفَرَ)؛ تجد أنه لم يقل: (فهو كافر)، إذ المقصود أنه أتى بشعبة من شعب الكفر؛ فإن من ترك العمل كله لا يخرج عن الإسلام، لكنه يكون ناقصًا، أو فاسقًا، أو عاصيًا.

وهنا عندنا ثلاثة أشياء في هذه الآية الكريمة، واحدةٌ ترجع إلى الغيب الذي هو أساس الإيمان كله، وواحدة ترجع إلى العمل، لكنه عمل قاصر على نفس الإنسان، وهو إقامة الصلاة؛ لأن نفعها راجع إليك وحدك، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[3]، وإن كانت تنفع الناس من جهة أخرى غير مباشرة، وهي أنه عندما يشيع في المجتمع إقامة الصلاة؛ يشيع أيضًا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويشيع التذكير بها، فترى الواحد منا يقول لأخيه: لا تفعل هذه المعصية وأنت تصلي، فيذكره بالله، ويقول له: لا يليق منك هذا ونحن قد خرجنا توًّا من المسجد؛ فيرقق قلبه لأن يعفو، وأن يصفح، وأن يسامح في القضاء، وأن يرد المظالم إذا كان عنده مظلمة، وهكذا، لكن هذه نفعها غير مباشر، فأراد الحق سبحانه أن يأتي بعدها بعبادة أخرى، الأصل فيها إيصال الخير إلى الخلق؛ ولذلك قال بعدها مباشرة:

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه»: (١/ ٤٦) فتح، كتاب الإيمان، باب: الإيمان وقول النبي ﷺ: بُنِيَ الإسلام على خمس، ومسلم في «صحيحه»: (١/ ٤٥) كتاب الإيمان، باب: بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، وابن حبان في «صحيحه»: (١/ ٣٧٤)، وابن خزيمة في «صحيحه»: (١/ ١٥٩)، والترمذي في «سننه»: (٥/ ٥) كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء بني الإسلام على خمس، كلهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه»: (٤/ ٣٠٥)، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ٤٨) وقال: صحيح الإسناد، والترمذي في «سننه»: (٥/ ١٣) وقال: حسن صحيح غريب، وابن ماجه في «سننه»: (١/ ٣٤٢)، والنسائي في «السنن الكبرى»: (١/ ١٤٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى»: (٣/ ٣٦٦)، من حديث عَبْد الله بن بُرَيْدَة بن الْحَصِيب عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه.

(٣) سورة العنكبوت، آية [٤٥].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فهذه هي الطاعة المتعدية، فلنا أن نقول: إن الصلاة طاعة قاصرة على نفس الإنسان، وهو المستفيد منها ابتداءً ومباشرة، وربما أفادت بطريقة غير مباشرة بقية الخلق، وستستفيد أنت منها أيضًا بالثواب، إنما الذي سأنفقه مما رزقني الله للمستحق، قد أفاد المستحق إفادة مباشرة؛ لأنه أخذ المال من يدي، وسدد به دينه، أو عالج به مريضه، أو علم به ولده، وشرب، وأكل، ولبس، وهكذا.

وقد حصل هنا ترابط بين أول الآية وبين آخرها؛ لأن هذا نظام ونسق رباني، فقد قال سبحانه في أولها: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، ثم قال في آخرها: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، وكأنه يريد الإخبار عن الغيب المذكور؟ فتكلم سبحانه أولًا عن نفسه صراحةً، وتكلم في الوسط عن نفسه ضمنًا، ثم رجع آخرًا للكلام عن نفسه صراحةً، فكأن التراكيب القرآنية على أعلى صور الاتساق، وكأنك ترى النص ينتقل من الصراحة إلى الضمنية ثم يرجع إلى الصراحة، وكأن الحق سبحانه يخاطب كل الناس، إما بالنص اللفظي، أو بالنسق الكامن في نسيج القرآن، ويخاطب من يحب الجمال ومن لا يحبه، ويخاطب من يحب الإيمان ومن لا يحبه، ويخاطب من كان عقله رياضيًّا هندسيًّا منظمًا ومن كان عقله فوضويًّا مشتتًا؛ لأن الجميع خلقه وعباده، وهو سبحانه أنزل القرآن هداية للعالمين، والهداية سارية في القرآن لفظًا ومعنًى، ونسيجًا، ونسقًا، ونمطًا؛ فالقرآن هداية كله.

ثم هناك لمحة أخرى في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ وهي تذكير الحق لعباده بأن الفضل كله منه وإليه، وأنه هو الذي يعطي، وهو الذي يرشدك أن تعطي، وهو الذي يعطيك الثواب على ما أعطيته للخلق، فقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ ليذكرهم بأنهم ما رزقوا أنفسهم، فلم يقل: (ومما اكتسبوا) ولا قال: (ومما جاءهم من سعيهم في الأرض)، أو غير ذلك من العبارات الكثيرة، فهو هنا في سياق الأمر لهم بالإنفاق يذكرهم بكون الرزق منه؛ لينزع من نفوسهم معنى الشح والبخل، ومحبة الاستئثار

بالمال، فإذا ما تذكروا أنه تفضلٌ من الله عليهم، وأنه سبحانه يأمرهم بإخراج نسبة منه إلى عباده؛ نهضت نفوسهم لامتثال الأمر، وهذا النسق الذي هو مجيء ألفاظ القرآن على نحو يبعث في النفوس الهمة للعمل، يكشف عن عظمة القرآن وربانيته، وأن فيه معالجة نفسية دقيقة، تستحق دراسة واسعة.

والرزق في لغة قريش معناه الأموال والطيبات، وكلمة الطيبات هذه ترجمت إلى اللغات الأجنبية، فتراهم يسمون البضائع: (goods) أي: جيد وحلو، وطيب، فانظر إلى تأثير حضارتنا في العالمين!!

ولكي نفهم كتاب الله تعالى يجب أن نقف عند كل كلمة، بل عند كل حرف فيه؛ لأنه نص إلهيٌّ محكم، وهناك خاصية في اللغة العربية تجمع الكلمات التي يشبه بعضها بعضًا، وتبحث عن رابط بينها، وتسمى هذه الخاصية بالاشتقاق، فانظر إلى أثر قضية الاشتقاق في فهم المفردات؛ قال العلماء: كل كلمة تبدأ بالنون والفاء -بغض النظر عن الحرف الثالث- يكون معناها: الخروج، ومنه: (نفخ) أي أخرج الهواء من صدره بقوة، و(نفث) أي: أخرج النَفَس مصحوبًا بيسير من اللعاب، و(نفش) إذا أخرج أجزاء الشيء وفرقها، و(نفر) أي: خرج بسرعة، و(نفع) تعني وجود شيء خرج منك إلى الآخرين، و(نفق)، يعني: وجود مال خرج منك، فما معنى النفق بناء على ذلك؟ معناه: المخرج، وكلمة المنافق، معناها: أنه خرج عن الجماعة، فالجماعة موجودة وقائمة وهو منهم؛ لأنه لو كان من الكفار لكان من الفريق الثاني، ولانتهى أمره وظهر حاله، لكنه منا، يعيش بيننا، وينتمي إلى مجتمعنا، وهو رغم ذلك خارج عنا، ولذلك فالمنافقون إذا سمعوا كلمة (منافق)؛ ارتجفوا، واهتزوا من أعماقهم.

فالعربي الفصيح فور سماعه لكلمة (ينفق) هذه؛ يتحرك في قلبه العطاء، والمسارعة في هذا العطاء، ولكن كيف كان العربي يشعر في نفسه بهذا الشعور فور

سماعه للكلمة، بينما نحن لم نعد نشعر به؟! السبب هو بعدنا عن اللغة، فلا بد من أن نهتم بالكلمات القرآنية، ونرى عمقها في نفس العربي، وكيف كان يحيط بالمقصود، ويفهم كتاب ربه.

فكلمة (نفق) تبدأ بالنون والفاء، وكل ما بدأ بالنون والفاء فهو متضمن معنى الخروج، بغض النظر عن الحرف الثالث، ومثال ذلك كما سبق: (نفر، نفع، نفث، نفق، نفش، نفخ)، فماذا عن كلمة (نفج)؟ وهب أن هذه الكلمة واجهتني في اللغة العربية وما عرفت معناها؛ فإنني أرجع حينئذ إلى القاموس، فنرجع إليه، وقبل الرجوع إلى القاموس أدرك بحسي اللغوي أن فيها معنى الخروج، وقد لا أدرك بالضبط صورة الخروج المقصودة من الكلمة، وقد لا أعرف بالضبط معناها الدقيق، لكن الحاسة اللغوية، والمَلَكَة التي تربت عليها العقلية اللغوية تجعلني أقول: إن (نفج) فيها نوع من أنواع الخروج، ثم نبحث بعد ذلك عن معناها الدقيق المعين.

ونظيرها كلمة: (فلح)، وستأتي بعد قليل، فتقول العرب أيضًا: أي كلمة تبدأ بالفاء واللام تكون بمعنى الشق، فقولنا: (فلق) معناها: شق الحبة نصفين، ومنه قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰٓ﴾[1] أي شق، و(فلح)، أي: شق الأرض ليضع فيها البذرة، أي حرثها، ومنها الفلاح؛ لأنه هو الذي يقوم بشق الأرض، وهكذا.

نحن إذًا أمام لغة لها خصوصية ولها تميز، ولها دستور ونسق، والبشر يتكلمون بأكثر من خمسة آلاف لغة، وهذه اللغات كما رَصَدَت (اليونسكو) تموت؛ لدرجة أنهم رصدوا أنه في كل خمسة وعشرين يومًا تموت لغة؛ بموت آخر من كان يتكلم بها، ولكن اللغة العربية ليست معدودة في هذا، بل هي معدودة من اللغات العالمية المتمكِّنة، ولذلك أُقِرَّتْ في الأمم المتحدة، وأُقِرَّتْ في مكتبة الكونجرس الأمريكي؛ لأنها لغة لها حضارتها ولها ثقافتها، بينما لغات الهنود الحمر مع لغات كثيرة في الهند تخبو وتنتهي.

---

(١) سورة الأنعام، آية [٩٥].

وتعالوا بنا لنرى لمحة من خصائص هذه اللغة؛ إذ ليس هناك لغة مثل اللغة العربية، في الرابطة الموجودة في حروفها، فمثلًا كلمة (مَلَكَ) ثلاثة أحرف، الميم واللام والكاف، فكل كلمة تتكون من هذه الحروف، بغض النظر عن ترتيبها، لا بد وأنها تشترك مع الكلمات الأخرى في معنى جامع، يجمع كل هذه التقلُّبات، ومن خلال تباديل الكلمة يتبين قانون مهم، وهو أنه إذا كانت الكلمة ثلاثية الحروف، فإنها تحتمل ست صور من التقاليب، فمنها المَلِك، ومنها الملاك، ومنها المالك، والمَلِك والملاك والمالك فيها قوة بدرجات مختلفة، يعني المَلِك من المُلْك، والمالك من المِلْك، ففيهما قوة وسلطان؛ لأن الملك هو الذي بيده الأمر والنهي، وقيادة المجتمع وتنظيمه، وقيادة الجيوش والدفاع عن الناس، والمالك له قوة أخرى من طرفٍ آخر؛ فإن المَلِك يملك، لكنه ليس بمالك، فلا يملك بيتي، ولا يملك رقاب الناس، أما المَالِك فهو يملك البيت ويكون خاصًّا به؛ ولذلك فمن هذه الناحية هو أقوى من المَلِك، و المَلِك من ناحية العلو والرتبة هو أقوى من المالك، وتأتي كلمة الملاك، فكلمة ملاك عندما تأتي من الميم واللام والكاف لا بد أن يكون فيها نوعٌ من القوة.

فمن خصائص العربية: أنه عند تبديل الحروف في الكلمة الثلاثية تنتج ست صور للكلمات، منها (مَكَلَ)، فما معنى مَكَلَ؟ لو بحثنا عن (مَكَلَ) نجد أنه لا معنى لها، فيسمون ذلك بالمُهْمَل، والمُهْمَل في اللغة العربية أكثر من المستعمل؛ إذ لو أحضرنا الستة المذكورة مثلًا نرى أن منها واحدة أو اثنتين أو ثلاثة مستعملة، وأن الباقي مهمل، فالأغلب هو المهمل، ومنها (لَمَكَ)، فليس عندنا شيء يسمى لَمَكَ، فهي من المهمل، ثم (لَكَمَ) وهي الصورة الثالثة وهي مستعملة ومفهومة، ثم (كَلَمَ) فمنها الكلام، والكلام قوة، والسكوت مقابل هذه القوة، و(كَلَمَ) أيضًا تعني جَرَحَ، ففيها عدوان، وهو فعل فيه قوة، إذًا (مَلَكَ) فيها قوة، و(لَكَمَ) فيها قوة، و(كَلَمَ) فيها قوة، (لَمَكَ) مهملة، و(مَكَلَ) مهملة.

فعندنا إذًا ثلاثة من تباديل الكلمة مهملة، وثلاثة مستعملة، والمستعمل منها يجمعه معنى القوة، فعندما نقرأ القرآن، ونجد أنه يتكلم عن الملائكة؛ فإننا بذلك نتخيلهم أقوياء؛ ولذلك فهم يؤيدون المؤمنين في الحرب، ويثبتون الأقدام، وينزلون مُسَوَّمين ومُرْدَفِين وأقوياء، يُعينون المؤمنين في حربهم.

وخصائص هذه اللغة قضية مهمة جدًّا، ألف فيها أبو الفتح بن جِنِّي كتابه الماتع: «الخصائص»، وقد سماه بذلك؛ لأنه يبحثُ في خصائص اللغة وظواهرها، وألف فيها الخليل بن أحمد كتابَهُ: «العين» على هذه الجهة، وجعله مرتبًا على مخارج الحروف، فهناك حروف الحَلْق، ثم حروف أقصى اللسان، وطرف اللسان، وأوسط اللسان، ثم الحروف الشفوية، ورتبه بطريقةٍ عجيبةٍ، لعلنا أن نتكلم عنها بعد ذلك، وألف فيها ابن فارس كتابه: «معجم مقاييس اللغة» بهذه الطريقة، وألف فيها ابن دُرَيْد كتاب: «الجَمْهَرَة»، وبهذه الطريقة يتأتى جَمْع الكلمات، ثم البحث عن الرابط الذي يربطها، وقد تفنن ابن فارس في ذلك في «معجم مقاييس اللغة» وأبدع، وفي بعض الأحيان لم يجد رابطًا، لكنها أحيان قليلة جدًّا، تكاد تُعَد على أصابع اليد أو اليدين في كل خِضَم اللغة العربية[1]، فمثلًا وهم يتكلمون عن (هَرَجَ) تساءلوا: ما معناه؟ فأجيب بأن معناه: الاضطراب، والقتل، والفتن، وهو ضد الاستقرار والهدوء، ولكن ماذا عن كلمة (رَهَجَ)؟ فتوقف اللغوي للتفكير فيها، فوجد أننا نصف النار بأنها ذات رَهَجٍ، ولكن ما هو الرهج؟ ثم ماذا عن هَجَرَ؟ فهَجَرَ -مثلًا- تعني سافر، يعني باعد؛ فالهجرة فيها انتقال وفيها حركة، وفيها أَلَم، وفيها اضطراب؛ لأنني أترك الوطن وأذهب إلى السفر الذي هو قطعة من العذاب، وأذهب إلى بلاد

---

(١) وللعلامة الشيخ عبد السلام هارون مقال مهم عن كتاب «معجم مقاييس اللغة» وعبقرية ابن فارس في ترتيب مواده، نشر قديماً في مجلة «مجمع اللغة»: (١٥/ ١٠١)، سنة ١٩٥١م، ثم أعيد نشر المقال ضمن كتاب: «قطوف أدبية، حول تحقيق التراث، دراسات نقدية في التراث العربي» للشيخ عبد السلام -رحمه الله تعالى: (ص٢٠١-٢٠٨).

الغُربة التي كان من شأنها أن: «مَنْ مَاتَ غَرِيبًا فقَدْ مَاتَ شَهِيدًا»[1]، ففيها شيء من الألم؛ ولذلك كان التَّغْرِيب نوعًا من أنواع العقوبة، بأن نُغَرِّب العاصي، وأن نعزله، وأن ننفيه نفيًا، فالهجرة هكذا.

فكلمة جَهَرَ فيها نفس الحروف، والجهر فيه تحريك للصوت، وفيه علو، ويقال: رجل جَهْوَرِيّ الصوت؛ لعلو صوته، وهذا العلو قد يكون فيه ضجيج، وقد يكون علو الصوت نوعًا من أنواع الإنذار، أو نوعًا من أنواع التوبيخ، أو نوعًا من أنواع الغضب، إذًا هناك شيء جامع بين كل هذه المعاني، يشمل الحركة، ويشمل الانتقال، ويشمل الاضطراب، فيمكن أن تكون هذه المعاني هي المعاني الجامعة لهذه الحروف، فعندما يقول: (نار ذات رَهَجٍ) يكون فيها اضطراب؛ لما في حركة النار من التماوج والتذبذب، فيسمون هذه الهيئة الرَّهَج، فهذا النسق اللغوي مرتبط في ذهن العربي وفي تكوين شبكة عقله بالهَرَج وبالجَهْر وبالهِجْرة وهكذا، مرتبط بنفس الحروف في معاني كلمات أخرى، لكنها من مجموعتها، وتمثل هذه المجموعة، ومثل هذا النظر في شبكة دلالات الألفاظ التي تتخرج من حروف واحدة؛ يضع بين يدي المتكلم خريطة المعاني، ويقرب من ذهنه المدلولات.

فمعرفة خصائص اللغة تساعدنا في الفهم، وفي الوقوف على المعاني التي قد لا تكون ظاهرة، وقد تَمُرُّ علينا مَرَّ الكِرَام، فألفاظ القرآن من غير عُمْق دِلَالات الألفاظ فيها؛ تأخذ وضعًا آخر غير الذي تأخذه مع مراعاة هذا العمق، إذا رأينا هذا العمق؛ شعرنا أكثر بالقرآن، وشعرنا أكثر بقصصه وأحكامه وما فيه، والكلام يطول جدًّا في هذا المعنى.

(١) ورد من مسانيد أبي هريرة وجابر وابن عباس وأنس ﭫ، أما حديث أبي هريرة فقد رواه البيهقي في «شعب الإيمان»: (٧/ ١٧٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب»: (١/ ٢٢٧)، وأما حديث جابر فقد رواه أبو نعيم في «الحلية»: (٨/ ٢٠٣)، وأما حديث ابن عباس فقد رواه ابن ماجه في «سننه»: (١/ ٥١٥)، وضعَّف الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء سنده، وأما حديث أنس فقد رواه ابن أبي الدنيا في «جزء تعزية المسلم»: (ص٦٣).

أيضًا من خصائص اللغة التي نهتم بها، قضية القيود وأثرها في اتساع الدلالة أو ضيقها، كما يقول ابن جِنّي، انظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] فلما أن قَلَّتْ القيود كثر الموجود، فنحن نتفكر في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾، يعلمون ماذا؟ يعلمون الشريعة، أو يعلمون الحق، أو يعلمون في الكون، أو أي علمٍ كان، سكت عن ذلك، ولم يقيده، فلم يقل أي علم هو، إذًا هو مطلق، فكل العلوم تدخل في ذلك.

خصائص كثيرة ينبغي علينا أن نلتفت إليها؛ من أجل فهم الكتاب والسنة، ومن أجل أن نعيش في إعجازهما وفي أحكامهما، ومن أجل المعرفة الدقيقة لتطبيقها في حياتنا الدنيا.

فلا بد من أن نهتم ببعض الخصائص في اللغة العربية؛ حتى تصبح ملكة عندنا، ثم نتفاعل مع القرآن على هذا المستوى، بل نريد ما هو أعمق من ذلك، وهو أن لا يكون هذا الفهم في المفردات فقط، بل في الأساليب، ونريد ما هو أعمق من ذلك، وهو القدرة على استنباط المبادئ العامة، التي تكون عقل المسلم، ونريد ما هو أعمق من ذلك، وهو استنباط القيم التي ذكرها ربنا سبحانه، في كيفية سعينا في هذه الحياة الدنيا، من خلال أسمائه الحسنى، ونريد ما هو أعمق من ذلك، في استنباط السنن الإلهية الحاكمة لهذا الكون، والتي من خلالها نطبق المبادئ والقيم، ونريد أن ندرك مقاصد هذا الشرع الشريف، ومراد الله -سبحانه وتعالى- من خلقه، ومن إنزال كتابه، ونريد أن نتبين الحقائق التي ذكرها ربنا -سبحانه وتعالى- والقواعد التي بني بها هذا الدين، وبني عليها هذا الدين، إذًا عندي مبادئ قرآنية، وسنن إلهية، وقيم، وعندي قواعد شرعية، ومقاصد دينية، وعندي دساتير في القرآن، منها دستور الأخلاق، ودستور الاجتماع، ودستور الحرب والسلام، ودستور النفس وتزكيتها،

---

(١) سورة الزمر، آية [٩].

وغير ذلك كثير من الدساتير القرآنية الموجودة هنا معنا في القرآن، ونحن نريد أن نرسم هذه الخريطة، ونريد أن نقرأ كتاب الله من خلال الوقوف عند مردود كل كلمة، ومن هنا يتبين الإعجاز، ويتبين أن هذا القرآن معطاء، وكلما دَرَستَ فيه؛ انفتحت لك أبواب الفهم فيه، واهتديت به إلى الصراط المستقيم، وتأثرت به نفسك، وعلمت يقينًا أنه من عند رب العالمين.

إذًا هذه الآية الكريمة تبين وجهي النظر والعمل؛ حيث إن الإيمان في الباطن، وإقامة الصلاة في الظاهر، ثم هي قاصرة على النفس الإنسانية مباشرة وابتداءً، نافعة للخلق أجمعين انتهاءً.

ثم تأمل قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، فهي نافعة للخلق ابتداءً، ويرجع ثوابها لفاعلها انتهاءً، وهنا أيضًا وجه العمل بعد الإيمان بالغيب، إذًا هنا العلم والعمل؛ حيث علمنا وتيقنا بالغيب، الذي هو أساس الإيمان، وعملنا بما هو عبادة قاصرة، وبما هو عبادة متعدية.

وإذا تأملنا قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ مع قوله سبحانه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾(١) علمنا أن إقامة الصلاة لها درجات، وقد عبَّر سبحانه هنا بالفعل المضارع (يقيمون)، والفعل المضارع يفيد الاستمرار؛ لأنه ضارع الاسم، أي: شابهه وساواه، تقول: هذا يضارع هذا، يعني: يساويه، فانظر إلى علماء الأمة، حتى وهم يختارون الألفاظ في النحو، تراهم يختارونها وهم يراعون الخدمة لكتاب الله تعالى، فالقرآن هو الأساس المخدوم في الحضارة الإسلامية.

وإقامة الصلاة درجات، أولها: إيقاعها كما أمر الله، بأن تتوضأ، وتستقبل القبلة، وتصلي بعد دخول الوقت، ساترًا لعورتك، مطهرًا لثيابك، وبدنك، ومكانك، فهذا هو المقصود من إقامة الصلاة، بمعنى: أدائها وإيقاعها.

---

(١) سورة الإسراء، آية [٧٨].

الإقامة الثانية: تقتضي منك أن تكون خاشعًا في صلاتك، فقد وصف الحق سبحانه المؤمنين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾(١)، والخشوع على نوعين: خشوع الجوارح، بأن تضع يدك اليمنى على اليد اليسرى، وتنظر لموطن السجود، إلى آخر تلك الهيئات والآداب، التي تقرب العبد من معنى الخشوع والخضوع والأدب، وقد رأى سعيد بن المسيب رجلًا يعبث وهو في الصلاة في لحيته وثيابه، فقال: «**لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا، لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ**»(٢)، فالخشوع ابتداءً خشوع الجوارح من الخارج، لكن هذا الخشوع لا يكفي؛ لأنه خشوع ظاهري، وقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الله لاَ يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلاَ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ**»(٣).

فالخشوع المطلوب هو خشوع القلب؛ لأنه لو خشع القلب لخشعت الجوارح؛ لأنها تساعد القلب على استحضاره والرجوع إليه، فكلاهما طيب.

مثال ذلك: ذِكْر الله تعالى، منه ذكر باللسان يثاب عليه المكلف، لكنه لا يكفي؛ لأن الذِّكر الحق المؤدي إلى الاستقامة هو حضور القلب، فإذا اجتمع الذِّكر باللسان والذِّكر بالقلب وصلنا إلى الكمال، وتجد أثر ذلك قد وقع، ونَوَّر القلب.

فإذا أقيمت الصلاة بمعنى أننا قد خشعنا ظاهرًا وباطنًا، فإننا نجد آثارها قد ظهرت في السلوك، وفي الأخلاق، وفي الفكر، فما آثار الصلاة؟ أجابنا الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾(٤)

---

(١) سورة المؤمنون، آية [٢].

(٢) هو من كلام ابن المسيب، رواه ابن المبارك في كتاب «الزهد»: (ص٤١٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه»: (٢/ ٨٦)، وعبد الرزاق في «مصنفه»: (٢/ ٢٦٦)، وفي إسناده رجل مجهول، ورواه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» مرفوعًا عن أبي هريرة، وفي سند المرفوع مقال شديد، وانظر «طرح التثريب»: (٢/ ٣٣٣)، وتخريج الزيلعي لأحاديث «الكشاف» (٢/ ٣٩٩).

(٣) رواه مسلم في «صحيحه»: (٤/ ١٩٨٧)، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم، وابن حبان في «صحيحه»: (٢/ ١١٩)، وابن ماجه في «سننه»: (٢/ ١٣٨٨)، كتاب: الزهد، باب: القناعة.

(٤) سورة العنكبوت، آية [٤٥].

فذِكْر الله -سبحانه وتعالى- أكبر من الصلاة.

فكيف يكون ذكر الله أكبر من الصلاة؟ ذكر الله أكبر؛ لأنه يتم خارج الصلاة وفي الصلاة، فهو أكثر استيعابًا لسائر وجوه حركة حياة الإنسان، وقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ**»[1]، أي أنها خالصة لله تعالى، فإذا قلنا: الله أكبر؛ فإننا نستدبر الدنيا ونتجاوزها، ونبدأ الصلة والدعاء والذكر لله، لكن ذكر الله في كل وقت ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[2]، ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾[3]، ولأن ذِكْر الله تعالى في كل وقت؛ فإنه يساعد على الخشوع، ولربما أتى إليَّ شخص يقول: كيف أخشع في الصلاة؟ فكنت أقول له: اذكر الله تعالى خارج الصلاة كثيرًا، فإذا ذكرت الله خارج الصلاة كثيرًا، ثم جاءت الصلاة؛ وجد الخشوع، فذكر الله يساعد على الخشوع في الصلاة.

فإذا خشعت الجوارح؛ ساعدت على خشوع القلب واستحضاره، وكذلك قراءة القرآن بتؤدة، تعين على صقل القلب وتصفيته، فلا تقرأ قراءة المتعجل، بل اقرأ بطمأنينة وأناة؛ حتى يسري القرآن إلى قلبك، وكذلك الاطمئنان في الصلاة؛ حتى تعينك على معايشة الصلاة، والوصول إلى ثمراتها ومقاصدها، فلا يصح أن تكون صلاتك كنقر الديك، فقد دخل رسول الله ﷺ الْمَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى، ثم سَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَرَدَّ وَقَالَ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**». فَرَجَعَ يُصَلِّي كَمَا صَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**» ثَلاَثًا. فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أُحْسِنُ غَيْرَهُ فَعَلِّمْنِي، فَقَالَ: «**إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاَةِ**

---

(١) حديث معاوية بن الحكم السلمي: رواه مسلم في «صحيحه»: (١/ ٣٨١) كتاب المساجد، باب: تحريم الكلام في الصلاة، والبيهقي في «السنن الكبرى»: (٢/ ٣٦٠)، والطبراني في «المعجم الكبير»: (١٩/ ٤٠٢).

(٢) سورة البقرة، آية [١٥٢].

(٣) سورة الأحزاب، آية [٣٥].

فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا» رواه البخاري[1]، وقد قال العلماء: تسبح حتى تخرج النون من (سبحان ربي العظيم)، و(سبحان ربي الأعلى)، فهذا من الوسائل التي تعينك على التدبر والخشوع.

فأمره ﷺ بالطمأنينة في كل ركن؛ حتى يساعده على الخشوع، وكان رسول الله ﷺ يقف عند كل آية، وكانت قراءته بتؤدة، واضحة جلية بينة، يفهمها الناس، كل آية في نَفَس، فإذا قرأت بهذه الصفة؛ تجد أن الخشوع قد حصل.

فإقامة الصلاة هذه قد تكون إقامةً ظاهرية، باستيفاء أركانها وشروطها الموجودة في الفقه، وقد تكون بمعنى الخشوع ظاهرًا وباطنًا، وقد تكون بمعنى الاستمرار عليها؛ إذ لا يصح أن تصلي فرضًا وتترك باقي الفروض، أو أن تكتفي بصلاة الجمعة، أو أن تصلي بعض الأيام وتترك بعضًا، فهذا بعيد عن إقامة الصلاة، وبعيد عن الاستمرار عليها، فلا بد من الاستمرار في الصلاة؛ حتى تؤتي ثمرتها.

ثم هناك إقامة أخرى، بمعنى أنك تعيش في الصلاة، وهو أن تنتهي عن الفحشاء والمنكر، وأن تتذكر ربك وأنت بين يديه، وأن تسأله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، وأن تستعد استعدادًا تامًّا لفعل الخير.

ثم إن الصلاة تنتهي بالسلام، فتقول: (السلام عليكم ورحمة الله) تواجه بها العالمين، تواجه بها الجن، والإنس، والملك، والكون، والجماد، والحيوان، والنبات،

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه»: (١/ ٢٦٢) كتاب صفة الصلاة، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر، وما يجهر فيها وما يخافت، ومسلم في «صحيحه»: (١/ ٢٩٥) كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ٣٦٨)، وابن حبان في «صحيحه»: (٥/ ٨٨)، وابن خزيمة في «صحيحه»: (١/ ٢٣٤)، وأصحاب السنن وغيرهم كثير.

والمؤمن، والملحد، وأخاك المسلم، وكل من في هذا الكون؛ حتى تخرج من الصلاة وأنت في حالة سلام مع الله تعالى؛ تجعلك داعية إلى الله، فالصلاة إذا ما أقيمت على هذه الصفة غفرت ذنوبك.

فالصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما، وما يقع مني من الذنوب بين الفريضتين، فإنه مغفور إن شاء الله، ما لم تكن قد ظلمت أحدًا من الناس بمظلمة اقتطعت فيها من حقه؛ فإن الكبائر والعدوان على حقوق العباد لا تغفر لمجرد التزام العبد بالصلاة، حتى تؤدَّى الحقوق إلى أصحابها، وكذلك الإخلال بأسباب العمران، ومسالك النهضة؛ فإنها لا تجبر بإتقان الصلاة وحسن أدائها، حتى يصاحب الصلاة سعي في اكتساب أسباب العمران، وإنشاء العلوم والمعارف والمؤسسات التي تبنى عليها النهضات، وانظر مثلًا إلى مسجد وحوله قمامة، فهل يليق هذا بالمسلمين الذين يقيمون الصلاة؟! لا يصح هذا ولا يليق، والجماعة الذين يصلون في هذا المسجد يدخلون ويخرجون، وهم فرحون بأنهم يقيمون الصلاة، والحق أن هؤلاء لا يقيمون الصلاة، وإنما يؤدونها؛ لأن إقامة الصلاة إحسان وإتقان في أداء الصلاة، يفضي إلى إدراك مقاصدها، وفهم أسرارها، واستلهام معانيها وأنوارها، على نحو يبني في شخصية المؤمن الحس الراقي، القادر على فهم مراد الله منه، في القيام بحقوق العبودية، وتزكية النفس، وعمارة الأرض، وتدبير شئون المعيشة، وتنسيق حركة الحياة، ولكن كثيرًا من الناس لا يفهمون ذلك، وكأنهم لم يلتفتوا إلى دقة قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأنه سبحانه لم يقل: (ويصلون)، والميزان الرباني في إحكام آيات الكتاب الكريم يوجب علينا هذا المستوى من الفهم، و(الإقامة) فيها دلالات عالية من الأداء والإتقان والتحسين، فهي إقامة تفضي إلى استقامة، تتهيأ بها لمعنى الاستقامة التي وصف بها الصراط، فهل أنت على الصراط المستقيم عندما تقصر في حق أمتك، وتعمل بمعدل نصف ساعة من جملة ساعات

العمل الثمانية التي تكلف بها؟! حتى تراجعت الهمم، فتزلزلت أركان النهوض والعمران؟! وهل أنت على الصراط المستقيم في إهمالك لمعاني تزكية النفس، وإعراضك عن القيم، ونسيان مقصد هداية الخلق، وتدني نمط حياتك إلى الإهمال والوهن؟! وكل هذه المعاني نابعة من الإغراق في الدنيا، ومن البعد عن القيم والأخلاق؛ فجاء هذا الترتيب المغلوط للأولويات، فيظن الإنسان أنه عندما دخل وصلى -دون أن يقيم الصلاة، ودون أن تؤثر هذه الصلاة في حياته- أنه قد أقام الصلاة، هو مخطئ؛ لأنه لم يتوصل إلى الاستقامة، إنما هو أدى الصلاة فقط ولم يقم الصلاة، فهل يكون داخلًا معنا؟ لا والله لا يكون داخلًا معنا، بل هو فتنة وحجاب بين الناس وبين دين الله تعالى.

والمقصود: هو الاهتمام بأن نفهم ما يقول رب العالمين، وأن لا نتلوه من غير فهم ولا وعي، فقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يختلف عن قوله: (ٱلَّذِينَ آمَنُواْ)، ويختلف عن التعبير بقوله: (المؤمنين)، ولكل صيغة منها دلالة وأثر ومقصود وإيحاء، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تختلف عن التعبير بقوله: يفعلون، أو يوقعون، أو يؤدون، أو يصلون، فافهموا عن الله تعالى.

ثم قال سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾.

[البقرة: ٤]

شرع سبحانه في استكمال صفات المتقين الذين يهتدون بكتاب رب العالمين، بعد أن عدد لنا من أوصافهم، وبين أن الإيمان بالغيب أساس وركن، يستقر في القلب، وتنبني عليه الأعمال الظاهرة، وبين أن الصلاة والنفقة أساس من أسس تصديق ما في القلب بالعمل، يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ إذًا قد يكون هناك مؤمن بالغيب ويقيم الصلاة وينفق ويفعل الخير، لكنه قبل مجيء سيدنا محمد ﷺ كان في منجى، ثم جاء النبي ﷺ يتوج رسل الله أجمعين؛ فهو ﷺ خاتم النبيين، بمعنى أنه: آخر النبيين، وخاتم بمعنى أنه: زينة النبيين ﷺ، وما دام هو النبي الخاتم الأخير المهيمن؛ فلا بد من أن لا نصد الناس عن هداية الله الأخيرة، والمسلم يؤمن بالعهد القديم، الذي كان بين الله تعالى وبين موسى، والذي توج بالتوراة، والتي هي العهد القديم الذي نزل على موسى، ويؤمن المسلم أيضًا بالعهد الجديد، الذي نزل على عيسى، عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام، ويؤمن أيضًا بالعهد الأخير الذي نزل على سيدنا محمد ﷺ، كذلك يقول ربنا للبشرية كلها: إن هذا هو العهد الأخير؛ فلا تحجبوا الناس عني، ويصف من ستكون له الهداية في هذا الكتاب بأنهم الذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، وبعض الناس يقول: إذًا أنا أؤمن بما أنزل على نبيي، ولا علاقة لي بالسابقين فلا أؤمن بهم، ونرد عليهم بأن الذي يؤمن بسيدنا محمد ﷺ ولا يؤمن بعيسى وموسى؛ فإنه يكون قد نقض أصلًا من أصول الإيمان بسيدنا

محمد ﷺ، ألا وهو وجوب التعظيم والإيمان بأنبياء الله أجمعين، والقيام بواجب التوقير لهم، فهذه أمة منفتحة، تجعل الإيمان بالسابقين جزءًا من إيمانها، فلا يصح لمسلم أن ينكر موسى أو أن ينكر عيسى، أو أن ينكر أحدًا غيرهما من أنبياء الله الكرام.

وعندما يندفعون فيسبون رسول الله ﷺ، كما كان يفعل أهل الجاهلية الأولى، فربما اندفع واحد من المسلمين يريد الانتصار لسيد الخلق ﷺ؛ فيسب أحدًا من الأنبياء في المقابل، فهو خطأ عظيم؛ لأنه يسب واحدًا ممن مَنَّ الله عليهم بالنبوة، وجعلهم من الصديقين الكبار، والأنبياء المتقدمين، والرسل الكرام، ومن فعل ذلك فقد كفر، والخلاصة: أن الجحود والإنكار لواحد من الأنبياء هو بعينه جحود ببقية أنبياء الله أجمعين، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾(١).

وهذه السمة الجليلة من سمات الدين الخاتم الجامع، الذي يخاطب الله تعالى به الخلق أجمعين، تثبت ربانيته وعلوه، وأنه نابع من مشكاة الهداية العامة، التي تريد تثبيت أصول الهداية التي أبرزها الله تعالى للخلائق عبر أدوار التاريخ وأطواره، وتربط المسلم بركب الأمم السابقة، التي شرفها الله وخاطبها بالوحي الشريف.

فيقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ فهذا جزء من الإيمان بالإسلام، ولا يجوز إطلاقًا للمسلم أن ينكر، أو أن يسب، أو أن يشكك، أو أن يتهم، أو أن يقبل في رسول من رسل الله -سبحانه وتعالى- أي تجاوز أو عدوان، فهؤلاء جميعًا أنبياؤنا نحن، وكل واحد منهم -عليهم صلوات الله- نبي لنا أيضًا، وقد دخل النبي ﷺ المدينة فوجد اليهود يصومون عاشوراء، فسئلوا عن ذلك؛ فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون، ونحن نصومه تعظيمًا له، فقال رسول الله ﷺ: «**نحن أولى بموسى منكم**» ثم أمر بصومه(٢) فصامه فرحًا بنجاة

(١) سورة البقرة، آية [٢٨٥].

(٢) رواه البخاري في «صحيحه»: (٣/ ١٤٣٤) كتاب فضائل الصحابة، باب: إتيان اليهود إلى النبي ﷺ، =

موسى؛ لأن موسى عليه السلام مقدس عندنا معشر المسلمين، فالمسلمون إذًا لم يمنعوا أحدًا من طوائف الخلق من القيام بواجب التوقير لأنبيائهم، بالرغم من أنهم جحدوا بالنبي ﷺ طغيانًا وإنكارًا، إلا أن المسلمين لم يفعلوا معهم إلا العيش في سلام، ولذلك ترى في كل العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه، وقد تمكن منه المسلمون، وحكموه مئات السنين- تجد كل طوائف البشر يحيون في أمان، حتى من ادعى منهم أن له كتابًا، فإننا عايشناهم جميعًا، فعلنا ذلك مع الهندوس، ومع الزرادشتيين، ومع الصابئة الذين قالوا كتابنا كتاب يحيى عليه السلام، وهم جميعًا باقون إلى يومنا هذا في العالم الإسلامي، دع عنك اليهود والنصارى.

إذًا هذا دينٌ عالمي، يخاطب العالمين أجمعين، وأمة الدعوة عندنا هم من في الأرض جميعًا، ثانيًا: أنه خاتم إلى يوم الدين، ثالثًا: هو يؤمن بمفهوم الأمة الضاربة في عمق الزمان، فأمة الإسلام تبدأ من آدم، ثم هناك إبراهيم، ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[1] إذًا هذا هو المسلم: منفتح، مؤمن، كل هذه القضية هي جزء من إيمانه.

ثم إنه لم يكن يكفي في شرع الله تعالى أن نؤمن بذلك كله في حدود الحياة الدنيا فقط، ولم يكف أن آمنا بالإله الحق سبحانه، وأن نقيم الصلاة حتى تؤتي أثرها، وأن ننفع الناس فننفق مما رزقنا، وأن آمنا بما أنزل الله على سيدنا محمد ﷺ وما أنزل على من قبله، نعم لم يكن كافيًا أن نؤمن بذلك كله في حدود الحياة الدنيا فقط، وأن نعيش سعداء في الحياة الدنيا وينتهي الأمر؛ بل كان لا بد -ليكتمل الإيمان على وجهه- من الإيمان بالآخرة، ومن أن تجعل الآخرة مسيطرةً على سلوكك في هذه الدنيا.

= ومسلم في «صحيحه»: (٢/ ٧٩٥) كتاب الصيام، باب: صوم يوم عاشوراء، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) سورة الحج، آية [٧٨].

فما هي الآخرة؟ الآخرة معيار الاستقرار، وميزان الاستقامة، حيث يؤمن الإنسان بيوم يرجع فيه إلى الله تعالى؛ ليقف في موقف المحاسبة على كل أعماله، فهناك امتداد لدوائر عملي وحركتي في الحياة، يتجاوز الدنيا حتى يصل إلى ذلك اليوم العظيم، وهو يوم فيه جنة وفيه نار، وفيه حساب وعقاب وثواب، فيكون من أول آثار الإيمان بذلك اليوم: أن تتغير نظرة الإنسان لفلسفة الحياة أصلًا، وأن تخرج من دائرة العبثية والفوضوية، إلى دائرة الغائية والجد، وأنها من ورائها معيار للتقييم، وميزان للمحاسبة، فيعيش الإنسان في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل؛ فتنهض في نفس الإنسان المعايير الأخلاقية، ويلتفت إلى توجيه النفس، وتنمية بواعث الخير والاستقامة، وينصرف عن بواعث الطغيان والعبث، فتدفعك الآخرة لفعل الخير ولمنع الشر، وتستطيع أن تمتلك الزمام الذي يجعلك لا تتسلط على أموال الآخرين وأعراضهم، والذي يجعلك تكف أيديك عنهم، والذي يجعلك تُحاسِب نفسك قبل أن تُحاسَب؛ فأصبح الإيمان بالآخرة أحد الضوابط السلوكية الحياتية التي بها عمارة الأرض، وتخيل أنه ليس هناك آخرة؛ إذًا لتسلط القوي على الضعيف، وسيطر الظالم على المظلوم، واستحل كل إنسان ما يفعله، ولصارت المنفعة والمصلحة هي الأساس، أما الإيمان بالآخرة فإنه يحول سعيك إلى قضية لها هدف، فلا تظلم ولا تطغى ولا تتسلط ولا تسرق ولا تزني وهكذا، لماذا؟ لأنك تخاف من ربك وترجو رحمته سبحانه.

فقد وصف سبحانه هؤلاء الذين ذكرهم بأنهم من المتقين، وبَيَّن لنا: كيف يكون الإنسان تقيًّا؟ حينما يؤمن بالغيب، ويفعل الخير ولو كان قاصرًا على نفسه، كإقامة الصلاة التي هي أساس ذلك، ويفعل الخير مُتَعَدِّيًا للآخرين، وأساسه الإنفاق والعطية، ووصفهم سبحانه بأنهم يؤمنون بما أنزل على سيدنا محمد، باعتبار أنه سيد الخلق، وتاج المرسلين، فيؤمن بجميع الأنبياء، وبما أنزل إليهم، ويؤمن باليوم الآخر كأساس من الأسس التي تتحكم في سلوك المؤمن في حياته الدنيا.

ثم يقول سبحانه بعد ذلك:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾.

[البقرة: ٥]

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي الذين تحققوا بالصفات المذكورة في الآيات السابقة ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، فجعل الله تعالى ثمرة الأعمال التي قاموا بها، والتي وصفها سبحانه في الآيات السابقة- أمرين، وهما: الهداية والفلاح، فما هي الهداية، وما هو الفلاح، وإلى أي حدٍّ بلغ تمكنهم من هذين الأمرين؟!

أما الهداية، فهي: أن الله تعالى مَنَّ عليهم باتضاح الحقائق، والوصول إلى المقاصد، والتفطن إلى السعي الصحيح فيما لأجله خلق العبد، وزوال مواضع الاشتباه والالتباس في الأمور المشكلة، والمواقف المفاجئة، والقضايا الكبرى والصغرى، وأما الفلاح، فهو: الظفر بالتوفيق في تحقيق كل ذلك، بحيث يصلون إليه بالفعل، وأما درجة تمكنهم من هذين الأمرين، فهم متمكنون من الهداية إلى أقصى درجة، وهم متحققون بالفلاح على أعلى صور التحقق.

ولكي يفهمنا الله تعالى ذلك؛ عبر بهذا التعبير القرآني البالغ أعلى درجات الفصاحة والبلاغة، في الدلالة على تحقق وصولهم إلى تلك النتائج والثمرات، فقال سبحانه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ فجعلهم فوق الهدى؛ لأنه قال: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ ولم يقل: (في هدى)، فماذا أفادت لفظة (على)؟ قال العلماء: أفادت التمكن، والاستقرار، والاستعلاء، والثبات على الأمر، ولفظة (على) لفظة غريبة نادرة،

لها خصائص لغوية عجيبة؛ لأنها تصلح لأن تكون اسمًا وفعلًا وحرفًا، وليس في لغة العرب من ألفاظٍ تصلح لأن تكون اسمًا وفعلًا وحرفًا سوى كلمات قليلات، منها: (على)، ومنها: (في)، ومنها: (بلى).

فكلمة (بلى) تكون حرف جواب، وتكون فعلًا من بلا يبلو، وتكون اسمًا مقصورًا أصله بلاء، و(في) تكون -مع الكسر فقط وبدون ياء- فعل أمر، تقول (فِ الكوبَ ماءً)، والكوب منصوبة؛ لأنها مفعول به أول، أي: (أوف الكوب ماء)، فهو أمر بملئه حتى يبلغ الماء حافته، وتكون حرف جر، فتقول: (في الكوبِ ماءٌ)، أي أن الكوب بداخله ماء، فيكون الجار والمجرور خبرًا مقدَّمًا، وماء مبتدأ مؤخر، قال ابن مالك:

(والأصل في الأخبار أن تُؤَخَّرا * وَجَوَّزوا التَّقْديمَ إِذْ لَا ضَرَرا

فهي تأتي إذًا فعل أمر، وحرف جر، وتأتي بمعنى الظرف، وتأتي أيضًا بمعنى الفم، ومنه الحديث: «**حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك**»[1]، فـ(في) بمعنى (الفم).

كلمة (على) تكون حرف جر، وتكون اسمًا مقصورًا من العلاء، أو تكون ظرفًا إذا سبقت بحرف جر آخر، والظروف أسماء، فتقول أخذت الكتاب من على المنضدة، فقد صارت كلمة على هنا ظرفًا معناه فوق، وتكون فعلًا من علا يعلو، والحافظ السيوطي في «المقامة النحوية» جعل النظر إلى كلمة (على) من هذه المستويات الثلاثة من مستخرجاته التي استنبطها هو، ولم يلتفت إليها أحد قبله.

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه»: (٣/ ١٠٠٦) كتاب الوصايا، باب: أَنْ يَتْرُكَ وَرَثَتَهُ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَتَكَفَّفُوا النَّاسَ، ومسلم في «صحيحه»: (٣/ ١٢٥٠) كتاب الوصية، باب: الوصية بالثلث، وابن حبان في «صحيحه»: (١٠/ ٦١).

ويلاحظ في كلمة (على)، أنها تتضمن معنى الاستعلاء والفوقية والارتفاع في كل مستوياتها، فيقال: علا في السماء، إذا ارتفع، ويقال: خذ الكتاب من على المنضدة، أي: فوقها، إلى غير ذلك من استعمالات على التي تتضمن معنى الفوقية، والفوقية تفيد علو المكان، وقد تفيد علو المكانة، مما يدل على التمكُّن.

فهو هنا سبحانه يصف عباده المتقين، الذين اتصفوا بهذا الدين، فآمنوا بعقائده، ثم حولوا العقائد إلى مناهج عمل، يصفهم الله تعالى هنا بالتمكن من الهدى، فمن أين أتى تمكنهم من الهدى؟ أتى من أنهم قد أخذوا بالمنهج الإلهي، واستلهموه في شئون حياتهم، وولَّدوا منه العلوم والمعارف، وأبرزوا المناهج البحثية والعلمية المنطلقة من هذا المنهج، فاستخرجوا قيم الحضارة، وبنوا مؤسساتهم وفق العلوم الممتدة من هذه المناهج؛ فحصلت لهم الهداية والبصيرة، ووصلوا إلى بناء الحضارة، واستقرار الحياة الطيبة في الدنيا، وفازوا بالآخرة، فتحقق لهم الفلاح في كل شيء.

فعندما يكون الإيمان في قلبك، والعمل في جسدك، والاعتقاد في حياتك، والسلوك في سيرك، وتجعل هذا لله، فأنت على هدى، وأنت متمكن من هذا الهدى، بل كأنك قد علوت على هذا الهدى.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ﴾ فالهدى من ربهم سبحانه ابتداءً وتوسطًا وانتهاءً، وأولئك هم المفلحون، وقد عبر سبحانه بقوله: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فجاء بالضمير بين الكلمتين للتوكيد.

وبهذا يكون قد تم هذا المقطع القرآني الكريم من سورة البقرة، والذي يصور الفئة الأولى، التي شرفها الله تعالى بالإيمان به، ثم انتقل القرآن بعدها إلى فئة الكفر، وبعدها إلى فئة النفاق؛ ليصور لنا خصائص كل فئة، والآثار الدنيوية والأخروية المترتبة على قيم كل فئة، وقبل الخوض في حديث القرآن الكريم عن هذه الفئات، وجب علينا أن نقف هنا وقفة طويلة، نشير فيها إلى أن أهل الإيمان فهموا

عن الله تعالى، وأدركوا المقاصد الشرعية، وعرفوا مراد الله تعالى منهم، وآمنوا بالغيب، وأقاموا الشعائر، مما أدى إلى أن نشأت العلوم والفنون والآداب في تاريخ المسلمين، وهي تستوحي كل ذلك، وصنع المؤمنون الحضارة، وقاموا بعمارة الأرض، وخالطوا الثقافات والحضارات الأخرى، ونشأت عندهم دوائر العلوم التجريبية والإنسانية والشرعية، وامتزجت عندهم هذه العلوم بالشعائر؛ فنشأ تراث مركب من تلك العلوم، امتزجت فيه تلك العلوم كلها وتداخلت، وهي تراعي النموذج المعرفي المسلم، وتنطلق من منهج بحثي يضع في منظوره قضية الألوهية، وقضية الوحي، وقضية الشعائر، وقضية الآخرة.

ونحن عندما نحاول أن نتلقى هذا الدين عمن قبلنا، ونحاول أن نوصله إلى من بعدنا؛ فإننا نكون أمناء على هذا الدين، وعلى هذا التراث، وعلى هذه العلوم؛ حتى نؤديه إلى من بعدنا، كما تلقيناه عمن قبلنا.

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝ ﴾.

[البقرة: ٦-٧]

المؤمن هو مراد الله تعالى من خلقه، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[١] فجنس المؤمن -حتى وإن قلَّ- هو النموذج الرباني الإلهي، الذي أراده الله تعالى لعمارة الكون، ذلك النموذج الذي يربي نفسه ويزكيها، ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[٢]، فتكلم الحق سبحانه عن المؤمن ومكوناته في خمس آيات، لأن هذا هو النموذج المنهجي المهذب، المتسق مع مراد الله من الخلق والإيجاد، ويقابله نموذجان: النموذج الأول منهما تكلم الله عنه في آيتين، وهو: نموذج الكفر والجحود، والنموذج الثاني هو: نموذج النفاق، وقد تكلم الله تعالى عنه في ثلاث عشرة آية، وهو نموذج النفاق.

يقول ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، يريد الله تعالى وهو سبحانه العليم بما في الصدور، أن يبين السبب الحقيقي لإعراضهم، وأن انحرافهم إلى الكفر ليس من قبل عدم المعرفة بحقائق الشرع؛ بحيث كلما اجتهدتَ في البيان والإيضاح ارتفعت الغشاوة عنهم، واقتربوا من

(١) سورة الذاريات، آية [٥٦].

(٢) سورة الشمس، الآيتان [٩، ١٠].

الدين؛ بل إن صدودهم -في الحقيقة- لأمر خارج عن حدود القائم بالبلاغ، يرجع إلى ما وقر في النفوس من التشبع بقيم الكفر والجحود، فلما أن علم الله تعالى منهم إرادة الخوض في الضلالة؛ ختم الله على قلوبهم، إنفاذًا لعلم الله تعالى فيهم، ومن كان هذا شأنه، فلا يغني شيئًا أن تجتهد في إبلاغه، ولا أن تتعلق آمالك بهدايته.

بخلاف آخرين، نبع جحودهم من الجهالات التي خيمت على قلوبهم، والشبه التي عرضت لهم، فهؤلاء أمرهم قريب، موقوف على اجتهاد المبلغ وصدقه.

ولما أن كانت شئون الخلائق ومقاديرهم غير معلومة للمبلغ، بل هي في دائرة العلم الإلهي، فقد صارت خواتيم العباد مجهولة، وخارج دائرة علمنا، ومن ثم، فقد وجب على الداعي أن يجتهد في دعوة الخلق أجمعين، وأن يتفانى في الإبانة عن حقائق الديانة ومعادنها ومنابعها وأصولها، وأن لا يفتر ولا يفرط في البلاغ، حتى إذا ما تبين له أن بعض الناس علموا وعرفوا، واستيقنت نفوسهم بالحق ثم جحدوا به؛ فقد وجب عليه أن ينصرف عنهم، وأن لا تذهب نفسه عليهم حسرات؛ لأنه سواء عليه حينئذ أبلغ وأنذر أم لم ينذر؛ فإنهم لا يؤمنون.

فكأن الله تعالى يريد أن يضع القواعد المحكمة، والدساتير العليا في منظومة آداب المتحملين لأمانة البلاغ لهذا الدين، وأن الأصل هو التفاني في البلاغ، ولكن هذا التفاني ليس على إطلاقه، بل ربما كان مقتضى الحكمة أن ينصرف المرء عنه، وأن لا تتعلق به نفسه، إذا اتضح له بجلاء أن علة الصدود ليست من قبيل عدم المعرفة، بل من قبيل المعاندة والمكابرة، والإصرار على المجادلة في الحق بعدما تبين.

وهذا كله يلفت النظر إلى أن تحويل القلوب إلى الهداية شأن إلهيٌّ محض، وتصرف ربانيٌّ خالص، وأنه بيد الله تعالى وحده، وأن العبد الذي شرفه الله تعالى بشرف الدعوة إليه، إنما هو قائم بالبلاغ فقط، وأن تحويل القلوب إلى القناعة والقبول ليست بيده، ولا هي من شأنه، فكأنه سبحانه هنا يسلي قلب القائم بالبلاغ،

ويقول له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[١]، ويقول له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[٢].

والحاصل: أن هذه الآية تسلية لقلب النبي ﷺ، وكأن الله تعالى يقول له: لا تذهب نفسك عليهم حسرات؛ إذ القضية هي أنك مبلغ، ولست خالقًا للهداية، بل الذي يخلق الهداية في قلوب العباد ويوفقهم هو الله تعالى.

ولو أن الدعاة عرفوا هذا وتفهموه؛ لأراحوا أنفسهم، ولبلغوا وهم لا ينتظرون النتيجة، إنما يبلغون لله، ولما حدث في البلاغ تشنج أو حزن أو أسى.

ولعل هذا هو السر في تعبير الحق سبحانه بقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل: (سواء عليك)، إشارة منه سبحانه إلى أن المانع من قبلهم هم، وليس من قبيل التقصير في البلاغ بحيث يزول بالاجتهاد فيه.

وإذا كانت حالتهم واحدة عند الإنذار وعدمه، حتى كأن الإنذار لم يؤثر فيهم أدنى تأثير، أفلا يشير هذا إلى وجود العناد والجهل وعدم التفكر؟ ثم من أين أتى هذا العناد؟ أتى من الهوى والأنانية والتكبر، فوجب علينا في برامج التربية أن نقرب من الناس ما يقابل هذه الأوصاف؛ حتى لا تسلك النفوس مسلكًا يؤدي بها إلى مداخل العناد المفضي إلى الكفر.

والخلاصة: أن هناك عنادًا؛ لأن الإنذار لم يأت بفائدة، وسواء وقع الإنذار أو لم يقع، فإنه لا يستجيب ولا يعمل عقله، ولا تتحرك عنده دواعي الاهتداء، فالعناد والجهل وعدم التفكر من أساليب غير المؤمنين، والمؤمن يعمل بعكس ذلك، فلا يكون عنيدًا ولا جاهلًا ولامعاندًا ولا مكابرًا.

ولكن ما منشأ ذلك العناد؟ الحق: أنه ينشأ من الهوى، ومن حب الأنا،

---

(١) سورة القصص، آية [٥٦].
(٢) سورة آل عمران، آية [١٢٨].

ومن التكبُّر، فوجب علينا أن ننهى عن كل هذه الصفات؛ لأنها توصل إلى العناد، الذي يوصل إلى الكفر.

ولعلك تتذكر هنا الكلام الشائع المتوارث بيننا، أن: (العناد يورث الكفر)، فمن أين توارث الناس هذا المعنى، حتى جرى عندهم مجرى الأمثال؟ لقد توارد إليهم هذا المعنى من ملاحظة هذا النسق القرآني الكريم، الذي أبرز مآل العناد، وأنه يفضي إلى الكفر والصدود، فانظر إلى أثر القرآن في ثقافة الناس، فكأن قوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ هو الذي تسلسل في حياة الناس، وامتزج بتفكيرهم، حتى نضج عندهم هذا المعنى في صورة مثال شائع.

ونحن عندما نربي أولادنا الصغار، فإننا نورثهم هذه العبارة؛ حتى نحذرهم من هذه الصفة المذمومة؛ لأنها تؤدي إلى محق نور القلب، وتطفئ نور العقل، وتحجب عن الإيمان، وتؤدي إلى الظلمة واختلاط المفاهيم، وعدم الاستفادة من النصيحة، ومن خبرات الآخرين.

ثم انتبه إلى هذا الأسلوب القرآني العربي الحكيم، أنه استعمل همزة التسوية السابقة للفعل (أنذرتهم)، فاقتضى هذا أن يأتي في مقابلها بأم، التي تعادل همزة التسوية، والمراد أن يبين لك عدم جدوى البلاغ، عند من يتبين لنا -بعد طول الخبرة والممارسة- أنه امتلأ بالعناد؛ حتى لا تذهب النفس عليهم حسرات، وحتى تعلم أن الهداية غير منوطة بالبلاغ فقط، بل بفعل الله تعالى في القلوب؛ حتى تستجيب للبلاغ.

ثم إنَّه استعمل (إنَّ) التي تفيد التوكيد؛ لينبه طوائف المخاطبين على تحقق بطلان ما عليه هؤلاء، وليقيم الحجة على الكافر والمتشكك، وليستيقن الذين آمنوا ويزدادوا إيمانًا.

وكلمة الكفر تعني الستر، ولذلك سمي الليل كافرًا؛ لأنه يستر الوجودَ ظلامُه، وسمي الزارع كافرًا؛ لأنه يغطي الحبوب، ويغرسها في التربة لتنبت، وإلا جرفها الماء، ومنه سمي الجاحد المعاند كافرًا؛ لأنه ستر الحقائق العليا، وغطى عليها بالشبهات والأهواء؛ وذلك أن الإقرار لله تعالى بالربوبية أمر مركوز في فطرة العباد، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[1]، فكأننا ونحن نسمي غير المؤمن بالكافر نعترف بوجود الإيمان في قلبه من الداخل، لكن هـذا الإيمان قد ستره فكفر، فالإيمان أمر فطري. فكلمة كافر وكفر تثبت فطرية الإيمان، وتتضمن من داخلها الإقرار بوجود حقائق الكون الكبرى، والتي اعتدى عليها الكافر فغطاها بغبار كثيف من الشكوك والأوهام.

وكأن هذا الكافر غير معذور في كفره؛ ولذا جعل الله تعالى للكفر عقوبة وعذابًا في الآخرة، وذلك أنه يجد في أعماقه خضوعًا قهريًا، حتى إنه في أوقات الشدائد ليتوجه إلى الله تعالى وحده؛ لما جبلت عليه الخليقة من الخروج عن التصنع عندما تثور الأمور، وتعصف الأزمات، ثم إن كلمة الإنذار تتضمن من داخلها تهديدًا ووعيدًا؛ حتى تتحرك هذه القلوب القاسية وتسعى في الخروج من دائرة العناد إلى دائرة الإيمان والتسليم.

ثم أراد سبحانه أن يؤكد هذه المعاني، فقال جل شأنه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وحديث القرآن عن قلوب الكافرين طويل ومتعدد، وقد اشتمل على فصول ومواقف مهمة، يفصل فيها الكلام عن مداخل الكفر وآثاره، وسمات القلوب التي امتلأت كفرًا، حتى وصف الله تعالى تلك القلوب بعشر صفات في القرآن، سوف تأتي معنا واحدة واحدة، فوصف سبحانه قلوبهم بالختم، وبأنها عليها ران، وأنها في أكنة، وأنها من وراء حجاب، وأنها في غطاء، وبأن عليها أقفالًا... إلى غير ذلك،

---

(١) سورة البلد، آية [١٠].

وكأن كل صفة منها تستر القلب عن معنًى معين، فإذا بالحجب قد أحاطت بهم من كل جانب.

والختم على القلب يكون بإغلاق منافذ الهداية؛ جزاء صدودهم، وبأن يَحُول الله بينهم وبين دواعي الهدى؛ إذ الختم يوضع على الشيء لإحكام إغلاقه. أما الختم على السمع، يكون بأن يوضع الوقر في آذانهم، فبينما هم يسمعون الصوت إلا أنهم لا يفقهون ولا يهتدون، ولا يتفاعلون مع ما فيه من دواعي الهداية، ووجوه المخاطبات الإلهية الدالة على الرشد، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[1]، فالسمع كما يطلق على الإصغاء بالأذن، فإنه يطلق كذلك على ثمرة وقوع الكلام في الأذن، والذي هو التعقل المفضي إلى قبول الحقائق؛ ولذلك لم يقل الحق سبحانه: إنه ختم على آذانهم؛ لأنهم ما زالوا يسمعون، بل قال: إنه ختم على سمعهم، فرغم سماعهم للأصوات، إلا أنهم لا يعقلون عن الله ولا يهتدون.

ثم قال سبحانه: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ فهذه جملة جديدة، مكونة من مبتدأ وخبر، تم فيها ركنا الإسناد، وهي فعل إلهي آخر، يضاف إلى الختم الواقع على قلوبهم وأسماعهم، فإنه سبحانه زاد على ذلك بأن أخبر بأن أبصارهم عليها غشاوة؛ إذ ربما لم يسمعوا الحق، ولكنهم يرون من الدلائل ما يحملهم على التصديق، فجاء هؤلاء بعناد أفضى إلى إغلاق كل منافذ الهداية، فالقلوب والأسماع مختوم عليها، والأبصار عليها غشاوة؛ فهؤلاء لا يهتدون أبدًا.

والحاصل: أن هناك درجة من الكفر لا عودة بعدها أبدًا، حتى لو أن الدلائل كانت في غاية الوضوح في شأن الرجوع إلى دائرة الإيمان؛ فإنه لا يستجيب، ولو نصحه الناصحون، واجتهد الدعاة المخلصون في الإبانة وشرح دلائل الحق، فإنه

---

(١) سورة فصلت، آية [٤٤].

يشعر بأن هناك أسوارًا تحول بينه وبين ذلك، ألم يقل الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1]، فهذا من شدة كفره، وطول مدته وإبائه، وأذيته للعالمين؛ فإن الله يختم له بالسوء والعياذ بالله تعالى، وهذا تحذير للمؤمنين بل ولغير المؤمنين أن يصلوا إلى هذه الحالة، فيجب علينا أن لا نغلق الباب على أنفسنا أبدًا.

فالمولى سبحانه يحذر الناس أجمعين، أن يستدرج الإنسان إلى هذه المرتبة المنحطة، التي لا يستطيع بعدها -ولو أراد- أن يعود مرة أخرى؛ لأنه لو ختم على قلبه؛ فإنه لا يستجيب لنصيحة، ولا لعقل، ولا لفطرة، ولا لمشورة الصادقين من حوله، ويتمادى في عناده وكفره، وهو بهذا لا يرى الحق حقًّا، ولا يستطيع أن يقرأ الوقائع والأحداث قراءة صحيحة، ولا أن يحلل تحليلًا صحيحًا.

وانتبه إلى أن الذي يبين لك هذه الحقائق هو رب العالمين سبحانه، الذي يربي الخلق على عبادته، وعلى عمارة الأرض، وعلى العفو والصفح، فهو سبحانه هنا -لكمال رحمته بخلقه- يبين لهم مسالك الكفر إلى أين تمضي، ويحذرهم من عواقبه.

(١) سورة الأنفال، آية [٢٤].

ثم قال سبحانه:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾.

[البقرة: ٨-٩]

شرع القرآن بهذه الآية الكريمة في الحديث عن نموذج النفاق، وهو النموذج الذي اختلطت فيه معالم الكفر بمظاهر الإيمان، وامتلأ أصحابه بالحيرة والتردد بين منهج الإيمان بكل ما يترتب عليه من انتماء، ونمط تفكير، ورؤية للكون والحياة، ومنطلقات في التعامل، وبين منهج الكفر بكل ما ترتب عليه من آثار في المقابل.

فهذا النموذج المتردد المتحير منهج وسط بين وضوح الإيمان، وبين الكفر البين، وهو نموذج متشكك، لا يستطيع أن يصفو مع أحد المنهجين السابقين، فيضطر إلى التملق، والتمسح في المنهجين الآخرين، وتترتب على ذلك قيم نفسية واجتماعية في غاية الخطورة، تؤدي إلى انهيار الاجتماع البشري بالكلية.

وقد وصف الحق سبحانه منهج هؤلاء فقال: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾(١) وفي هذا التحير انهيار للقيم الاجتماعية، وتكدير للفكر، وتشويش للرؤية؛ ولذلك حرَّم الله تعالى النفاق، وجعل جزاءه الدرك الأسفل من النار ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾(٢).

(١) سورة النساء، آية [١٤٣].

(٢) سورة النساء، آية [١٤٥].

ولأجل ذلك؛ لم يجعل الله تعالى الإكراه في الإسلام ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[1] لأننا لو أكرهنا الناس؛ لربينا المنافقين، ونحن لا نريد منافقًا بيننا، ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾[2]، ثم إن هذا لما أن كفر، قلنا له: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾، ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[3] فهل يعقل بعد ذلك أن يدعي أحد، أن المسلمين أكرهوا الناس على هذا الدين الكريم؟ المسلم الذي يُكره الناس على أن يكونوا مسلمين، فإنه يكرههم في الحقيقة على أن يكونوا منافقين، وكيف يصح هذا وهو يرى القرآن الكريم يستفيض في التحذير الشديد من النفاق، ومن نفسية النفاق، ومن قيم النفاق ومن آثاره وأبعاده المدمرة، وما الفائدة في أن يقر بالإسلام ظاهرًا، في حين أن قلبه ممتلئ بالحيرة والتردد، يستبطن معاني الجحود والإنكار، ثم هو يخشى المصارحة بذلك، فيضطر إلى أن يخضع لقيم لا يقتنع بها؛ فتزداد نفسه حقدًا على هذا الدين، وكيدًا له، وسعيًا في الخلاص منه؛ ليرفع عن نفسه هذه الضغوط، وما الذي يفيد في أن أضيف إلى المنافقين الآلاف والملايين، فما لم يكن الإيمان قد صدر من قلبك فلا حاجة لنا به؛ ولذلك يقول سبحانه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾، ويقول سبحانه: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾، ويقول سبحانه: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾[4] إلى آخر ما هنالك.

ثم إن كلمة (من) تفيد التبعيض، أي أن الكلام هنا على بعض الناس، إذًا هذه طائفةٌ مخصوصة معينة، وليست هي الأصل في الناس، إنما بعضهم ابتلي بهذه الخصلة الخبيثة التي هي النفاق، ثم يقول سبحانه: ﴿ مَن يَقُولُ ﴾، والقول يتم باللسان، فكأن القضية عندهم لا تعدو كونها قولًا يجري على اللسان، بدون حقيقة يقينية من ورائه، فيبرز هنا النفاق في أجلى صوره؛ ولذا عقب سبحانه على هذا بقوله سبحانه: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾، فهو سبحانه العليم بما في الصدور، وهو المطلع على ما تكنه الضمائر،

(١) سورة الكهف، آية [٢٩].
(٢) سورة البقرة، آية [٢٥٦].
(٣) سورة النحل، آية [١٢٥].
(٤) سورة الكافرون، آية [٦].

فأعلمنا سبحانه بأن هذه الفئة تظهر إيمانًا لا حقيقة له، بل تبطن أمرًا في غاية الخطورة، ألا وهو الخداع والزور، والغش والتدليس، فقال سبحانه: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

الله تعالى عليم بذات الصدور، فعندما يقول أحدهم بلسانه: (آمنت بالله)، وهو لا يؤمن بالله في داخله، وعندما يقول: (آمنت باليوم الآخر)، وهو لا يصدق به، ولا يعد له عدته، وعندما يخادع، فيتكلم في النظر ولا يتكلم في العمل، ولا يراعي أن الإيمان تصديق بالجنان وعمل بالأركان- فكأنه بهذا كله يقصد أن يخادع الله، والله تعالى لا يخدع؛ لأنه سبحانه مطلع وعليم بذات الصدور، فما الذي يفعله هذا الإنسان بنفسه؟! هو في الحقيقة يخدع نفسه؛ لأن الله تعالى يعلم ما في قلبه.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فما الذي يضطره إلى خداع المؤمنين؟ لأنه يريد التواصل معهم، والانتفاع بعلاقته بهم، ويريد المحافظة على مصالحه مع الذين آمنوا، ويخشى أن يفقد صداقتهم؛ فيبدأ النفاق، وهذا لا يُرْضي الله ولا رسوله ولا المؤمنين، ونحن لا نريد منافقين، وقد علمنا الشرع الشريف ذلك، فجعل الإسلام مبنيًّا على البلاغ، ومنعنا سبحانه من الإكراه؛ لأنك لو أكرهته أطاعك بلسانه وبقي على اعتقاده في قلبه، وأضاف إلى كل ذلك كراهيتك والحقد عليك؛ لأنك أكرهته على ما لا يحب، فتكون قد أنشأت منافقًا، في الوقت الذي نسعى فيه لإنهاء ظاهرة النفاق، ونمنع الإكراه الذي يولد المنافقين، ونحن لا نريد أبدًا أن تتكون هذه الطائفة التي تريد أن تظهر الإيمان، وإن لم تكن قادرة نفسيًّا على أن تظهر الكفر الذي في باطنها وذلك من أجل ضعفها وخوارها.

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ عدم الشعور جاء من الجهل؛ لأنهم ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾(١)، فلم يفهموا صفات الله، وبالتالي

---

(١) سورة الزمر، آية [٦٧].

لم يفهموا من هو الله؛ ولذلك لما خدعوا أنفسهم لم يلتفتوا إلى ذلك، ولم يشعروا بهذا الذي فعلوه في أنفسهم، والسبب أنهم نسوا الله فغاب عن قلوبهم، وهو -سبحانه وتعالى- أغنى الأغنياء عن الشرك، فمن أشرك به -سبحانه وتعالى- في شيء تركه ولا يبالي، ومن تركه الله لحوله وقوته؛ ضاع، فلم يشعروا بالحقائق البديهية الأولية.

ثم قال سبحانه:

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

[البقرة: ١٠]

أخبرنا الله تعالى عن المنافقين بأن في قلوبهم مرضًا، وأن هذا المرض محفوف بعوامل كثيرة تتسبب في ازدياده وتفاقمه، ومن المعلوم أن الأمراض الحسية العضوية إذا تركت بدون علاج؛ فإنها تستفحل وتنتشر، وتتمكن من الجسد، حتى تفضي إلى الموت والهلاك، وهذه سنة الله تعالى في شأن المرض، أنك إن لم تعالجه ازداد، هكذا أرسى الله تعالى قوانين الكون، فمن مرض فقد وجب أن يسارع إلى العلاج، ولربما كان العلاج بالغذاء وتعديله، واتباع أنماط معينة فيه، وقد يكون بالدواء، وقد يكون بالجراحة، وقد يكون بالأعشاب، وقد يكون بالحمية؛ بأن تمتنع عن بعض الأشياء، وقد يكون بالراحة التي تعين الجسم على المقاومة، والمقصود: أن كل هذا مندرج تحت مقاومة المرض، والمهم أن تكون هناك وسيلة للعلاج مهما كانت، فليست القضية عندنا في وسيلة دون أخرى، بل المهم هو السعي في التخلص من العلل والأمراض بأي وسيلة، والذي يخرج عن سنة الله تعالى في هذا الصدد؛ فإن المرض يصير مزمنًا، ويتفاقم.

وكذلك أمراض القلوب، وهي تلك العلل والشبهات والتمويهات، التي تشوه الحقائق الكبرى، وتهدم اليقين، وتدمر منظومة القيم، ودوائر الأخلاق، وتجعل تصورات الإنسان للكون والحياة مليئة بالجحود والعدوان، وتجعل المفاهيم منعكسة، والمعايير مضطربة، وتنتج سلوكًا متخبطًا، وسياسات هدَّامة، وإجراءات في غاية

الانحراف عن مراد الله وهديه، فكلُّ هذه الأمراض لا يتحقق للعبد شروعٌ في التعافي منها حتى يعلم أنَّه مريض، وأن يتقبل هذه الحقيقة؛ حتى يسعى إلى العلاج، فإن هو استراح إلى مرضه، وظن أنه عين العافية، وكابر وعاند؛ فقد أُغلقت أبواب الشفاء، فقال سبحانه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ أي أنهم قد تركوا هذا المرض، ولم يحاولوا علاجه، ولم يحاولوا أن يخرجوا من نفاقهم إلى الإيمان، بعد التحذير والتنبيه والشرح والإيضاح، ولكن هل النفاق يزداد؟ والجواب: أن النفاق له صورتان كبيرتان؛ صورة قلبية: وهو المنافق الحقيقي الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر، وصورة ظاهرية، كأن فيها تقليدًا للمنافق الأصلي، فالكفر يماثل شجرة لها فروع، والإيمان شجرة لها فروع، فمن فروع النفاق أنه: إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا خاصم فجر، فكل هذه الصفات من شعب النفاق، والإيمان كذلك شجرة لها شعب وفروع، وقد ورد في الحديث: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً**»[(1)].

وقوله سبحانه: (بما) الباء هنا تفيد السببية، وكلمة (ما) لها في لغة العرب ستة وثلاثون معنًى، فمنها الموصولة التي تأتي بمعنى الذي، ومنها النافية، ومنها المصدرية، إلى آخر بضعة وثلاثين معنًى.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قال سبحانه هناك في حق الكافرين: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والعِظَم يشير إلى مقدار العذاب وكميته، وهنا يشير إلى كنه العذاب وكيفيته، فهناك الكم وهنا الكيف، فأيهما أقوى؟ العذاب الأليم أم العذاب العظيم؟ الحقيقة أنه لا مقارنة؛ لأن كل واحدة تصف جهة معينة، وكل الصفات المذكورة للعذاب تتضافر من أجل تصوير شدة العذاب، بما يفيد إيقاظ الغافل؛ ليسعى لتفادي أسباب العذاب المذكور، فوصف العذاب مرة بأنه عظيم

(١) رواه البخاري في «صحيحه»: (١/ ٥٢) فتح، كتاب الإيمان، باب: الإيمان وقول النبي ﷺ: بُنِيَ الإسْلامُ على خَمْس، ومسلم في «صحيحه»: (١/ ٦٣) كتاب الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان.

يرجع إلى الكم، ووصفه بالأليم يرجع إلى الكيف، وربما أمكننا أن نقول: إن الكيف هو المقدم لمزيد التحذير من النفاق وآثاره؛ بل كأن الكيف هو المقدم بالفعل، فقطعة الماس دقيقة الحجم تساوي ثمن أحجام هائلة من الحديد، ورب مقاتل في الحرب بألف مقاتل، ومالك بن أنس مثلًا، إمام مجتهد يفوق ألف عالم؛ لأنه صاحب مَلَكَة، يقتدر بها على الاستنباط، ففي كثير من الأحيان يكون الكيف مقدمًا، والمقصود: أن الوعيد بالعذاب الأليم أشد، مما يفيد أن خطورة المنافق أشد.

وكلمة (أليم) على وزن فعيل، ويجب علينا أن نحفظ هذا الوزن؛ لأنه سيتكرر معنا كثيرًا، مثل: عظيم وأليم وحليم ورحيم، وكل ما كان على وزن فعيل، فإنه يصلح في لغة العرب للدلالة على معنى فاعل أو مفعول، وهي تدل على هذين المعنيين بكثرة، وتأتي أيضًا بمعنى مفعل وهو قليل، فتدل على اسم الفاعل، مثل: شهيد بمعنى شاهد، ورحيم بمعنى راحم، وتدل على اسم المفعول، كمثل: قتيل بمعنى مقتول، وجريح بمعنى مجروح، وتدل على معنى مفعل، كمثل: أليم بمعنى مؤلم، وبصير بمعنى مبصر.

فهذه ثلاثة أوجه لمعاني صيغة فعيل ومواقعها؛ بل ذكر الأخفش أن صيغة (فعيل) تأتي على عشرة أوجه، وتعقبه بعضهم بأن التصفح دل على أربعين وجهًا وزيادة، أغربها: أن تأتي فعيل بمعنى (فعَل)، ومثالها أن يقال: مكان دميث ودَمَث، ويقين ويقن، وفرس عتيد أو عتد، وبئر نزيح أو نزح، وجسم عميم أو عمم، ويقال: هو مني بَعَدٌ، أي: بعيد.

وربما جاءت كلمة فعيل فاحتملت المعنيين معًا، فتفيد معنى فعيل ومعنى فاعل، كمثل كلمة رجيم، فإما أن معناها راجم؛ لأنه يرمي المؤمنين بالشبهات والوساوس، وإما أن معناها مرجوم؛ لما يجري على ألسنة الصالحين من لعنه.

إذًا فعيل تصلح للدلالة على اسم الفاعل، وتصلح للدلالة على اسم المفعول، وتصلح للدلالة عليهما معًا، فإذا جاءت في كتاب الله تعالى فقد وجب النظر في احتمال إرادة المعنيين معًا؛ لما نقطع به من أن كلام الله تعالى زاخر بالمعاني الجليلة المدخرة، ونحن نجتهد في الكشف عن المعاني المرادة قدر الوسع والطاقة.

ولكن ما هو الفارق بين راحم ورحيم، أو بين مؤلم وأليم؟ الفارق بينهما: هو أن في صيغة فعيل معنى المبالغة، فكلمة رحيم أغزر دلالة من كلمة راحم؛ بل كذلك الشأن في دلالة ما جاء على وزن فعيل.

ثم قال سبحانه:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

[البقرة: ١١-١٢]

فهنا يؤكد الحق سبحانه على أمر في غاية الحساسية، ألا وهو الأثر المدمر الذي يترتب على قيم النفاق، ألا وهو أنه يحمل أصحابه على الفساد في الأرض، ومن العجيب أن الله تعالى يبدي في كتابه الكريم غَيْرَةً كبيرة على العمران، ويعلمنا القيم التي نصنع بها حضارة تعمر الأرض على هُدًى وعلى بصيرة، ويحذر من كل ما من شأنه أن يؤدي إلى الإفساد في الأرض، وما زال القرآن الكريم يحدثنا عن الأنبياء الكرام، وأنهم ما جاء واحد منهم إلا حذر قومه تحذيرًا شديدًا من الإفساد في الأرض، فقال موسى عليه السلام لقومه: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[١]، وقال صالح عليه السلام لقومه: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[٢]، وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[٣]، وقال شعيب أيضًا: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[٤].

بل إن الله تعالى ذكر نموذجًا من الناس يبدو خبيرًا بشئون الحياة، مطلعًا على الواقع وتعقيداته، مدركًا للعلوم الإنسانية، وتطورات العقل البشري وتراكماته المعرفية، إلا أنه يسعى مع ذلك فيها بالفساد العريض، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن

(١) سورة البقرة، آية [٦٠].
(٢) سورة الأعراف، آية [٧٤].
(٣) سورة هود، آية [٨٥].
(٤) سورة العنكبوت، آية [٣٦].

يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾[1].

وهنا أيضًا وقفة مهمة، نستكشف فيها منهجًا دقيقًا في فهم القرآن، ونشرح فيها قاعدة، تبين كيف يتمكن القارئ من استخراج إشارات القرآن ودلالاته، فهنا نصوص قرآنية كثيرة في النهي عن الفساد في الأرض، وفي ذم الفساد وأهله، وفي بيان الآثار المدمرة التي تترتب على الفساد، وفي بيان قيم النفاق التي تؤدي إليه، ألا يلفت كل هذا نظرنا إلى أن ما يقابل الفساد -وهو السعي في الأرض بالصلاح والعمران- له عكس تلك الأحكام، فهو من قيم الإيمان، وهو محقق لمراد الله من عباده، فكأن الله تعالى أمرنا بالعمران من خلال شدة النهي عن الفساد، فيمكن أن نخرج من هذا بأن النهي عن الشيء أمر بضده.

وهذه مسألةٌ دقيقةٌ من مسائل علم أصول الفقه، تبين لنا جانبًا من منهجية فهم القرآن، فقد ذهب كثير من علماء الأصول إلى أن النهي عن الشيء، أمر بأحد أضداد المنهي عنه، وأن الأمر بالشيء نهي عن جميع أضداد المأمور به، كما عبر الإمام الجويني في كتاب «البرهان»[2]، لا سيما إن كان للمنهي عنه ضد واحد، فإن كان له أضداد كثيرة، ففيه نقاش طويل عند علماء الأصول، وقال الزركشي في «البحر المحيط»: (النهي عن الشيء أمر بضده إن كان ضد واحد بالاتفاق)[3]، وهذا هو القدر الموجود معنا هنا من المسألة؛ فإن القرآن ما زال ينهى عن الفساد على ألسنة رسل الله تعالى، وجعله سبحانه من قيم المنافقين، فدل هذا على أنه يأمر بضد ذلك، وهو الإصلاح في الأرض وعمارتها، لا سيما أن للفساد ضدًّا واحدًا، ومقابلًا واحدًا، وهو الإصلاح، وقد جعل القرآن الإصلاح هو المقابل للإفساد في آيات كثيرة،

(١) سورة البقرة، الآيتان [٢٠٤، ٢٠٥].

(٢) «البرهان في أصول الفقه»: (١/ ١٧٩).

(٣) «البحر المحيط»: (٢/ ١٤٩).

فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[(١)]، وقال سبحانه: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[(٢)]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[(٣)]، وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[(٤)]، فمقابل الإفساد هو العمران والإصلاح، فإذا نهى القرآن عن الفساد فقد أمر بالإصلاح والعمران.

فكأن عمارة الأرض، والسعي فيما ينمي العمران، من العلوم والنماذج المعرفية، والمعارف التي تعين على إدارة الحياة، واستلهام مرادات الله تعالى وشرعه الشريف في الفنون والآداب، وسائر العلوم الإنسانية والإدارية، كأن كلَّ ذلك -في الحقيقة- من المبادئ الإلهية العريقة، السارية في كل الرسالات السماوية، وكأن السعي في مناقضة هذا النسق؛ بما يرجع على الأرض وما فيها بالفساد، من شيم أهل الجحود، الذين يسعون في مخالفة أمر الله.

ولا شك في أن العمارة لها معايير إلهية، ولها مقاييس مجردة، تخرج بها عن دائرة النسبية والفردية؛ حتى يمكن التحاكم إليها لتحديد المصلح على الحقيقة، والمفسد على الحقيقة، وحتى لا يَدَّعي كل إنسان أن منهجه هو الذي يؤدي إلى الإصلاح، غافلًا عن مآلاته، وآثاره البعيدة على المجتمع الإنساني بأكمله، عبر الزمن الطويل الممتد.

ولا شك أيضًا في أن النفاق لا قيم حقيقية له؛ بل هو يفضي إلى النفعية البحتة، ويسعى بصاحبه في تحقيق ما يُؤمِّن له وجوده وأمنه، وإن أدَّى هذا إلى تدمير مصالح المجتمع؛ إذ هو لا يحترم المجتمع فيتعامل معه بوضوح، بل يبطن قيمًا فاسدة، يعلم أنها تضر المجتمع، ثم هو لا يمتلك من الجراءة النفسية أن يكون صريحًا مع نفسه

---

(١) سورة الأعراف، آية [٥٦].
(٢) سورة الأعراف، آية [٨٥].
(٣) سورة الشعراء، الآيتان [١٥١، ١٥٢].
(٤) سورة النمل، آية [٤٨].

ومع الخلق، وإذا نصحه المؤمنون وأهل البصيرة، بأن مسلكك لا يضر بك وحدك، بل يؤدي إلى الفساد في الأرض، ويناقض التشريع الرباني جملة وتفصيلًا؛ شمخت أنوفهم، ورفضوا النصيحة، وتعالوا بأنهم هم أصحاب الرؤية الحضارية، وأصحاب المنهج العلمي، وأنهم هم المصلحون.

يحذرنا الله تعالى من هذا النموذج، ويعلمنا بأنه خطر على أي مجتمع، وأن صاحبه يظلم نفسه ويظلم الناس معه، وأنه قد اختلطت عليه الحقائق؛ لفقده معايير المعرفة.

فهؤلاء في الحقيقة أناس لا يمتلكون المعيار الصحيح، الذي يفرقون به بين الأمور المشتبهة المتداخلة، فلا يعرفون معنى الفساد في الأرض.

هو مثلًا يريد أن يبني، وأن يعلي البنيان، ويرى أن هذا هو الإصلاح للأرض؛ لأنه يريد المصلحة الآنية، ولا يهمه كثيرًا إذا كان ثقب الأوزون يتسع أو لا يتسع.

وهو يريد أن يبيع ما صنعه من فريون، أو من سيارات تلوث البيئة، دون أن يفكر في تطويرها، وفي تحسين أدائها بحيث لا تضر، ولا يهمه إذا كنا نترك هذه الأرض لأولادنا وأحفادنا خرابًا يبابًا، أو أن نتركها عمارًا من غير تدمير، بل بالتعمير، فهو لا يفرق بين التدمير والتعمير.

وهذه خصيصة من خصائص القرآن العظمى، التي تثبت أنه من عند الله تعالى، وأنه يتكلم بكلام يتجاوز الزمان، والمكان، والأشخاص، والأحوال، ولا يدخل في تفاصيل ومشخصات، تجعله كتابًا زمنيًّا، بل هو كتاب مجرد، جاء من عند الله تعالى مطلقًا، دون أن يكون كتاب زمن دون زمن آخر، أو كتاب مكان دون مكان آخر، أو شخص، أو أمة، أو قبيلة فيصلح لهؤلاء ولا يصلح للباقين، أو أنه راعى حالًا دون حال.

فقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ كلمة جامعة مانعة، شاملة كاملة، ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾، فقد نهى عن الفساد دون أن يتناول برنامجًا بعينه من برامج الفساد، فنهى عن المبدأ الذي قد يبرز في أي برنامج إداري، أو اجتماعي، أو حياتي ينتجه البشر، فكأنه يلفت النظر إلى مقاصد الأمور ومآلاتها، فنهى عن الفساد مهما كان شكل ذلك الفساد، وقد يكون الفساد بأن نقطع الغابات، أو بأن نقتل الحيوانات، أو بأن نؤدي إلى التصحر والمجاعات، أو بأن نلقي القنابل الذرية على هيروشيما وناجازاكي؛ فنفسد في الأرض، ونشوه خلق الله، أو بأن نفسد في الأرض بالظلم والعدوان، والطغيان، والاحتلال، أو بأن نغتصب الأرض، وننتهك العرض، إلى غير ذلك من صور الفساد الكثيرة، فلم يتكلم عن صورة ويترك صور، إنما تكلم بطريقة معينة، ستراها في القرآن كله، وهي أنه يخاطب الإنسان عبر الزمان والمكان، وفي كل الأحوال، ولجميع الناس، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1].

إذًا قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ نلاحظ فيها الإيجاز، فهي كلمة تضمنت إعجازًا نبع من الإيجاز، وهي سبع كلمات تصلح للبشرية كلها، فتصلح في بناء حماية البيئة، وفي بناء حقوق الإنسان، وفي بناء العلاقات الدولية، وفي بناء قضايا الصناعة والاقتصاد، وفي بناء حركة المال، وهذا شأن القرآن الكريم، وما كان يستطيع سيدنا محمدٌ ﷺ أن يأتي بمثل هذا من عند نفسه؛ فإن الله تعالى قد حفظ لنا كلام رسول الله ﷺ في دواوين السنة، فكان على رغم فصاحته ونورانيته على غير هذا النمط، ولا يستطيع إنسان أن يغير من كلامه الخاص، أو من أسلوبه وصياغته بهذا القدر، وبهذا البون الشاسع.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ كان ردهم الفوري: ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ فالبرنامج الإلهي الذي يراعي مقاصد الأمور، ومآلاتها ونهاياتها، وما تفضي إليه،

(١) سورة الأنبياء، آية [١٠٧].

ليس حاضرًا عندهم؛ بل هم مشغولون ومفتونون ببرنامج جزئي، ركنوا إليه، وبدا لهم في ظاهره الإصلاح، وغابت عنهم آثاره البعيدة، وأنها مفسدة مدمرة، فقالوا: نحن مصلحون.

ومن هنا ننتبه أيضًا، إلى أن الذي يصف الأفعال بالحُسْن والقُبْح هو الله العليم الخبير، وهذا هو الذي أطبق عليه المسلمون شرقًا وغربًا، سلفًا وخلفًا، أن الذي يصف الأشياء بأوصافها الحقيقية، ويحكم على الأفعال بأحكامها الشرعية هو الله، وليس العقل، ولا الشعب، ولا الطبقة، بل إن الله تعالى هو وحده الذي يحكم ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1].

وهذا هو معنى قولنا: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) فقولنا: (لا إله إلا الله) من معانيها: أنه لا يصف الأفعال ولا الأقوال ولا الأشياء بالحسن والقبح سوى الله؛ وعليه فهو الذي يرتب عليها العقاب والثواب، والذم والمدح، ومن معانيها: أن الله تعالى متفرد في جلاله بذلك.

ومن أجل ذلك جاءت هذه المفارقة العجيبة: هذا الفعل الذي قمت به أيها الإنسان، هل هو من قبيل الصلاح أو من قبيل الفساد؟! أنا أقول: إنه من قبيل الفساد؛ لأنه مخالف لأمر الله، وفطرته، وخلقه، والاجتماع البشري بأكمله، فيرد ويقول: بل هو من قبيل الصلاح؛ لأنه يحقق شيئًا من رغبتي، أو شهوتي، أو مصلحتي!!

ومن هنا رأينا أقوامًا يريدون أن يَعدّوا الشذوذ الجنسي من حقوق الإنسان، أو يعتبروا الإجهاض من حقوق الإنسان، وبعضهم أراد أن يجعل المخدرات من حقوق الإنسان!! قلنا لهم: إن حقوق الإنسان هي المتفق عليها بين البشر، من حماية

---

(١) سورة الأنعام، آية [٥٧].

العرض، وكرامة الإنسان، والعقل، والنفس، والدين، والمال، والملك، وكسب المال وتقليبه، وليس هذا الذي تقولون، فما دمنا لم نتفق، وهناك ستة مليار إنسان على ظهر الأرض، وهؤلاء كلهم على لهجة واحدة أن الشذوذ شذوذ، وأنه انتكاس عن الفطرة السوية، وأن المخدرات مخدرات، وأنها تهدم الإنسان، وأن الفساد في الأرض فساد، وأن الإجهاض إنما هو قتل نفس حرمها الله، وهو قتل نفس بغير الحق، وفي مقابل هذا المبدأ الثابت -الذي هو إجماع إنساني، قبل أن يكون توجيها شرعيًّا- هناك فئة قليلة قالت: لا! بل هذا من حقوق الإنسان، فنسألهم: وهل هذا فساد أو صلاح؟ نحن نقول: إنه فساد؛ لأن الله قَوَّمَه فسادًا، ووصفه بأنه فساد، فيقال: إن بعض البشر ادعوا أنه صلاح، نقول له: هذا هو الذي حدثنا الله -تبارك وتعالى- عنه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾، فهم يقولون فعلًا نحن مصلحون، فصدق الله حينما وصف لنا ما سوف يحدث عند وجود نقاش، بين منهج يتبنى وحي الله تعالى في وصف الأشياء، وتحديد منهج التعامل معها؛ فيلحظ آثارها الكلية، وما سوف تنتهي إليه، وينظر إلى برامج العمل، لا من حيث تحقيق منفعته، بل من حيث أثرها على العموم، بمنظور يوقر الإنسان، ويرده عن طغيان نزواته، وبين منهج آخر يتبنى النفعية والذاتية، ولا يرى إلا الآثار القريبة دون المآل البعيد، ومدى تأثيره على عموم الخلق، فصاحب هذا المنهج الأخير يجب أن يستحي، لكنه لا يستحي؛ لأنه فقد المعيار والحكم.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ فيشير سبحانه إلى أن الأمور اختلطت عليهم، وأنهم يقدمون كتبًا وأبحاثًا وتقارير تفيد أنهم مصلحون، ومدافعون عن حقوق الإنسان، فربنا سبحانه من أجل أن يبين لمن يريد البصيرة، ينبه إلى أن التقارير تتلاعب بالإحصائيات، وأن تلك الكتب فيها دجل وليس فيها علم، وأن العلماء الحق يردون عليهم في الشرق والغرب، فيقول سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ﴾ فانتبه إلى تركيب الكلام: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ﴾ فما المعنى؟ المعنى: أنه ينبه ويؤكد تأكيدًا

مضاعفًا على أنهم هم المفسدون في الحقيقة، واستعمل الاسم الذي هو ﴿ٱلْمُفْسِدُونَ﴾؛ لأنه يبين الثبوت والاستمرار، دون الفعل (يفسدون) لأن الفعل يفيد التجدد، فأراد أن ينبه على أن الإفساد وصف ذاتي متأصل فيهم، ثم إنه سبحانه استعمل أيضًا الألف واللام التي هي للعهد، كأنه يقول: هؤلاء هم المفسدون على الحقيقة، فهؤلاء هم الذين إذا ما أردت ذكر المتلبسين بالإفساد على التحقيق ذكرتهم هم، وهذا المفسد هو المثال الذي في الذهن، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ لفقدهم البرنامج، ولفقدهم المعيار الذي وضعه الله سبحانه وتعالى.

ثم قال الحق سبحانه:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

[البقرة: ١٣-١٦]

فنقل القرآن الكريم هنا مستوى النقاش معهم من قضية العمران إلى قضية الإيمان؛ حتى يتكون التصور الكلي للحياة؛ حيث إنها مكونة من إيمان وعمران، وللإيمان أثر في طبيعة العمران وفلسفته وآفاقه، فوقف هؤلاء عند قضية العمران، وقالوا: نحن نعمر الأرض، وهؤلاء سفهاء لا يعمرون، فهل تريدنا أن نكون مثل هؤلاء المتخلفين الذين لا يعمرون؟ والحقيقة أن السفه والتخلف لا يوجدان مع الإيمان أبدًا؛ بل التخلف في تنحية الإيمان بالله، وفي الإلحاد، قالوا: ولكنكم مؤمنون، ولستم مثلنا؟ فنقول لهم: آمنوا أنتم وعَمِّروا الكون؛ لتكونوا أفضل منا ألف مرة، فنحن ما جئنا لسلب العمران، بل نريد أن نضيف إليه الإيمان، وإن نحن أخفقنا في مرحلة من المراحل في تحقيق العمران، فإن دين الله تعالى أوسع منا، وهو خطاب لنا ولكم وللناس أجمعين؛ فلا تجعلوا تخلفنا عن العمران مانعًا لكم من الإيمان، فالقضية التي بيننا وبينكم هي الإيمان، فآمنوا بالله؛ ليكون الفكر عندكم مستنيرًا؛ إذ الفكر

على ثلاثة مستويات: فكر سطحي لا تتأتى به العمارة ولا الإيمان، وفكر عميق يتأتى به العمران، وفكر مستنير يربط ما تتوصل إليه في العمارة بالحقائق الكونية الكبرى، ويوصلك إلى الله؛ لتنال سعادة الدارين، فإن كنت تلوم علينا تقصيرنا في تحصيل الدنيا فحصلها أنت، وأضف إليها الإيمان؛ لتكون قد توصلت إلى سعادة الدارين، ولا يشوش عليك ضعف قوتي في الدنيا، فقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ لأن الكفر بالله تعالى سفه، والالتفات إلى الدنيا ونسيان الآخرة سفه.

والسبب في ذلك: أن الحقائق الكبرى والتصور الصحيح للكون والحياة لا يسير إلا على قدمين: وهما عمارة الأرض، وابتغاء الدار الآخرة، ومن عمل لإحداهما فقط فهو أعرج، ومن نسيهما معًا فهو مقطوع الرجلين، والحق أن الإنسان يرعاهما معًا، فيؤمن بالله، ويعمر الأرض، ويزكي النفس؛ حتى يستطيع أن يسير في طريق الله تعالى، ويتمسك بالدين والعمران. أما القول بأحدهما فقط فهو سفه، فكما أنهم وصفوا أهل الآخرة فقط بالسفه، وصفهم الله تعالى أيضًا بالسفه، ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾[1]، فإن كان المتمسك بالآخرة فقط سفيهًا، فالمتمسك بالدنيا فقط سفيه أيضًا.

والحاصل أن المؤمن مطالب بالأمرين: العمران والإيمان، وقد لخص لنا سبحانه مقاصد ذلك كله في قوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[2]، فأمر بالعمران، وفي قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3]، فشرح معنى الإيمان، وفي قوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[4]، والذي زكاها هو الذي سار على هذين الطريقين، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[5] هو الذي ترك أحدهما أو تركهما.

ثم ختم الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم

(١) سورة النبأ، آية [٢٦].
(٢) سورة هود، آية [٦١].
(٣) سورة الذاريات، آية [٥٦].
(٤) سورة الشمس، آية [٩].
(٥) سورة الشمس، آية [١٠].

يظنون أنهم يمتلكون معيار عمارة الأرض، وأنهم أنشأوا المؤسسات والمنظمات والهيئات، وملكوا زمام الأرض، إلا أن هذا كله لم يوصلهم إلى الله تعالى؛ فقدح الله تعالى في علمهم، وهو قريب من قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[(١)].

ثم وصف الله تعالى سِمَةً أخرى من سمات المنافقين، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ فهذا شأن كثير من المنافقين، أنهم عند لقاء المؤمنين يتهربون من فتح ملفات القضايا الكبرى، ولا يريدون نقاشًا ولا حججًا ولا أدلة، فيظهرون للمؤمنين أنهم معهم، وأنهم مؤمنون مثلهم، وهذا النوع كثير في كل العصور، فيظهرون الإيمان، وهم يستبطنون غير ذلك، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ فتأمل قوله تعالى: ﴿خَلَوْا إِلَىٰ﴾ لترى فيها إشارة دقيقة، وإيحاءً قرآنيًّا خفيًّا بطرق هؤلاء القوم، وإجراءاتهم في التنظير لفكرهم ومنهجهم، والتواصل بينهم وبين المنظرين لفكر الكفر والضلال، وما يجري في الخفاء من تحالفات بين هذه القوى.

والإشارة القرآنية التي تبين لنا ذلك كله هي قوله تعالى: ﴿خَلَوْا إِلَىٰ﴾؛ وذلك أن الأفعال العربية إما أن تكون لازمة أو متعدية، والفعل المتعدي يحصل له معنى التعدي والتوصل إلى المفعول بطرق كثيرة، منها أن يتعدى الفعل إلى مفعوله بحرف من الحروف، ومن هنا فقد اشتهر كل فعل من هذه الأفعال بحرف يلازمه، ويتعدى بواسطته، فالأصل في الفعل (خلا) -عند مراجعة الكلام العربي الفصيح وأشعار العرب- أن يتعدى بالباء، فيقال: خلا فلانٌ بفلان، بينما نحن نرى القرآن الكريم هنا عدل عن ذلك، وعدَّى الفعل بإلى دون الباء، فلو أنه قال: (خلوا بشياطينهم) لأفاد معنى الخلوة المجردة، فلما أن قال: ﴿خَلَوْا إِلَىٰ﴾ أفاد معنى آخر، ألا وهو معنى

(١) سورة الروم، الآيتان [٦، ٧].

الطمأنينة في الخلوة، فكأن خلوتهم إلى شياطينهم كانت خلوة مفعمة بالارتياح والسكون إليهم؛ لأنهم مرجعيتهم ومنطلقهم، فلم يكن هذا خلوًّا طبيعيًّا، بل كانت الخلوة مقابلةً مع محبة وأمن واطمئنان، مما يفيد أيضًا القصد والهمة، والعزيمة والنية، والتأكد، وهذا التصرف هو المتوقع من نفسية المنافق، تحالفات في الخفاء، مع الرؤوس المنظرة للضلال، مع إظهار الموافقة للمؤمنين، مع التصريح بقصد الاستهزاء!!

وهذا المسلك في العدول في تعدية الفعل بحرف إلى حرف آخر يسميه العلماء بـ(التضمين)، وهو أن يُشْرب الفعل معنى فعل آخر، فيأخذ الفعل الأول خصائص الفعل الثاني ومعانيه، ويتعدى أيضًا بحرفه، وللتضمين شروط وبحوث عند أهل اللغة، وعند مجمع اللغة العربية، فكأنه ضمن الفعل (خلا) معنى الفعل (اطمأن) فعدى الفعل خلا بحرف (إلى) المناسب لـ(اطمأن).

فقد أفادنا هذا المسلك اللغوي الدقيق -والذي هو (التضمين)- تصويرًا عميقًا لتلك الحالة النفسية المعاندة، والتي فيها نية مبيتة، من استقرار النفاق في القلوب، باعتباره أمرًا قد اطمأنوا إليه، ولا رجعة فيه، وهذا يعطينا أحكامًا وتصورات أخرى، مغايرة لذلك المعنى المفهوم من مجرد أن أحدهم خلا بآخر، وكل هذه المعاني مستفادة من التعبير بـ(إلى).

وتأمَّل قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ فهم يؤكدون لشياطينهم أنهم معهم، وأن التحالف قائم على حاله، وهم يثبتون لهم أنهم معهم بوسائل من التوكيد متعددة، فهم يقولون: ﴿ إِنَّا مَعَكُمۡ ﴾ ولم يقولوا فقط: (نحن معكم)، بل أكدوا هذه القضية بإن، ثم قالوا: ﴿ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ فرجعوا إلى التأكيد بـ(إن) مصحوبة بـ(ما)؛ لأن الزيادة في المبنى تفيد الزيادة في المعنى، فانتبه إلى هذه القواعد، التي منها التضمين، ومنها التوكيد، ومنها الزيادة في المبنى؛ لأن هذه هي الأدوات التي نفهم بها كلام ربنا سبحانه.

أما قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ فإن الألف والسين والتاء تأتي للطلب، فيقال: استخرج، أي: طلب الخروج وسعى فيه، واستنبط، أي: طلب الماء وحفر من أجل إخراجه، واستفتى، أي: طلب الفتوى، واستعمر، أي: طلب العمار، ومنه قوله سبحانه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1] أي أمركم بالسعي في عمارتها، وهنا استهزأ معناها طلب السخرية والتهكم والهزء، والطلب يقتضي نية وإرادة، فهم ما قالوا: (نحن هازئون)، فربنا -سبحانه وتعالى- وهو يحاسبهم على ذلك لم يظلمهم؛ لأنهم قاصدون، عامدون، عالمون، مريدون لما يفعلون، ويعلمون أن ما يفعلونه شر وتحايل، وتشويه للحقائق، فهم لم يكونوا هازئين فقط، بل هم مستهزئون، وهذا يقتضي إرادة ونية، والنية تقتضي القصد والعلم والاختيار، فهم لا يفعلون ذلك جهلًا، ولا إكراهًا؛ لأنهم سعوا وطلبوا، وهذا يقتضي التكليف، فهم مكلفون، يفعلون ذلك من قلة الديانة، مع العلم والقصد والاختيار.

وانتبه إلى أنه لا يثبت الفعل في حق أحد من الناس إلا بهذه الأمور الثلاثة، فلا يعد الإنسان قاتلًا إلا إذا ما أقدم على القتل عالمًا قاصدًا مختارًا، ولا يعد سارقًا إلا بمثل ذلك، فإن اختل واحد من هذه الشروط الثلاثة ارتفع التكليف والمؤاخذة، كأن يفعل ذلك جاهلًا، أو ناسيًا، أو غافلًا، أو مكرهًا، أو ملجأً؛ ارتفع عنه التكليف، على شروط معينة عند علماء أصول الفقه، ومن هنا نشأت نظرية التكليف عند الأصوليين، وبحثوا أهلية التكليف، وفي العوارض التي تطرأ فيرتفع التكليف عندها، واتسع النظر عندهم في عوارض الأهلية حتى أفردت لها المؤلفات؛ ولذلك فقولهم هنا: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ فهم يعلمون ما يفعلون، فيؤاخذون على ما يعملون، والله تعالى أعلى وأعلم.

ثم قال الحق سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ هناك صفات لله تعالى أتت في القرآن

---

(١) سورة هود، آية [٦١].

الكريم على سبيل المقابلة، ويسميها أهل البلاغة المشاكلة، ولا يجوز أن نأخذ منها اسمًا لله تعالى باستقلال، كمثل قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾(١) فلا يمكن أن نسمي الله تعالى ماكرًا، وكمثل قوله تعالى: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾(٢) فلا يجوز أن نسمي الله تعالى خادعًا، جل الله عن ذلك، وهنا قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ فلا يصح أن نقول: إن الله مستهزئ؛ لأن هذا أسوب عربي فصيح يسمَّى المشاكلة، وهو أن يذكر اللفظ في مقابل اللفظ ليشاكله، والسياق حينئذ مفهم، ولا يصح أن يذكر أحدهما على سبيل الاستقلال، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾(٣) والعقاب في موضعه لا يسمى سيئة، وإنما سماه سيئة؛ لأنه كان في مقابلة سيئة، فهو كقولك لشخص: أنت تؤذي الناس؛ فأنا سوف أؤذيك، وتقول له: أنت أسأت إلى الخلق؛ فأنا سأسيء إليك، وأنت خادعت الخلق؛ ولذلك ستقع في مثل ذلك فتخدع، وأنت مكرت بهم؛ فسوف يمكر بك، وأنت استهزأت بهم؛ فسوف أجعلك هزؤًا، ولكن هذه لا يمكن أن تستقل.

والمقصود أنه عندنا في أسماء الله تعالى شروط؛ أولها: أن يرد الاسم بصريحه أو بمادته، وورود المادة كمثل قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾(٤) وكمثل قوله سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾(٥) فورود مادته إما بالتصريح وإما بالتلميح. أما التصريح فعندنا نحو مائة واثنين وخمسين اسمًا لله تعالى في القرآن الكريم، وأما التلميح فهناك أكثر من عشرين مادة وردت منسوبة إلى الله تعالى، منها النصر، والخداع، والمكر، والاستهزاء؛ فلا يصح أن أستخرج منها اسمًا؛ لأن الشرط الثاني هو ألا توهم نقصًا، ومتى توهم نقصًا؟ عندما ننتزعها من سياقها، فنكون

---

(١) سورة آل عمران، آية [٥٤].
(٢) سورة النساء، آية [١٤٢].
(٣) سورة الشورى، آية [٤٠].
(٤) سورة محمد، آية [٧].
(٥) سورة المائدة، آية [٥٤].

كمن قرأ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾[١] ولم يكمل، وكمن قرأ: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[٢] ولم يكمل، فهذا انتزاع من السياق، وهو لا يجوز. الشرط الثالث: أن تكون في جانب الصفات لا في جانب الأسماء، فما الفارق بين أسماء الله تعالى وصفاته؟ الفارق أن الاسم علم على الذات، وأن الصفة قائمة بالذات، فكلمة الناصر مثلًا استوفت الشروط الثلاثة، فيمكن أن أدعو فأقول: يا ناصر؟ والمقصود أن ربنا أتى بها على سبيل المشاكلة ولم يأتِ بها على سبيل الاستقلال.

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فهناك عمًى يصيب القلب وهو عمى بصيرة والعياذ بالله تعالى، وهناك عمًى يصيب العين؛ فيذهب البصر. أما ذهاب البصر فإن الإنسان يثاب عليه، ولا ينزه عنه الأنبياء، فقد قال تعالى في حق يعقوب عليه السلام: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾[٣] فمن الأنبياء من ذهب بصره، فالعمى إذًا لا يناقض النبوة، ولكن الصمم يناقضها، ولا يوجد أبدًا نبي أصم؛ إذ لا بد من أن يسمع ويستجيب، ويقول ويتواصل؛ لأن وظيفة النبوة هي البلاغ عن الله تعالى، فلا يمكن أن يكون منقطع الصلة عن العالم بالصمم.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ والباء تدخل على المتروك غالبًا، فتقول: استبدلت الكتاب بالنقود، إذا تركت النقود وأخذت الكتاب، فإن أردت العكس قلت: استبدلت النقود بالكتاب، فتكون قد بعت الكتاب وأخذت ثمنه، فأنت في الصورة الأولى: مشترٍ، وفي الثانية: بائع؛ لأن الباء تدخل على ما تركته، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾[٤] فقد تركوا الذي هو خير، وأخذوا الذي هو أدنى، فأخذوا العدس والبصل وما أشبه، لكن تركوا الذي هو خير، وهو المن والسلوى، ثم نحن نقول: غالبًا؛ لأنه وردت مواضع دخلت فيها الباء على غير

---

(١) سورة الماعون، آية [٤].
(٢) سورة النساء، آية [٤٣].
(٣) سورة يوسف، آية [٨٤].
(٤) سورة البقرة، آية [٦١].

المتروك، إلا أنها مواضع قليلة، ويمكن أن يمثل لها بقوله تعالى: ﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[1] وهم إنما تركوا الدنيا، واشتروا الآخرة، فهذا عكس القاعدة، ولكنه نادر، وإن كان يمكن أن نجيب على هذا بأن الفعل هنا شرى، ومعناه: باع، فالمعنى أنهم باعوا الدنيا وجعلوا الآخرة ثمنًا، فلا يكون داخلًا معنا هنا.

وهنا يقول الحق جل شأنه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ فأفاد أنهم تركوا الهدى، وأخذوا معهم الضلالة، فهل رأيت شخصًا يأخذ الضلالة ويترك الهدي، أيكون هذا رابحًا؟! لا، والله لا يكون، ولذا قال سبحانه: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ فجمعوا بين الأمرين: خسران الدنيا والآخرة.

ثم قال الحق سبحانه:

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ
ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ
عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ
وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ
ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

[البقرة: ١٧-١٩]

جاء هذا المقطع من سورة البقرة في توضيح قضية النفاق، وآثاره الدنيوية والأخروية، والنتائج المدمرة التي يأتي بها النفاق، وأثر النفاق في السلوك الاجتماعي.

وما ترك القرآن أسلوبًا يوضح به جوانب النفاق وأبعاده إلا وقد سلكه؛ حتى تنجلي أمام المؤمنين قضية النفاق من كلِّ زواياها، فبعد أن تكلّم القرآن عن عدم رسوخ قيم الإيمان عند المنافق، وعن ترسب الأهواء والأمراض الأخلاقية في القلب، وعن سعيهم في الأرض بالفساد مع جدل وسفسطة، وعدم وضوح لمعايير العمران، وعن مراوغتهم وعدم استجابتهم لدواعي الهدى، وغير ذلك من مكونات النفاق وأسبابه وآثاره، بعد أن عرض القرآن الكريم ذلك كله، انتقل إلى منحًى آخر في توضيح خطورة النفاق، وذلك من خلال تشبيهين يعرضان زوايا جديدة من أبعاد النفاق.

فالتشبيه الأول، شبههم فيه الحق سبحانه بفئة من الناس يسيرون في طريق مظلم، لا يعرفون فيه اتجاهًا، وقد تحيَّروا وضلوا، ثم سعوا بكل ما يمكنهم في

إيقاد نار يشع منها شيء من الضوء، تتبين به الحقائق، ويدركون به ما يحيط بهم، ويعرفون به الطريق، فلما أن تحقق المقصود، وشع الضوء، ورأوا المسار؛ صدوا عنه، وجحدوا به؛ فسلبهم الله نعمة المعرفة والاهتداء، وتركهم في حيرتهم رغم وضوح السبيل أمامهم.

ومن المعلوم أن الألف والسين والتاء، أو صيغة استفعل، تدل على الطلب، فكلمة (استوقد) تعني أنه سعى في إيقاد النار، وهذا دليل على وجود حاجة عنده، فكأنه وهو يستوقد النار إنما استوقدها من أجل حاجة أرادها، وهذه الحاجة، معناها: خلَّة ينبغي أن تسد، فالإنسان يحتاج إلى الأكل أو إلى الشرب، أو إلى النوم أو غير ذلك من احتياجات الحياة، فأريد أن أسد جوعتي، وأن أروي ظمأي، وهكذا، فما وجه الحاجة إلى أن يستوقد النار؟ منها الاستنارة بالليل، وإنضاج الطعام، والدفء في الشتاء، وأن نجعلها دليلًا لنا، بحيث إن البعيد يراني؛ فيأتي لضيافة، أو لهداية الطريق، أو لأني في حاجة إلى نجدة، فإذا رأى الناس النار أدركوني، ولذلك كانت هناك شعوب كثيرة تستعمل الدخان في الرسائل، فكأن النار مهمة؛ لما فيها من الدفء، والنور، والمصالح المختلفة، ولعلك تذكر هنا سيدنا موسى لما أن جاء إلى الوادي المقدس، فشاهد نارًا، فذهب إليها، وأخذ منها جذوة أو قبسًا، فلما أن أتاها وجد شأنًا آخر، أعظم بكثير مما كان يظن، حتى رجع بالرسالة والنبوة.

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ فاستوقد، معناها: طلب أن توقد له نار، أو طلب أن يحصِّل نارًا لحاجة، ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾ فهو أخذ من منافعها الإضاءة، فالنار المذكورة أنارت بالفعل، ورأى نورها، وجاءته الهداية بالفعل بعد أن سعى في طلبها، وشأن النور أن ينعكس على الأشياء، فيظهرها للعين البشرية، فتحصل الرؤية، وهذه الرؤية معرفة، فيرى الشجرة شجرة، والحجر حجرًا، والبئر بئرًا، ولو أنه مشى في الظلام لاصطدم بالشجرة، ولوقع في البئر، فيقع العطب والهلاك

والأذى، فكأن المقصود قد تم، وتمت فائدة هذا الإيقاد، وتحققت نتيجة سعيه بأن جاءهم الهدى، ثم ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ فانطفأت أنواره، وسحبت منه، فكأنه حرم منها بعد أن عرف شيئًا من فوائدها، حتى النور الذي هو الإيمان، وقد رآه بعينه، ولامس قلبه، قد ذهب هو أيضًا؛ فتكون حسرته أشد، ولو أن ناره لم تسطع أصلًا؛ لكانت حسرته أقل، ولبقي في ظلمته مستريحًا، إلا أن هذا قد شقي وامتلأ بالحسرة، فكأن الكافر لم يرَ الإيمان، ولم يسمعه على حقيقته، ولم يطلع على جوهره، و لم يجربه، ولم يرَ حلاوته لا من قريب ولا بعيد، ولا عاين أي فائدة من فوائده، لكن المنافق سمع الإيمان، وبعد أن أقر به بلسانه، وبعدما اختلط بجماعة المؤمنين، وبعد ما رأى أثر هذه الحلاوة في قلوب الناس؛ إذا به يتراجع، ويتبع هواه، فتطفأ عليه أنوار الوحي، فيكون أشد حسرة؛ لفقده هذا الذي جربه، ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

ثم ينتقل سبحانه إلى تشبيههم بأمر آخر، وهو المطر المتنزل من السماء، المشتمل على ظلمات، وعلى رعد، وعلى برق، وأنهم بالغوا في التحفظ منه، حتى كادوا يضعون أصابعهم بأكملها في آذانهم من صواعقه، وأن لمعان برقه في غاية السطوع، يكاد لشدة وهجه أن يذهب بأبصارهم، وأنهم متحيرون متخبطون في منهج التعامل مع ظواهر ذلك المطر المتنزل، وكأنه سبحانه عدد أوصافهم لتزداد معرفتنا بحقيقتهم ودورهم في الحياة.

ثم أراد سبحانه أن يبين أن هذا لم يكشف بعد عن حقيقة حال المنافق، بل حقيقة حالهم أنهم: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فلما أن قال: ﴿صُمٌّ﴾ أعلمنا بذهاب حاسة السمع، ولما أن قال: ﴿بُكْمٌ﴾ أعلمنا بأنهم لا يتكلمون، فذهبت منهم القدرة على الإبانة، ولما أن قال: ﴿عُمْىٌ﴾ أعلمنا بأنه قد ذهب عنهم البصر، والمراد من ذهاب هذه الحواس أن مقاصدها لا تتحقق، فرغم وجود الآذان والأعين

إلا أن المقصود الحقيقي، الذي هو التوصل بذلك إلى الله لا يتحقق، بل إن تراكمات الضلال تتزايد، ومن ثم فقد لخص الله تعالى نتيجة ذلك كله، فقال سبحانه: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، أي أن الله تعالى أعلمنا بحقيقة الحال التي وصلوا إليها، ألا وهو أن هذا المسار الذي سلكوه، مآله أنهم لا يرجعون؛ لِمَا امتلأت به النفوس من اعتياد اهتزاز القيم، والإصرار على النفاق، فهل يمكن أن نقول: إن عدم رجوعهم مسبب بعدم الإدراك مع الإصرار؟! فإذا أردتُ تبصير منافق قد تجرد من العناد، وأردتُ أن أقرب له الهداية إلى الله، فإن المدخل إلى ذلك أن نُعلمه؛ لأنه إذا أدرك فلعله أن يرجع، ولأنه مادام موصوفًا بعدم الشعور، وبمرض القلب الحائل عن الوصول إلى المعرفة الصحيحة، وبعدم العلم، وبأن الحواس عنده معطلة، فلعلنا إذا رجعنا إلى إعادة بناء مصادر المعرفة عند المنافق، وإذا صبرنا على تبصيره بكيفية الوصول إلى الله، وإذا اجتهدنا في شرح المصائب المترتبة على مسلكه؛ فعساه أن يرجع، مما يجعل الأمة المحمدية الموصوفة بالهداية تنشط في البيان، والشرح، والتعليم، والهداية، والتنوير، وتنصرف عن الغضب على المنافق إلى إعادة تأهيله نفسيًا وذهنيًا ومعرفيًا.

ثم قال سبحانه: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وكلمة (أو) تأتي في لغة العرب للتخيير، وتأتي للتشكيك، وتأتي بمعنى بل، وتأتي بمعنى الواو، فأي شيء يناسبها هنا، فهنا مسالك علمية رصينة، حدد بها العلماء كيفية فهم الكلام، والوصول إلى المعنى المقصود بعينه، من بين عدد من الاحتمالات التي يحتملها كل لفظ من ألفاظ التركيب، فكلمة (أو) لها عدة معان، فكيف أستطيع أن أنتقي من جملة معانيها ذلك المعنى المحدد، الذي يبرز من خلاله مقصود المتكلم في هذا الموضع على وجه الخصوص؟ وكيف أختار احتمالًا آخر في فهم نفس الكلمة، لأفهمها به عند وقوعها في سياق آخر؟ فأول خطوة أن تعلم أن كلمة (أو) لها ملف خاص بها، جمع فيه العلماء معانيها التي ترد بها في اللسان العربي، وقد تعب العلماء عبر عقود وقرون في

تكوين ذلك الملف، وهم ينظرون إلى كل المواضع التي استعملت بها (أو) في اللسان العربي كله، من خطب وأشعار، ومقطوعات نثرية، وكلام منقول، وقام علماء اللغة بمسح شامل لكل موضع استعملت فيه (أو)، وحصروا تلك المواضع، واجتهدوا في حصر المعاني التي وردت بها؛ حتى اطمأنوا إلى أنهم جمعوا كل المعاني التي يمكن أن ترد بها كلمة (أو) في أي تركيب يستعمله متكلم، وهنا انتهى دور علماء اللغة، فقام علماء الأصول بدور آخر، وطور ثان، من خدمة اللسان العربي، وهو أنهم قاموا باستقراءٍ زائد، دققوا فيه في احتمالات دلالة الكلمة، ودققوا في المعاني الواردة من كل احتمال، ومدى ما تفيده الكلمة من المعاني، إلى غير ذلك من صور التدقيق، وكيفية اختيار كل احتمال في السياق الذي يناسبه؛ حتى استقر عندنا بعد مجهود علميٍّ شاقٍّ سجلٌّ في غاية الإحكام، يشرح دلالات الألفاظ، وجمعوا لكل كلمة ملفًّا خاصًّا بها، فيه كل ما يتعلق بتلك الكلمة من بحوث.

وقد نص الإمام السبكي في أوائل كتاب: «الإبهاج، في شرح المنهاج» على أن أهل علماء أصول الفقه قاموا باستقراءٍ زائد في دلالات الألفاظ؛ انفتحت لهم به مستوياتٌ من عمق دلالات الكلمات، لا يتوصل إليها اللغوي أو البلاغي، وقد نقل كلامه هذا الإمام الزركشي في أوائل كتاب: «البحر المحيط» في علم الأصول.

ولم يصنع العلماء ذلك في كلمة (أو) وحدها، بل قاموا به مع كل كلمة يحتاج إليها قارئ القرآن الكريم؛ لأن هذا المجهود العلمي بأكمله ما قام إلا من أجل خدمة النص القرآني.

ومن هذا المجهود تعلم مدى دقة المناهج العلمية التي شيَّدها المسلمون في فهم القرآن، وهي مناهج علمية محبوسة في كتبنا، لا يعرفها إلا أهل الاختصاص؛ فيغيب عامة الناس عن معرفة مقدار علومنا وشرعنا.

وهل تصلح المناهج الحداثية المعاصرة، والتي تحاول أن تضع مناهج لفهم

النصوص، فيما يسمى بالهيرمينوطيقا، هل تصلح للمقارنة بأقل ملف من ملفات تدقيق المسلمين في علم فهم النصوص، والمسمى بعلم أصول الفقه؟؟

فواجب أن نقف عند كل كلمة، سواء أكانت اسمًا أو فعلًا أو حرفًا؛ لنتأمله بهذه القوانين والقواعد؛ لأن أقوى الكلمات: الأسماء، وأضعفها: الحروف، وانتبه إلى أن هذا ليس شاقًّا عليك أيها القارئ، ولا يكلفك ما لا تطيق عند تلاوتك للقرآن؛ لأن العلماء قد قاموا بهذا عنك، واستعملوا هذه العلوم وتلك القواعد؛ حتى يصلوا إلى المعاني التي يقدمونها إليك سهلة واضحة، ولكننا أردنا أن نبين لك كيف أن العلماء يتعبون تعبًا شديدًا في تحصيل تلك العلوم، وفي تفعيلها ومزاولتها؛ حتى يستخرجوا لك معاني الشرع الشريف، فلا يمكن لأي أحد من عامة الناس أن يقوم بواجب الاستنباط، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢).

والمهم الآن، أننا سنفتح الملف الخاص بكلمة (أو)، فنجد أنها تأتي في لغة العرب للتخيير، وتأتي للتشكيك، وتأتي بمعنى بل، وتأتي بمعنى الواو، فنبدأ بتطبيق كل معنى من هذا المعاني على هذا الموضع، حتى نصل بعد موازنة علمية وبحث علمي إلى المعنى المقصود بالضبط.

فيجوز أن بعض المنافقين يصلح معهم مثال النار، وبعضهم يصلح معهم مثال المطر، النازل من السماء، ويجوز أن المنافقين في بعض أحوالهم يشبهون قضية النار، وفي أحوال أخرى يشبهون قضية المطر، ويجوز أنهم تعددت صور ضلالهم فهي كقضية النار، ثم هي كقضية المطر، وكلاهما موجود فيهم في وقت واحد.

والصيب هو المطر، وقد جاء به منكرًا، فقال سبحانه: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾، كما أنه جاء من قبل بكلمة النار منكرة، فقال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾،

---

(١) سورة النساء، آية [٨٣].
(٢) سورة النحل، آية [٤٣].

فلماذا جاء بهما منكرتين بدون الألف واللام؟ قال العلماء: لأن في تنكيرها فائدة جليلة، وهي أن النكرة تعرف عند العلماء بأنها فرد شائعٌ في جنسه؛ فيستفاد منه عدم التعيين، فيترتب عليه أنَّ أي فرد يصلح لإيقاعه الحكم عليه؛ ولذلك فإن علماء الأصول يسمونه: عموم البدل، فما معنى عموم البدل؟

معناه: أنني إذا قلت لك: (أحضر لي رجلًا)، فإنك تحقق هذا الأمر بأي رجل تأتي به؛ لأن النكرة تتحقق بأي فرد من أفرادها، فأي واحد من الناس تحضر تحقق به المقصود، وتكون قد امتثلت الأمر، والمثل الحكيم المذكور معنا هنا لم يقف عند نار معيَّنة بصفة معينة، فأي نار تمكنوا من الحصول عليها، ومن استيقادها فهي محققة لمقصودهم، والمراد: أنهم يُشْبِهُون رجلًا أجهد نفسه في أن يستوقد نارًا، أيَّ نار كانت، مهما كانت صفتها، كبيرة أو صغيرة، متطايرة الشرر أو هادئة، لِما تَمَكَّن في نفسه من شدة الاحتياج إلى الاستنارة، فلما أن هيأ الله له نارًا متقدة ساطعة، محققة لمقصوده وزيادة، انصرف عنها؛ تلاعبًا منه وتضليلًا.

وهكذا شأن هؤلاء المنافقين، بالغوا في طلب مناهج الهداية، على يد أي شخص كان، ومن أي جنس أو عرق خرج، وبأي مدخل في الخطاب تكلم، فلما أن أشرقت عليهم أنوار الهداية المحمدية أعرضوا.

ثم مثل الله تعالى لهم بمثال آخر، وهو الصيِّب أو المطر، فجاء به مُنَكَّرًا؛ ليتحقق فيه معنى العموم والشيوع في جنس المطر، فأي مطر جاء نفع، وتحقق به المقصود، فهذا عموم في طبيعة المطر، فيدخل فيه كل أنواع المطر؛ لأنه هنا نكرة، فهو فرد شائع في جنسه.

ثم إن شأن المطر أن ينزل من السماء، فلماذا قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ ألم يكن يكفي أن يذكر كلمة المطر، ويكتفي بما يتبادر إلى الأذهان من المعرفة الجليَّة، بأن المطر لا ينزل إلا من السماء؟

والجواب: أنه لم يُرِد التنبيه إلى مجرد كون المطر من السماء، فإن هذا معلوم، بل أراد التنبيه إلى أن هذا المطر الذي نزل عليهم كان من كلِّ السماء، وليس من جانب واحد من جوانبها دون بقية الجوانب، فيكون فيه عموم ثان، فالنكرة تفيد العموم من ناحية أنها فرد شائع في جنسه، وكلمة (من السماء) التي بعدها تفيد عمومًا آخر، من حيث إنه من كل السماء.

ثم قال سبحانه: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾: فهل الظُّلمةُ تُجمع؟ والجواب: أنها كلمة تشبه المصدر، وقد جرى خلاف عند العلماء في المصدر: هل يجمع؟ قال العلماء: المصادر لا تجمع من حيث ذاتها، إذ الأصل في المصدر: الدلالة على المعنى المجرد، وهو لا يحتمل تكثيرًا ولا تثنية، ومثال ذلك كلمة (البيع)، فإنها دالة على الحدث، والذي هو معنى التبادل والتعاطي بين الناس، فالمصدر لا يجمع.

فلماذا نرى الفقهاء مثلًا يقولون في مؤلفاتهم: (كتاب البيوع) فنراهم قد جمعوها مع أنها مصدر؟ قال العلماء: إنها جمعت باعتبار أنواعه؛ إذ هناك بيع صحيح، وبيع فاسد، وبيع باطل، وهناك بيع سلم، وهناك بيع بالأجل، وهناك بيع بالتقسيط، فالبيوع كثيرة، فجمعت باعتبار أفرادها وتنوعها.

وهنا نجده سبحانه قال: ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ فأفادني أن الظلمة ليست فقط ظلمة حسية، بل هي ظلمة معنوية، وظلمة حسية، وظلمة آنيَّة، وظلمة مستقبلية، فمن أين فهمت هذا؟ من جمع كلمة ظلمة؛ فإنه لما جمعها كأنه أشار إلى أنواع مختلفة من الظلمة، ولم يجعلها ظلمة واحدة، بل جعلها ظلمات بعضها فوق بعض.

ثم كلمة (أو) تأتي لمعان كثيرة، تزيد على اثني عشر معنى، وفيها تدقيقات عميقة عند علماء النحو والأصول، ولعل أقرب معانيها إلى السياق الذي نحن فيه هو أن تكون بمعنى الواو، فتفيد مطلق الجمع، ومنه قول الشاعر:

وَقَدْ زَعَمَتْ لَيْلَى بِأَنِّي فَاجِر * لِنَفْسِي تُقَاهَا أَوْ عَلَيْهَا فُجُورهَا

ومنه قول الشاعر أيضًا:

قَوْمٌ إِذَا سَمِعُوا الصَّرِيخَ رَأَيْتَهُمْ * مَا بَيْنَ مُلْجِمِ مُهْرَةٍ أَوْ سَافِعِ

فالمعنى المستفاد من كلمة (أو) هنا هو بعينه المعنى المستفاد من الواو، وهو مطلق الجمع، فكأن الله تعالى أراد أن يجمع في تشبيههم بين المثالين المذكورين؛ ليكشف الله تعالى لنا مزيدًا من نفسية المنافق ومبادئه.

﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم ﴾ فهذا مجاز؛ لأنك إذا وضعت أصبعك في أذنك فأنت إنما تضع الأنملة فقط، ولكنه هنا عدل عن التعبير بالأنملة إلى التعبير بالأصبع كله، فقد أطلق الكل وأراد البعض، وهنا ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم ﴾ فأطلق الكل وهو أصابعهم، وأراد البعض وهو أناملهم؛ لأن الأنملة جزء من الأصبع.

ومن المجاز ما هو عكس ما ذكرناه، بأن تطلق الجزء وتريد الكل، فتقول: صليت ركعة، مع أنك أتيت بالركوع، مع قراءة الفاتحة والركوع والسجود والقيام والسلام وهكذا، لكن تقول: صليت ركعتين أو ركعة، فقد أطلقت البعض وأردت به الكل، فهذه علاقات يسمونها علاقات المجاز، فوجب أن ننتبه إلى أن الكلام منه حقيقة ومنه مجاز، والمجاز له علاقات، وهي خمس وعشرون علاقة، منها: إطلاق الكل وإرادة البعض، ومنها عكسه: إطلاق البعض وإرادة الكل، ومنها: إطلاق الحال وإرادة الاستقبال، ومنها عكسه: إطلاق المستقبل وإرادة الحال، ومنها: الحالِّية والمحلية، والجزئية والكلية، وهكذا إلى آخر خمس وعشرين علاقة، على المشهور، وإن كان البهاء السبكي أوصلها في «عروس الأفراح» إلى ما يزيد على الأربعين.

فهذا علم، وله أربابه وأهله والمختصون به من العلماء، فالذي يعترض على القرآن فإنه يكشف اعتراضُه عن قلة معرفته؛ لأن القرآن أعمق بكثير من كل هذا الدجل.

فنحن إذًا نجد للكلمة الواحدة أكثر من معنًى في القرآن، فكلمة (جعل) تأتي مرة بمعنى الخلق، ومرة بمعنى التسمية، ومرة بمعنى الصيرورة، ومرة تكون زائدة، وهكذا.

فالمنهج الذي نريد تطبيقه عند كل كلمة أن نقرأ الملف الخاص بها كاملًا، حتى نرى المعاني التي تستعمل فيها، ثم لا نزال ننتقي أقرب المعاني انسجامًا مع بقية الروابط والتراكيب المحيطة بها، ثم نرى السياق واللحاق، ثم نرى مقاصد المتكلم بها؛ فإن من الكلام ما يصلح لمعنى واحد، ومنه ما يصلح لمعنيين، ومنه ما يستعمل في معانٍ كثيرة، فيحدث أن نختلف في التفسير، وهكذا يمضي النسق القرآني بحيث تحصل السعة في كلام الله تعالى لنا؛ لأنه كتاب يخاطب العالمين إلى يوم الدين، فالتقاطعات الناشئة من تداخل هذه التراكيب تنتج الآلاف المؤلفة، بل والملايين من المعاني، فكتاب ربنا سبحانه لا تنتهي عجائبه.

أما قوله سبحانه: ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِۚ﴾ فمن صفات المنافقين: شدة تعلقهم بالدنيا، حتى إنها تسيطر على تفكيرهم، وعلى تقديرهم للأمور، وعلى موازناتهم في إدارة حياتهم؛ وكل هذا لعدم وجود قضية الآخرة في منظومته، والذي لا يؤمن باليوم الآخر لا تنتظر منه أن يكون شجاعًا، متعاليًا على الدنيا، فلأنه لا يوجد في فكره واعتقاده ورؤيته إلا الدنيا؛ فقد ترتب على ذلك أنه لا يثق، ولا يؤمل، ولا يبني أي تصرف من تصرفاته على قضية الآخرة، فنشأ من ذلك تشبث شديد بالدنيا، وهلع شديد من كل ما يهدد طموحاته الدنيوية، وربما كان المؤمن متمسكًا بحياته وطموحاته، لكن من وجه آخر، مغاير تمامًا لفلسفة النفاق، بل من جهة أن الله تعالى أمرني أن أفعل ذلك، فأمرني بعمارة الأرض، والسعي في بناء الحضارة، وأن نعمل ونغرس ولو قامت الساعة ونحن نغرس، ونهاني سبحانه عن الانتحار، وأمرنا أن نحافظ على النفس البشرية؛ لأن المنتحر كأنه يمسك نفسه ويلقيها في وجه الملأ

الأعلى، فالانتحار حرام، وفاعله مجرم، وهو جريمة كبيرة، وقتل للنفس التي حرم الله إلا بالحق، فكأن الله تعالى أمرنا بعمارة الأرض، وبالحفاظ على النفس، ورغم ذلك فإن كل هذه التشريعات الإلهية لم تجعل المؤمن يحرص على الدنيا كحرص المنافق؛ لوجود قضية الآخرة في منظومة المؤمن دون المنافق، وحينئذ فإني أتصرف في هذه الدنيا بإرادة الله، وأقوم بعمران الكون، وبالسعي في الأرض صلاحًا، ولا أخاف من مفارقة الدنيا عند حلول الأجل، بخلاف المنافق فإنه يحذر الموت.

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أحاط، أي: أحدق من كل جانب، فهو سبحانه القاهر فوق عباده، ولو شاء لأذهبهم أجمعين، ولكنه سبحانه أراد للكون أن يعمر، وأن تجري فيه سنن الله تعالى في خلقه، والتي منها سنة التدافع، وذلك بأن يدفع الله تعالى البشر والمناهج والأفكار والأحداث بعضهم ببعض، وأن تتصادم المقاصد، وأن تتعاند مناهج الهداية والضلال؛ تمحيصًا من الله تعالى لخلقه سبحانه.

ثم يقول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

[البقرة: ٢٠]

والخطف هو الأخذ السريع، فالبرق ومضة سريعة تذهب البصر أو تكاد، وخطف الأبصار يؤدي إلى العمى وعدم الإدراك، ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ فإذا جاءت أحكام الشريعة وفق أهوائهم، وحققت مصالحهم ومقاصدهم مشوا معها، وإذا جاءت أحكام الشريعة ضدهم، وحكمت بالحق لغيرهم، وأنصفت سواهم منهم تركوها؛ فتحقق فيهم قوله سبحانه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(١).

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ كذلك حال المنافقين، كلما كانت الشريعة في جانب مصالحهم كانوا في راحة، ومن هنا فإنهم يدخلون أهواءهم ورغباتهم الشخصية، وأطماعهم الوقتية المرحلية الفانية، في الحكم الإلهي الخالد، ويستغلون الدين في الدنيا، وكلما أغلقت عليهم الأمور؛ قالوا: ما لنا وللشريعة، وما لنا وللدين، دعونا نقدر مصالحنا وأحوال معيشتنا.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فقدير بمعنى قادر

---

(١) سورة البقرة، آية [٨٥].

ومقتدر، وقدير أبلغ؛ لأنها على وزن فعيل، وفعيل صيغة مبالغة من قادر؛ لأن قادر اسم فاعل، وقدير صيغة مبالغة، وصيغة المبالغة تعني أنه قادر قدرة لا نهائية، وقد تعلقت هذه القدرة بالممكن، فهو سبحانه يوجد المعدوم، ويعدم الموجود بإذنه، ويقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[1] فالله قدير على كل شيء مما يصح تعلق القدرة به؛ إذ لا تتعلق بالمحال العقلي أو بالواجب العقلي، وإنما تتعلق بالممكنات التي تقبل الطرفين، فترجح القدرة أحد الاحتمالين، وفق ما تخصصه إرادته سبحانه، وقد ألف الإمام تقي الدين السبكي كتابًا كاملًا حول كلمة كل، ومستويات دلالتها، اسمه: «أحكام كل، وما عليه تدل» اشتمل على تدقيق زائد على ما يتعلق به نظر اللغوي الصرف، وهو مطبوع.

---

(١) سورة البقرة، آية [١١٧].

يقول ربنا سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

[البقرة: ٢١]

قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ خطاب للناس جميعًا، لكافرهم ومؤمنهم، ولحاضرهم وغائبهم، فإن كلمة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ تفيد عموم المخاطبة للناس أجمعين، فهذا الشرع الشريف يحمل زاد الهداية للجميع، وهو يأمر الناس جميعًا، فإن كان المخاطب كافرًا أمره بإنشاء العبادة لله، والدخول في دائرة التصديق به، والخضوع لأمره، وإن كان مؤمنًا أمره باستمرار العبادة، فهو عندما يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ لا بد من انتباهنا إلى أن الأمر فيها متعلق بشيئين؛ الأول: الإنشاء، والثاني: الاستمرار، فإن كان مؤمنًا فليستمر، وإن كان غير مؤمن؛ فلينشئ هذه العبادة وهذا الإيمان.

والقضية التي يستوحيها المؤمن من هذا النداء الجليل، هي أنه يحمل همَّ الهداية، ويسعى في تحصيل الأدوات والآلات، التي يتمكن معها من مخاطبة الخلق أجمعين بخطاب الإيمان، ولا بد لتحقيق هذا من اطلاع المؤمن على أحوال أهل زمانه، وما يشيع في هذا الزمن من الملل والنحل، والفلسفات والمذاهب والتيارات والمناهج؛ حتى يعرف المداخل التي لا بد منها عند مخاطبة كل منهج، وهذا المسلك هو الذي يمكن المؤمن من تحويل القرآن الكريم إلى برامج عمل، ويتمكن المؤمن بهذا من إنشاء المؤسسات العاملة على خدمة القضايا القرآنية، وتحويلها إلى واقع ملموس.

وهذا أيضًا يلفت النظر إلى تداعي المعاني، وإلى معرفة المقتضيات والمداخل المفضية إلى كل قضية، وهذا شبيه بكلام أهل الأصول في أن: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والمقصود أن هذه وقفة مهمة، ألا وهي: أن هذه الآية الكريمة التي استهلها الله تعالى بنداء الناس أجمعين، تعني أن الله تعالى يخاطب العالمين، فيخاطب المسلمين، ويخاطب غير المسلمين، وتعني أن هذا الشأن الذي يخاطبهم به ربهم -سبحانه وتعالى- من أسس الاجتماع البشري العام، الذي تعمر به الأرض، ويصح أن يكون من المقدمات المهمة لصناعة الحضارة.

وهنا ملحظ آخر، وهو أن توجيه المولى سبحانه لهذا الخطاب العام الشامل، جاء بعد أن انتهى من الكلام عن المؤمنين، وعن الكافرين، وعن المنافقين، وبعد أن شرح سمات كل فئة، وخصائصها وآثارها، ودورها في قضية الخليقة، فأراد سبحانه بعد ذلك أن يخاطب الجميع بخطاب إلهي شامل، يأمر كل فئة بتقويم مسارها ليتفق مع مراد الله تعالى منها، وعمم الخطاب فدخل فيه المؤمنون؛ ليعلم الخلق أجمعون أن أمر الله يحمل الخير للجميع، ويزود كل فئة بما تزداد به اهتداءً ووفاءً ورَشَدًا، فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فتوجه بالخطاب إلى العموم، ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ فلفت النظر إلى أن قضية الإنسان في هذه الحياة الدنيا ينبغي أن تكون العبادة.

ثم إن الإنسان الذي ليست له قضية يكون تائهًا، ليست له مقاصد محددة من حياته، كما هو حال كثير من الناس في عصرنا الحاضر، لا قضية لهم أصلًا؛ ولذلك يرجع الواحد منهم إلى نفسه يهتم بها مرة، ويغفل عن نفسه فلا يهتم بها أخرى، وتجده هكذا في تخبط دائم، لكن الإنسان الذي لديه قضية يضعها نصب عينيه، ويسعى إلى تحقيقها بفعله؛ فإنك تجد أفعاله كلها تؤدي إلى هذا الطريق وإلى هذا الهدف.

فكأنه سبحانه يأمرنا بأن ندرك القضايا الكبرى، التي خلقنا من أجلها، وأن نستحضرها دائمًا، وأن نضع الخطط والبرامج العملية لتنفيذها، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ فهذا هو الهدف، وهو القيام بواجب العبودية، وإدارة كافة صور الحياة، وكل أوجه النشاط الإنساني لتحقيق معنى العبودية له سبحانه، حتى قال جل شأنه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[(١)].

فهذا تذكير وبَدْءٌ من الإنسان، كأنه يقول له: انظر إلى نفسك، وتفكر في الأسئلة الكبرى التي يسألها الإنسان لنفسه: من أين أنا؟ وماذا أفعل هنا؟ والى أي مصير أذهب بعد الموت؟

فيقول له: الإجابة على السؤال الأول: أن الله هو الذي خلقك، وكذلك خلق الذين من قبلك ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، فالله جل شأنه يجعلنا نبدأ بالمحسوس، حتى نرتقي في بناء المعارف والأدلة؛ لنصل بهذا إليه سبحانه، وكأنه يقول لك: انظر إلى نفسك، وإلى العالم السفلي الذي هو حولك، عالم مخلوق حادث له بداية، فمن أين أتت هذه البداية؟ فهناك مذهب يقول بالصدفة، وهذا لا يصح؛ إذ تعجز الصدفة عن الإجابة على أسئلة كثيرة، أو تعليل ظواهر كثيرة.

وقد قام علماء الإسلام من المتكلمين وغيرهم بالرد على مذهب الصدفة منذ عصور الإسلام الأولى، بأدلة دقيقة مطولة، وعلى مستوى الثقافة العامة كانوا يوردون ردودًا مفحمة؛ لشدة بداهتها، فدخل بعض الملاحدة على الإمام أبي حنيفة -رحمه الله- ومعهم سيوفهم ليقتلوه، قال لهم: قبل قتلي، أريد أن أسأل سؤالًا: يزعمون أن سفينة تسير في البحر، وفي البحر أمواج هائجة، والسفينة محملة وليس عليها أحد، ثم هي تسير بسكينة، فهل يعقل ذلك؟ قالوا: لا يعقل، قال لهم: فهل تستبعدون ذلك في سفينة، وتصدقون به في هذا الكون، بكل ما فيه من بحار وجبال وأنهار، وشموس وأقمار، وإنس وحيوان، وطير ونبات؟! فبكوا وأسلموا.

---

(١) سورة الذاريات، آية [٥٦].

أراد -رحمه الله- أن ما في هذا الكون من الاتساق والحكمة البالغة، يأبى على القائل بالصدفة، ولو تتبعت هذا المعنى في كل وجوه التقدير التي استقامت بها الحياة على ظهر الأرض؛ لامتلأ قلبك باليقين، ثم يأتي هؤلاء ليزعموا أنه ليس هناك رب حكيم مدبر، وأننا جئنا إلى الوجود هكذا عبثًا!!

والحق سبحانه هنا يجيب على سؤال تحير فيه البشر، واختلفت فيه الأذهان، والمذاهب الأخلاقية والأديان، وهو: من أين نحن؟ وكيف جئنا هنا؟ تحت هذه السماء، وفوق هذه الأرض، وبهذه الصفة، إنسان عاقل، يسير على قدميه، وهناك شجر، وهناك بحر، وهناك جبال ونجوم، وهناك ماء عذب وماء ملح، وهناك أقوات وأجناس للوجود، فكيف ذلك؟ ومن أين أتينا؟ فربنا سبحانه وتعالى أجاب إجابة واضحة وبسيطة وقاطعة، فأعلمنا أن البدء هو من عند الله.

وإذا ما تركنا العلوم والمعارف الإلهية الآتية بالوحي من عند الله، وأراد الإنسان أن يبحث وحده ليصل إلى رؤية واضحة في ذلك؛ تحير واضطرب، وعجز عن تفسير حقائق الوجود، وعجز عن استخلاص حقيقة بداية الخلق، ورجع يسأل: من أين نحن؟ وذهب يفكر ويبحث في الجيولوجيا، وفي الفلك، وفي الأنثروبولوجي، وغيرها؛ ليجيب عن هذا السؤال، ويظل متحيرًا إلى أن يجيب.

وقد نشأت نظريات، وبحوث، وأجهد الإنسان نفسه في تتبع الحفريات، ودراسة التاريخ الطبيعي، وخرجت عشرات النظريات والتفسيرات، وما أجاب أحد إجابة محققة، يعرف منها الإنسان أصل نشأته، ولا طبيعة دوره في هذه الحياة، وإذا أجاب كانت إجابته ضعيفة، ومنهم من أنكر وجود الله، أو أنكر عنايته سبحانه بالخلق، أو اضطرب ولم يستطع التوصل إلى قناعة معينة، إلى آخر أمثال هذه الحيرة.

والمؤمن يعتقد أنه اهتدى إلى إجابات محددة، وصلت إليه عن طريق النقل المتواتر عن أنبياء الله الذين ثبت صدقهم في البلاغ عن الله، وأنهم تلقوا عن طريق

الوحي علومًا من عند الله تعالى، أعلمنا الله تعالى فيها بمصدر وجودنا، وبالغاية من خلقنا، فنحن من عند الله، لماذا؟ لنعمر الدنيا، ونزكي النفس، ونعبد الحق سبحانه.

فقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ خطاب للجميع، فيكون المعنى المخاطب به -وهو الإيمان- من أسس الاجتماع البشري؛ لأن الإلحاد إذا لفَّ العالم كان خرابًا للدنيا، والعبادة في المقابل: صلاح للدنيا، وهناك عصور سميت بعصور الإيمان، إذا ما سرت في الأرض رأيت لكل إنسان دينًا، تسأله: ما دينك؟ يقول: أنا مسلم، أو نصراني، أو هندوسي، أو بوذي، أو شنتو، ولكن لا بد من دين، والآن أصبح الدين من الأحوال الشخصية، أي أنه من العيب أن تسأل عليه أحدًا؛ فلا تقل لأحد: ما دينك؟ ولا تسأله عن حاله إذا ما كان متزوجًا أو غير متزوج، ولا تسأله عن مذهبه السياسي، ولا تسأله عن رأيه الاعتقادي، وتجد الجار بجانب الجار، وهو لا يعرف إذا كان جاره متدينًا أو غير متدين وهكذا.

وإذا لم يعبد الناس ربهم؛ فإن المقياس يكون قد فقد، فلا نعرف ما هو الحق، ولا نعرف ما هو العدل! ولكن ربنا -تبارك تعالى- بَيَّن لنا هذه الأشياء، وأعطانا المعايير التي نعرف بها وزن كل شيء وموضعه واعتباره، ونهانا أن نكيل بمكيالين بين المسلمين وغير المسلمين، ولا بين الإنسان والكون ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[1]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾[2] فهذا هو المطلق، وعندما يخرج الناس عن نطاق الإيمان بالله؛ فإنهم يدخلون إلى النسبية المطلقة، فما هي النسبية المطلقة؟ معناها: أن يحتل الأرض ويقول: هذا حقي، وهذا هو الأمر الواقع، وأنا أقوى منك؛ فبهذا فقط صار هذا حقي! فأين العدل؟ قالوا: العدل أن الحقائق تفرزها القوة، وكل من

(١) سورة المائدة، آية [٨].

(٢) سورة النحل، آية [٩٠].

استطاع أن ينفذ مشروعه بأي وسيلة كانت؛ تحولت مطامعه إلى حق في نظره وزعمه، ونقول: صدق الله ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾(١)، فهذا المفهوم هو الذي يسمى في السياسة وفي النظم العسكرية الحديثة بقوة الردع؛ لأنه إذا عرف أنك قوي؛ لا يجرؤ على التعدي عليك، لكن لو عرف أنك ضعيف؛ فإنه يستأسد عليك، فإذا ما طالبته بالحق والعدل نقلك إلى معيار نسبي، لا تتضح به الحقوق ولا الحقائق، ولا نستطيع الفصل به بين العباد، فعبادة الله ومعرفته من شأنها أنها تؤدي إلى استقرار الناس وأمنهم.

فلو أن أحدًا ظلمك؛ فإن المجتمع بأكمله يعرف أنه خرج عن نطاق العدل، وأنه اغتصب الأرض، أو استغل الشعوب، أو طغى وبغى؛ لوضوح المفاهيم واستقرار الحقائق في عرف المجتمع، وإنما تتضح المفاهيم والحقائق إذا اتحد مصدر التعريف للمعاني، وتحدد المصدر الذي تؤخذ منه المعايير، والمصدر الأعلى الذي يشرح الحقائق بتجرد هو الشرع الشريف، المنزل عن طريق الوحي المعصوم، فلو لم يكن هناك إله؛ لفَعَل كل واحد منا ما يشاء، وهذا يفسد الاجتماع البشري ولكن بعد مدة، وبعد أن تسيل بسببه دماء، وبعد أن يصير الناس يموج بعضهم في بعض، فسبحان الله ما أحكمه، قال سبحانه: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾(٢)، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(٣)، فلما أن نادانا سبحانه بـ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ تلاها بشيء يقوم عليه الاجتماع البشري.

فالسؤال الأول: من أين؟ خلقنا الله. **والسؤال الثاني: ماذا نفعل هنا؟** لنعبده سبحانه، ونعمر الأرض، ونزكي النفس. **والسؤال الثالث: ماذا يحدث بعد الموت؟** سنرجع له -سبحانه وتعالى-، فالتقوى هي: (الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل،

(١) سورة الأنفال، آية [٦٠].
(٢) سورة الملك، آية [١٤].
(٣) سورة المائدة، آية [٥٠].

والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل)، ومن هذا ترى وضوح مقاصد الشرع الشريف عند السلف الصالح، وأنهم فهموا عن الله تعالى، وكانوا إذا تكلموا ازداد العباد بكلامهم فهمًا وهدايةً.

ثم إن كلمة ﴿يَا﴾ في قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ هي حرفٌ، وأداة من أدوات النداء، والأصل فيها: أن يُنادَى بها البعيد حقيقة أو حكمًا، وقد ينادى بها القريب على خلاف الأصل؛ لمقصد بلاغيٍّ معين.

وكلمة الناس قد تكون من النوس؛ أي: الحركة، أو تكون من النسي؛ أي أنه قد خرج من ذاكرته ما دخل فيها من قبل، فالنسيان من سمة ابن آدم؛ لأن آدم لما عاهد ربه نسي؛ فسمي لذلك الإنسان إنسانًا، وسمي الناس ناسًا. أما القلب فقد سمي بالقلب؛ لأن له أحوالًا يتقلب فيها.

والشاعر يقول:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه * ولا القلب إلا أنّه يتقلَّب

ويقول أيضًا:

نسيت عهدك والنسيان مغتفر * فاصفح فأول ناس أول الناس

فأول الناس سيدنا آدم، وهو أول من نسي، فقد عاهد ربه ونسي فنسيت ذريته، باعتبار أن النسيان صار فطرةً، وصار خصيصة لبني آدم.

ولكن هل هناك فرق بين النسيان وبين السهو؟ ليس هناك فارق، فالنسيان هو السهو والسهو هو النسيان في الاعتبار اللغوي، فهو من المترادف، لكن أهل الاصطلاح جعلوا السهو لمن إذا ما ذكرته ذكر، والنسيان لمن إذا ذكرته لا يتذكر، فالنسيان يكون أشد من السهو، أما السهو، فلو سها أحدنا في الصلاة ثم نبهه المصلون؛ فإنه يتذكر أنه ترك التحيات الواقعة في الوسط مثلًا، فعليه سجدتا سهو،

أو أن عليه ركعة مثلًا فيقوم إلى الرابعة وهكذا، فهو إذا ما ذُكِّر تذكر، فهذا هو السهو، إنما هذه الفوارق في الاصطلاح الجاري بين العلماء، ونحن نقرأ القرآن باللغة، لا باصطلاحات أهل الاختصاص العلمي؛ لأنها حدثت بعد أصل اللغة، فطرأ على اللفظ تطور في الدلالة، ومن هنا كان الاهتمام باللغة العربية أمرًا مهمًّا؛ لإدراك معنى كلام الله تعالى، وأما اصطلاحات العلماء فإنها مهمة في أبواب أخرى.

والتقوى أصلها من وقى، وصارت الواو وهي في أول الكلمة تاءً، والعرب تعرف ذلك في كلمات كثيرة منها (تجاه)، فأصل التاء فيها واو، وكلمة (تراث)، فأصل التاء فيها واو، فيقال: (وراث)، بمعنى أنها جاءت من الوراثة، وانتقال الإرث من جيل إلى جيل، فانقلبت كلمة (وراث) إلى (تراث)، والمقصود أن كلمة: (وجاه) صارت: (تجاه)، وكلمة (وقاة) صارت: (تقاة)، ومنها الوقاية، ومنها التقوى، وقد وردت كلمة (تقاة) على الأصل في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ﴾(1) فهناك كلمات في العربية تتحول فيها الواو إذا ما وقعت في أول الكلمة إلى تاء، والذي نستفيده من ذلك كله: هو أننا نرد بعض الكلمات إلى أصولها؛ حتى نعرف كيفية البحث عنها في المعاجم؛ إذ من شأنها أن ترد الكلمات إلى أصولها، فنرد كلمة (تراث) إلى (وراث) وهكذا.

وكأن الوقاية معناها: أنك قد جعلت بينك وبين النار حاجزًا، ففيها نوع من أنواع الحماية، فمم تحمي نفسك؟ تحميها من غضب الله ومن عقابه، ومن نكد المعصية وكدرها وظلماتها؛ فإن الصغائر إذا تكاثرت أوقعت في الكبائر، كمثل الحصى، حجمه صغير، ولكنه إذا ما تكاثر صار جبلًا، وقد قال الشاعر:

لا تحقـرن صغيرًا في مخـاصمـة * إنّ البعوضة تدمي مقلة الأسد
وفي الشـرارة ضعف وهي مؤلمة * وربما أضرمت نـارًا على بلـد

---

(1) سورة آل عمران، آية [28].

ورووا أن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ سأل أُبَيّ بن كعب ﷺ: ما التَّقوى؟ فقال: هل سرت في وادٍ فيه شوك؟ قال: نعم، قال: فماذا فعلت؟ قال: شَمَّرت ثيابي، وحذرت ما أرى، قال: هكذا التَّقوى.

فهذه هي التقوى، ولكنك هنا تتقي الشوك، فكأن الأصل في معنى التقوى أن تحذر من كل ما تخاف وتكره، وقد أخذ ابن المعتز هذا المعنى، وصاغه شعرًا فقال:

خَلِّ الذُّنوب صغيرها * وكبيرها ذاك التُّقَى
وَاصْنَعْ كَماشٍ فوقَ أَرْ * ض الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرى
لا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً * إِنَّ الجِبالَ مِنَ الحَصَى

ويقول الإمام عليّ ﷺ: (العمل بالتنزيل) أي أنه آمن بالوحي وبالتكليف، ثم قام بالتطبيق فقال: (والخوف من الجليل) فهذا جانب مهم من الجانب الرباني الذي يحدد وظيفتنا ودورنا في الحياة، ثم (الرضا بالقليل) وهو خُلُقٌ عظيم، ينبغي أن يُعَلَّم في مناهجنا التدريسيَّة؛ لأن هذا الخُلُق مفتاح من مفاتيح التقوى، ثم ذَكَّرَنا بالالتفات إلى الآخرة، فقال: (والاستعداد ليوم الرحيل) فهذه الإجابة على السؤال الثالث، والذي هو: إلى أين نمضي؟

ثم إن كلمة ﴿رَبَّكُمُ﴾ هذه معرفة؛ لأنها مضاف ومضاف إليه، والإضافة من المعرفات، مثل المحلى بالألف واللام؟ فكلمة ﴿الَّذِى﴾ بعدها صفة له؛ لأن الاسم الموصول إذا جاء بعد المعرفة يقع صفةً لها، وقلنا من قبل:

مصرُ التي في خاطري وفي دَمي * أُحِبُّها من كلِّ روحي ودَمي

فكلمة (مصر) علم، وكلمة (التي) صفة لها، والجمل بعد النكرات صفات، وبعد المعارف أحوال، فقال سبحانه: ﴿رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ فهنا صفة من صفاته الجليلة سبحانه، ثم أراد سبحانه أن يذكرنا بصفة أخرى فقال: ﴿الَّذِى جَعَلَ

لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[1]، والمقصود من ذلك أن يذكرنا سبحانه بصفاته وأسمائه؛ حتى نعرف من نعبد، وحتى نتعرف إلى وجوه من الكمال الإلهي، التي تعيننا على أن نعرف ما نطلب.

فهو هنا قال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾، ثم وصفه بالجملة التي قال فيها: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، والمعنى: أنه سبحانه أوجدك، والذي أوجدك صاحب فضل عليك، ومن هنا كان بر الوالدين شقيقًا للتوحيد؛ لأن أباك وأمك هما السبب الظاهر في إيجادك والرعاية بك، وربنا سبحانه هو الذي يربي وينعم، والصالحون وأهل الله كانوا إذا رأوا أحدًا طبائعه وفطرته متوجهة إلى الله، وخرج صالحًا من غير مزيد عناء، وأقبل على الصلوات، ولم يتلبس بكذب، ولم يفسد في الأرض، وطبيعته تأبى المعصية- قالوا: (رباه ربُّه).

فرب العالمين هنا يقول: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ ليذكرنا بالنعم، وقد قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[2]، وقال أيضًا: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[3].

وهنا مبحث آخر، فإن بعض العلماء يقولون: كل آية بدأت بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نزلت بمكة، وكل آية بدأت بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[4] نزلت بالمدينة، بحيث إذا ما أردنا أن نعرف المكي من المدني كان ذلك مقياسًا له، ولكن هذا في الحقيقة ليس مطردًا؛ بل تستثنى منه آيات ومواضع، فهو تقسيم غير حاصر، ومما استدل به العلماء على عدم صحة تلك القيود هذه الآية؛ فسورة البقرة نزلت بالمدينة وفيها قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

ويمكن أن يكون هذا الضابط أو هذه القاعدة صحيحة في أحد شقيها؛ لأن

---

(١) سورة البقرة، آية [٢٢].
(٢) سورة النحل، آية [١٨].
(٣) سورة لقمان، آية [٢٠].
(٤) سورة البقرة، آية [١٠٤].

كل آية بدأت بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ نزلت بالفعل في المدينة. أما الآيات المصدرة بقوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فمنها ما نزل في مكة، كما أن منها ما نزل في المدينة؛ فليست مقياسًا.

أما قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فهل معناه: من أجل أن تتقوا؟ أو أن معناه: عسى أن تتقوا؟ أما اللغة العربية فإنها تحتمل المعنيين، وإذا احتملت اللغة معنيين فعندنا قانون: لو جاز الجمع بين المعنيين فبها، ويكون كلام الله تعالى واسعًا؛ لأنه صفة من صفاته سبحانه، فإذا جاز الجمع بين المعنيين جمعنا بينهما، وتكون الآية دالة على معنيين، وكلا المعنيين مقصود، ويظهر هذا أيضًا عندما تختلف القراءات، بحيث يستفاد من كل قراءة معنًى، وتكون الآية دالة عليهما معًا، ما لم يوجد ما يوهم التناقض أو التعارض، فإن كان كذلك انتقلنا إلى الترجيح باعتبارات كثيرة، منها: السياق، والسنة، والإجماع، ومقتضيات العصر، والسقف المعرفي، وهكذا؛ فهذا هو الذي يرجح معنًى على معنًى، إذا تعذر الجمع بينهما، فإذا أمكن فكتاب الله واسع.

وهذه الحقيقة لا يعرفها كثير من المعترضين على كتاب الله، ممن جهلوا حقائق اللغة، وأساليب العربية التي نزل بها القرآن، فيقول: لقد قال بعض المفسرين قولًا، وقال غيره قولًا آخر؛ حتى تحيرنا، فنقول: لا تتحير، فكتاب الله واسع ومعجز، وهداية للعالمين إلى يوم الدين، فتجاوزْ الزمان والمكان، والأشخاص والأحوال، وأتقن لغة القرآن، وافهم أسرار التركيب العربي، وكان الشاطبي يقول: (الشريعة عربية، وإذا كانت عربية؛ فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم)[1].

أما قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإنَّ كلمة (لعل) لها معان، فمنها: التوقع أو الرجاء، أي تَرَجِّي المحبوب، والإشفاق من المكروه.

---

(١) «الموافقات»: (٤/ ١١٥).

ومنها: التعليل، وهذا المعنى أثبته جماعة من الأئمة، منهم الأخفش والكسائي، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[1]، وأكثر النحاة لم يثبتوا هذا المعنى لكلمة لعل، وهم يحملون معناها على الرجاء، ويصرفونه إلى المخاطبين، أي اذهبا على رجائكما.

ونحن نتبنى هذا المعنى هنا، وتتفرع منه عندنا فوائد جليلة، منها: أن الله تعالى يبسط الأدلة والبراهين، ويعلم المؤمنين في القرآن طرق الحجاج والاستدلال، التي تمكنهم من مناقشة أرباب النحل والملل والفلسفات المختلفة، ويغرس في نفوسهم التشوف والترقب لتحصيل إيمانهم وهدايتهم، كأنه يريد أن تمتلئ النفوس تطلُّعًا وتشوقًا إلى الهداية العامة للناس جميعًا، فيريد أن تتحرك العقول والألسنة بالحجج، ومن ورائها نفوس مترقبة لحصول الإيمان، حريصة عليه، مهمومة به، لا يشغلها الإفحام ولا الإلزام؛ بل شاغلهم هو تقريب الهداية من المخاطبين، فعبر سبحانه بكلمة (لعل) التي تفيد الرجاء، وهو يريد صرف الرجاء إلى المؤمنين، أي انطلقوا في مخاطبة الخلق بهذه الأدلة، ونفوسكم تمتلئ رجاءً وحرصًا على تقريب التقوى من الناس.

ففي الآية بهذا المدخل تحريك للنفوس؛ لتمتلئ حرصًا على هداية الناس؛ حتى يُعَلِّقَ الله تعالى هِمَمَ حَمَلَةِ هذا الدين بالصدق والتجرد، والتفاني في نشر الهداية، ثم في الآية أيضًا توجيه إلى التفريق بين مقاصد المخاطبة والمناقشة، وأن هناك ثلاثة مستويات لتلك المقاصد؛ فإما أن يكون الباعث على المخاطبة هو الدفاع، وإما أن يكون هو الهجوم، وإما أن يكون هو البيان.

ويأبى الله تعالى للمؤمن أن يكون مراده من مخاطبة الناس هو الدفاع؛ إذ المؤمن يقدم طرحًا شاملًا يزيل عن الناس العلل والضلالات أصلًا، ثم هو حامل لخطاب

---

(١) سورة طه، آية [٤٤].

إلهي شريف يريد توضيحه، فأنى له أن يظل واقفًا في دائرة الدفاع التي تقتضي منه الدوران في فلك الآخرين، ولو بالملاحقة لمشكلاتهم وتهجماتهم؛ بل لا بد له من التسامي مع شرف رسالته.

ثم يأبى الله تعالى للمؤمن أن يكون الأصل في منهجه هو التهجم والعدوان؛ بل أصل منهجه هو التعليم والإبانة، دون ميل ولا تحامل على أحد، ولربما تحامل الآخرون عليه فيدفع عن نفسه ودينه تحاملهم دون أن يقابل العدوان بالعدوان؛ بل بمجرد أن يكفوا أيديهم ينصرف إلى مهمته الكبرى، والتي هي الإبانة.

فبقي ذلك المقصد الأخير، وهو أشرف المقاصد وأنبلها، ألا وهو الإبانة عن مقاصد الديانة، وتوضيح الحقائق للخلق أجمعين، وشرح مقاصد هذا الدين ووجوه مخاطباته الربانية، وما اشتمل عليه من آيات الصدق والتوثيق والحفظ والهدى، ولعلك هنا أن تلتفت إلى ذلك التعبير الذي وصف الله تعالى به دور نبيِّه ﷺ في خدمة هذا الدين، فقد جعله الله تعالى في كثير من الآيات هو البيان، فقال سبحانه: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٣)، وقال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(٤).

(١) سورة النحل، آية [٤٤].
(٢) سورة النحل، آية [٦٤].
(٣) سورة آل عمران، آية [١٣٨].
(٤) سورة النحل، آية [٨٩].

ثم قال سبحانه:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

[البقرة: ٢٢]

فسمى سبحانه الأرض فراشًا، نفترشها وننام عليها، وجعلها سبحانه صلبةً لا تغوص بنا، وجعلها سبحانه صالحة لأن ترتفع عليها الأبنية الضخمة، وتحمل الجبال الشاهقة. أما وجوه الاستعمال الآدمي فلا تنحصر، ابتداءً من استلقائه عليها عند إرادة النوم والراحة، ثم اتخذ بعد ذلك المقاعد والأرائك والأَسِرَّة، ثم شيد المباني، وصنع المركبات، وآليات النقل والمواصلات، وعمرها الإنسان بشتى صنوف العمارة، وهي فراش مبسوط لذلك كله.

ثم قال: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ﴾ وكلمة ﴿لَكُمُ﴾ تعني أن بسطها على هذا النحو، قد روعي فيه أن تكون مهيَّأةً لكم على وجوه الخصوص؛ لأنها مع ما تحمله على ظهرها من أجناس الحيوان والنبات والجماد مسخرة لك أنت؛ حتى تنطلق الحضارة البشرية، وتنتشر الشعوب والقبائل، وتتعدد النهضات الإنسانية، ويحصل التدافع بين الأمم، فتعمر الأرض، ويقوم الإنسان بوظيفته التي خلقه الله لها.

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي أن السماء قد نسجت وبنيت على نحو محكم، حيث تتكون في طبقاتها السحب، وتصد عن الأرض الأشعة الضارة، وتحفظ الأرض من الشهب والنيازك، فهي بناء محكم متين، والحقيقة أننا قد حرمنا النظر إلى

السماء وآياتها بعد التلوث الضوئي، وبعد اختراع الكهرباء، وبعد ازدحام المدن بالأضواء الساطعة المتألقة، ولو حاولت أن تخرج بعيدًا عن أضواء المدينة وتنظر إلى السماء؛ لوجدتها شيئًا بديعًا، ويسهل عليك أن تعرف مجموعات النجوم، وأن ترى القبة السماوية في أبهى صورها، وأن تعرف أوقات الشفق، وأوقات الفجر الصادق، وأوقات الشروق والغروب، والمواقيت الزمانية، إلى آخر الظواهر السماوية العجيبة التي فقد الناس الشعور بها، فقال سبحانه: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[2]، والمنظور أمامنا أنها بناء، وأنها بناء محكم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي أنه سبحانه أخرج الثمرات بسبب الماء، فأشار -جل شأنه- إلى أن هذه الحياة الدنيا، مبناها الأسباب، ولكن من الذي خلق الأسباب وخلق المسببات؟ هو الله، فالجمع بينهما أننا مقهورون تحت ما خلقه الله لنا بأمر الله فينا، فظل العلماء يتدبرون هذا الأمر، في علاقة الأسباب بالمسببات، حتى وضعوا لنا قاعدة مهمة تقول: «إن الاعتماد على الأسباب شرك، وترك الأسباب جهل»، فلا نترك الأسباب وإلا نكون قد خرجنا عن سنة الأنبياء والمرسلين، الذين أرسلهم رب العالمين هداية للناس أجمعين، فإن النبي ﷺ يقول: «**لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[3] تغدو في وقت الغدوة، يريد خروجها في وقت البكور، وهي إذا خرجت تكون «خماصًا» أي جائعة، فإذا رجعت تكون في شبع، وتكون: «بطانًا».

---

(١) سورة يس، آية [٤٠]. (٢) سورة الذاريات، آية [٤٧].

(٣) رواه ابن حبان في «صحيحه»: (٢/ ٥٠٩)، و الحاكم في «المستدرك»: (٤/ ٣٥٤) وقال: صحيح الإسناد، والترمذي في «سننه»: (٤/ ٥٧٣) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في «سننه»: (٢/ ١٣٩٤)، وأحمد في «مسنده»: (١/ ٣٠)، وأبو يعلى في «مسنده»: (١/ ٢١٢)، والبزار في «مسنده»: (١/ ٤٧٦).

قال العلماء: فهي قد ذهبت وجاءت، ولو ظلت في أوكارها وتركت الأسباب؛ لما شبعت، وهي في خروجها ورجوعها تسبح الله تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1]، وهو سبحانه يرزق الطير في السماء، فتعود في حال شبع؛ فكان لا بد من السعي، ولذلك ترى العوام يقولون في أمثالهم: (اسع يا عبدي وأنا معك)، وهذه تجربة بشرية، وثقافة إنسانية محنكة، صقلتها القرون، فقد شعر عند خروجه صباحًا، أنه يخرج وليس معه شيء، بل خرج مفتقرًا إلى الله، يسعى معتمدًا على جوده وفضله، فخرج محققًا للسعي والحركة، وهو في كل ذلك يقول: (يا رب).

فقوله سبحانه: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ أي: بسببه، فأشار بذلك إلى الأسباب، وأنها من خلق الله، لكن هذه الأسباب مع مسبباتها يجب أن تعتقد في قلبك أنها من خلق الله؛ ولذلك فإن التوكل على الله، والرضا بأمر الله، والاعتقاد في خالقية الله، لا يتنافى مع السعي الصحيح، واتخاذ الأسباب الصحيحة للوصول إلى مراد الله في خلقه.

وهو سبحانه هنا يؤكد ذلك فيقول: ﴿فَأَخْرَجَ﴾ أي أنه هو الذي أخرج، وهو الذي أنبت، ثم يقول ﴿بِهِۦ﴾ ليؤكد قضية الأسباب، فهذا كتاب معجز؛ لأنه كان يكفيه أن يقول: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ بدون كلمة (به)، ويكون الكلام صحيحًا أيضًا، لكنه ذكرها ليلفت نظر المكلف إلى أن الكون قام على الأسباب، فكأنه سبحانه يشير إلينا -وهو يخاطبنا في تأسيس مجتمعنا، واجتماعنا البشري- إلى عدم التخلي عن الأسباب، وإن اعتقدنا أنها من خلقه ومن فعله سبحانه.

والثمرات جمع ثمرة، وهي ثمرة بالثاء، والعرب تقلب الثاء تاءً، فتقول مثلًا في الثمرة: تمرة، فانتبه إلى أن الثاء والتاء من الحروف التي تتعاوض، أي يأتي بعضها مكان بعض.

---

(١) سورة الإسراء، آية [٤٤].

ثم إنه سبحانه عبر بالجمع؛ لأنه كريم، ولم يكتف بأن يمنحني ثمرة، إنما أعطاني ثمرات مختلف ألوانها، وهي كثيرة متنوعة، من واسع فضله سبحانه على عباده؛ حتى لا يحصل عند الناس سأم ولا ملل إذا كانت الثمرات نوعًا واحدًا؛ ولذلك نوَّع الله علينا العبادات؛ فهناك: صيام، وصلاة، وزكاة، وحج، ونوع علينا الصلاة؛ ففيها: قيام، وركوع، وسجود، وهكذا، نوع علينا في العبادة؛ حتى لا نمل.

فهذا التنوع في النعم من مظاهر اتساع العطاء الإلهي، وهنا عطاء في النعم، يقابله إنعام إلهي آخر، وهو أنه سبحانه رزقنا القدرة على الانتفاع، وهيأ لنا السعي والحركة، ولم يتركنا إلى حولنا وقوتنا؛ فإنه سبحانه لو أمسك عنا الإمداد؛ لتحولنا إلى عدم، وليس فقط إلى موت؛ لأن الموت ذهاب للروح ولكن يبقى الجسد. أما العدم فهو أن نفنى تمامًا، فالإمداد والخلق مستمران، والله تعالى لا يزال خالقًا أبدًا: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[1] فافهم أنك تعيش بإمداد الله وبخلقه لحظة بعد لحظة، وأن الله تعالى لو قطع عنك الإمداد أو التهيئة والاستعداد؛ لوصلت من الكون والوجود إلى العدم،وتحولت من الكون إلى الفساد، والفساد نفيك وعدمك، كمثل شاشة عليها صور متحركة، قطعنا عنها الكهرباء فجأة؛ فإن الصور تفنى في الحال، وهكذا كانوا يعبرون قديمًا، يقولون: لو قطع عنك الإمداد، أو أخل بالتهيئة والاستعداد؛ لتحول الكون إلى الفساد.

﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي أدركوا مقدار العظمة، وافهموا جلال الألوهية، وخلوا القلب من السوى، أي مما سوى الله؛ إذ ليس لنا إلا ربنا في الدنيا والآخرة، والدنيا محدودة، يقوم الناس فيها، وتعمر حياتهم بالأخلاق المحمودة، والفكر المستنير، فلو تحولنا إلى الأخلاق المذمومة والفكر العقيم، والمناهج المختلة؛ فإنه لا تنفعنا دنيا ولا آخرة؛ فخلوا قلوبكم من السوى، وهذا يؤدي بك إلى قاعدة مهمة من قواعد

---

(١) سورة الرحمن، آية [٢٩].

الإسلام، وهي: (لا حول ولا قوة إلا بالله) ومعناها: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لا تجعلوا نـدًّا لله تعالى، فمَنْ سواه خلق، ورزق، وربَّى، ومن سواه إذا ما دعوناه أجاب.

ولذلك فإن السادة الماتريدية -وهم فصيل كبير من أهل السنة والجماعة- يقولون: (معرفة الله تعالى فطرية)، فإذا جاء أحد يتظاهر بالإلحاد؛ قلنا له: أنت في قرارة نفسك تجد الحاجة الضرورية إلى الله، ويلجأ إليه فؤادك لا إراديًا في أوقات الشدائد.

ثم قال سبحانه:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

[البقرة: ٢٣]

وهذه الآية هي بداية التحدي، الذي تحدى فيه القرآن العالمين، والإنس والجن؛ حتى يقيم الحجة على إعجازه، الذي يدل على صدقه وربانيته، مما يقتضي التسليم لكل ما جاء فيه من عقائد وأحكام وقيم.

والريب هو الشك والتهمة، أي: فإن كنتم في شك من أن هذا القرآن قد نزل من عند الله، أو إن كنتم تتهمون هذا النبي الصادق بأنه قد أتى بالقرآن من عند نفسه، أو من عند بشر؛ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾.

فالقرآن هو كلام الله، وقد صدر من عالم الأمر، وهذا الكون بما فيه من كائنات ومن أحداث تجري عبر التاريخ، صدر من الله خلقًا ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1] فالله تعالى قد صدر منه هذا الكون خلقًا، وقد صدر منه هذا القرآن أمرًا؛ ولذلك يقول العلماء: إن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ بل هو صفة من صفاته سبحانه. أما الذي هو مسطور في المصحف فهو دال على كلام الله النفسي القديم، القائم بذاته سبحانه، فالقرآن باعتباره مدلولًا: غير مخلوق، وباعتباره دالًّا، مكتوبًا في المصحف، نحفظه في صدورنا، ونتلوه بألسنتا، ونسمعه بآذاننا؛ فهو مخلوق.

كما لو كتبت لفظ الجلالة (الله) على ورقة، فالورقة واللفظ المكتوب فيها

(١) سورة الأعراف، آية [٥٤].

مخلوقان، والله -جل جلاله- هو خالق الأكوان، ورازق الناس، وهو المحيي المميت؛ فما الفارق بين المكتوب على الورقة وبين الذات العلية؟ هو الفارق بين الدال والمدلول، فكذلك المصحف، هو دال، وما فيه من رسوم الحروف والكلمات دوالٌّ، وما هو مقابل هذا الدال من مدلول فهو غير مخلوق، فالدال مخلوق، والمدلول غير مخلوق.

وقد اختلف علماء التفسير في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، هل المقصود من: مثل القرآن؛ أي هاتوا سورة مثل سور القرآن، أو أن الضمير يعود على النبي ﷺ، فيكون المعنى: فأتوا بسورة من مثل ذلك الأمي؟ فهل تحداهم أن يأتوا بسورة من مثل القرآن أو من مثل النبي ﷺ؟ احتمالان.

ثم قال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾[1]، وكلمة ﴿لَن﴾ تفيد التأبيد كما يقول الزمخشري، وقد دعاهم الله تعالى إلى محاولة الإتيان بمثله، وأعلمهم أنهم لن يقدروا عليه، فسوف يحاولون، ثم تخيب محاولاتهم؛ فتزداد عظمة القرآن، وتبقى تلك المحاولات شاهدًا على عظمة القرآن؛ فكان لوجودها حكمة.

فكأن الله تعالى دفع بعض الذين في قلوبهم ريب إلى أن يقلدوا القرآن؛ حتى يقوم الدليل العملي على صحة قضية أن القرآن معجز وأنه حق، وقد وُجدت تلك المحاولات بالفعل، سبع محاولات في التاريخ لتقليد القرآن، بدأت مع مسيلمة الكذاب؛ إذ قالوا له: هات سورة من مثله، فأراد أن يحاكي قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[2]، وتعالوا لنرى لمحة مما اشتملت عليه تلك الكلمات من إعجاز وجلال، فقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ

---

(١) سورة البقرة، آية [٢٤].

(٢) سورة الكوثر، آية [١-٣].

ٱلْكَوْثَرَ﴾[1] معجزة، وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[2] معجزة، وفي الوسط قوله جل شأنه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾[3] وهذا تكليف قاصر على المصلي، ثم قوله جل شأنه: ﴿وَٱنْحَرْ﴾[4] فهذا تكليف متعدٍّ بالخير إلى الآخرين، فهما تكليفان قاصر ومتعد، فاشتملت تلك الكلمات على معجزتين وتكليفين.

والكَوْثَرَ، يعني: الأمة الكثيرة، أو الخير الكثير، أو أهل البيت النبوي المطهر، والمعنى: أننا سنعطيك ذرية واسعة كثيرة جدًّا؛ لأن واحدًا من قريش تطاول عليه ﷺ مرة وقال: (إنه لا يعيش له ولد)، وهو المقصود هنا بالأبتر، فاختلف العلماء في تعيين ذلك الأبتر، قيل أبو جهل، وقيل: العاص بن وائل، وقيل: عقبة بن أبي معيط، وقيل: أبو لهب عمه، وقيل: جماعة من قريش، وقيل: كعب بن الأشرف، فهو غير معروف، وكأن الله تعالى أماته وأمات ذكره، حتى إننا لا نعرف من هو، مع مراعاة أن أولاد هؤلاء أسلموا، فهشام بن العاص أسلم، وعكرمة بن أبي جهل أسلم، وهكذا، ورغم هذا فإننا لا نعرف حتى ذرية الأولاد المسلمين أين هم، فقد راح الأبتر في مجاهل التاريخ، أما النبي ﷺ ففي كل يوم يقول المؤذن خمس مرات في الأذان، في العالم كله: (أشهد أن محمدًا رسول الله)، وهناك مليار وثلاثمائة ألف مليون يصلون عليه كل يوم في التحيات في خمس صلوات، واسمه الكريم ﷺ هو الاسم الأكثر انتشارًا في العالم، ففي «موسوعة جينيس»[5] أن سبعين مليونًا اسم كل واحد منهم: محمد، سوى من سمي بـ: أحمد، ومحمود، ومصطفى، وطه، ويس.

---

(١) سورة الكوثر، آية [١].

(٢) سورة الكوثر، آية [٣].

(٣) سورة الكوثر، آية [٢].

(٤) سورة الكوثر، آية [٢].

(٥) موسوعة جينيس: مرجع معترف به عالميًا، حول كل ما يختص بالإنجازات القياسية غير المسبوقة، نشرت أول طبعة منها في عام ١٩٥٥م، وهي تصدر سنويًا في أكثر من مائة قطر، في خمس وعشرين لغة، وتعد الموسوعة أكثر الكتب -الخاضعة لقوانين حقوق الطبع والنشر- مبيعًا، وقد احتفلت الموسوعة بصدور طبعتها الخمسين في العام ٢٠٠٤م، بعد مرور عام واحد على بيع مائة مليون نسخة منها.

وقد مات في المقابل ذكر شانئه، لكنه هو ﷺ أعطاه الله الكوثر، الذي يعني: أمته أو أهل بيته، وأهل بيته منحصرون في الحسن والحسين رضي الله عنهما، رزق الحسن باثنين: الحسن المثنى وزيد الأبلج، ورزق الحسين بعلي زين العابدين، وقد كاد زين العابدين يقتل، ولو قتلت ذرية الحسن والحسين؛ لما بقي للنبي ﷺ نسل، فهل كان بيد سيدنا محمد ﷺ أن يبقي لنفسه نسلًا، فيتكاثر ويملأ الدنيا، من طنجة إلى جاكرتا، ومن غانا إلى فرغانة؟ لم يكن بيده أن يعطي نفسه الكوثر بعدما انتقل إلى الرفيق الأعلى، ولم يكن بيده أن يقطع نسل من أبغضه، ولم يكن بيده أن ينسى التاريخ ذكر هولاء.

وقد عرضنا لمحة من إعجاز سورة الكوثر[1]؛ حتى نرى مدى سخف كلام مسيلمة في المقابل حينما أراد أن يأتي بمثله، فماذا قال مسيلمة في مقابل هذه العظمة وهذا الجلال؟ قال: (إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر)، فجاء بهذيان، وكلام لا معنًى له، وليس له دعوة، ولا قضية، ولا إعجاز؛ فسبحان الله! هل يقارن هذا بكلام ربنا سبحانه؟!

وسبحان الله، متى تبرز معاني ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾[2] التي يحفظها كل واحد منا؟ حينما يأتي شخص سفيه يقول في مقابلها: (إنا أعطيناك الجماهر)؛ فيرى الإنسان موضع العظمة في كلام الله تعالى دون كلام البشر.

---

(١) عرض هنا شيخنا الإمام وجهًا من الإعجاز في سورة الكوثر لم أره لأحد من السابقين من أئمة التفسير، وفَضْلُ الله تعالى في فتح أبواب الفهم في القرآن لا ينفد، وكان العلامة جار الله الزمخشري صاحب «الكشاف» قد أفرد مؤلفًا مستقلًا في وجه الإعجاز في سورة الكوثر، وقد لخص مقاصده الإمام فخر الدين الرازي، وأورد ذلك في خواتيم كتابه: «نهاية الإيجاز، في دراية الإعجاز»: (ص٢٣٦) ط: دار صادر، حتى قال الإمام الفخر في أواخره: (ثم هذه السورة، مع علوِّ مطلعها، وتمام مقطعها، واتصافها بما هو طراز الأمر كله، من مجيئها مشحونة بالنكت الجلائل، مكتنزة بالمحاسن غير القلائل؛ فهي خالية من تصنع من يتناول التنكيت، وتَعَمُّلِ من يتعاطى بحاجته التبكيت، والله أعلم).

(٢) سورة الكوثر، آية [١].

ويقول: (صل لربك وجاهر) فأين هو من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾(١) حتى قال ﷺ لعائشة ﵂: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»(٢) حينما قام يصلي من الليل إلى أن تورمت قدماه من القيام ﷺ.

وقال ربنا سبحانه: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾(٣) فقال مسيلمة: (والعاجنات عجنًا، فالخابزات خبزًا) كلام لا معنًى له، وليس فيه معجزة، وليس له معنىً أو قضية يخاطب بها الإنسان، فهو في الحقيقة تأييد لكون كلام الله تعالى معجزًا، وهو إظهار لمنّته.

فقارن بين كلام الله، وانظر: هل يشتمل ما يعارضه على قضية كما يشتمل القرآن؟! هل يشتمل على تربية للنفس؟! هل يشتمل على برنامج عمل؟! هل يشتمل على دستور للاجتماع البشري، أو للنفس، أو للتربية، أو للسياسة، أو للاقتصاد؟ هل يشتمل ما يعارض القرآن على بناء للإنسان، على مستواه الفردي وعلى مستوى الأمة؟! هل يشتمل على شيء يهز المشاعر، ويشرح لك حقيقة نفسك؟! أبدًا لا يشتمل.

والظاهرة العجيبة أنه كلما حاول أحد أن يأتي بسورة من مثله؛ فإن القرآن الكريم يعلو درجات، وكأن الله تعالى يسخر هؤلاء الذين يحاولون معارضة القرآن؛ ليثبت إعجاز كلامه، قال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(٤)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(٥)، فلا تخف

---

(١) سورة الشرح، آية [٧].

(٢) رواه البخاري في «صحيحه»: (٣/ ١٥ فتح) كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ حتى تورم قدماه، وقول عائشة ﵂: (حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ)، من حديث المغيرة، ومسلم في «صحيحه»: (٤/ ٢١٧١) باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في الطاعة، وابن حبان في «صحيحه»: (٢/ ٩) كتاب البر والإحسان، باب: ذكر ما يستحب للمرء أن يقوم في أداء الشكر لله جل وعلا بإتيان الطاعات بأعضائه دون الذِّكْر باللسان وحده.

(٣) سورة العاديات، الآيتان [١، ٢].

(٤) سورة فصلت، آية [٥٣].

(٥) سورة الحجر، آية [٩].

أيها المسلم، وتذكر كلمة عبد المطلب، لما أن هجم الأحباش على الكعبة، قال: (إن للبيت ربًّا يحميه) فهذا بيت ربنا، فهو سبحانه يحميه، فخرج هو والمشركون من مكة إلى الشعاب، إلى أن دخل أبرهة مكة، فأرسل الله عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل؛ فجعلهم -والحمد لله- كالعصف المأكول، فهذا الذي حصل، وهو تاريخ قريب مستفيض، يرويه العرب ويعيشونه، حتى إن عائشة ﵂ قالت: «**رَأَيْتُ قَائِدَ الْفِيلِ وَسَائِسَهُ أَعْمَيَيْنِ مُقْعَدَيْنِ، يَسْتَطْعِمَانِ بِمَكَّةَ**»[1]، وكان اسم الفيل: محمود، يسمونه محمودًا، وهو مذموم.

فهذا تاريخٌ واقعيٌّ عاشه الناس، وتفاعلوا مع معطياته وآثاره، والناس قد عايشوا تلك الوقائع، وعاشروا ذلك الأمر، وروي ذلك بالرواية المتصلة التي لا مثيل لها في تاريخ البشرية، وذلك أن يروي أحد عن أحد مع التوثيق، وبحث أحوال الرواة، مثل ما روى المسلمون عن نبيهم ﷺ بالسند المتصل، مع التوثيق المستمر.

وقد ألَّف الأستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعي -رحمه الله تعالى- كتابًا في إعجاز القرآن، ينبغي أن يطبع وأن ينشر وأن يوزع، وأن يطلع عليه الناس وهو في صورة لائقة به، مطبوعًا ومشهورًا، لكننا نريد للناس أن تعتني ببحوثه وقضاياه، وقد

---

(١) ورد مسندًا في «سيرة ابن إسحاق»: (١/ ٤٢)، ورواه من طريقه خليفة بن خياط في «تاريخه»: (ص٥٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة»: (١/ ١٢٥)، ورواه الدينوري في «المجالسة»: (١/ ٢١٧)، وقال الأَزْرَقِيّ في «تاريخ مكة» (١/ ١٥٤): (وَقَدْ ذَكَرَ الله تعالى الفيلَ وَمَا صَنَعَ بأصحابه، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ ... إلى آخرها﴾ [الفيل:١]، ولو لم يَنْطِقِ الْقُرْآنُ به لكان فِي الأَخْبَارِ المتواطِئَةِ، وَالأَشْعَارِ الْمُتَظَاهِرَةِ فِي الجاهلية وَالإِسْلَامِ حُجَّةٌ وَبَيَانٌ لشهرتِهِ، وَمَا كانتِ العربُ تُؤَرِّخُ به، فكانوا يُؤَرِّخونَ فِي كُتُبِهِمْ وَدُيُونِهِمْ مِنْ سَنَةَ الفيل، وفيها وُلِدَ رَسُولُ الله ﷺ، فَلَمْ تَزَلْ قُرَيْشٌ والعربُ بمكَّةَ جَمِيعًا تُؤَرِّخُ بِعَامِ الْفِيلِ، ثُمَّ أَرَّخَتْ بِعَامِ الْفِجَارِ، ثُمَّ أَرَّخَتْ بِبُنْيَانِ الكعبةِ، فَلَمْ تَزَلْ تُؤَرِّخُ بِهِ حتى جَاءَ الله بِالإِسْلَامِ، فَأَرَّخَ المسلمونَ مِنْ عَامِ الهجرة. وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ شُهْرَةِ أَمْرِ الْفِيلِ، وَصُنْعِ الله بأصحابه، وَاسْتِفَاضَةِ ذَلِكَ فِيهِمْ، حَتَّى قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂ عَلَى حَدَاثَةِ سِنِّهَا: «**لَقَدْ رَأَيْتُ قَائِدَ الْفِيلِ وَسَائِسَهُ أَعْمَيَيْنِ بِبَطْنِ مَكَّةَ يَسْتَطْعِمَانِ**». وَقَدْ ذَكَرَ غيرُ وَاحِدٍ مِنْ أَحْدَاثِ قُرَيْشٍ أَنَّهُ رَآهُمَا أَعْمَيَيْنِ).

رصد سبع محاولات لمحاكاة القرآن وتقليده، وفي كل محاولة منها يعلو القرآن، وتظهر معالم إعجازه، فرصد محاولةً لمسيلمة، لعلنا قد تكلمنا عنها سابقًا.

ورصد محاولةً لأبي العلاء المعري[1] في كتاب أسماه: «الفصول والغايات»، حاول فيه أبو العلاء أن يحاكي القرآن، وإن كان هذا أمرًا غير متيقن، وقد طال خلاف المؤرخين والدارسين للأدب حول شخصية أبي العلاء، وأبو العلاء شاعرٌ كبيرٌ، وكان مُطَّلِعًا اطلاعًا عجيبًا على اللغة العربية، متضلعًا من علومها وفنونها، واسع العلم بها، وقد كان ضريرًا؛ حتى كانوا يسمونه رهين المحبسين، كان يمشي مرة فاصطدم برجل، فصاح فيه الرجل: يا كلب، فقال أبو العلاء: (الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسمًا في لغة العرب)، فانظر إلى تمكنه من اللغة، وحضورها في ذهنه.

وقد وقف العلامة الإمام السيوطي أمام هذه العبارة، ورأى أنها تمثل إهانة لكل من لا يعرف للكلب سبعين اسمًا كما يعرف المعري، والسيوطي إمام كبير، واسع الاطلاع، مات في القرن العاشر الهجري سنة ٩١١هـ، فألف كتابًا اسمه: «التبري، من معرة المعري» وهو منظومة شعرية، أورد فيها سبعين اسمًا للكلب في لغة العرب؛ ليدفع عن نفسه أن يكون من الجاهلين بذلك، فيقع في تلك الكلمة التي قالها المعري.

فأخذ أحمد تيمور باشا[2] كتاب السيوطي ونشره في مجلة «المقتطف» وزاد عليه

---

(١) هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي ت٤٤٩هـ، الشاعر المفلق، والأديب الكبير، من أفراد الزمان في معرفة اللغة وأسرارها، وله المؤلفات الفريدة مثل: «رسالة الغفران»، وشرح ديوان أبي تمام اسمه: «ذكرى حبيب»، وشرح لديوان البحتري، اسمه: «عبث الوليد»، وشرح لديوان المتنبي، اسمه: «معجز أحمد»، فضلًا عن دواوينه الخاصة مثل: «سقط الزند»، و«لزوم ما لايلزم»، كل هذا مع كلام كثير وجدل شديد، ما بين المؤرخين؛ فمن رام له بالزندقة، إلى منتصر له غاية الانتصار، وقد جمعوا تراجم العلماء له في مجلد ضخم عنوانه: «تعريف القدماء، بأبي العلاء»، طبع في دار الكتب والوثائق القومية، وانظر لزامًا كتاب: «أباطيل وأسمار» للعلامة محمود محمد شاكر.

(٢) العلامة الكبير أحمد تيمور باشا ت١٣٤٨هـ : من أعيان العصر، العلامة المحقق، جمع مكتبة غنية بالمخطوطات النفيسة والمطبوعات النادرة، تبلغ نحو ١٩٥٢٧، وعدد مخطوطاتها ٨٦٧٣، وقد أهديت بعد وفاته إلى =

ونقص، وقال: أغلب هذه صفات، ثم زاد فوق السبعين التي جمعها السيوطي، من شدة تتبعه للمعاجم ودواوين اللسان العربي.

فالمعري وهو بهذا الاطلاع والاستيعاب للسان العرب ألف كتابه: «الفصول والغايات»، وقد طبع، وقد كان مخطوطًا من قبل، لا يراه إلا العلماء في دار الكتب أو غيرها، ولكنه -والحمد لله- طبع مرة في مصر (طبع منه الجزء الأول)، ومرة في بيروت (طبع كاملًا)، وأصبح بين يدينا، هيا بنا لنقرأه لنرى أنه كلام ليس من ورائه قضية، ولا هداية، ولا خطاب للعالمين، وقد قال الناس لأبي العلاء المعري: ما لنا لا نجد له طلاوة، هذا كلام مرصوص؛ إلا أن القرآن يُعمِل في النفس، وتجد له هيبة وصولة وطلاوة، فقال لهم: اقرأوه في المحاريب أربعمائة سنة، كأنه يقول: إن للقرآن طلاوة؛ لأننا اعتدناه، وليس لشيء في ذاته، ونقول: فلماذا لم ينتظر العرب أجمعون في زمن النبي ﷺ أربعمائة سنة، وهم أفصح منك وأعرف بلسانهم ولغتهم؟! ولِمَ خضعوا له بمجرد سماعه؟! ولماذا لم ينتظر الوليد بن المغيرة حين قال: إن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، والله ما هذا بكلام البشر؟ وقد قال هذا عند أول نزول القرآن، وقد مر على كتاب «الفصول والغايات» ألف سنة، وليس عليه طلاوة، ولا له حلاوة، وليس له قضية، ولا له تربية، ولا له منهج، ولا له أحكام تستفاد منه، ولا له أي شيء؛ فالحمد لله الذي حفظ لنا هذه المحاولات من أجل أن نقارن، ويقارن معنا كل العقلاء.

فهذه بعض المحاولات التى عدها الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه «إعجاز القرآن»، سبعُ محاولاتٍ، منها أيضًا محاولةُ ابن المقفع في كتاب له يسمى بـ«الدرة اليتيمة»، والدرة: اللؤلؤة، أو الماسة، واليتيمة: التي لا مثيل لها، ولا شبيه لها.

= دار الكتب المصرية، من مؤلفاته: «أعلام المهندسين»، «الآثار النبوية»، «الأمثال العامية»، «أوهام شعراء العرب في المعاني»، وقد ترجم له إبراهيم الشيباني في كتاب مستقل.

وقد حاول فيها أن يقلد القرآن الكريم؛ فلم يستطع والحمد لله، ومن فضل الله علينا أن كتاب «الدرة اليتيمة» موجود، ومطبوع عدة مرات.

فهات تلك الكتب واقرأها، واقرأ في مقابلها أي سورة من القرآن، اقرأ صفحة من القرآن واقرأ من الدرة اليتيمة صفحتين أو ثلاث صفحات؛ فإنك لا تجد مناسبة، ولا تستطيع أن تقارن، ولا تجد في نفسك حاجة أيضًا أن تؤلّف كتابًا ترد فيه على «الدرة اليتيمة»؛ لأنه ليس هناك أصلًا ما يستحق الرد؛ بل تقول فقط: سبحان الله، ولا إله إلا الله، ثم يطمئن قلبك لذكر الله.

لكن ألا يستوقفكم أن أمة من الأمم تصنع ذلك، إنها تطبع لمن يتهجمون على مقدساتها كتبهم!! ونقول: لأنها أمة قوية، وأمة شفافة، وأمة مخلصة، وأمة واثقة من دينها وربها، أمة قد اختلط القرآن بقلبها، فاختار الناس فيها كتاب الله، وعرفوا قدره وإعجازه؛ لأنهم وجدوه غضًّا طريًّا، قد دخل القلب فداعب الروح والوجدان، ونظر المسلم من خلال القرآن إلى العالم من حوله فوجده جميلًا؛ لأنه من صنعة ربنا تبارك وتعالى، وعامل ربه بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[1] فالله رحمن رحيم، والعلاقة بين العبد وبين ربه قائمة على العفو والصفح والرحمة والمغفرة. فالمسلم أسلم أمره لله، فاطمأن قلبه في توكله عليه.

ثم جاءت محاولات أخرى، لم يتتبعها العلماء أو يقوموا بحصرها، منها ما صدر عن بعض أدباء العصر مثل: بيرم التونسي[2]، وقد كان متمردًا في نفسه في بداية حياته، فكان ضد الحكومة؛ فنفي إلى فرنسا، وضاقت به الأحوال، وكان متمكنًا جدًّا

---

(١) سورة الفاتحة، آية [١].

(٢) محمود بيرم التونسي، شاعر وزجال كبير، من أصول تونسية، ولد في الإسكندرية سنة ١٨٩٣م، وتنقل بين عدة بلدان، وعمل كاتبًا في أخبار اليوم، ثم في الجمهورية، واشتهرت أزجاله في الصحف والمجلات المصرية، وقدم أعمالًا إذاعية شهيرة، منها: سيرة الظاهر بيبرس، وتوفي سنة ١٩٦١م.

من اللغة العربية، ومن العامية بالذات؛ حتى قال أحمد شوقي أمير الشعراء: (إني أخاف على العربية من بيرم)؛ لأن كلامه بالعامية حلو جذاب، فخاف أن يلفت الناس عن حلاوة العربية.

أَحَبَّ بيرم أن يتكلم في شأن حزب الوفد، فأنشأ مقطوعة يحاكي بها القرآن تفردًا، ولا شك أنه لم يكن يقصد التعدي على حُرْمة القرآن الكريم، تراه يقول مثلًا: (صورة الوفد: س، ع، د) يقصد سعد زغلول، فكان مشايخنا ينهون حتى عن ذِكْر هذه الأشياء.

ثم تاب بيرم إلى الله، وكان يبكي، وكان يجلس في مقهى زين العابدين ويقول: (لا أجعل في حل من يروي عني هذا الذي ذكرته)، فهو بالرغم من هذا أخطأ. وقد جمعوا أعماله الكاملة، فطلبوا هذه الأشياء، وطبعوها في المجموعة الكاملة، فنقول: قدر الله، الحمد لله، الرجل لا يريد أن نرويها عنه؛ لأنه تاب وأناب، وأقر بالغلط، وليس فيها بلاغة ولا فصاحة، إلا الضحك والسخرية، فقد تاب بيرم -رحمه الله- توبة نصوحًا، وألَّف رائعته:

نـــاداني لـبِّـيـتـه * لحـــد بـــاب بـيـتـه

فهو يتكلم عن كيفية توبته، وكيف أن نداء الله تعالى يتعالى في فطرته مرات من الداخل وهو يأبى ويعصي، ثم بعد ذلك هداه الله، وكان كثير الذكر في آخر حياته، ملتزمًا بالصلاة، وتاب إلى الله معلنًا توبته، في هذه الرائعة التي ما زالت تُذكر وتنشد إلى يومنا هذا.

نـــاداني لـبِّـيـتـه * لحـــد بـــاب بـيـتـه

فتأمل جمال الكلام وحلاوته؛ فالله -تبارك وتعالى- يتقبل منه توبته، وصالح عمله، ويعفو عن كثير.

محاولات من وراء محاولات، حتى ظهر لنا في الأخير رجل كان من فلسطين، وغادرها سنة ١٩٧٤م، فخرج إلى أمريكا، واسمه أنيس سورس، ثم بعد ذلك ألَّف كتابًا بعد مناظرة مع أحد الدعاة المسلمين المشهورين، وهو الشيخ أحمد ديدات، فقال مثلًا: ما معنى ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[1]؟ وما هذا التحدي؟ ثم زعم أن في إمكانه المجيء بمثله، ثم حاول فأخرج سبعًا وسبعين سورة، كل سورة منها صفحة أو صفحة ونصف، تقرأها فتجد الركاكة بعينها، حتى كأن الله تعالى قد وفقه أن يجمع الكلمات الركيكة، ويضعها جنبًا إلى جنب، فسبحان الله.

حاول الرجل أن يقلد القرآن، فيقول مثلًا: (هذا كتاب الفرقان لو كنتم تعلمون)، فما استطاع أن يخرج عن إطار القرآن، كأن القرآن الكريم سيطر عليه وقهره، فما استطاع أن يخرج من فلكه وأسلوبه ونسقه، وظل متأثرًا بالألفاظ والتراكيب القرآنية، وعندما يتدخل هو بكلام من عنده، يهوي إلى الركاكة والتكلف، فالقرآن إذًا غالبٌ لا مغلوب.

وبعض الناس يقولون: هذا حرام، والحقيقة أن المسألة لا دخل لها بمبدأ الحل والحرمة، ولا تقاس به؛ لأن الرجل غير مسلم، ولا يبالي بالحرام ولا بالحلال، ولن يثنيه عن محاولته أن نقول له: هذا حرام وهذا حلال، لكن انهض أنت أيها المسلم، وأفصح عن عظمة القرآن في العالمين، وبين لهم أن كل كلمة فيه لها معنى، ولها علاقة بما قبلها وما بعدها، وبالسياق والسباق واللحاق، وأن كل آية متصلة بما بعدها وبما قبلها، وأن القرآن نسق مفتوح مجرد، وأنه من أوله إلى آخره هداية للإنسان، وأنه من أوله إلى آخره يدعو إلى الهداية، وإلى الربانية، وإلى السلام، ويدعو إلى القوة، وإلى الحق، وإلى العدل، ويدعو المؤمن إلى أن يكون قويًا فإن «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ**

---

(١) سورة البقرة، آية [٢٣].

إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ»[1]، فعلّم المؤمن أن لا يخاف؛ لأن الخوف سمة الضعفاء؛ بل علّمه أن يقول: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[2]، فهو يقول: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ﴾ ولم يقل: اذهبوا، أو انفضوا عنا؛ لأنه حق جاء للهداية، ولا يخشى أن تفتح الملفات كلها.

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3] الشهداء جمع شهيد، كعلماء وعليم، وليست جمعًا لعالم؛ لأن عالم جمعها عالمون، وجمع شاهد شاهدون، أو شهود، وشهود هي المصدر؛ لأن المصدر يطلق ويراد منه الجمع، مثل قعود، نعني به: أناسًا قاعدين، فهو مصدر، فالشهود مصدر، لكنه يطلق ويراد منه جماعة الشاهدين، فشهداء جمع شهيد، وشهيد على وزن فعيل، وفعيل يطلق ويراد منه اسم الفاعل، ويطلق ويراد منه اسم المفعول، كما ذكرنا من قبل في عدة مواضع.

ثم قال سبحانه: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أن من يشهدون معكم لا علاقة لهم برب السماوات والأرض؛ لأن كثيرًا من الناس يزعم أنه يريد الله تعالى وهو يبتعد عن الله، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[5] فهما صنفان من الناس.

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه»: (٤/ ٢٠٥٢) كتاب القدر، باب: في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، وابن حبان في «صحيحه»: (١٣/ ٢٨)، وابن ماجه في «سننه»: (٢/ ١٣٩٥)، والنسائي في «السنن الكبرى»: (٦/ ١٥٩).

(٢) سورة آل عمران، آية [٦١].

(٣) سورة البقرة، آية [٢٣].

(٤) سورة الكهف، الآيتان [١٠٣، ١٠٤].

(٥) سورة البقرة، آية [٢٠٤-٢٠٧]

فهؤلاء الشهداء سيكونون خارج الإطار، وخارج منظومة المجتمع، ولكن هناك حرية في الفكر وحرية في المعتقد ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾[1]، ونحن ليس علينا إلا البلاغ والتنبيه.

والحرية لا تعني تكافؤ الآراء، أو تكافؤ العقائد؛ بل الحرية معناها الاختيار، وأننا لا نريد منافقين، نريد ممن يؤمن أن يؤمن من قلبه، وممن يسلم أن يسلم من وجدانه حقيقة، ولكن أن يُظْهِر الإيمانَ من لا يؤمن، فهذا خطأ كبير، وعواقبه مدمرة، هنا في الدنيا، ثم الأمر بيد الله يوم القيامة؛ فالقاعدة في ذلك أن هناك أثرًا في كيفية إيصال معاني هذا الدين إلى العالمين، والمطلوب: البلاغ فقط، دون إكراه منا لأحد، وأما محاسبة الناس على اختيارهم وحريتهم فأمر أخروي بيد الله وحده، وسوف نرجع إلى ربنا فينبئنا بما كنا نعمل، وينبئنا بما كنا فيه نختلف. أما في الدنيا فقد بيَّن الله تعالى لنا منهج التعامل مع تلك القضية فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾، وقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2]، وقال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾[3]. وأما في الآخرة فقد قال سبحانه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾[4]، فكأنه سبحانه ينبههم هنا إلى أن لهم الحرية في دعوة من يشاءون من الشهداء، ولكن هؤلاء الشهداء من دون الله.

---

(١) سورة الكهف، آية [٢٩].

(٢) سورة الكافرون، آية [٦].

(٣) سورة البقرة، آية [٢٥٦].

(٤) سورة الكهف، آية [٢٩].

ثم قال سبحانه -وهو يتحدّى العالمين:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

[البقرة: ٢٤]

أي في الإتيان بسورة من مثله، يعني من مثل النبي ﷺ، أو من مثل القرآن الكريم في نظمه، ونَسَقه، وهدايته، ودعوته إلى الحق ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، وهكذا يجب على الإنسان أن يؤمن بالإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[1]، ويجب عليه أن يؤمن بالرسل، وأن خاتمهم هو النبي ﷺ، أتى بالكلمة الأخيرة من عند الله، وبأنه لا بد من يوم آخر؛ فإنه سبحانه ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[2] وفي ذلك اليوم هناك عذاب وعقاب، وهناك ثواب، وكل ذلك يتم بعد الحساب.

يتحكم هذا الاعتقاد في سلوك المؤمن في الحياة الدنيا بين الإحجام والإقدام؛ فإنه عندما يرى أن هذا الفعل يغضب الله تبارك وتعالى يحجم عنه؛ رهبة من ناره وعذابه ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾[3]، وليس لأن الله ينتقم منا؛ فإنه هو الذي خلقنا، وهو الذي أبقانا، ونحن الآن في وجودنا هذا إنما نحن بخلق الله وفضله ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[4]؛ لأننا في بقائنا إنما نحن بإمداد الله لنا في الخالقية، فلو أمسك عنا الإمداد لفنينا وانتهينا، ونحن لا نستطيع أن نضر الله شيئًا. ونحن أهون

(١) سورة الإخلاص، الآيتان [٣، ٤].

(٢) سورة الفاتحة، آية [٤].

(٣) سورة الزمر، آية [١٦].

(٤) سورة الرحمن، آية [٢٩].

عند الله من أي شيء، إلا أنه سبحانه يحبنا ويرحمنا، ويعفو عنا ويغفر لنا، ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[1]؛ ولذلك فإنه أمرنا وخوّفنا، نحجم عن المعصية، وعن الفساد في الأرض.

﴿فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أما الوَقود فهو الآلة التي يتم بها الإيقاد، وعملية الإيقاد نفسها، تسميها العرب: الوُقود (بضم الواو)، فهناك فارق بين الوَقود بفتح الواو، وبين الوُقود بضمها، فهو بالفتح بمعنى الحطب، والخشب وغير ذلك مما هو في معنى الآلة والأداة، التي سوف تشتعل، فإذا اشتعلت وتم عمل الإشعال فيها صار هذا العمل وُقودًا بالضم، فالوُقود هو عملية الإيقاد نفسها بخلاف الوَقود، مثال ذلك أيضًا: السَّحور والسُّحور، فالسَّحور (بالفتح) يعني الطعام الذي تتناوله استعدادًا للصيام، لكن السُّحور هو عملية التسحر نفسها، بأن تقوم من الليل وتحضر الطعام وتأكل استعدادًا للصيام؛ فصار حينئذ السُّحور بالضم، ومثل ذلك الطَّهور والطُّهور، والوَضوء والوُضوء وغير ذلك كثيرٌ في ألفاظ اللغة، فيمكن أن نحفظ إذًا: أن الفتح الموجود معنا هنا يعني الأداة، وأن الضم يعني إحداث الفعل.

يقول: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ فما هو الذي لا يستطيعون فعله، هو الإتيان بمثله، فما قولك في المحاولات التي وقعت، القول: إنها كالعدم؛ لأنهم سيحاولون، لكن الله يخبر أنهم لن يفلحوا، ولن يستطيعوا الإتيان بمثله بالفعل.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ في الماضي، ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ في المستقبل، وقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ يفيد التأبيد؛ لأن (لن) تفيد النفي المتصل بالمستقبل، يعني: ولن تفعلوا أبدًا، والزمخشري يقول: إن (لَن) تفيد التأبيد، يعني: ولن تفعلوا أبدًا، وأبدًا هذه، معناها: أنه لن يحدث بالمرة، فماذا عن الذي ألف «اليتيمة»، والذي ألف «الفصول والغايات»، والذي ألف «فرقان الحق» وهو في الحقيقة فرقان الباطل، والمحاولات

---

(١) سورة الشورى، آية [٣٠].

التي رصدها مصطفى صادق الرافعي، وقد جاءت بعده محاولات أخرى، وضربنا لها مثالًا ببيرم التونسي -رحمه الله- وقد تاب، وبمثال سوروس أو شوروش؛ فلماذا أكد الله تعالى مع كل ذلك أن الخلق لن ينجحوا في أن يأتوا بمثله وإن حاولوا؟ ولماذا أكد ذلك ومكنه؟ **والجواب**: أن الله تعالى أكد على ذلك ودعاهم إلى المحاولة، وأخبرهم مسبقًا بفشلهم، لكنه دعاهم للمحاولة؛ حتى لا يقول أحد من الخلق عبر العصور: أنا أقدر ولكن لن أفعل، فلربما ظن الناس أنه يقدر بالفعل، فنقول له: حاول أمام البشرية كلها؛ حتى ترى ويرى الناس عيانًا أن كلام الله أقوى، وحتى تثبت التجربة أنه فعلًا تحدٍّ، وأنه فعلًا فشل في التحدي؛ فالحمد لله رب العالمين، فيحصل اليقين عند الناس أن لا سبيل إلى الإتيان بمثل القرآن، فالمحاولات الفاشلة في محاكاة القرآن أفادتنا أن العجز عند الخلق أجمعين عن المجيء بمثل القرآن أمر متحقق.

فترى بعض المسلمين يحزن، ويقول: القرآن كتابنا وقد حاولوا إهانته، فنقول: هو كتاب رب العالمين، وهو سبحانه الذي يتولى حفظه والدفاع عنه، فهات ما كتبوه، واقرأ هنا واقرأ هناك؛ فلن ترى في كلام الخلق سوى الركاكة والكآبة والاضطراب، بينما ينفتح لك كتاب الله، وكلما انفتح شيء من دلائل صدقه برزت معالم هدايته؛ حتى تعرف أن الفرق بين كلام الله وكلام البشر، كالفرق بين ذاته سبحانه وبين مخلوقاته، وهناك فارق بين المخلوق والخالق؛ والرب رب، والعبد عبد.

ثم يقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

[البقرة: ٢٥]

وهنا نمطٌ تجده دائمًا في القرآن، أنه قد قرن بين الإيمان وبين العمل الصالح، ولم يذكر الإيمان وحده؛ لأن العمل الصالح يدل على أن الإيمان صادق، وأنه مستقر، وأنه مؤثر.

أما الإيمان المدعى الذي لا يثمر عملًا؛ فإنه لا يصنع حضارة، ولا يبني شخصية المسلم التي كلفها الله تعالى بأن تحمل الهداية إلى العالمين، فلو أن شخصًا يدعي الإيمان، أو أن قومًا يزعمون -مجرد زعم- أنهم على الإيمان؛ فقد استوجبوا العتاب من الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١)، ولو صدق إيمانهم؛ لكانوا أحسنوا العمل، فلما لم يحسنوا العمل؛ دل ذلك على أن شيئًا ما في القلب غير سليم.

وضربوا لذلك مثلًا بالساعة، التي هي آلة لضبط الوقت، فإذا وَجَدْت الساعة تقدم و تؤخر؛ فاعلم أن في قلبها شيئًا، وإذا وجدتها منضبطة وتعمل بانتظام؛

(١) سورة الحجرات، آية [١٤].

علمت أن قلبها سليم، وإذا وجدتها توقفت تمامًا؛ علمت أن قلبها معطل، فنحن نستدل بالظاهر على الباطن.

وأنا لا أراك من الداخل، لكن أعمالك تشهد على ما وقر في قلبك، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[1]، وقال ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسَاجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالإِيمَانِ**»[2].

لكن ألا يمكن أن يكون منافقًا؟! نعم، يمكن ذلك، لكن الحرص على الصلاة، والمحافظة عليها، والاستمرار في ذلك طوال حياته- يجعل معنى النفاق بعيدًا جدًّا؛ لأن هذه التكاليف لا يحرص عليها بهذه الصورة إلا من فعلها عن عقيدة ومحبة، أما من فعلها نفاقًا؛ فإنه يمل في فترة معينة، ولا يستطيع المداومة، وترى في أئمة الأمة من لم تفته الصلاة في جماعة أربعين سنة[3]؛ فهل يكون مثل هذا منافقًا؟ هذا بعيد جدًّا، نعم هو مجرد احتمال عقلي، لكن الاستدلال بالعمل الصالح المستمر الدائم يجعله بعيدًا، فهل استمراره على العمل بهذه الصورة مبشر بشيء ما؟ نعم، هذه بشرى، أن وفقه الله تعالى لهذا العمل، ولولا أن الله تعالى يحبه لحَرَمَه الطاعة، ولكن الله تعالى أذن أن يستمر هذا الإنسان على هذه العادة الكريمة، من ملازمة الجماعة، والمواظبة على الطاعة، وهو بهذه الملازمة داخل في دائرة الإيمان الظاهر.

---

(١) سورة التوبة، آية [١٨].

(٢) رواه ابن ماجه في «سننه»: (١/ ٢٦٣)، والدارمي في «سننه»: (١/ ٣٠٢)، وأحمد في «المسند»: (٣/ ٧٦)، وعبد بن حميد في «مسنده»: (ص٢٨٩)، وأبو نعيم في «الحلية»: (٨/ ٣٢٧)، وابن عدي في «الكامل»: (٣/ ١٥٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد»: (٥/ ٤٥٩)، عن أبي سعيد ﭬ.

(٣) فمن هؤلاء المذكورين: الإمام الجليل سعيد بن المُسَيَّب، فقد روى ابن سعد في «الطبقات الكبرى»: (٥/ ١٣١)، وأبو نعيم في «الحلية»: (٢/ ١٦٢)، عن سَعِيد بن المُسَيَّب أنه ما فاتته صلاة الجماعة منذ أربعين سنة، ولا نظر في أقفائهم، وروى عنه أبو نعيم في «الحلية» أيضًا أنه قال: «مَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً إِلَّا وَأَنَا فِي الْمَسْجِدِ».

وقد ورد أن «**قَوْمًا قَدْ غَرَّهُم بِالله الْغَرُور، يقولون: نحن نحسن الظن بالله، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل**»(١) والغَرور (بفتح الغين): هو الشيطان، والغُرور (بضمها): هو عملية التكبر والاغترار بالنفس، فهؤلاء أقوام قد غرهم بالله الغرور، فزلوا؛ لأن هناك ارتباطًا بين الإيمان وبين العمل.

ثم قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فهنا بشرى للمؤمنين، وهي في مقابل التحذير لغير المؤمنين، الذي ورد في الآية التي قبلها: ﴿فَاتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾(٢) وهذا هو منهج الترغيب والترهيب، الترغيب في العمل الصالح، وجزاؤه الجنة، والترهيب في العمل الطالح، وجزاؤه النار.

فقد أمرنا سبحانه أن نتقي النار، وأمرنا أن نعد العدة للجنة، وهذا يؤثر في سلوك المؤمن، فمن لم يؤمن بيوم القيامة، ولا بجنة ولا بنار، ولا بتكليف فما الذي يمنعه أن يفسد في الأرض؟ لا شيء.

ما الذي يجعل هذا القويَّ لا يتسلط على الضعيف؟ لا شيء، ما الذي يجعل أُمَّةً لا تستعمر أمة أخرى، كما استُعمرنا في بلادنا، وأخذوا خيراتنا فبنوا بها مدنهم؟ لا شيء، ما الذي يجعل أحدهم يتمتع بالحاضر دون النظر إلى المستقبل، فيفسد ما حولنا من بيئة دون نظر لمن بعدنا؟ ما الذي يجعل أحدهم يفرط في مكسب يكسبه من أجل الآخرين؟ ما الذي يجعله يفعل هذا؟ قد يقال: المجد، ومن الذي أدراه أن هناك مجدًا سوف يناله؟ لا شيء في الحقيقة.

ولذلك نرى أن الإلحاد الأسود مرفوض من أغلب البشر، لكن أصحاب

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في جزء: «الوجل، والتوثق بالعمل»: (ص٢٨)، وأسنده ابن الجوزي في كتاب: «كشف المشكل»: (٣/ ٣٢٣) عن الحسن البصري، من كلامه ومواعظه، رحمه الله.

(٢) سورة البقرة، الآيتان [٢٤، ٢٥].

الإلحاد الأسود الذين ينكرون الإله، وينكرون الوحي، وينكرون الجنة والنار، أصحاب هذا الإلحاد لا يزالون يسعون في الأرض فسادًا، ويأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، وكل ذهنهم قائم بالعاجلة والمصلحة فقط لا غير.

فهذا هو الفارق بين المؤمن وبين غير المؤمن، المؤمن يرجو الله تعالى ويخافه، ويتلقى عنه علومه ومعارفه، ويحتكم إلى منهجه، ويطمع في وجهه الكريم، وغير المؤمن لا يرجو ولا يخاف أحدًا، وكل ما استطاع أن يعمله عمله.

فكأن الدين مهم جدًّا، حتى إن واحدًا من الملاحدة الكبار اسمه: (هكسلي) تنبه قبل وفاته لهذه الحقيقة، وكان يفكر في أن الدين هو الذي يحول حياة الإنسان إلى أمر غائي، له منهج وغاية، حتى كأن الدنيا لا تنضبط من الفوضوية إلا بالدين، قال هذا وهو ملحد أصلًا، وعبر عن ذلك بقوله: (الله ضرورة اجتماعية)، فهذا الملحد غير مؤمن بالله، لكنه يقول: لا بد من أن نقول للناس: إن الله موجود؛ حتى ينضبط المجتمع؛ فكان مشايخنا يقولون عن هذه العبارة (الله ضرورة اجتماعية): إن الملحد ما دام لا يؤمن بوجود الله؛ فما الداعي الذي يضطره إلى ادعاء الوجود؟ كانوا يقولون: هذا من قهر الله له، وكأنه لم يستطع أن يخرج من جو العبودية، الذي غلب عليه وقهره.

وقد كان عندنا واحد من عامة الناس يفطر في شهر رمضان، رغم أنه مسلم، وكان الناس طوال النهار يرونه وهو يدخن السجائر، وعبرت عليه مرة فوجدته قد بسط أواني الطعام وجلس مع أسرته ينتظرون مدفع الإفطار، وأولاده حوله، فمدت البنت الصغيرة يدها إلى شيء من الطعام وأخذته وأكلته، فنهرها وصاح فيها: المدفع لم يضرب بعد!! فسألت شيخنا عن هذا، وحكيت له الحكاية، فقال لي: لقد قَهَرَه رمضان، فهناك نقول: قهره الله، وهنا نقول: قهره رمضان؛ فكأن جو رمضان قد سيطر عليه، لدرجة أنه عرف أنه يلزم أن ينتظر المدفع، رغم أنه مفطر، ويضرب يد البنت الصغيرة، التي ليس عليها صيام، فسبحان الله!

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ بم نبشرهم يا رب؟ أن لهم جنات، ليست جنة واحدة بل جنات، وهي في الحقيقة جنة واحدة كبرى، تشتمل من داخلها على جنات كثيرة، وهذه الجنة عرضها السموات والأرض، وأقل واحد فينا يدخلها له ملك كمثل الأرض عشر مرات، هذا أقل أهل الجنة قدرًا وثوابًا، له من الملك ما يساوي الكرة الأرضية عشر مرات، وتخيل أنت الأرض كلها ملك لك؛ بل تخيل أن أرض مصر كلها ملك لك وحدك، لقد غلب على فرعون وَهْمُ القوة ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(١) لقد طغى لما شعر أنه يملك مصر وحده، مصر بكل ما فيها ومن عليها، حتى أصيب الرجل بالجنون فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(٢)؛ لأنه شعر أنه يمتلك هذه الأرض، ويمتلك هذا الزرع، ويمتلك هذا النيل، فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ونحن هنا نأخذ العبرة، ونحاول الوصول إلى ما وراء هذه العقيدة الغريبة التي ادعى فيها فرعون الربوبية، فربما قال بعضهم: إن كلام فرعون كان أمر عقيدة وأديان، ونقول له: نحن نتعدى الفلسفة، ونأخذ الموعظة من ورائها، شخص شعر بالملك، فادَّعى الألوهية، وقد قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾(٣)، فتخيل أن الأرض كلها ملك لك، ثم تخيل أن عشرة أمثالها ملك لك!! ولو أنك مشيت بحسب قدرتك لما استطعت أن تحيط بجنتك!

وقد كان في تاريخنا واحد من الرحالة الكبار، اسمه ابن بطوطة، خرج من المغرب ورحل إلى الشرق، حتى ذهب إلى الهند وإلى جزر المالديف، ثم رجع إلى المغرب، فظل في رحلته أكثر من عشرين سنة، فتخيل لو أنك طفت في الأرض كلها، كم سنة تستغرق؟ ثم تخيل عشرة أمثال ذلك.

فهي جنات، لكن كل واحد له جنة، وأقل الجنات في المساحة عشرة أضعاف

---
(١) سورة الزخرف، آية [٥١].
(٢) سورة النازعات، آية [٢٤].
(٣) سورة العلق، الآيتان [٦، ٧].

ملك الأرض، وهذه الجنات مختلفة في العلو والمنزلة، فبعضها أعلى من بعض، إلى الفردوس الأعلى، فكلمة الأعلى يعني أنها متدرجة، إلى غاية الفردوس الأعلى، والأعلى أفعل تفضيل، فهناك علو أكثر من علو، فكأن الجنات متدرجة، والفردوس الأعلى، سقفه: هو العرش.

وكان رسول الله ﷺ يسأل الله تعالى الوسيلة، وهي درجة في الجنة لا تنبغي إلا له[1]، وها نحن ندعو له ﷺ بذلك عقب كل أذان، وإن كان هو ﷺ صاحب الفردوس الأعلى بلا شك، ولكن الدعاء في ذاته عبادة، والدعاء فيه شكر لله أن جعل نبينا أفضل الأنبياء، وأعلى الأنبياء منزلة، وقد آتاه الله الفردوس الأعلى.

والجنة في اللغة: هي الحديقة الكبيرة الواسعة، ومنها سميت الجنة التي هي دار الجزاء في الآخرة؛ لأن عرضها السماوات والأرض، وملك أقل واحد في الجنة عشرة أضعاف الأرض كما ورد في الأحاديث الصحيحة[2]؛ فتخيل أن المساحة المخصصة لك في الجنة عشرة أمثال الكرة الأرضية، فلا مقارنة إذًا!! لأن أحدًا من البشر لم يمتلك الكرة الأرضية، حتى الملوك الذين سيطروا على دول وإمبراطوريات عظيمة لم يمتلكوا نفس الأراضي، ولا نفس الممتلكات، إنما امتد سلطانهم عليها فقط، ولم يمتلك أحد الأرض كلها، لكن في الجنة يخصص للواحد مثل الأرض، لا؛ بل عشرة

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه»: (١/ ٢٨٨) كتاب الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، وابن حبان في «صحيحه»: (٤/ ٥٨٨)، وابن خزيمة في «صحيحه»: (١/ ٢١٨)، وأبو داود في «سننه»: (١/ ١٤٤) كتاب الصلاة، باب: ما يقول إذا سمع المؤذن، والترمذي في «السنن»: (٥/ ٥٨٦) كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب: في فضل النبي ﷺ، وقال: حسن صحيح.

(٢) روى مسلم في «صحيحه»: (١/ ١٧٦) باب: أدنى أهل الجنة منزلًا من حديث المُغِيرَة بن شُعْبَة أن رسول الله ﷺ قَالَ: «سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ مَا أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا أُدْخِلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الجَنَّةَ. فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟ فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ. فَقَالَ فِي الخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ. فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ»، وهو عند ابن حبان في «صحيحه»: (١٤/ ٩٩)، وعند الترمذي في «سننه»: (٥/ ٣٤٧) وغيرهم كثير.

أضعاف الأرض، بل إن عشرة أضعاف الأرض هو نصيب أقل واحد في الجنة.

وهذه الجنة فيها: «**مَا لاَ عَيْنَ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنَ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[١] فتعال لنتأمل فيما خطر على قلب بشر، ونتصور لمحة عن الجنة وصفاتها من كلام ربنا سبحانه: فهي أولًا: واسعة جدًّا، وهي ثانيًا: نقية، ولا شيء فيها يفسد أو يتغيَّر، وهي ثالثًا: لا زمن فيها؛ لأننا خالدون فيها، وهي رابعًا: غير خاضعة لنظم الإضاءة المعروفة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾[٢]، ومن صفتها خامسًا، أنه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[٣] ففيها إذًا سرور، وليس فيها غل، وليس فيها إحباط، ولا يأس، ولا قتل، ولا قتال، ولا دم، بل ترابها مسك، ومعنى كونه مسكًا: أنه فواح، فهي إذًا تفوح فيها رائحة المسك، فإذا كانت أرضيتها مسكًا، فكيف يكون جوها؟! ثم إنه سبحانه وصفها فقال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[٤]، وقد ورد في السنة أن أنهارها لا حواف لها، فالنهر يجري فيها من غير حواف، ولكن ألا يسقط الماء لعدم وجود حافة ولا مجرى يتدفق فيه؟ فنفهم من هذا أنه ليس فيها جاذبية؛ لأن الماء يسقط على الأرض عندنا هنا لوجود الجاذبية، فإذا لم يكن فيها جاذبية، فما الذي يحصل؟! يحصل أنك تكون خفيفًا؛ لأن الجاذبية هي التي تجعلك راسيًا مستقرًّا على الأرض؛ فكأنه يمكنك في الجنة أن تطير، فورد أنك تطير فيها إذا شئت، ثم إنه: هل فيها أنهار من الماء فقط؟ لا، بل فيها أنهار من عسل،

---

(١) وردت هذه الكلمة الجليلة في وصف الجنة عنه ﷺ من مسانيد جماعة من الصحابة ﭫ، فرواها البخاري في «صحيحه»: (٣/ ١١٨٣) كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة، ومسلم في «صحيحه»: (٤/ ٢١٧٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها، والطبراني في «الأوسط» من حديث أبي هريرة ﮁ. ورواه ابن أبي شيبة في «مسنده»: (١/ ٨٤)، والحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٤٤٨) من حديث سهل بن سعد ﮁ. وأبو نعيم في «المستخرج على صحيح مسلم»: (١/ ٢٦١)، وأبو عوانة: (١/ ١١٨)، من حديث المغيرة بن شعبة ﮁ. والطبراني في «الأوسط» من حديث ابن عباس ﭭ.

(٢) سورة الإنسان، آية [١٣].

(٣) سورة الحجر، آية [٤٧].

(٤) سورة البقرة، آية [٢٥].

وأنهار من لبن، وكل هذه الأنهار يدخل بعضها في بعض، ويخرج بعضها من بعض من غير امتزاج، فالجنة إذًا لها طبيعة أخرى مغايرة للطبيعة الأرضية، وهذا الذي ذُكر، فما بالك بما لم يُذكر؟!

وكلما أردت أن تستزيد مما فيها من المأكولات والمشروبات استزدت، ولا يؤدي هذا إلى سمنة، ولا إلى حموضة، ولا إلى مرض، وليس فيها مرض أصلًا؛ لأن الميكروب غير موجود، ولا الفيروس، ولا الخلل العضوي، ولا الحوادث.

وأنهار الخمر الموجودة في الجنة لا مشابهة بينها وبين خمر الدنيا، فقد وصف الله تعالى خمر الآخرة بأنها: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾(١) وسمي غولًا؛ لأنه يغتال الذهن، ولأنه يغتال العقل، فليس في خمر الآخرة سكر ولا هذيان، وكلمة «غول» هذه جعلوها: «كول» ثم صارت: «كحول»، الكحول يعني غول، فرائحة الخمر في الجنة ليست رائحة متعفنة مثل الخمر النجسة الموجودة في الدنيا؛ لأن الخمر هنا نجسة، ومن أخذ من الخمر رشفة واحدة فقد تنجس فمه، فمن شربها في الدنيا ولم يتب حُرِم منها في الآخرة، وكأنه استسلم لنفسه، وشربها في الدنيا؛ لأنه يرى أمر الآخرة بعيدًا، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾(٢)، ويقول: هل سأنتظر مائة سنة؟! وهذا خطأ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾(٣) وسوف يقول لك يوم القيامة: كم لبثتم ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾(٤) أبدًا لا يوم ولا بعض يوم، إنما مكثتم في الأرض دقائق معدودة، فمن عاش مائة سنة بعد سن التكليف فقد عاش ثلاث دقائق! كيف هذا؟ لأن اليوم بخمسين ألف سنة، فالساعة بألفين، فالدقيقة بثلاث وثلاثين سنة!! فمن عاش مائة سنة فقد لبث في الدنيا ثلاث دقائق، فكأنك لم تصبر على الدقائق الثلاث، وأضعت منك كل هذا.

(١) سورة الصافات، آية [٤٧].
(٢) سورة المعارج، الآيتان [٦، ٧].
(٣) سورة المعارج، الآيتان [٤، ٥].
(٤) سورة المؤمنون، آية [١١٣].

ثم قال سبحانه: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾ أي أنهم أتوا بكل ما ذكر سابقًا من الأنهار والثمار متشابهًا في الشكل، إلا أن الطعم مختلف، والجنة فيها «**مَا لاَ عَيْنَ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنَ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(١).

﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ﴾ وكأن هذا النعيم في مقابل الصيام؛ لأن الصوم امتناع عن شهوتي البطن والفرج، وهنا في هذه الآية الكريمة جاء بنعيم في الشهوتين، وكأن الحق سبحانه حفظ لك أنه إن امتنعت عن شهوة البطن والفرج إجلالًا له؛ عوضك عن هذا، وقوله سبحانه: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: ليس فيها ما تقتضيه مباشرة الرجل والمرأة في الدنيا؛ لأن معاشرة الرجل والمرأة في الدنيا لها آثار تترتب عليها عند المرأة، من الحمل، والوضع، ومن خصائص المرأة: الحيض، وقد أمرنا أن نمتنع عن المرأة فيه، وأن تمتنع المرأة عن الرجل فيه، وفي الدنيا النفاس، وغير ذلك من أحوال الإنسان، وكل ذلك لا وجود له في الآخرة.

والمرأة أيضًا قبل الزواج بكر، وبعد الزواج ثيب، فقال سبحانه عن شأنهن في الآخرة: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝ عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾(٢)؛ أي أن المرأة بعد المعاشرة تصير بكرًا مرة ثانية، وأمر المعاشرة في الدنيا فيها ألم، وفي الآخرة فيها لذة؛ فتأمل كيف أن الصيام تجازى عليه هنا من غير أن تشعر.

ثم قال سبحانه: ﴿وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي أن الزمن سينتهي؛ لأن للخلود حقيقة، فما حقيقة الخلود؟ الحقيقة: أن فَهْم معنى الخلود متوقف على فهم معنى الزمن؟ والزمن هو مقارنة متجددٍ موهوم لمتجدد معلوم، هكذا يعرفه العلماء عندنا، وينبني على هذا المعنى آثار نلحظها ونشاهدها، ونرى فيها التغير والاتجاه نحو الفناء، وقد تكلم علماء الإسلام عن الزمن وطبيعته وآثاره في علم دقيق جدًّا من علوم الإسلام يسمى بـ(علم المقولات العشر)، وتكلم عنه أينشتاين، وجعل الزمن

(١) سبق تخريجه في (ص٣٩٩).

(٢) سورة الواقعة، آية [٣٥-٣٧].

هو البعد الرابع للمادة، المهم أنه -بعيدًا عن مناقشة التصور الفلسفي للزمن- يهمنا هنا أن الإنسان يدرك من الزمن آثاره.

الأرض مثلًا تغير موضعها بالنسبة إلى الشمس؛ فتتغير شعور الإنسان بالموجودات من حوله، فكان اليوم السبت، وجاء بعده الأحد، وبعده الاثنين، وهكذا.

وكلما دارت الأرض واختلف موضعها، تجدد الليل والنهار، فيتغير تبعًا لذلك شعور الإنسان بما حوله، ولو أن الأرض ثبتت؛ لوجدت الشمس قد ثبتت في مكان معين في السماء، ولا تتحرك، ولا يوجد ليل ولا نهار، فلو أن هذا المتغير قد زال؛ لوجد الناس عشرات المتغيرات، اللحية مثلًا، يحلقها الإنسان صباحًا، فتنبت في اليوم التالي، فماذا لو أنني لم أحلق لحيتي؟! سألحظ التغير في أنها كانت سوداء ثم صارت بيضاء، أو أن وجهي كان منسحبًا ومشدودًا في سن الشباب، ثم صار مجعدًا، وكلما كبرت في السن زادت التجاعيد، أو أنني كنت قائمًا منصوب القامة، وبعدها انحنى ظهري، وكنت وكنت وكنت، فلو أن إنسانًا حاول أن يحتفظ بالثبات دون أدنى تغير؛ لما استطاع، إذا ما تصورت ذلك فقد بدأت تتصور معنى الخلود، والخلود مبني على عدم التغير الذي لا يترتب عليه تأثر ولا فناء، وهذا حقيقة الخلود في الجنة، قال تعالى: ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾[1] فليس فيها أفلاك تدور، ولا مرور زمن، ليس فيها إلا الخلود، ويؤتى بالموت كالكبش الأقرن، فيوضع بين الجنة والنار ويذبح، فليس فيها موت، ولا ولادة، ولا هرم ولا أمراض!! فالخلود حقيقته: عدم استرسال الزمن على هذه المتع كلها.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم، وأجل وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) سورة الإنسان، آية [١٣].

تمَّ بحمدِ الله تعالى الجزءُ الأولُ من هذا التفسير، المسمى: «**النبراس، في تفسير القرآن الكريم**»، ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الثاني، وأوله تفسيرُ قولِ الله جلَّ شأْنُهُ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

[البقرة: ٢٦]

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
* مقدمة	٧
* كتاب: «المدخل إلى أصول التفسير» تأليف الشيخ/ أسامة الأزهري	١٧
* فهرس كتاب: «المدخل إلى أصول التفسير»	٨٥
* النبراس في تفسير القرآن الكريم	٨٧
* مقدمة النبراس	٨٩
* المقدمة الأولى: مداخل مهمة، قبل الشروع في التفسير	٩٧
* علوم القرآن نَسَقٌ مفتوح	١٠٥
* القرآن ومنهجيّة الفهم	١٠٩
* المفاهيم القرآنية	١١٣
* توليد العلوم من القرآن الكريم (السنن الإلهية نموذجًا)	١٢٣
* حفريات القرآن	١٣٥
* المبادئ العامة: مدخل آخر لفهم القرآن	١٣٩
* أسماء الله تعالى في القرآن ومنظومة القيم	١٤٩
* المقاصد الشرعية وأثرها في فهم النص القرآني	١٥٣
* القواعد الفقهيّة وأثرها في فهم النص القرآني	١٦١
* تداعي المعاني، وأثرها في فهم النص القرآني	١٦٥
* المقدمة الثانية: مداخل أخرى، قبل الشروع في التفسير	١٦٧
* المصحف الشريف وكيفية وصوله إلينا	١٧٣
* مراحل أخرى من خدمة المصحف الشريف	١٩٧
* تفسير سورة الفاتحة	٢٠٥
* تفسير آية رقم (١)	٢١٣
* تفسير آية رقم (٢)	٢٢٣
* تفسير آية رقم (٣)	٢٣١
* تفسير آية رقم (٤)	٢٣٩
* تفسير آية رقم (٥)	٢٤١
* تفسير آية رقم (٦)	٢٤٩
* تفسير آية رقم (٧)	٢٥٩

رقم الصفحة	الموضوع

* تفسير سورة البقرة ٢٦٧
* تفسير آية رقم (١) ٢٧٣
* تفسير آية رقم (٢) ٢٧٩
* تفسير آية رقم (٣) ٢٨٥
* تفسير آية رقم (٤) ٣٠١
* تفسير آية رقم (٥) ٣٠٥
* تفسير الآيتان رقم (٦، ٧) ٣٠٩
* تفسير الآيتان رقم (٨، ٩) ٣١٧
* تفسير آية رقم (١٠) ٣٢١
* تفسير الآيتان رقم (١١، ١٢) ٣٢٥
* تفسير الآيات رقم (١٣-١٦) ٣٣٣
* تفسير الآيات رقم (١٧-١٩) ٣٤١
* تفسير آية رقم (٢٠) ٣٥٣
* تفسير آية رقم (٢١) ٣٥٥
* تفسير آية رقم (٢٢) ٣٦٩
* تفسير آية رقم (٢٣) ٣٧٥
* تفسير آية رقم (٢٤) ٣٨٩
* تفسير آية رقم (٢٥) ٣٩٣
* فهرس المحتويات ٤٠٥

قريبًا

بمشيئة الله

المنح الإلهية في شرح الحكم العطائية

في جزئين

لفضيلة الإمام العلامة

نور الدين علي جمعة

مفتي الديار المصرية

قريبًا بمشيئة الله

فتاوى القرن الجديد

لفضيلة الإمام العلامة

نور الدين علي جمعة

مفتي الديار المصرية

هذا الكتاب

منظومة جهد أذن الله لها بالظهور بعد وقت وجهد عنيف؛ ليبين من خلالها خلاصة تجربة عالم رباني ذي قدر منيف، أفنى عمره لخدمة دين الله الحنيف، وطاف العالم كله ليجمع شتات شمل أمة رسولنا الشريف، فبلغ من خلال ذلك كله كلمة رب العالمين، وصحح مفاهيم كثيرة أفسدها المغرضون؛ حتى تعود الغلبة والقوة لدين الإسلام، بعد أن حاول تشويهه هؤلاء اللئام.

فها هو الجزء الأول من النبراس؛ جاء ليكون هو النواة والأساس، لعمل جليل مكين، شرع فيه فضيلة الإمام العلامة نور الدين، في شرح كتاب الله المتين، شرحًا مزجه بما حباه الله به من تجارب كثيرة، وسعة اطلاع وثقافة مديدة؛ فقدم لنا تفسيرًا جامعًا نافعًا للمسلمين، يبرهن من خلاله للعالمين، على إعجاز كتاب رب الأولين والآخرين.

الناشر

الوابل الصيب

الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر

تراثنا ... أمانة في أعناقنا

شارع ١٧ - المقطم - القاهرة - مصر